الفكر الإسلامي المعاصر

في العقيدة والشريعة والسلوك

الجزء الثالث

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الزحيلي

أستاذ الفقه الإسلامي والدراسات العليا

عميد كلية الشريعة- جامعة الشارقة (سابقاً)

عضو وخبير في المجامع الفقهية



رابعاً: أوس بن قيظي الحارثي[1]

يندر أن يشهد التاريخ أن رجلاً وأولاده يدخلون المعركة معاً، إلا إذا كان هناك إيمان قوي، وعقيدة راسخة، ومحبة عارمة، وحماسة شديدة، وهذا ما رأينا له عدة أمثلة في صحابة رسول الله ﷺ، ومنهم الصحابي أوس بن قيظي الحارثي الأوسي.

◈ اسمه ونسبه:

هو أوس بن قيظي بن عمرو بن زيد بن الحارث الأنصاري، الحارثي الأوسي، من أنصار رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

وزوجته: بثينة بنت الربيع بن عمرو بن عدي بن زيد بن جشم بن حارثة.

وأمها سهلة بنت امرئ القيس بن عامر بن عدي بن مجدعة بن حارثة.

تزوجها أوس بن قيظي فولدت له عبد الله، وكباثة، وعرابة، وأسلمت بثينة بنت الربيع، وبايعت رسول الله ﷺ.

أخوه: ولأوس أخ ذكره ابن هشام من منافقي الأنصار الذين اجتمعوا إلى يهود، واسمه مريد بن قيظي، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه (مرَّ في بستانه)، ورسول الله ﷺ عامد إلى غزوة أحد، قال لا أحلّ لك يا محمد، إن كنت نبياً، أن تمرَّ في حائطي، وأخذ بيده حفنة من تراب، وقال: والله، لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: دعوه، فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة، فضربه سعد بن زيد، أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجه.

---

(١) النور العدد (١٩٥)- جمادى الأولى ١٤٢٢- تموز (يوليو) ٢٠٠١م.

وهذه القصة تدل على كفره وعدم إيمانه بالرسول ﷺ أكثر من نفاقه، إلا إذا كان يتظاهر بالإسلام، وينطق بمجرد لسانه بالشهادتين، ويتفوه بمثل هذا الكلام الخطير، فهو منافق حقاً، ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذا مثال في الحياة لصحابي صادق الإيمان، وشقيق له منافق، وكل يعمل على شاكلته، وكل يلقى مصيره، وكل نفس بما كسبت رهينة، ولا تزرُ وازرة وزر أخرى، وكل فرد يحاسب على عمله، وهذا مثال لما نراه في الحياة اليوم في أسرة واحدة، وإخوة معاً، أحدهم تقي ورع عابد، ملتزم بالشرع والإسلام، وآخر شرير فاجر، منحرف، بعيد عن القيم والالتزام بالأحكام، ولا يؤخذ إنسان بجريرة غيره، وكل واحد مسؤول عن نفسه.

◈ مشاهد أوس:

شهد أوس غزوة أحد هو وابناه كباثة وعبد الله، ولم يحضر ابنه عرابة ابن أوس أحداً مع أبيه، ولا مع أخويه، لأنه استصغره رسول الله، فردَّه يومئذ.

روى عروة بن الزبير قال: «ردَّ رسول الله ﷺ يوم بدر نفراً من أصحابه استصغرهم، منهم عبد الله بن عمر، وهو يومئذ ابن أربع عشرة سنة، وأسامة ابن زيد، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، ورجل من بني حارثة، فجعلهم حراساً للذراري والنساء».

ولم يشهد أوس غزوة الخندق، وقال لرسول الله ﷺ يوم الخندق: إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا، فلنرجع إليها، فإنها خارج المدينة، وذلك على ملأ من رجال قومه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣] قال ابن هشام: «عورة أي مِعورة

للعدو، وضائعة، والعورة: عورة الرجل، وهي حرمته، والعورة: السوءة».

وهذا موقف ضعف من أوس، لذلك كان موضع الاتهام، ونقل ابن حجر اتهامه بالنفاق في قول ضعيف، كما اتهمه ابن عبد البر عند ترجمة ابنه عرابة، بينما لم يذكر شيئاً من ذلك عند ترجمته، وإن ثبت عليه النفاق فلعله تنطبق عليه الآية الواردة بعد آية المنافقين، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، وفي ذلك مثال لمن تغلب عليه النزعة إلى السلامة، والخوف من الموت، والهرب من القتال، وتفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، والحرص على المال والثروة والملك، والسعي للحفاظ عليه، وهذا جزء من طبيعة البشر، ويوجد في كل عصر وزمان، كما يوجد في بعض الصحابة أنفسهم، ولذلك تفاضل الصحابة، فكان بعضهم أفضل من بعض، وأعلى درجة، وأسمى منزلة، وهذا شأن الناس في كل زمان ومكان، ولذلك تأتي التربية القويمة، والتوجيه السديد، لرفع المعنويات، والتضحية بالرغبات والشهوات والأمور الفانية للتسامي إلى معالي الأمور، والترفع عن الدنايا، والتضحية في سبيل الله تعالى، والأمة، والمجتمع، والآخرين ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

◈ مواقف أوس:

إن الإنسان ضعيف، وقد تتنازعه العواطف، وتحركه العصبية، وتثور في عروقه دماء الثأر أحياناً، وخاصة إذا حرَّكه الأعداء، وأثاره دعاة الفتنة

والفساد، بقصد تمزيق شمل المسلمين، حسداً من عند أنفسهم، ولكن المؤمن من يصحو إذا ذكر، ويعود إلى رشده إذا تبين له الحق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ولذلك أمر الله تعالى بالتذكير للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وهذا ما صدر من أوس ﵁ في موقف الفتوة والعصبية، ثم التذكر والصفح، والاستقامة، إنه موقف الخطأ يتلوه الصواب، وموقف الذنب تعقبه التوبة، وموقف التهور تلحقه الصحوة، وموقف التسرع والاستجابة لداعي الشر، ثم التعقل والاستجابة لداعي إيمان، وفي ذلك قصة طريفة نذكرها للعبرة والعظة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، وكان أحد أطرافها أوس بن قيظي.

قال ابن إسحاق: «ومرَّ شأس بن قيس، وكان شيخاً قد عَسَا (أسن وولى)، عظيم الكفر (من اليهود) شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من إلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث (وهو يوم الحرب والاقتتال بين الأوس والخزرج في الجاهلية وانتصر فيه الأوس، وقُتل زعماءُ القبيلتين، وذلك قبل الهجرة بست سنوات)، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاتلوا فيه من الأشعار.. ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الركب،

أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبّار بن صخر، أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاتلا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئت رددناها الآن جَذْعة (أي رددنا الآخر إلى أوله)، السلاح السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معاشر المسلمين، الله، الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به قلوبكم؟! فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم، وعدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأن شأس ابن قيس، وما صنع: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

وأنزل الله تعالى في شأن أوس بن قيظي وجبّار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا، عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

◈ العبر والعظات:

هذه القصة ترشدنا إلى معان جسيمة، وتكشف لنا حقيقة الصراع بين الخير وأهله، والشر وأعوانه، وأنها معركة دائمة خالدة، وأن أعوان الشيطان ورفاق الشر، في كل عصر وزمان، من اليهود وغيرهم، يسعون إلى إثارة الفتنة بين المسلمين لتمزيق شملهم، والإيقاع بهم، وضرب وحدتهم، والتأثير على عقيدتهم، والتشكيك في إيمانهم، وتشتيت قوتهم، وإفساد العلاقة بينهم، وذلك بوسائل متعددة، وقد تنطلي على كثير من المؤمنين والمسلمين، وتستغل جوانب الضعف في الإنسان وميوله، وشهواته، وعواطفه، وكثيراً ما تتستر وراء دعايات برّاقة، وشعارات خادعة، وتتلبس بلبوس المحبة والمصلحة، والنصح الكاذب الخادع.

وهذا يوجب على المسلم أن يكون دائماً حذراً من وساوس الشيطان، ومتيقظاً من رفاق السوء، وأعوان الشر والفساد، وأن يكون كيِّساً فطناً في الأمور، ويتجنب الغفلة، ويتمعن في القضايا، ويعرف ما وراء السطور، وما تخفي الكلمات، وما تضمر النفوس الماكرة من نوايا خبيثة، ومؤامرات دفينة ومدبّرة.

كما يجب على المسلم أن يحتكم في جميع تصرفاته إلى كتاب الله تعالى وسننه ويحرص على مرضاة الله تعالى، وأن يبقى دائماً مع صف المؤمنين، ويصر على ملازمتهم ومشاورتهم، ليبقى باستمرار في كنف الإيمان وأهله، ويكون أقرب إلى الحق والصواب، والرشد والفلاح، ويتجنب الوقوع في شراك الأعداء، والسقوط في مصائد الشيطان وأعوانه. كما يجب على المسلم أن يستعين بالله في كل شؤونه، ليبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، ويستمد منه العون والرشاد، ويناجيه ويناديه لطلب التوفيق فيما يحبه ويرضاه.

وبعد:

ولعل اعتذار أوس بن قيظي عن غزوة الخندق، ونزول الآيات في حقه، يجعله مغموراً، وبقي في الظل بين الصحابة، ولم تذكر لنا كتب السيرة والتراجم والتاريخ التي اطلعت عليها بقية سيرته، وكيف قضى سيرته، وكيف قضى آخر حياته، ولم تذكر لنا حتى تاريخ وفاته، بينما عرضت لنا سيرة أولاده وترجمتهم.

وهذا يؤكد أن الصحابة على طبقات ودرجات، و أن جيل الصحابة يمثل كل جيل، فيه المشهور والمغمور، والبارز والعادي، كما هي سنة الحياة في شرائح المجتمع في كل عصر وزمان، وفي كل بلد وقطر، والحمد لله رب العالمين.

خامساً: بُديَل بن ورقاء الخزاعي[1]

سُئل رسول الله ﷺ، أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله» رواه الإمام أحمد والترمذي والدارمي، وإن أجمل ما في العمر حُسْن الخاتمة، فهنيئاً لمن يختم له بحسن الخاتمة، لأن الإنسان يتقلب في الحياة، ويتغير إيمانه، وقد يعمل عملاً صالحاً ثم يُختم له بسوء العاقبة والعمل الفاسد، وقد يعمل عشرات السنوات بالشر، ثم يحسن عمله، ويختم له بحسن الخاتمة في الإيمان والعمل الصالح.

وهذا ما حصل مع مئات الصحابة الذين مارسوا في الجاهلية صنوف الشر والشرك، والبعد عن الله، بل حتى العداء والخصومة والإيذاء لرسول الله ﷺ وللإسلام، ولما منَّ الله عليهم برسول الله ﷺ، وشعَّ النور في قلوبهم، وتحققت لهم الهداية، دخلوا الإسلام الذي يجبُّ ويهدم ما قبله، ويطهر صاحبه، وتتحول حياتهم للخير والصلاح، والدعوة والجهاد في سبيل الله، ويكتب لهم حسن العاقبة والخاتمة. ومن هؤلاء: الصحابي بُديل بن ورقاء الذي عاصر الجاهلية أمداً طويًلاً وعاش فيها حوالي سبعٍ وتسعين سنة، ثم أسلم وحَسُن إسلامه، ودعا له النبي ﷺ وحسنت خاتمته، فكان -إن شاء الله تعالى- من الصالحين الفائزين الناجين.

◈ اسمه ونسبه:

هو بُديل بن ورقاء ابن ربيعة بن عبد العزى بن ربيعة الخُزاعي، وابنه نافع بن بُديل كان أقدم إسلاماً من أبيه، وشهد نافع بئر معونة مع المسلمين، وقُتل يومئذ شهيداً. وابنه الثاني عبد الله بن بُديل أسلم مع أبيه، وقُتل يوم

---

(١) النور العدد (١٩٤)- الربيعان الأول والثاني ١٤٢٢- حزيران (يونيو) ٢٠٠١م.

صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان بُديل مقيماً في مكة طوال حياته، ومن أولاده أيضاً: سلمة وله صحبة، وروى عن والده، وعثمان وعبد الرحمن.

◈ إسلام بُديل:

اختلفت الروايات في وقت إسلامه، فذكر كثيرون أنه أسلم قبل فتح مكة، وأن النبي ﷺ كتب إليه وإلى بشر بن سفيان يدعوهما إلى الإسلام وقال آخرون: إنه أسلم هو ابنه عبد الله، وحكيم بن حزام يوم فتح مكة بمرّ الظهران، وصرحوا بأنه من كبار مُسْلِمة الفتح، وذكر الواقدي وابن القيم وغيرهما تفاصيل دخوله في الإسلام، وذلك أن العباس رضي الله عنه عرض الإسلام على أبي سفيان، ثم على حكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء، وقال له: أسلموا، فإني لكم جار حتى تنتهوا إلى رسول الله ﷺ، فإني أخشى أن تُقتطعوا دون النبي ﷺ، قالوا: فنحن معك، فخرج بهم العباس حتى أتوا رسول الله ﷺ، فدخل عليه فقال: يا رسول الله، أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء، قد أجرتهم، وهم يدخلون عليك، قال رسول الله ﷺ: أدخلهم، فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وقال: تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فأما حكيم وبُديل فشهدا وأما أبو سفيان فشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال للعباس: قد أجرناهم، أذهب بهم إلى مترلك.

◈ مكانة بُديل:

قال ابن حبان البستي عنه: «كان سيد قومه» وذكر ابن إسحاق أن قريشاً لجؤوا يوم فتح مكة إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي، ودار مولاه رافع.

وكان بُديل زعيم قومه في الجاهلية والإسلام، وهو بنو كعب الخزاعية، وكان بُديل وبشر بن سفيان الوجيهين المقدمين في بني كعب، وأرسلهما رسول الله ﷺ إلى بني كعب قبل فتح مكة، كما أرسلهما لحمل الناس على الجهاد قبل غزوة تبوك.

◈ مشاهد بُديل:

قال ابن سعد: «وشهد بُديل بن ورقاء فتح مكة» كما شهد بُديل وابنه عبد الله غزوة حنين، والطائف، وتبوك، وبعثه رسول الله ﷺ مع عمرو بن سالم، وبشر بن سفيان رضي الله عنهم إلى بني كعب بن عمرو لاستنفارهم في سبيل الله في غزوة تبوك، وشهدوا جميعاً مع رسول الله ﷺ تبوك، وصرح ابن سعد أن بُديل بن ورقاء شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، وذلك في السنة العاشرة للهجرة.

◈ مناقب بُديل:

قال بُديل بن ورقاء: «لما كان يوم الفتح، قال لي رسول الله ﷺ، ورأى بعارضي سواداً: كم سِنوك؟ قلت: سبع وتسعون، فقال: زادك الله جمالاً وسواداً».

وفي رواية قال بديل بن ورقاء: إن العباس أقامه بين يدي النبي ﷺ، وقال: هذا بُديل بن ورقاء، فقال: كم سِنوك؟ ورأى بعارضي سواداً، فقال: سبع وتسعون، قال: زادك الله جمالاً وسواداً.

وذكر ابن إسحاق أن قريشاً لجؤوا يوم فتح مكة إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي للحماية والجوار.

وذكر البخاري في «تاريخه» عن بُديل أن رسول الله ﷺ أمر بُديلاً أن

يحبس السبايا والأموال بالجعرانة، وهي التي غنمها رسول الله ﷺ من حنين، حتى يقدم عليه من مكة، ففعل.

وذكر كُتَّاب السيرة عن سلمة بن بُديل أن أباه قال: يا بني، هذا كتاب رسول الله ﷺ، فاستوصوا به، فلن تزالوا بخير ما دام فيكم، وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى بُديل بن ورقاء، وسَرَوات بني عمرو، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فإني لم آثم بإِلكم (عهدكم)، ولم أَضَعَ في جنبكم، وإن أكرم أهل تهامة عليَّ أنتم، وأقربكم لي رحماً، ومن معكم من المُطَيَّبين، وإني قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي، ولو هاجر بأرضه، غير ساكن مكة، إلا معتمراً أو حاجاً، ولم أضع فيكم إن سالمت، وإنكم غير خائفين من قبلي، ولا محصورين»، وكان الكتاب بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

◈ مواقف بديل:

عاش بُديل في الجاهلية سبعاً وتسعين سنة، وكانت له مواقف عدة تدل على الرجولة والحكمة، والنصح، والبطولة، والشهامة، مع العداوة أحياناً للإسلام والمسلمين، ولما أسلم حَسُن إسلامه، وتعدلت مواقفه لصالح الدين والإسلام، ولذلك يصدق فيه قول رسول الله ﷺ «خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا» أخرجه البخاري ومسلم والدارمي وأحمد.

فمن ذلك موقفه يوم الحديبية، فكان يقدم النصح، وهو على كفره، لرسول الله ﷺ بعدم إعلان الحرب على قريش وأهل مكة. أخرج البخاري في «تاريخه» عن خروج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، وفيه «فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيبة

نصح رسول الله ﷺ من أهل تِهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر ابن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية (وهو ماء لا ينقطع) ومعهم العُوذ المطافيل (أي جاؤوا بأجمعهم رجالهم ونسائهم وكبارهم وصغارهم)، وهم مقاتلوك، وصادّوك عن البيت، ويقسمون بالله، لا يخلون بينكم وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره».

قال بُديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وقد سمعته يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقال عروة الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آتيه.. وذهب عروة إلى رسول الله ﷺ يفاوضه.

وزاد الواقدي عن بديل قوله: «فوالله لا أُتهم أنا ولا قومي إلا ألحدن أُحُّب أن يظهر محمد، إنني رأيت قريشاً مقاتلتك عن ذراريها وأموالها، وقد خرجوا إلى بلدح، فضربوا الأبنية، معهم العوذ المطافيل، ورادفوا على الطعام، يطعمون الجزر من جاءهم، يتعدُّون بهم على حربك، فَرَ رأيك».

ومن مواقف بُديل وخزاعة عامة ما رواه الواقدي: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم، فصدَّق بمحمد وقد أتوا

بالإسلام، وهو فيمن حوله قليل، حتى قدم علقمة بن علاثة، وابنا هوذة، وأجروا، فذلك حيث كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة، وذكر الكتاب السابق.

وهذا الكتاب هو الحلف والعهد والميثاق بين المسلمين وخزاعة بعد الحديبية، وقد عقد أهل مكة حلفاً مع بني بكر، فنقض بنو بكر الحلف، وقتلوا من خزاعة الكثير حتى في الحرم، وأمام دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، ودار مولاه نافع، واحتمى الناس عندهما، فاشتكت خزاعة ذلك إلى رسول الله ﷺ، وسألوه الوفاء بالعهد والحلف، واستنفروا رسول الله ﷺ، وخرج بُديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ، وأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش لبني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة، وأخفى بُديل ذلك عن أبي سفيان الذي خرج ليموِّه في القضية، ويتلافى الخطر ونقض العهد، وهنا خطط رسول الله ﷺ لتأديب قريش لنقضهم العهد، وفتح مكة، وأرسل رسول الله ﷺ الرسل إلى القبائل يواعدهم اللقاء في رمضان، وبعث إلى بني كعب بن خزاعة بشر بن سفيان وبُديل بن ورقاء، وتم فتح مكة، وانتصر الحق، وخسئ الباطل، وتحطمت الأصنام، وتطهرت الكعبة من الأوثان، وكان لبني خزاعة الأثر الأكبر في ذلك بعد فضل الله تعالى وعونه وتأييده.

◈ وفاة بُديل:

توفي بُديل بن ورقاء بمكة قبل وفاة النبي ﷺ، وذلك بعد حجة الوداع، ولعل ذلك في مطلع السنة الحادية عشرة للهجرة، وقد شارف عمره على مئة سنة.

قال ابن السكن عنه: «له صحبة، سكن مكة، ويقال إنه قُتل بصفين» وتعقب ابن حجر ذلك، وقال: «المقتول بصفين هو ابنه عبد الله».

وهكذا مات هذا السيد، الحكيم، الناصح، المخضرم، المعمَّر، صاحب رسول الله ﷺ، وزعيم بني خزاعة.

رضي الله عن بُديل بن ورقاء، ورحمه الله رحمة واسعة على حياته الحافلة بالمكرمات قبل إسلامه، وبعد إسلامه، وقد روت عنه حبيبة بنت شريق، وروى عنه ابنه سلمة أن النبي ﷺ كتب له كتاباً، وروت أم الحرث أنها رأت بُديلاً يطوف أيام التشريق، وقد أمره رسول الله ﷺ أن ينادي: «إن هذه أيام أكل وشرب فلا تصوموا»، ورضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين الغر الميامين الذين سطروا الأحرف من النور في التاريخ، والحمد لله رب العالمين.

سادساً: البراء بن عازب[1]

من فتيان الصحابة الفاتحين الفقهاء

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. هذه الآية تنطبق على فتيان الصحابة الذين كان الإيمان يغمر قلوبهم، وازدادوا هدى وحباً لرسول الله ﷺ وحرصوا -وهم فتية في ريعان الشباب- أن يشاركوا في الجهاد، حتى استصغرهم رسول الله ﷺ في معركة بدر الكبرى، وفي غزوة أحد ردهم والبراء واحد منهم، ولكنهم ازدادوا شوقاً، لمصاحبة رسول الله ﷺ وتعلقاً بالجهاد، والمشاركة في المشاهد الأخرى، وهم صغار السن، ثم ثابروا على خط الإيمان والفداء، والعطاء والجهاد بعد الكبر، حتى وصلوا الخافقين، وكانوا جسراً مشرقاً بين جيل الصحابة الكبار وبين التابعين في نقل السنة، وتصوير حياة الرسول ﷺ قولاً وفعلاً وتطبيقاً وسلوكاً ونقلوا ذلك للأجيال اللاحقة ثم جاءت الأجيال الإسلامية تتمثل سيرة هؤلاء الصحب الكرام.

ونذكر من هذه الثلة الفتى والشاب البطل المجاهد محمد الفاتح، الذي فتح القسطنطينية أعظم حصون الروم، وآخر قلاعها كما بشر بذلك رسول الله ﷺ، ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وأمثاله كثيرون في تاريخ الإسلام الذهبي ومنهم الصحابي الفتى الفاتح الفقيه البراء بن عازب رضي الله عنه.

◈ **اسمه ونسبه:**

هو البراء (بتخفيف الراء والمد) بن عازب ابن الحارث بن عدي بن

---

(١) الوعي الإسلامي، العدد (٤١٥)، ربيع الأول ١٤٢١هـ- يونيو/ يوليو ٢٠٠٠م.

جُشم الأنصاري الأوسي (وجاء في كلام ابن عبد البر: الخزرجي ولعله سهواً أو سبق قلم أو خطأ من الناسخ) الحارثي، يكنى بأبي عمارة، وقيل أبا الطفيل، وقيل أبا عمرو، وقيل أبا عمر، والأكثر أنه أبو عُمارة وهو الأصح.

◈ أسرته:

أبوه -عازب- صحابي ونص ابن سعد وغيره أنه أسلم، ثم ذكر ابن سعد قصة عازب مع أبي بكر الصديق رضي الله عنهما في طلبه التحديث عن الهجرة. وأم البراء: أم حبيبة بنت أبي حبيبة بن الحُباب بن أنس بن زيد بن مالك بن النجار بن الخزرج، فهي خزرجية وقيل أمه أم خالد بنت ثابت.

◈ أبناء البراء وأخوه:

كان للبراء أولاد عدة منهم يزيد، وسُويد، وقد رويا عنه الحديث، وكان سُويد على عُمان، فكان خير الأمراء ومن أولاده عُبيد، ويونس، وعازب، ويحي، وأم عبد الله و لم تسم أمهم.

وأخوه هو عُبيد بين عازب، وهو أحد العشرة من الأنصار الذي وجههم عمر بن الخطاب رضي الله عنه -مع عمار بن ياسر رضي الله عنه- إلى الكوفة وله عقب بالكوفة وله بنت اسمها أم حفص روت الأحاديث عن عمها البراء بن عازب رضي الله عنه والبراء ابن أخت الصحابي الجليل أبي بردة هانئ بن نيار رضي الله عنه قال البراء لقيت خالي أبا بردة ومعه الراية.

◈ إسلام الفتى:

أسلم البراء وهو فتى صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره أسلم بالمدينة على الدعاة أمثال مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وأسعد بن زرارة رضي الله عنهم قبل الهجرة النبوية، ولا توجد رواية -فيما أعلم- عن تاريخ إسلامه

بدقة، ولكنها تستنبط من أحداث تاريخية ثابتة.

فقد عرض نفسه للذهاب إلى غزوة بدر التي كانت في السنة الثانية للهجرة فاستصغره النبي ﷺ باتفاق الرواة، واستصغره في غزوة أحد في رأي بعض الرواة كما سنرى، وروى ابن سعد رحمه الله تعالى عن محمد بن عمر قال: أجاز رسول الله ﷺ البراء بن عازب يوم الخندق وهو ابن خمسة عشرة سنة و لم يُجز قبلها، وكانت غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة، وهذا يعني أن عمره عند الهجرة كان عشرة سنوات وأنه أسلم قبلها.

وروى البراء بن عازب رضي الله عنه قال (أول من قدم علينا من أصحاب الرسول ﷺ مصعب بن عمير، ثم عمرو بن أم مكتوم رضي الله عنهما، فجعل يُقرئان الناس القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد وعمر بن الخطاب.. فلم يقدم رسول الله ﷺ حتى قرأت سوراً من المفصل (سور آخر القرآن) ثم خرجنا نتلقى العير (للمهاجرين من مكة)، وكان البراء بن عازب رضي الله عنه من أقران ابن عمر رضي الله عنهما، قال البراء غزوت مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة وأنا وعبد الله بن عمر لِدَة (أي من سن واحدة).

ولهذا يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

◈ مشاهد البراء:

غزا البراء رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة كما سبق في قوله، وفى رواية: أربع عشرة غزوة، واستُصغر يوم بدر باتفاق المؤرخين، قال البراء رضي الله عنه استُصغِرتُ أنا وابن عمر يوم بدر، قال الواقدي: استصغر رسول الله ﷺ يوم بدر جماعة، منهم البراءِ بن عازب، وعبد الله بن عمر، ورافع بن خديج،

وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وعُمير بن أبي وقاص، ثم أجاز عُمير فاستشهد يومئذ، واتفق المؤرخون أن البراء ﵁ شهد غزوة الخندق واختلفت الروايات في حضوره غزوة أحد.

قال ابن الأثير: «ردَّه رسول الله ﷺ عن بدر، استصغره، وأول مشاهد أحد، وقيل: الخندق، وغزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة». وعن البراء ﵁ قال: «استصغرني رسول الله ﷺ أنا وابن عمر، فردّنا يوم بدر، فلم نشهدها....، وشهد أحد»، وقال الخزرجي: «وشهد أحداً والحديبية».

وقال أكثر المحققين في السيرة والتراجم إنه لم يحضر أحداً، واستصغر فيها أيضاً، ورُدَّ.

قال الواقدي: «أول غزوة شهدها ابن عمر، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن أرقم «الخندق» وعقب ابن عبد البر على هذه الرواية، وقال: «وهذا أصح في رواية نافع». ونقل ابن القيم رحمه الله تعالى أن البراء رُدَّ مع من استصغر يوم أحد، وأكد ذلك ابن هشام في «السيرة»، وأن رسول الله ﷺ استصغر الشباب يوم أحد، وردَّ بعضهم.

وروى ابن سعد عن محمد بن عمر قال: «أجاز رسول الله ﷺ البراء بن عازب يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، ولم يُجز قبلها».

والظاهر أن هذا القول هو الأرجح، وأن البراء ﵁ لم يشهد أحداً.

وشهد البراء غزوة الحديبية، ونقل عدد الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانوا ألفاً وأربعمئة بخيلنا ورجلنا، يعني فارسهم وراجلهم.

وذهب البراء ﵁ مع خالد بن الوليد ﵁ إلى اليمن ليدعوا أهلها إلى الإسلام، وبقوا ستة أشهر، ثم عاد خالد وأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي

طالب رضي الله عنه لليمن، وبقي البراء مع على حتى أسلمت همدان جميعاً، لما روى البيهقي بإسناد صحيح عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبي طالب رضي الله عنه.. قال البراء: (فكنت فيمن عقب مع علي فأسلمت همدان جميعاً..).

وتابع البراء بن عازب رضي الله عنه المشاركة في القتال والجهاد في سبيل الله تعالى وشهد معركة (تستر) مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما سنة عشرين في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتُستُر: أعظم مدينة بخوزستان من بلاد فارس، وجعلها عمر رضي الله عنه بعد فتحها من أرض البصرة لقربها منها.

وشهد البراء بن عازب مع علي كرم الله وجهه يوم الجمل وصفين وحضر معه قتال الخوارج في النهروان.

◈ استقرار البراء وتفرغه للعلم:

وآن للمسافر أن يعود، وللمرتحل أن يحل في أرض، وللمتنقل أن يستقر، بعد جهاد طويل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وطوال عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ونزل البراء بن عازب رضي الله عنه الكوفة وابتنى بها داراً، وبقي فيها حتى مات، وله فيها عقب وكانت آخر مشاهد البراء رضي الله عنه مع على كرم الله وجهه حين جاوز الخمسين من العمر، وعاش بعد ذلك أكثر من ثلاثين سنة، ولم يرد أنه اشترك بعد هذا في الجهاد والفتوح ولكنه تفرغ في الكوفة للعلم والتعلم والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربية المسلمين على منهج الإسلام القويم، ولذلك وردت عنه أحاديث كثيرة، وترك آثاراً علمية طيبة في الكوفة، ولذلك يُعدُ من فقهاء الصحابة في الكوفة.

◈ أحاديث البراء:

روى البراء بن عازب ﷺ جملة كثيرة من الأحاديث عن رسول الله ﷺ مباشرةً، وروى عن أبيه، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهم وغيرهم من كبار الصحابة، وكان ﷺ، يقول (ما كل ما نحدثكموه عن رسول الله ﷺ سمعناه منه، حدثنا أصحابنا، وكان يشغلنا رعية الإبل، وله ثلاثمئة حديث، وخمسة أحاديث اتفق البخاري ومسلم على اثنين وعشرين حديثاً وانفرد البخاري بخمسة عشرة حديثاً ومسلم بستة أحاديث).

وروى عنه من الصحابة أبو جُحيفة وعبد الله بن يزيد الخطمى، كما روى عنه جماعة التابعين منهم الشعبي، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وعدى بن ثابت، ومعاوية بن سُويد، وسعد بن عُبيدة وخلق كثير، آخرهم أبو إسحاق السبيعي.

وجمع الإمام أحمد ما رواه عن البراء بن عازب ﷺ في الجزء الرابع من (مسند الإمام أحمد) رحمه الله تعالى.

وإن كثرة رواية البراء ﷺ للأحاديث هي سبب شهرته في مجالس العلم والعلماء، وطلاب العلم، وتكرر اسمه في بطون كتب الفقه والحديث والسيرة، وأكثر من كبار الصحابة المشهورين والمعروفين، ولكن يندر من يعرف سيرة هذا الصحابي الفتى في الجهاد والفتوح.

وبين ابن سعد رحمه الله تعالى سبب قلة الأحاديث عن كبار الصحابة وكثرتها عن صغار الصحابة، فروى عن محمد بن عمر الأسلمي قال: (إنما قلت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم هلكوا قبل أن يُحتاج إليهم وإنما كثرت عند عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب لأنهما وليا (فسئلا) وقضيا بين الناس، وكل أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أئمة

يُهتدي بهم، ويحفظ عليهم ما كانوا يفعلون، ويُستفتون فيُفتون وسمعوا أحاديث فأدوها فكان الأكابر من أصحاب رسول الله أقل حديثاً عنه من غيرهم، مثل أبي بكر، وعثمان، وطلحة، والزبير، فلم يأت عنهم من كثرة مثل ما جاء الأحداث الصغار من أصحاب رسول الله ﷺ، مثل جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، ونظرائهم وكل هؤلاء كان يُعدُ من فقهاء وأصحاب الرسول ﷺ.

وهكذا جمع هذا الصحابي الجليل البراء بن عازب رضي الله عنه بين الخيرين: السيف والقلم، أو الجهاد والعلم، فجاهد وشارك في القتال، وشهد الغزوات مع رسول الله ﷺ ثم الفتوح والمعارك الفاصلة في عهد الراشدين مدة تقرب من أربعين عاماً، ثم صرف معظم عمره، وهو أكثر من ثلاثين سنة في العلم والتعليم، والتحديث والرواية والفقه والتربية.

◈ مناقب البراء:

كانت سيرة البراء بن عازب رضي الله عنه، السابقة أهم مناقبه في الجمع بين الصحبة للنبي ﷺ، وحضور معظم مشاهده في خمس عشرة غزوة ومصاحبة النبي ﷺ في أسفاره، والتمتع منه بنور النبوة واقتباس العلم والدعوة ثم ملازمة النشاط، والمشاركة في الدعوة والجهاد طوال العهد الراشدي إلى أن تفرغ للعلم والرواية والتحديث عن رسول الله ﷺ، متمثلاً قول الحبيب المصطفى وراغباً بدعائه الميمون المبارك: (نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه) وهذا الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنهم، مرفوعاً والرواية الأخرى رواها الترمذي والضياء والمقدسي عن زيد

ابن ثابت رضي الله عنهم، مرفوعاً والحديث له روايات أخرى متعددة عن أنس رضي الله عنه، والنعمان بن بشير رضي الله عنه، وغيرهم عند أحمد وابن ماجه والحاكم كما تفرد البراء بن عازب رضي الله عنه ببعض المناقب أهمها:

١- كان البراء بن عازب يقول: (أنا الذي أرسل معه النبي ﷺ السهم إلى قليب (بئر) الحديبية فجاش بالري (أي ارتفع ماؤه) وقيل أن الذي نزل بالسهم ناجية بن جُندب وهو أشهر.

٢- كان البراء يحب مرافقة الرسول ﷺ في حله وترحاله، وفى إقامته وسفره ما أمكنه ذلك، قال البراء: (سافرت رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفراً فلو أره ترك ركعتين قبل الظهر).

٣- كان البراء رضي الله عنه من أقران عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أحد العبادلة وأحد الصحابة المشهورين بالإكثار من رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، وأكثر الصحابة تأسياً برسول الله، وفقيه أهل المدينة والذى طلب إلى عمر رضي الله عنه أن يُرشحه للخلافة بعده، فأبى تورعاً وجعله أحد المستشارين للستة الذين عينهم بعد للخلافة، قال البراء رضي الله عنه (غزوت مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة وأنا وعبد الله بن عمر لِدَة).

٤- روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن البراء رضي الله عنه قال: (سمعت النبي ﷺ يقول يوم حنين (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب).

وروى أيضاً عن البراء رضي الله عنه وسأله رجل من قيس فقال: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال البراء ولكن الرسول ﷺ لم يفر كانت هوازن ناساً رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان بن

الحارث أخذ بلجامها وهو يقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب).

◈ وفاة البراء:

استقر البراء ﵁ بالكوفة حتى مات أيام إمارة مصعب بن الزبير -رحمه الله تعالى- سنة اثنتين وسبعين للهجرة، وترك أولاده فيها وقال ابن حبان البستي: (سنة إحدى وسبعين) وتشكك الخزرجي فقال (سنة إحدى أو اثنتين وسبعين) رحم الله البراء بن عازب، الذي استمرت آثاره العلمية في الكوفة، التي كانت حاضرة الدولة الإسلامية مدة من الزمن، ثم حاضرة العلم واللغة والفقه والأدب والعلماء آماداً طويلة، ولا تزال تحمل مشعل العمل والنور والدعوة، من آثار البراء وسائر الصحب الكرام الذين نزلوا بها ورفعوا فيها منارات العلم والمعرفة والدين والإسلام، وقد أدوا الأمانة التي تحملوها من رسول الله ﷺ، وبلغوها للتابعين، وفتحوا الأقطار ونشروا فيها الإسلام فكانوا خير جيل عرفه التاريخ، فجزاهم الله خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

سابعاً: بُسْر بن سفيان الخزاعي[1]

الجندي المجهول في الصحابة

ما أكثر الرجال الذين يُديرون شؤون الحياة في الظل، ويلعبون دوراً كبيراً في السياسة والحكم والجهاد والحرب، وفي التخطيط والسياسة، وفي الإمارة والولاية، ولا يعرف الناس عنهم شيئاً إلا القليل الذي يدل على وجودهم ونشاطهم، وهؤلاء الذين يؤدون جليل الأعمال، ولكن ينساهم الناس، أو يشتبه اسمهم وأمرهم، وهم يعملون من وراء ستار، وكثيراً ما يقصّر الكتّاب والمؤرخون والعلماء في حقهم، ولكن لا يضيع لهم شيء في ميزان الحق عند الله تعالى القائل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

هؤلاء الذين تنبه لهم المفكرون المعاصرون، وأطلقوا عليهم رمز (الجندي المجهول)، وأقاموا لهم صرحاً في كل عاصمة في العالم، للتذكير بهم، والإشادة بفضلهم وأعمالهم، وإن طويت صفحتهم، ونُسيت أسماؤهم، وحُرموا من الإشادة والذكر الخاص بهم.

ومن هؤلاء: الصحابي الشريف بُسْر بن سفيان، أو بِشْر بن سفيان، حامل لواء قومه في زمن النبي ﷺ.

◈ اسمه ونسبه:

هو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عُويمر الخزاعي الكعبي، وهو نفسه بشر ابن سفيان، وجاء اسمه في كتب السيرة والتراجم والأعلام مرة بالاسم الأول،

---

(١) النور، العدد (١٨٧) رجب ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠م- ص٥٠.

ومرة بالاسم الثاني، وجمع ابن هشام بين الاسمين، فقال: (قال الزهري: وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، قال ابن هشام: ويقال: بُسْر..) وسماه الواقدي مرة بِشراً، ومرة أخرى بُسْراً، وذكره ابن سعد مرة بشراً، وثلاث مرات بُسْراً، وسماه ابن القيم: بِشراً.

◈ إسلام بُسْر:

أسلم بُسْر سنة ست من الهجرة، ولكن ابن سعد لم يذكره في الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة، لكن أورد له أخباراً متفرقة.

قال الواقدي في غزة الحديبية: (وقدم عليه بُسْر بن سفيان الكعبي في ليال بقيت من شوال سنة ست، فقدم مسلماً على رسول الله ﷺ، زائراً له، وهمّ على الرجوع إلى أهله، فقال له ﷺ: (يا بُسْر، لا تبرح حتى تخرج معنا، فإنا إن شاء الله معتمرون، فأقام بسر، وأمر رسول الله ﷺ بُسر بن سفيان يبتاع له بُدناً، فكان بُسر يبتاع البدن، ويبعث بها إلى ذي الجَدْر (وهو مسرح الإبل على ستة أميال من المدينة المنورة) حتى حضر خروجه، فأمر بها فجلبت إلى المدينة)، وهذا يدل على أن إسلامه كان قبل غزوة الحديبية.

◈ سكن بُسْر:

ذكر ابن سعد أن بُسْر بن سفيان ممن نزل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ، واستقر فيها.

◈ مشاهد بُسْر:

شهد بُسر بن سفيان الحديبية مع رسول الله ﷺ، وشهد فتح مكة، وغزوة حُنين، وغزوة تبوك، وله أخبار فيها، ثم انقطعت أخباره نهائياً، ولم يرد له ذكر.

ففي غزة الحديبية قال الواقدي: (ودعا رسول الله ﷺ بُسر بن سفيان من ذي الحليفة، فأرسله عيناً له، وقال: (إن قريشاً قد بلغهم أني أريد العمرة، فخبر لي خبرهم، ثم القني بمن يكون منهم، فتقدم بسر أمامه..) ثم قال الواقدي: (ودخل بُسر بن سفيان مكة، فسمع من كلامهم، ورأى منهم ما رأى، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فلقيه بغدير الأشطاط من وراء عسفان (أي قريب من عسفان)، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: (يا بُسر، ما وراءك؟) قال: يا رسول الله، تركت قومك كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، قد سمعوا بمسيرك، ففزعوا، وهابوا أن تدخل عليهم عَنْوة، وقد استنفروا لك الأحابيش، ومن أطاعهم، معهم العوذ المطافيل (يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان، وهو على الاستعارة، لأن العوذ من الإبل جمع عائذ، وهي التي ولدت، والمطافيل: جمع مِطْفل، وهي التي لها طفل، فاستعاره هنا النساء والصبيان)، وقد لبسوا جلود النمور، ليصدوك عن المسجد الحرام).

وذكر ابن هشام مثل ذلك فقال: (قال الزهري: وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعُسفان- وهي مهل من مناهل الطريق بين الجُحفة ومكة، وقيل: هي على مرحلتين من مكة شمالاً- لقيه بشر بن سفيان الكعبي، قال ابن هشام: ويقال: بُسْر، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، وقد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى -موضع قرب مكة، والآن في داخلها من الجهة الغربية للحرم- يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم -موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة- قال: فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في

الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله، لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به؛ حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة).

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: (وبعثه النبي ﷺ عيناً إلى قريش إلى مكة، وشهد الحديبية، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري..، قوله: حتى إذا كنا بغدير الأمشاط لقيه عينها الخزاعي، فأخبره خبر قريش وجموعهم، قالوا: هو بُسْر بن سفيان هذا).

وفي فتح مكة سنة ثمان للهجرة كان بُسْر يحمل لواء بني كعب في فتح مكة، روى الواقدي وغيره: لما دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة عام الفتح، ومدت جنود الله ليراها أبو سفيان، ومرت القبائل على قادتها، والكتائب على رايتها، فمرت بنو كعب بن عمرو، وهم خزاعة، في خمسمائة يحمل رايتهم بُسْر بن سفيان.

وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني كعب بن عمرو بُسْر بن سفيان، وبُديل بن ورقاء للقائه بمكة عند فتحها.

وفي غزوة حنين كانت لبني كعب بن عمرو رايتان، يحمل إحداهما بشر ابن سفيان.

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل، وإلى مكة، يستنفرهم في سبيل الله إلى غزوة تبوك، فبعث بُريدة، وأبا رَهْم الغفاري، ورافع، ونُعيم بن مسعود، وبعث في بني كعب بن عمرو عدة، وهم بُديل بن ورقاء، وعمرو بن سالم، وبُسْر بن سفيان.

وهكذا كان بُسْر بن سفيان يحمل لواء خزاعة وبني كعب، ويشاركه في معظم الأحيان بُديل بن ورقاء، وعمرو بن سالم في القيادة والريادة، والزعامة

والنفوذ، والكتابة إليهم، كما سيأتي.

◈ أعمال بُسْر:

عمل بُسْر لرسول الله ﷺ، بالإضافة إلى حمل الراية، والمشاركة في المشاهد والغزوات، عمل مصدقاً، أي جابياً للزكاة، وجامعاً لها، وكأنه وزير مالية في قومه.

وذلك لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، بعد فتح مكة والطائف، ودخلت سنة تسع، بعث المصدقين (الجباة) يأخذون الصدقات (الزكاة) من الأعراب، قال ابن سعد: (ثم بعث رسول الله ﷺ المصدقين، يصدقون العرب، فبعث عُيينة، ويزيد، وعباد، ورافع، وعمرو بن العاص، وبعث الضحاك، وبعث بشر ابن سفيان إلى بني كعب من خزاعة، وأمر رسول الله ﷺ المصدقين أن يأخذوا العفو منهم، ويتوقوا كرائم أموالهم).

وزاد ابن سعد فقال: (بعث رسول الله بشر بن سفيان، أو بُسْر بن سفيان، ويقال: النحال العدوي على صدقات كعب بن خزاعة، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو تميم، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة، فاستنكر ذلك بنو تميم، فأبوا، وابتدروا القُسي، وشهروا السيوف، فقدم المصدق على النبي ﷺ فأخبره، فقال: من هؤلاء القوم؟ فانتدب لهم عُيينة بن بدر الفزاري، فبعثه النبي ﷺ في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مهاجري، ولا أنصاري).

ولا شك أن المصدق (جابي الزكاة) يتمتع بالثقة، والأمانة، والخبرة، والهيبة، والمعرفة بالأحكام الشرعية، وهذا ما توفر في بُسْر بن سفيان، فاختاره رسول الله ﷺ لذلك.

◈ مكانة بُسْر:

كان بُسْر شريفاً في قومه، وكتب له النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام.

روى ابن أبي شيبة وغيره عن زكريا بن أبي زائدة قال: كنت مع أبي إسحاق السبيعي فيما بين مكة والمدينة، فسايره رجل من خزاعة، فأخرج إلينا رسالة رسول الله ﷺ إلى خزاعة، وكتبها يومئذ، ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى بُديل بن ورقاء، وبُسْر، وسروات بني عمرو، فذكر الحديث: (فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فإني لم آثم بإلكم (أي عهدكم، أي لم أخن عهدكم فآثم) ولم أضع في جنبكم، وإن أكرم أهل تهامة علي أنتم، وأقربكم لي رحماً، ومن معكم من المطيبين، وإني قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي، ولو هاجر بأرضه، غير ساكن مكة، إلا معتمراً أو حاجاً، ولم أضع فيكم إذ سالمت، وإنكم غير خائفين من قبلي، ولا محصورين) وكان الكتاب بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأخرج الإمام أحمد عن المِسْور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، حتى إذا كان بعسفان لقيه بُسر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معهم العوذ المطافيل..) وذكر تتمة الأثر السابق.

وقال ابن هشام في الموضوع نفسه: (فلما اطمأن رسول الله ﷺ -يعني في الحديبية- أتاه بُديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، فكلموه،

وسألوه: ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحو ما قاله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، وأخبروهم خبر رسول الله ﷺ، قال الزهري: وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها، ولا يخفون عنه شيئاً كان بمكة). أي كانوا خاصته وأصحاب سره.

◈ مواقف بُسْر:

كان بُسر يتحمل مسؤولية قومه، ويؤدي الواجب الذي عليه بشهامة، وصدق، وإخلاص، ويظهر ذلك في القصة التالية، وهي أن أحد بني كعب قتل الوليد بن الوليد بن المغيرة، فقام آل مخزوم يطلبون بدمه، حتى قال الشاعر عبد الله بن الزُبعرى:

ألا بلغا بُسْر بن سفيان أنه ... يبلغها عني الخبير المغرّدُ

وفيه قصيدة، قال: فأخذ بُسْر يد ابنه، فقال: يا معشر قريش، هذا رهين لكم بالدية، فأخذه خالد بن الوليد أطعمه، وكساه حُلة، وطيبه، وقال: انطلق إلى أبيك، فحمل بسر بن سفيان إليهم دية الوليد.

◈ نهاية بُسْر:

لقد مات بُسر حتماً، ولقي وجه ربه، ولكنه لم يُنصف في الدنيا، ولم ينل حظه من تسجيل أطوار حياته، ولم يعرف عنه شيء بعد غزوة تبوك، وهل مات زمن النبي ﷺ أم في العهد الراشدي؟ وهو السيد، الشريف، الرئيس في قومه، وهل بقي على قيد الحياة العملية، والرئاسة والزعامة وهل شارك في الجهاد أو الأحداث اللاحقة؟

لم يفصل أحد من كتّاب السيرة والتراجم والتاريخ -التي اطلعت عليها-

بشيء من ذلك، ومن هنا أطلقنا عيه لقب «الجندي المجهول» وبقيت أعماله السابقة، ومواقفه، ومشاهده غرّة في جبين الدهر، وإن لم نعرف شيئاً عن نهايته وخاتمته، ولقي الله تعالى راضياً مرضياً لينال جزاءه العادل في الآخرة، إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: الشيخ بكر أبو زيد

القاضي- العالم- الرجل

الحمد لله الذي أعز العلم والعلماء، والصلاة والسلام على رسول الله، أعلم من في الأرض، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد فقدنا الشيخ العلامة بكر عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى، وفقدته الأمة، وانتقل إلى رحمة الله تعالى، لينضم إلى ركب الخالدين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

وقد جمعتني بالشيخ علاقة ومودة، وحضرت بعض جلساته في المجمع الفقهي الإسلامي لأكتب هذه الأسطر عنه، ولا أزكي على الله أحداً، واقتصر على جانبين من حياته المملوءة بالعطاء والنفع والتأثير، وهما العلم بالفقه والرجولة.

فقد كان الشيخ رحمه الله عالماً فقيهاً، ويشهد له بذلك إنتاجه الطيب المبارك عن ابن القيم، والقواعد الفقيهة، وسائر الكتب والبحوث والمقالات النافعة، ذات العمق العلمي والغزارة في البيان والإحكام، والدقة في التعليل، والتحديد والتحرير، وأخص منها:

١- ابن القيم حياته وآثاره وموارده.

٢- التقريب لعلوم ابن القيم.

٣- فقه القضايا المعاصرة (فقه النوازل).

وهذه الملكة العلمية والفقهة أهلته للقضاء واللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء، والقضاء والإمامة والخطابة بالمدينة المنورة، ثم عضوية هيئة كبار

العلماء، ثم لرئاسة مجمع الفقهي الإسلامي بجدة الذي تولاه مدة طويلة، وبقي يشغله حتى وفاته رحمه الله تعالى، وانتقل للصفة الثانية التي ظهر فيها علمه وشخصيته.

كان الشيخ رحمه الله تعالى رجلاً بكل ما تعني هذه الكلمة من دلالة، وفي الوقت الذي يقل فيه الرجال، وبل وأشباه الرجال، وتضيع فيه هيبة العلماء، ويغلب على كثير منهم اليوم المسايرة، والمداهنة، والمجاملة، وتجنب المصاعب، والبعد عن المواجهة والتصدي للانحراف، أو الزيغ.

كان الشيخ رحمه الله تعالى رجلاً بمواقفه المشهودة في مجالات الحياة المتعددة، وخاصة أثناء توليه رئاسة مجمع الفقهي الإسلامي إدارياً في جدة، وعملياً في جلسات المؤتمرات والندوات التي عقدها المجمع في مختلف البلاد العربية والإسلامية.

كان الشيخ رحمه الله تعالى جريئاً في الحق، يعلنه في كل مناسبة، ويصرح به في دروسه وخلال أعماله، وأثناء الجلسات الرسمية لمؤتمرات مجمع الفقهي الإسلامي، ويبينه في الفتاوى والكتب التي دونها، وفي البحوث التي سطرها، وفي فتاوى النوازل التي تصدى لها، ولا يخشى في الله لومة لائم عند بيان أحكام الله تعالى، والوقوف على ما يراه من الصواب والحق، مهما كانت مكانة المخالف أو المعارض لرأيه.

وكان الشيخ بكر رحمه الله تعالى يستمد هذه الجرأة من ثقته بالله تعالى، وثقته بنفسه، وحرصه على إعلاء شرع الله تعالى، والوقوف عند حدوده وأحكامه وآدابه، دون أن يكون له مطمع شخصي أو رغبة في المصالح الخاصة، أو خوف على نفسه وروحه.

وكانت هذه الجرأة والشدة في الحق عاملاً رئيساً في إرهاق جسده الذي لم يتحمل همة الشيخ وطموحاته، فأدى ذلك إلى إصابته بالأمراض العصبية التي أضنته لفترة طويلة، لكنه استمر أثناءها بالقيام بأعماله وواجباته حتى كان يحضر جلسات المؤتمرات معتمداً على المساعدة، ثم أقعده المرض في البيت، دون أن يتوقف ذهنه الوقاد، وإشرافه المستمر، وتقديم الآراء والتوجيهات، ولو من وراء ستار، وهذا ما يشهد به أعضاء مجمع الفقه الإسلامي طوال الفترة الأخيرة من حياة الشيخ رحمه الله تعالى.

إننا نذكر الشيخ رحمه الله تعالى ليبقى في الذهن والذاكرة والتاريخ بمواقفه الخالدة التي اشتهر بها، وعُرفت عنه، ليفرض احترامه على الجميع، ويقف الناس أمامها بفخر واعتزاز لإعلاء كلمة الله وشرعه، مما يسطره التاريخ له بأحرف من نور، وليبقى في عداد الخالدين مهما تقادم العهد، وطال الزمن، وهو ما يندر عادة، ويبخل به الزمان، إلا من وفقه الله تعالى للعمل بصدق وإخلاص لتوثيق العزة لله ولرسول، وللدين وأهله.

رحم الله الشيخ بكر أبو زيد، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وعوض الأمة بأمثاله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

ﮧﮨ

تاسعاً: شيخ الإسلام، تقي الدين (ابن تيمية)

◈ اسمه ونسبه:

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، ابن تيمية، النميري، الحراني، الدمشقي، الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين.

اشتهر بابن تيمية لأن جده الأعلى محمد بن الخضر حج، وكانت امرأته حاملاً، فلما كان بتيماء رأى جارية جميلة، ولما رجع إلى حران وجد امرأته وضعت بنتاً، ولما رفعوها إليه قال يا تيمية، يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها تيماء، فسمي بها، أو أن جده محمداً كانت أمه تسمى «تيمية» وكانت واعظة، فنسب إليها، وعرف بها.

ونسبته إلى بني نمير يدل على أنه عربي الأصل، والدمشقي لأنه استوطن بدمشق ومات بها، والحنبلي نسبة إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل الذي تفقه عليه، وناصره في الغالب.

وأطلق عليه شيخ الإسلام لغزارة علمه، وسعة معارفه، وقيامه بالدعوة، ووقوفه في وجه الأعداء، ولمواقفه المشهودة مع الكفار المعتدين من التتار وغيرهم.

والحراني نسبة إلى «حران» وهي البلدة التي ولد بها، بتشديد الراء، مركز ديار مضر (شمال شرق سورية) بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، قيل هي أول مدينة بنيت بعد الطوفان، وكانت مترل الصابئة، وهي مهاجر إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي الآن في تركيا قرب أورفة، وعمرت بعد أن أصابها الخراب على يد التتار، ويوجد حران الكبرى والصغرى بالبحرين لبني عامر، وحران (العواميد) قرية بغوطة دمشق[1].

---

(١) مراصد الاطلاع ٣٨٩/١.

◈ ولادته نشأته وصفاته:

ولد ابن تيمية في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ بحران، ولما بلغ السادسة ونيفاً قدم به والده وبأخوته إلى دمشق عند استيلاء التتار على البلاد (٦٦٧هـ) وحفظ في دمشق القرآن، وتفقه على والده، وبدأ بجمع العلوم الشرعية والعربية والعقلية، وظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء الخارق، والحافظة الواعية التي لا تكاد تنسى شيئاً مما تقرأ، مع العمق في التفكير، وحضور البديهة، والإخلاص في طلب الحق، والاستقلال الفكري، وزهده في المناصب وزخارف الحياة الدنيا.

وكان ربعة من الرجال، أسود الرأس واللحية، جهور الصوت، فصيح اللسان، أبيض، أعين سريع القراءة تعتريه حدة ثم يقطعها بحلم وصفح.

◈ أسرته:

كان تقي الدين سليل أسرة علمية عريقة، معروفة ومشهورة، فوالده شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله (٦٢٧هـ-٦٨٢هـ) كان عالماً فاضلاً، وتقيناً صالحاً، وله شهرة ومكانة، وكان من كبار فقهاء الحنابلة تفقه بأبيه، وأحكم فروع المذهب، ودرس وأفتى وصنف، وكان إماماً محققاً في عدة علوم، وتولى مشيخة دار الحديث السكرية بدمشق، وكان له كرسي بالجامع الأموي الكبير يعلم فيه أيام الجمع من حفظه، وتوفي بدمشق، ودفن في مقابر الصوفية[1].

وجده الشيخ مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخضر (٥٩٠-٦٥٢هـ) حفظ القرآن وسمع الحديث، ورحل في طلب العلم إلى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٢/١٤، ذيل طبقات الحنابلة ٣١٠/٢، ٣١١.

بغداد (٦٠٣هـ) وأقام فيها بضع سنوات، ثم رجع إلى بلده حران، ثم عاد إلى بغداد، فازدادت شهرته، وصار فرداً في زمانه، رأساً في الفقه وأصوله، إماماً من أئمة الحنابلة، وله معرفة كبيرة بالقراءات والتفسير، وصنف عدة مصنفات، منها: التفسير، ومنتقى الأخبار في أحاديث الأحكام، والمحرر في الفقه الحنبلي، وتوفي ببغداد[1].

وأمه ست النعم بنت عبد الرحمن الحرانية، كانت فاضلة ورعة تقية زاهدة، وكان لها تأثير كبير على ابنها في تربيته وعلمه وتشجيعه على الجهاد لإحياء الشريعة، وكاتبها ابنها من مصر برسائل تفيض عطفاً وحناناً، وإحساناً ووفاءً، يخفف عنها بعده وسفره، وعمرت سبعين سنة، وتزوجت بعد أبيه، وتوفيت بدمشق (٧١٦هـ) وكانت ذات مركز مرموق في دمشق، وظلت ذكراها حية زمناً بعد وفاتها[2].

◈ طلبه للعلم:

حفظ تقي الدين القرآن الكريم في صغره بدمشق، وبدأ في جمع العلوم الشرعية فحفظ الحديث حتى صار حافظاً ومحدثاً، وأول كتاب حفظه «الجمع بين الصحيحين» للإمام الحميدي، وسمع عدة مرات مسند أحمد، وصحيح البخاري، ومسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني وذلك على عدة شيوخ، وسمع منه هذه الكتب تلاميذه، وكان يستوعب السنن والآثار.

ودرس الفقه، فتفقه على والده، وعلى كبار فقهاء عصره في دمشق، وكان

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٨٥/١٣، ذيل طبقات الحنابلة ٢٤٥/٢ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧٩/١٤.

دون العشرين عندما تأهل للفتوى، فأفتى وله تسع عشرة سنة، واستوعب مذاهب الصحابة والتابعين وآراء المذاهب الأربعة مع الأدلة، كما درس علم أصول الفقه، ووصل إلى درجة الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه، فاجتهد واعتمد كثيراً على الاستدلال بالقرآن والسنة حتى قال ابن كثير: «إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً بالأصول والفروع»[1] وتمذهب الشيخ تقي الدين بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، وعده كثيرون فقيهاً حنبلياً، وكان يرجح الفقه الحنبلي على غيره، ويعتبر أقرب إلى نصوص القرآن والسنة، ولكنه لم يتعصب للمذهب الحنبلي، فكان يقدر آراء الفقهاء والعلماء وأئمة المذاهب الآخرين، ويعتذر لهم في بعض الآراء حتى صنف رسالته القيمة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»[2].

ولكن ابن تيمية لم يلتزم بمذهب معين في فتاويه ومصنفاته، بل أفتى خلافاً للمذاهب الأربعة إذا صح عنده دليل من الكتاب والسنة وفتاوى السلف مما أنكره عليه علماء عصره، وأدى به إلى السجن والاعتقال عدة مرات.

ودرَّس تقي الدين العلوم العربية والعقلية، وأتقن فنون الحساب والجبر والمقابلة، ونظر في علم الكلام والفلسفة والفرق، وضرب بسهم وافر وصائب في جميع ذلك، وصنف في معظمها.

◈ شيوخه وتلامذته:

ذكر العلماء أن شيوخه الذين سمع منهم كانوا أزيد من مائتي شيخ[3]،

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٤١.

(٢) الرسالة مطبوعة عدة مرات، منها طبعة مكتبة القاهرة- مصر بدون تاريخ.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٣٨٨، العقود الدرّية في مناقب ابن تيمية، محمد عبد الهادي (٧٤٤هـ) ص٣، الدرر الكامنة ١/١٥٤.

فسمع كتب الصحاح والسنن والمسانيد في الحديث الشريف عن عدد من الشيوخ، وتلقى العلم عن والده الشيخ عبد الحليم (٦٨٢هـ) وعن أحمد بن عبد الدائم المقدسي النابلسي المؤرخ المحدث الفقيه (٦٦٨هـ) وعن محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المردادي الفقيه المحدث النحوي (٦٩٩هـ) وعن علي بن أحمد بن عبد الواحد السعدي المقدسي الصالحي الفقيه المحدث (٦٩٠هـ) وعن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الفقيه الأصولي المحدث قاضي القضاة صاحب الشرح الكبير في الفقه الحنبلي (٦٨٢هـ) وإسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي صاحب الصدر وكاتب الإنشاء (٦٧٢هـ) وخلق كثير من الرجال، وأخذ عن علماء الحنفية والشافعية من علماء دمشق وغيرها.

وأخذ عن النساء منهن أم أحمد زينب بنت مكي بن علي الحراني، الفقهية الصالحة، صاحبة العلوم الشرعية (٦٨٨هـ) وعن الشيخة الجليلة الصالحة أم العرب فاطمة بنت علي بن القاسم (٦٨٣هـ) وهي بنت الحافظ المؤرخ في الشام أبو القاسم بن عساكر، والشيخة الصالحة أم محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن كامل المقدسية (٧٢٢هـ) وعمرت أربعاً وتسعين سنة.

واستفاد من كبار الشيوخ الذين سبقوه أو عاصروه كالحافظ ابن عساكر (٥٧١هـ) وابن الأثير (٦٢٠هـ) وابن الصلاح (٦٤٣هـ) والنووي (٦٧٦هـ) وابن دقيق العيد (٧٠٣هـ) فقرأ كتبهم وأخذ عنهم، وتجلى ذلك في مؤلفاته.

أما تلاميذ الشيخ تقي الدين فلا يكاد يحصون، فربى جيلاً عالماً مجاهداً حتى أصاب تلاميذه ما أصابه بالاعتقال والسجن والضرب والإيذاء،

وشاركوه في الدعوة والإرشاد والتدريس والإفادة والإفتاء والكتابة والتصنيف والتأليف ومجابهة الأحداث وقتال التتار والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة حيناً وبالموعظة حيناً آخر.

وسمع منه الحديث الشريف عدد من التلاميذ، وكان له مريدون في دروسه العامة المتواصلة في دمشق ومصر وغزة، وحيثما حل وارتحل.

وله تلاميذ نجباء علماء اختصوا به، ويأتي في مقدمتهم محمد بن أبي بكر الزرع الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) الفقيه الحنبلي المجتهد المفسر الأديب النحوي صاحب المصنفات ذائعة الصيت، ومنهم شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي الدمشقي (٧٤٨هـ) مؤرخ الإسلام، الحافظ، وشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي (٧٤٤هـ) الذي ترجم لشيخه ودافع عنه في كتابيه «الصارم المنكي» و«العقود الدرية في مناقب ابن تيمية» ومنهم محدث الشام الحافظ يوسف بن الزكي المزي الدمشقي الشافعي إمام المحدثين (٧٤٢هـ) الذي سجن لتأييده آراء شيخه، والحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي صاحب التفسير، والبداية والنهاية في التاريخ (٧٧٤هـ) ومحمد بن مفلح (٧٦٣هـ) والمؤرخ البرزالي (٧٣٩هـ) وابن سيد الناس المصري الشافعي (٧٣٤هـ) والقاضي الفقيه ابن قاضي الجبل شيخ الحنابلة (٧٧١هـ) والشيخ الإمام المحدث الحافظ، عمدة الحفاظ وشيخ المحدثين محمد السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي الشهير بالصامت (٧٨٨هـ) وغيرهم كثير[1].

---

(١) الدر الوافر، لابن ناصر الدمشقي ص٥٨ وما بعدها، ذيل طبقات الحنابلة ٤٦٣/٢، البداية والنهاية ١٩١/١٤ وما بعدها، شذرات الذهب ١٣٦/٦ وما بعدها، الدرر الكامنة ٣٩٩/١، تذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤.

◈ إنتاجه العلمي ومصنفاته:

كان تقي الدين وافر العلم، غزير المعرفة، وله قلم سيال، ويكتب بسرعة مذهلة، وكان مكثراً من التأليف وصنف عدة كتب ورسائل تزيد عن ثلاثمائة مجلد، نذكر أهمها:

١- **في الفقه:** شرح المحرر في مذهب أحمد، شرح العمدة لموفق الدين ابن قدامة أربع مجلدات، الدرة المضيئة في فتاوى ابن تيمية (الفتاوى المصرية)، وقد جمعت فتاويه ورسائله، وطبعت بالرياض في ٣٨ مجلداً، ومنها «الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية» و«إبطال الحيل» و«تحريم السماع»، و«السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» و«حقيقة الصيام» و«حجاب المرأة ولباسها في الصلاة» و«منسك شيخ الإسلام» و«اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية» و«الجواب الباهر في زوار المقابر» و«قاعدة في الفرق بين الخلافة والملك» و«نظرية العقد».

٢- **في أصول الفقه:** أكمل ما شرع به جده ووالده في أصول الفقه الحنبلي فجاء المجموع في «المسودة لآل تيمية» وله رسائل في أصول الفقه، منها «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» و«قاعدة في الاستحسان» و«قواعد في أن المخطئ في الاجتهاد لا يأثم» مجلد، و«قاعدة غالبها أقوال الفقهاء» مجلدان، و«شمول النصوص للأحكام» مجلد لطيف، و«قاعدة في الإجماع»، و«قاعدة خبر الواحد يفيد اليقين» و«جواب في الإجماع وخبر التواتر» و«قاعدة في كيفية الاستدلال على الأحكام بالنص والإجماع والرد على من قال إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين» و«قاعدة في تقرير القياس» و«قاعدة في الاجتهاد والتقليد في الأحكام» مجلد،

و«مؤاخذة لابن حزم في الإجماع».

٣- **في العقيدة والإيمان:** الاستغاثة، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، الإكليل في التشابه والتأويل، الإيمان، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، تعارض الحسنات والسيئات، تعليقة على فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني، الحسنة والسيئة، الرد على تأسيس التقديس للرازي، رسالة في أمراض القلوب وشفائها، شرح العقيدة الأصفهانية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، الفرقان بين الحق والباطل، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات، قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار، معارج الرسول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول، منظومة في القدر، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، النبوات، الواسطة بين الحق والباطل، الاستقامة، الرسالة الحموية، الرسالة التدمرية، الرسالة الواسطية، رسالة الاحتجاج بالقضاء والقدر، رسالة في مراتب الإرادة، الرسائل البعلبكية، والكيلانية، والبغدادية، والأزهرية، معارج الوصول، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في الرد على عقائد المسيحية.

٤- **في التفسير**: أقسام القرآن، أمثال القرآن، تفسير سورة الإخلاص، تفسير سورتي المعوذات، تفسير سورة النور، جواب أهل العلم، والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، دقائق التفسير ستة أجزاء جمعه محمد السيد الجلينود، قاعدة في الاستعاذة، مقدمة في أصول التفسير، حققها ونقحها الأستاذ الدكتور عدنان زرزور

في طبعة أنيقة.

٥- **في الحديث**: شرح حديث أبي ذر رضي الله عنه القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» شرح حديث النزول، وشرح حديث خطبة الحاجة، وشرح حديث «بدأ الإسلام غريباً» وشرح حديث «المرء مع من أحب» وشرح حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وشرح الحديث القدسي «من عادى لي ولياً»، وشرح حديث «فحجَّ آدم موسى» وشرح حديث «لا يزني الزاني وهو مؤمن» وشرح حديث «وما ترددون عن شيء» وشرح حديث «لا يرث المسلم الكافر» وشرح أحاديث القصاص التي اشتهرت على ألسنة الناس، وصنف كتابه الشهير «الصارم المسلول على شاتم الرسول» وشنع تقي الدين فيه على رجل من أهل الكتاب نال من الرسول وشتمه، فاعتقله نائب السلطنة بدمشق (٦٩٣هـ) ثم أطلق سراحه معززاً مكرماً.

٦- **في المنطق**: درس تقي الدين المنطق اليوناني، ليهدمه، كما درس الفلسفة ليعرفها ويهدمها، وكان شديد النقد لعلوم المنطق والفلسفة، وصنف كتابه «نقض المنطق» و«الرد على المنطقيين» وبين انحراف المنطقيين، وأسبابه، وأنه يمكن الاستغناء عنه، ولكن ذلك لا يعني عداوته للعقل بل أطلق العنان له، ودعا إلى تحريره من التقليد حتى عانى في سبيل ذلك الويلات، وتعرض لمحن، وصنف كتابه الجليل «موافقة صحيح المنقول صريح المعقول» و«الجمع بين النقل والعقل».

٧- **مساهمته في العلوم الأخرى،** فقد أتقن العربية أصولاً وفروعاً

وتعليلاً واختلافاً[1]، وأجاد في علم الصرف والنحو، وبرع في النحو، وقرأ كتاب سيبويه في النحو وفهمه وأثنى عليه ومدحه، مع بيان ما ورد فيه من خطأ، وكان يجادل أبا حيان في النحو، وإن لم يُعرف بأنه نحوي.

وقال ابن تيمية الشعر وبرع فيه لكنه لم يعرف كشاعر، ولم يمتهن الشعر، لكنه يحتج به عند الحاجة، كما تعجب مؤرخ الإسلام الذهبي من معرفة ابن تيمية بالتاريخ والسير[2]، وأيد ذلك تلميذه ابن قيم الجوزية، وكان أحد فرسان الوعظ والإرشاد، وله كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وكان سباقاً في ميدان التربية والسلوك وتزكية النفس، فكان كالطبيب يعالج الناس، ويشخص الداء ويضع الدواء المناسب، مستعيناً بالبراهين والحجج والأدلة ومعتمداً على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الموضوع مع شرحه لها، وذكره لأقوال السلف الصالح في مواضعها، مركزاً على أن القلب هو الأصل، وداعياً إلى صلاح القلب والمحبة، وأن ينبوع الخير وأصله هو الإخلاص له، وأن التقوى هي العمل بطاعة الله، ومؤكداً على حلاوة الإيمان، والافتقار إلى الله، وأن العلم هو أنفع شيء للخواص والعوام، وداعياً إلى الخلق الحسن معلناً الصبر الجميل على البلوى، وأن أصل العبادة والطاعة والاستقامة أن لا يعبد إلا الله وأن يعبد بما أمر وشرع حصراً، لاجتناب البدع، مع الحث على الزهد النافع المشروع، وكان تقي الدين يدعو لذلك ويلتزم به، ويطبقه على نفسه.

---

(١) شذرات الذهب ٦/٨١.

(٢) العقود الدرية ص٢٣، زاد المعاد ٣/١٥٣.

◈ أعماله ومناصبه:

كانت مواهبه الفطرية في الذكاء والنجابة وقوة الحافظة الواعية مع الانكباب على طلب العلم، والأخذ عن العلماء، عوامل مساعدة لنضجه، فتأهل للفتوى والتدريس، وهو دون العشرين، ثم مات والده في وقت مبكر (٦٨٢هـــ) وكان عمره إحدى وعشرين سنة فتولى أعمال والده في التدريس والإفتاء، وبقي مواظباً على التدريس نحواً من ستة وأربعين عاماً.

وكانت دروسه نوعان، دروس عامة يلقيها على الجماهير في المسجد الأموي الجامع يرشدهم لاتباع الحق والسنة، ويحذرهم من الابتداع، وكان مواظباً على هذه الدروس حيثما رحل في مصر وغزة.

والنوع الثاني دروس خاصة يلقيها على تلاميذه الذين اختصوا بالمدارك العالية ليحملوا علمه، ويقوموا بعده، ويلتزموا منهاجه، وأكثرهم من الحنابلة.

وانصرف -مع التدريس والفتوى والوعظ والإصلاح- إلى التأليف والتصنيف، فألف في مختلف العلوم كما سبق، واستفاد من حبسه للتفرغ للتأليف، لكن تفرقت مصنفاته وكتبه، ثم تم جمعها، ونشر معظمها في هذا العصر.

◈ ثناء علماء عليه:

كان تقي الدين علماً شامخاً، مجتهداً مصلحاً، وكان مالئ الدين وشاغل الناس، وانقسموا عليه منذ القديم حتى اليوم إلى قسمين، الأول: مؤيد له محب له حتى بالغ بعضهم في محبته والثناء عليه، وغالى آخرون في التعصب له وتقديمه، وسماه كثير منهم بـــ«شيخ الإسلام».

والقسم الثاني: مخالف له، ومتوقف في آرائه، حتى أعلنوا له العداوة والبغضاء، وسعوا للنكاية به، والتشهير به عند حكام زمانه، وفيما بعد، مع

الكيد له في حياته والإنكار على فتاويه وآرائه، وطلبوا محاكمته، وسجن بسبب ذلك في مصر والشام عدة مرات، وذكرت التراجم له، فقال الصفدي: «الشيخ الإمام العالم العلامة، المفسر، الفقيه المجتهد، الحافظ المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف والذكاء والحافظة المفرطة...»[1].

ووصفه ابن الزملكاني فقال: «كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله».

وقال الحافظ ابن حجر في وصفه: «نظر في الرجال والعلل، وتفقه وتمهر، وتميز وتقدم، وصنف ودرس، وأفتى وفاق الأقران، وصار عجباً في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، والإطالة على مذهب السلف والخلف»[2].

◈ مكانته ومحنته وسجنه:

اشتهر اسم تقي الدين ابن تيمية في الآفاق، وذاع صيته في عصره، وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والجرأة في قول الحق لا يخاف لومة لائم، مع الشجاعة في نشر الدين، وبيان الأحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد البدع وهدم الخرافات والأوهام، والدعوة إلى الإصلاح الديني، والوقوف في وجه التتار، وتقديم النصح للحكام، مع الإقدام على إعلان اجتهاداته التي يقتنع بها ويقوى دليلها، ولو خالف ذلك سائر المذاهب

---

(١) الوافي بالوفيات ١٥/٧.

(٢) الدرر الكامنة، لابن حجر ١٥٥/١، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٧٣/٧، ٣٥٠/١١، ١٥٦/٢١، ١٦١، طبع مؤسسة الرسالة ط٤- بيروت، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٨٦م.

والعلماء في عصره، ونقلت آراؤه إلى سائر البلدان.

طلب تقي الدين إلى مصر لمناقشته وسماع فتاويه وأقواله فأعلنها، فتعصب عليه جماعة من أهلها، ونقلوا أمره إلى الحاكم، وخوّفوه من نشرها وخطرها على الناس، فسجن سنتين (٧٠٥-٧٠٧هـ)، كما لحقه إيذاء معنوي من بعض العلماء، حتى وصل إلى الضرب من العامة نتيجة لتحريض حساده فضرب في حي الحسينية بالقاهرة، كما وقف بعض العلماء ضده، واتهموه بالخروج عى مذهب أهل السنة وإجماع الأمة مما حمل الحكام إلى سجنه، ثم أطلق سراحه، واستمر في تدريسه ووعظه ومنهجه وإبداء آرائه فتجمع الناس حوله، فأحس حساده بخطره، فسجن مرة ثانية سنة (٧٠٨هـ) ثم نقل إلى سجن الاسكندرية نفياً حتى خرج في شوال (٧٠٩هـ).

ولما علم بأمره الملك الناصر بن قلاوون سنة (٧٠٦هـ) أعجب به، فقربه، وأكرمه، وعقد له مجلساً حافلاً للمجادلة والمناظرة مع القضاة والفقهاء وأعيان الدولة.

ثم عاد الشيخ تقي الدين إلى دمشق سنة (٧١٢هـ) للجهاد ضد التتار، وقاد الأمة إلى الوقوف في وجههم وقابل قادتهم، وذكرهم بالظلم والمظالم.

وأصدر فتواه في مسألة الطلاق الثلاث أنه يقع واحدة وليس ثلاثاً، ومسألة الحلف بالطلاق أنه لا يقع، فاعترض عليه بعض علماء دمشق وكفّروه، وكتبوا إلى السلطان فمنعه من الفتوى (سنة ٧١٨هـ) وحبسه سنة (٧٢٠هـ)، ثم أطلق من حبسه (٧٢١هـ) ثم أعاده سنة (٧٢٢هـ) بسبب إنكاره شد الرحال إلى الأضرحة والقبور، ثم أطلق، وفي سنة (٧٢٦هـ) حمل عليه مخالفوه وأعداؤه وشنعوا عليه حتى حكم عليه بالسجن في قلعة دمشق،

وبقي فيها حتى مات. وباختصار فقد سجن عدة مرات بسبب مواقفه وآرائه واجتهاداته، وبسبب حساده، ومواقفه.

◈ وفاته:

مرض الشيخ ابن تيمية في سجنه بقلعة دمشق، ونزل به الألم، فامتنع عن الدواة والقلم، وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً، ولم يعلم الناس بذلك، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل في قلعة دمشق ليلة الاثنين في ٢٠ ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وذكر ذلك مؤذن مسجد القلعة على المنارة، وتكلم الحراس على الأبرجة، فبادر الناس من كل مكان إلى الاجتماع حول القلعة، واجتمع حشد كبير من الخاصة والعامة، يزورونه حتى أذن للنساء بعد الرجال يزرنه، وصُلي عليه أولاً بالقلعة، ثم حمل قبل الظهر إلى جامع دمشق الكبير فامتلأ الجامع وصحنه حتى ساحات الأبواب بالناس، وأحاط الجند بالجنازة لحفظها من شدة الزحام، حتى صاح أحدهم «هكذا تكون جنائز أئمة السنة»، ثم صلّوا الظهر، وصلّوا على الجنازة، مع البكاء والتهليل، ثم حملت الجنازة على الرؤوس والأصابع، واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم، وجلس النساء فوق الأسطحة حتى المقبرة، وألقى الناس على نعشه المناديل والعمائم والثياب، إلى أن وصلت الجنازة إلى مقبرة الصوفية ودفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله قبل العصر بيسير، وقد أزيلت هذه المقبرة، وأقيم عليها أبنية رئاسة جامعة دمشق، مع الحفاظ على قبر ابن تيمية وأخيه فقط حتى الآن.

وبعد وفاته بقيت ذكراه ماثلة في الأذهان، وارتفع شأنه، واستمر الناس حوله بين مؤيد ومحب، وبين معارض ومبغض، ولكن الأكثرية ينصفونه،

ويقرون بفضله وعلمه، مع التوقف في بعض آرائه، وأخذت معظم قوانين الأحوال الشخصية اليوم بآرائه الخاصة في الطلاق.

◈ مجموع فتاوى ابن تيمية:

وأخيراً نشير إلى أن معظم كتب ابن تيمية ورسائله وفتاويه طبعت بعنوان «مجموع فتاوى ابن تيمية» بالرياض سنة ١٣٨٢هـ ثم صورت سنة ١٣٩٨هـ، وفيما بعد، وذلك في ٣٥ مجلدة، جمعها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ابن عبد الرحمن القاسم، وبدأ المجموع بالعقائد (١-١٢) ثم بالتفسير (١٣-١٧) ومجلد عن الحديث (١٨) ومجلد عن أصول الفقه (١٩-٢٠) وخمسة عشر مجلداً عن الفقه (٢١-٣٥) ثم أضيف إليها ثلاث مجلدات للفهارس.

وهذا المجموع ثروة فقهية وعلمية عظيمة، تدل على علم ابن تيمية، ونشاطه الواسع، وأسلوبه القوي، وثقافته المتنوعة، وقلمه السيال، وطول نفسه في المناقشة الطويلة للآراء والأدلة، والفتاوى الجريئة والفريدة للمؤلف، وتجمع بين العلوم العقلية والنقلية، لكن فيها تكرار كثير، وفيها بعض الآراء الخاصة التي تخالف أقوال المذاهب وجماهير العلماء[١].

◈ أهم المصادر والمراجع:

١- البداية والنهاية في التاريخ الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ).

٢- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، دار الكتب الحديثة القاهرة- الطبعة الثانية- ١٣٨٥هـ/ ١٩٦١م.

(١) مرجع العلوم الإسلامية ص٥٣٥.

٣- الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، ابن ناصر الدين (٨٤٢هـ) تحقيق زهير الشاويش- المكتب الإسلامي- دمشق ١٩٨١م.

٤- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية- رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي من سلسلة أعلام المسلمين رقم ٧٩، دار القلم- دمشق- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٥- العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، محمد بن عبد الهادي (٧٤٤هـ) تحقيق حامد الفقي- طبع مطبعة السنة المحمدية- القاهرة- ١٩٣٨هـ.

٦- مرجع العلوم الإسلامية، الدكتور محمد الزحيلي- دار المعرفة- دمشق- ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

عاشراً: الصحابي حذيفة بن اليمان

صاحب سر رسول الله

اقتضت طبيعة الحياة أن تحتوي على ظواهر وبواطن، وأمور مكشوفة وأخرى مستورة وخفية، وهذه البواطن والخفايا تحتاج إلى قلوب كبيرة، وعقول واعية، وتربية عالية، ونفوس نقية، وذاكرة متميزة، وأهلية خاصة، وهي موجودة في كل زمان وعصر، وعلى المستوى العام والخاص، وكان رسول الله ﷺ يخص أسراره بأحد الصحابة ليكون صاحب سره في المنافقين، وأمين أسراره في المهمات، وهو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

◈ اسمه ونسبه ونشأته:

هو حذيفة بن اليمان بن جابر، العبسي، أبو عبد الله، حليف بني الأشهل، من الأنصار، واسم أبيه حُسَيْل، وقد أصاب دماً في قومه، فهرب إلى المدينة، وحالف بني عبد الأشهل من الأنصار، فسماه قومه باليمان، لأنه حالف الأنصار وهم من اليمن، وكان من السابقين للإسلام، فهو عاشر عشرة من بني عبس قدموا على رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم، وشهد غزوة أحد، واستشهد فيها، وأم حذيفة من بني عبد الأشهل، وتسمى الرباب بنت كعب الأوسية الأنصارية الصحابية المحبة لرسول الله ﷺ، وكانت من السابقات للإسلام مع نساء الأنصار، وكانت من المبايعات لرسول الله ﷺ، وكانت تحث ولدها على دوام الصحبة لرسول الله ﷺ وعدم مفارقته بعد إسلامه المبكر، ونشأته في البيت الإسلامي، واعتبر حذيفة من الأنصار لأنه كان حليفاً لبني عبد الأشهل وأمه منهم، مع أنه كان مهاجراً إلى المدينة، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين عمار بن ياسر رضي الله عنه، ولازم رسول الله ﷺ في

الحياة والدعوة، فاستفاد منه كثيراً، وتربى على يديه، وتخرج من مدرسته، ونهل من معين النبوة خلقاً وعبادة وسلوكاً وهدياً، وأرشده عليه الصلاة والسلام إلى كثرة الاستغفار لتقويم خلقه وتزكية نفسه، وكان حذيفة حريصاً على سؤال رسول الله ﷺ عن الشر ليتجنبه، ويحذر من الوقوع فيه، وكان يحسن كتمان السر فائتمنه الرسول ﷺ على أسماء المنافقين، فكان صاحب سره، وحافظ على ذلك ولم يبح ببنت شفة في ذلك.

◈ جهاده وأعماله:

كان حذيفة صادق الإيمان، ويعرف فضل الجهاد والشهادة، وكان مستعداً لتقديم الغالي والرخيص في سبيل الله، ولنصرة دينه، ولذلك حضر مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد إلا غزوة بدر التي تخلف عنها مع والده بسبب العهد الذي قطعاه للمشركين في ذلك، فأخبرا رسول الله ﷺ به، فطلب منهما التغيب عن بدر، وقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم» كما ثبت عند مسلم وأحمد والحاكم والطبراني، ولما استشهد أبوه خطأً في أُحد أراد رسول الله ﷺ أن يعطيه ديته، فتصدق حذيفة بالدية على المسلمين، فازدادت مكانته، وكان له دور بارز في غزوة الخندق في تحمل أعباء الدفاع عن المدينة المنورة مع رسول الله ﷺ، وظهرت خصاله الحميدة، وذكاؤه، وانضباطه، وقدرته في مجابهة الأحداث، ثم شارك في غزوة تبوك.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ كان حُذيفة وزير صدق للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ويسدي لهم النصيحة، ويشارك في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وبلغ الذروة في عهد عمر رضي الله عنه، الذي وجده موضع الثقة، والأهل للملمات، حتى قال: «أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح،

ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، فأستعملهم في طاعة الله»، وكان المشير في اختيار موقع مدينة الكوفة بعد فتح العراق، ثم ولاه عمر أرض السواد، ثم ولاه المدائن، وكان يحاوره في المسائل الفقهية، وقضايا الأمة، والأمور العويصة، واستمر على هذه الصفات الحميدة والولايات زمن عثمان رضي الله عنه الذي ولاه أيضاً ثغر أرمينية، وكان حذيفة أحد الذين نصحوا عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن ونسخه وتوزيعه، ثم أعلن بيعته لعلي رضي الله عنه، وعبّر له عن محبته له، وإخلاصه له، وأمر أبناءه صفوان وسعيداً بمبايعته ونصرته حتى استشهدا معه يوم صفين، وشارك حذيفة في الفتوحات أيام الراشدين فشهد القادسية، وفتح المدائن، وفتح الجزيرة، ونزل نصيبين، وشهد معركة نهاوند الحاسمة على رأس أهل الكوفة، ثم حضر فتح بلاد فارس وأذربيجان، وأرمينيا، وما وراء النهر.

◈ أخلاقه وصفاته وعلمه:

كان حذيفة رضي الله عنه يتمتع بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، فكان في منتهى الأدب والاحترام والمحبة لرسول الله ﷺ، وكان حريصاً على التزام السنة، واتباع الهدي النبوي في العبادة، وصلاة الليل، وصوم التطوع، وكان صبوراً، ومتسامحاً، مع الذكاء والفطنة والصراحة والأمانة والزهد والورع والتواضع، والإخلاص للدعوة والخلفاء، مع الجود والكرم، وصنع المعروف، والهيبة، وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقديم النصح وخاصة للخلفاء والولاة والأمراء، وكان كثير الرواية للأحاديث التي وصلت إلى كتب الصحاح والسنن، وروى عنه كثير من الصحابة والتابعين، وكان له مشاركة في تفسير القرآن الكريم، وكان حذيفة فقيهاً في معرفة الأحكام الشرعية والاجتهاد فيها واستنباطها من النصوص، لكنه كان يتحرج من الفتيا ورعاً

ومهابة واحتياطاً، فكان مُقلاًّ للفتيا، وأكثر اختصاصه كان في أحاديث الفتن للتحذير من الوقوع فيها، وعندما عاين بعضها في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما، كان متوازناً معها، ومحتاطاً لها، كما كان حذراً جداً من الفرق المنحرفة والفتن المشبوهة التي أطلت برأسها في زمنه.

◈ وفاته:

توفي حذيفة ﷺ بعد قتل عثمان ﷺ بأربعين يوماً، وذلك في نهاية محرم سنة ٣٦هـــ في المدائن بالعراق، وكان له خمسة أبناء، وقبره اليوم موجود في مسجد سلمان الفارسي بالمدائن بجانب قبر سلمان، وكان قبل وفاته مستعداً للقاء ربه، وقال قبل نزع روحه: «هذه آخر ساعة من الدنيا، اللهم إنك تعلم أني أحبُّك، فبارك في لقائك» فرضي الله عنه، وجمعنا وإياه تحت لواء سيدنا محمد ﷺ في الفردوس الأعلى، والحمد لله رب العالمين.

حادي عشر: الحسن البصري

العالم المجاهد

إن العلماء الأعلام كواكب تنير الطريق أثناء حياتهم، وهم مشاعل مضيئة بعد وفاتهم، وما أكثر العلماء الأعلام في التاريخ الإسلامي، الذين ضربوا بسهم وافر في مختلف الجنبات، وخلدوا أعظم الذكريات، وكانوا كبش الفداء في الملمات، وتركوا أعظم البصمات، ليستحقوا الخلود في الدنيا، والثواب والأجر في الآخرة، ومن هؤلاء العلامة الحكيم، الواعظ الزاهد، العابد الفقيه، المجاهد الوقور، التابعي المشهور الحسن البصري رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته.

◈ اسمه ونسبه ونشأته:

هو الحسن بن يسار، أبو سعيد، الملقب بالحسن البصري، كان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، ﷺ، وأمه خيرة كانت مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية رضي الله عنها.

ولد الحسن لسنتين بقيتا في خلافة عمر ﷺ أي سنة ٢٣هـ، وكانت أمه تخرجه لأصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير ليدعوا له، فدعا له عمر وقال: «اللهم فقهه في الدِّين، وحبّبه إلى الناس»، وإذا انشغلت أمه في خدمة أم سلمة تركته بين يديها فتسكته بثديها فيدر عليه، فنسب العلماء حكمته وعلومه إلى بركة تلك الرضاعة، وكان جميلاً وسيماً، مليح الصورة بهياً، قوي الجسم شجاعاً، وكان من أشد الناس، كثير الجهاد، وكان المهلب إذا قاتل المشركين يقدمه، وكان فصيحاً بليغاً خطيباً، وذلك بسبب تربيته على كبار الصحابة، والأخذ عنهم، وإذا أطلق «**الحسن**» في علوم الشريعة وكتبها فهو المراد.

◈ علومه:

اكتسب الحسن البصري رحمه الله تعالى علماً غزيراً من الصحابة في المدينة المنورة حتى صار من أشهر التابعين، وأكثرهم علماً وعملاً، وصار مبرزاً في علوم الدِّين.

ففي مجال **العقيدة** سار على نهج من قبله بالتزام العقيدة الصحيحة، وأحكام الإيمان السليمة، وتولى توضيحها للناس، مع الدفاع عنها، وبيان وجه الحق فيها، وردّ الشبهات التي أثيرت في جزئياتها، حتى عقد لذلك حلقات، وجرت معه مناظرات، وأثبت وجه الحق، كمسألة الإسراء، واحترام الصحابة، ومسألة القضاء والقدر، وأن فاعل المعصية لا يخرج من الإيمان، وأن باب التوبة مفتوح أمامه، للرد على الخوارج، وأن الإيمان قول وعمل للردعلى المرجئة، وأن الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي والذنوب، وثبوت شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة، وأن المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة، وثبوت الخلافة لأبي بكر الصديق ﷺ، وكان شديداً على الفرق المغالية التي خالفت أهل السنة والجماعة.

وفي مجال **التفسير** كان الحسن البصري صاحب القدم المعلى في بيان القرآن الكريم، وتفسير آياته، وتحديد المراد من بعض الألفاظ فيه، مما استفاده من الصحابة وعلم اللغة، ثم نقله عنه تلامذته والمفسرون بعده.

وفي **الحديث الشريف** كان الحسن البصري رحمه الله تعالى ثقة في الرواية، وأخرج أحاديثه كل من البخاري ومسلم وسائر أصحاب الصحاح والسنن، ووصفه الذهبي رحمه الله تعالى بقوله «**سيد التابعين في زمانه بالبصرة**، كان ثقة في نفسه، حجة، رأساً في العلم والعمل، عظيم القدر»

لكنه كان يرسل الأحاديث أحياناً إلى النبي ﷺ دون بيان سندها من الرواة، وروى عدد من التابعين الحديث عنه.

وكان الحسن البصري **فقهياً مبرزاً، ومجتهداً في بيان الأحكام**، وله آراؤه الاجتهادية التي نقلها عنه العلماء، ووصلت إلى سبع مجلدات، وكان لها تأثير في تابعي التابعين من الفقهاء والعلماء.

أما في مجال **الوعظ والآداب** فكان الحسن البصري واعظاً مؤثراً، وخطيباً مفوّهاً، ومتكلماً جذاباً، ومتحدثاً حكيماً، واشتهر بالحكمة في أقواله ومواعظه، مع البلاغة والفصاحة في كلامه وأسلوبه، ونقلت عنه الحِكم البليغة، والعبارات المؤثرة في النفوس والتربية والتهذيب والزهد في الدنيا والتحذير من مفاتنها. فمن ذلك قوله «والله، ما أعزّ أحد الدرهم إلا أذله الله» وقوله «ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك» وقوله «المؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً» وقوله في كلام طويل «فاتق الله يا ابن آدم، وليكن سعيك في دنياك لآخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شيء إلا ما صدَّرت أمامك»، وقوله «من كانت له أربع خلال حرمه الله على النار، وأعاذه من الشيطان، من يملك نفسه عند الرغبة، والرهبة، وعند الشهوة، وعند الغضب» وقوله: «ابن آدم، تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، وأنت المعني، وإياك يراد» وقوله «يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في خير فنافسهم، وإذا رأيتهم في هلكة فذرهم وما اختاروا لأنفسهم» وقوله «ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت» وقوله «رحم الله امرءاً كسب طيباً، وأنفق قصداً، وقدَّم فضلاً» وقوله: «يا ابن آدم إن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس ههنا شيء

يغنيك، وإن كان يغنيك ما يكفيك، فالقليل من الدنيا يغنيك» وقوله «الناس في العافية سواء، فإذا نزل البلاء تبين عنده الرجال، وإذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه، والمنافق إلى نفاقه»، إلى غير ذلك من الحكم والأقوال البليغة.

◈ وفاته:

كان عمر الحسن البصري، رحمه الله تعالى مديداً، وكان مليئاً بالعلم والعمل، واحتل مكانة رفيعة في عصره عند العامة والخاصة، وعرفوا قدره فالتفوا حوله، وأخذوا عنه، حتى بلغ الثامنة والثمانين، وجاءه الأجل المحتوم بالبصرة ليلة الجمعة أول يوم من رجب سنة عشر ومئة، وصلى الناس عليه بعد صلاة الجمعة، وكانت جنازته مشهودة، وشيّعه الخلق، وازدحموا عليه، واشتغلوا بدفنه حتى صلاة العصر، وبقي علمه على أثره، ينتفع به الناس، تصديقاً لقوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، نسأل الله تعالى حسن العمل، وحسن الخاتمة، والوفاة على الإيمان، والحمد لله رب العالمين.

ثاني عشر: السبكي (تاج الدين)

(٧٢٧هـ/١٣٢٧م) (٧٧١هـ/١٣٧٠م)

إن التاريخ الإسلامي مشحون بالأئمة المجتهدين، والفقهاء الأجلاء، والعلماء في مختلف الفنون، حتى صُنفت كتب الطبقات في كل علم، كطبقات الفقهاء في كل مذهب، وطبقات المحدثين، والمفسرين، والأصوليين، والأطباء، والأدباء، والشعراء، وعلماء الكلام (العقيدة والتوحيد) والصوفية، والمؤرخين، وغيرهم، وظهرت كتب التراجم العامة التي تجمع بين العلماء من عدة فنون كوفيات الأعيان، وسير أعلام النبلاء، وطبقات ابن سعد، والأعلام للزركلي، وأعلام النساء، وظهرت كتب التراجم لعصر ما، كالدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، والبدر الطالع فيما بعد القرن السابع، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، وبعضها تناول علماء بلد معين، كحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، وتاريخ علماء الأندلس، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، وغيرها كثير، مما يغذّي الفكر والعقل، ويبهج النفس والروح في قراءتها ومطالعة السِّير فيها، ومنهم تاج الدين السبكي، المعروف بابن السبكي.

◈ اسمه ونسبه:

هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، نسبة إلى سُبُك، وهي قرية من أعمال محافظة المنوفية بمصر.

ولد بالقاهرة في بيت عريق في العلم والتقوى، والرياسة والنباهة، والشرف والشهرة، فأبوه قاضي القضاة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ) الفقيه الشافعي، المحدث المفسر، الأصولي المناظر، النحوي اللغوي، تفقه على والده، ورحل إلى القاهرة، وحصّل العلوم

المختلفة، وصار بارعاً فيها، ورحل إلى الإسكندرية والحجاز والشام في طلب الحديث، وتولى التدريس بالقاهرة وغيرها، ثم ولي القضاء بالشام سنة ٧٣٩هـ، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأموي والتدريس بدار الحديث، ثم مرض فنزل عن منصب القضاء لولده تاج الدين، وتوجه إلى القاهرة فأقام فيها عشرين يوماً ثم مات، وله مصنفات عدة منها «تكملة المجموع شرح المهذب» و«السيف المسلول على من سبَّ الرسول» و«الابتهاج في شرح المنهاج للنووي» في الفقه، و«الإبهاج في شرح المنهاج للبيضاوي» في أصول الفقه، وكان قاضياً عادلاً، صارماً، واعتنى بولده كثيراً.

◈ نشأته:

نشأ تاج الدين السبكي بالقاهرة، ووجهه أبوه توجيهاً علمياً صادقاً، فحفظ القرآن في صغره، ونشأ على الجد والدرس، وتلقى العلم عن أبيه، وتبحر في أصول الدين، وأصول العربية، والتشريع، وأخذ عن علماء مصر كأبي حيان النحوي الكبير، والمقدسي.

ولما عين أبوه بالشام قاضياً للقضاة رحل معه، واستقر بدمشق، واتخذها وطناً، وأخذ عن شيوخها ومحدثيها كالحافظ الذهبي، والحافظ المِزي، وابن أبي اليسر تمام، وزينب بنت الكمال، وتقي الدين بن رافع، وتفقه في المذهب الشافعي على ابن النقيب محمد بن أبي بكر (٧٤٥هـ) حتى صار فقيهاً شافعياً، وأصولياً، ومؤرخاً، وعالماً بالعقيدة، وماهراً في الحديث والأدب، وشارك في العربية والنظم والنثر.

◈ مكانته ومناصبه:

بلغ التاج السبكي منزلة علمية رفيعة، ومكانة عالية، حتى وصل إلى درجة

الاجتهاد في الفقه، وأعلن ذلك، ولم يرد عليه أحد في ذلك، وصار من أركان المذهب الشافعي الذابيّن عنه، والمؤيدين له، لكنه كان يمقت التعصب المذهبي، ويدعو للوفاق والاجتماع، وجواز الأخذ من بقية المذاهب للمصلحة والحاجة.

تولى المناصب العلمية الرفيعة في سن صغيرة، منها منصب توقيع الدَسْت عن نائب دمشق أمير علي المارديني، وهي وظيفة جليلة في دار العدل بجوار كاتب السر للأمير.

ثم تولى نيابة الحكم عن أبيه الذي عين قاضياً للقضاة بمصر لمدة ثم عاد، فجمع تاج الدين بين الوظيفتين، ثم ولي التدريس في مدارس دمشق، واشتغل بالإفتاء، واعتلى خطابة الجامع الأموي، ثم تولى القضاء سنة ٧٥٦هـ بعد والده، وانتهت إليه رياسة القضاء والمناصب المتعددة بالشام، وكان صارماً في قضائه لا يلين في الحق، ولا يرهبه حاكم أو سلطان، وجرت عليه أثناء توليه القضاء محن شديدة بسبب الحسد ومخالفة الرأي، وعزل عن القضاء، وسجن في قلعة دمشق ثمانين يوماً، فصبر، وخرج من السجن بريئاً، سليماً، لم تنل منه، ولم تغض من شأنه، وأعيد إلى عمله مكرماً معززاً، وعفا عن خصومه وحساده، وكان يخالف آراء الشيخ تقي الدين بن تيمية وأتباعه، فكادوا له حتى حكم عليه قاضيهم بالسجن.

◈ تصانيفه:

رزق التاج السبكي حسن التصنيف، واشتهرت في حياته وبعد مماته، وترك آثاراً علمية نافعة وكثيرة، منها:

١- جمع الجوامع في أصول الفقه الذي انتقاه من مائة كتاب في الأصول، وفرغ منه سنة ٧٦٠هـ، وهو عمدة عند الأصوليين، وعليه شرح

المحلي، وحاشيتا العطار والبناني، وكلها مطبوعة.

٢- تكملة شرح «منهاج الوصول للبيضاوي» أكمل ما بدأه والده لهذا المختصر العجيب المعتمد المشهور في أصول الفقه، وطبع بمصر بعنوان «ترشيح الترشيح في أصول الفقه».

٣- شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وسماه «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب».

٤- معيد النعم ومفيد النقم، وفيه بيان نعم الله على الإنسان وأسباب بقائها، ودواعي النقم والابتلاء، وفيه تحليل اجتماعي، وبيان لطبقات المجتمع، واهتم به المستشرقون وطبعوه، ثم طبع بمصر.

٥- أوضح المسالك في المناسك، أي مناسك الحج والعمرة وأعمالهما.

٦- التوشيح على «التنبيه للشيرازي» وهو من أهم مختصرات المذهب الشافعي.

٧- الأشباه والنظائر في القواعد الفقهية، على المذهب الشافعي، وطبع حديثاً.

٨- طبقات الشافعية الكبرى التي فرغ منها سنة ٧٦٦هـ، وطبعت في ست مجلدات، ثم في عشر مجلدات محققة، وعرض فيها تراجم علماء الشافعية ابتداء من الشافعي وتلاميذه، ثم طبقات الشافعية في كل قرن، حتى منتصف القرن الثامن الهجري قبيل وفاة المصنف، وتدل على علم غزير، وأدب رفيع، وجهد كبير، ثم اختصرها في الطبقات الوسطى، ثم في الطبقات الصغرى، ليسهل تناولها، ولتتناسب مع مختلف المستويات.

وله مصنفات أخرى في علم الألغاز، والفتاوى، وكلها تدل على غزارة

علمه، وسعة اطلاعه، ورسوخه في العلوم، وكانت حياته القصيرة (٤٤ سنة) مليئة بالإنتاج العلمي.

◈ وفاته:

بقي التاج السبكي في منصب قاضي القضاة بالشام وعدة وظائف حتى أصيب بالطاعون سنة ٧٧١هـ في مترله بالدهشة بظاهر دمشق بالمزة، فمات ودفن في مقبرة السبكية، بسفح قاسيون، وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق، وفيه مقبرة أهل الصلاح.

◈ المراجع:

١- أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، مطبعة المدني، القاهرة- ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م.

٢- عبد الله مصطفى المراغي، الفتح المبين في طبقات الأصوليين، تصوير الطبعة الثانية- بيروت- ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٣- عبد الوهاب بن علي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة- ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

٤- محمد الزحيلي، مرجع العلوم الإسلامية، دار المعرفة- دمشق- ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ثالث عشر: سعيد بن جبير

التابعي- الفقيه- المفسر

يفرق الفقهاء بين الاتباع والتقليد، وأن التقليد هو قبول قول الغير بغير دليل أو حجة، والاتباع هو الأخذ بقول الغير اعتماداً على الدليل والحجة، ولذلك يقول العلماء: نحن متبعون للإمام لا مقلدون، لأنهم يعرفون دليله، ويقتنعون بقوله، ويوافقونه في الرأي، كما يقولون: نحن متبوعون لا مبتدعون، وهذه منقبة ومحمدة للعالم، بخلاف التقليد، فإنه منقصة له، وقد يكون مذمة لعقله ورأيه.

وجاء الاتباع في القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء للصحابة رضوان الله عليهم لاتباعهم رسول الله ﷺ عن حجة وبرهان، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ثم أثنى القرآن الكريم على من أتى بعد الصحابة رضوان الله عليهم، واتبع أقوالهم عن حجج، والتزم آراءهم عن دليل، وسلك منهجهم بإحسان، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والتابعون هم الطبقة الثانية من المسلمين، وهم القرن الثاني من القرون المشهود لها بالفضل والخيرية، وهم الذين رأوا الصحابة، وأخذوا عنهم، وتحملوا منهم الدعوة والرسالة، وأدوها حقَّ الأداء، وظهر فيهم الخلفاء والقادة والحكام والولاة والعلماء والدعاة والأئمة والفقهاء، ومنهم العلامة سعيد بن جبير رحمه الله تعالى.

◈ اسمه ونسبه:

هو سعيد بن جبير، الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو محمد، ويقال أبو عبد الله، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد، التابعي، وكان أعلمهم على الإطلاق، سأله ابن عباس: ممن أنت؟ قال: قلت: من بني أسد، قال: من عربهم أم من مواليهم؟ قلت: بل من مواليهم، قال: فقل: أنا ممن أنعم الله عليه من بني أسد.

◈ ولادته ونشأته:

ولد سنة ٤٥هـ/٦٦٥م، وأخذ العلم عن عبد الله بن عباس خاصة وروى عنه فأكثر وجوّد، ثم عن ابن عمر وابن الزبير، وعبد الله بن مغفل، وعائشة، وعدي بن هاشم، وأبي موسى الأشعري وأبي هريرة، وأبي مسعود البدري، والضحاك بن قيس، وأنس، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، وروى عن التابعين مثل أبي عبد الله السُّلمي، واستقر بالكوفة.

وقرأ القرآن على ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، وطائفة، وحدّث عنه كثير من التابعين وتابعي التابعين، وأخرج حديثه أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

◈ مكانته وفضله:

كان سعيد بن جبير من كبار العلماء، وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال: أتسألوني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيداً، وكان فقيهاً، مقرئاً، ويقال له: جهبذ العلماء، وكان أكثر التابعين علماً ومكانة، وهو من أوائل مفسري القرآن، وكان ثقة في الحديث، ثبتاً من الطبقة الوسطى من التابعين كالحسن البصري وابن سيرين، وكان فقيهاً، عالماً

بالحساب والفرائض، وكان أعلم التابعين بأحكام الطلاق، وكان يقصّ كل يوم مرتين بعد الفجر وبعد العصر، وكان مؤثراً في الوعظ، وكان يبكي الحاضرين لكنه لا يقوم من المجلس حتى يضحكهم بالبشائر، وكان كثير الصلاة ويطيل فيها القراءة، وكان كثير التلاوة يختم القرآن في كل ليلتين، وكان كثير الذكر لله تعالى، وكان يحرم في كل سنة مرتين، مرة للحج، ومرة للعمرة، وكان يؤم الناس في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما، ودخل الكعبة فقرأ القرآن في صلاته، وكان لا يترك أحداً يغتاب عنده، وقدم أصبهان زمن الحجاج وأخذ عنه الناس العلم.

◈ من أقواله المأثورة:

وردت عنه أقوال مأثورة كثيرة مقترنة بالالتزام والتطبيق، وله حكم جامعة، منها قوله: «التوكل على الله جِماع الإيمان» وكان يدعو «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك» ويقول: «إن الخشية أن تخش الله حتى تحول خشيتك بيني وبين معصيتك، فتلك الخشية» ويقول: «الذكر: طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر من التسبيح وتلاوة القرآن» وسأله هلال بن خبّاب: ما علامة هلاك الناس؟ قال: «إذا ذهب علماؤهم» وقال: «إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة، فذكرُ الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره».

◈ وفاته:

لما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن، فذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه

وإليها خالد القسري، وأرسله إلى الحجاج الثقفي بالعراق، وقدم معه مناظرة رائعة وطريفة، ولم تلن قناته، ولم يغير رأيه، ودعا عليه فقال: «اللهم أعن على فاسق ثقيف» وقتله بواسط في شعبان سنة ٩٥هـ/٧١٤م، وقبره بواسط، ومات الحجاج بعده في رمضان سنة ٩٥هـ، وعاش سعيد ٤٩ سنة، ولم يكمل الخمسين من عمره.

قال ميمون: «لقد مات سعيد بن جبير، وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه»، وكرر ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: «قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه» رحمه الله رحمة واسعة، ونفع الله بعلمه، والحمد لله رب العالمين.

◈ المصادر:

١- سير أعلام النبلاء ٤/٣٢٤.

٢- شذرات الذهب ١/١٩٨.

٣- تقريب التهذيب ص ١٧٤ رقم ٢٢٧٨.

٤- الطبقات الكبرى ٦/٢٦٧.

٥- الأعلام ٣/٩٣.

رابع عشر: سعيد بن المسيّب

أفضل التابعين

لقد فجر الإسلام طاقات الأمة، وتربى على مائدة القرآن أجيال كثيرة، وكان أفضلها جيل الصحابة الذين كانوا أفضل جيل عرفه التاريخ، ثم جيل التابعين الذين تبعوا الصحابة بإحسان، ثم من بعدهم، وهذا ما صرّح به الحديث الشريف بقوله ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» وحمل الصحابة الرسالة الإسلامية فأدوها خير الأداء، ثم سار على نهجهم التابعون الذين تحملوا الرسالة من الصحابة ثم أدوها بدورها خير الأداء، وظهر في التابعين الأئمة والعلماء والدعاة والزهاد والقادة والحكام والولاة والخلفاء والحكماء والقضاة وغيرهم فكانوا كوكبة متلألئة في التاريخ الإسلامي، وكان سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى **سيد التابعين**، وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «سعيد بن المسيب **أفضل التابعين**».

◈ اسمه ونسبه وشهرته:

هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب، أبو محمد، المخزومي القرشي، المدني، شيخ الإسلام، وإمام التابعين، وأجلّهم، وأحد فقهاء المدينة السبعة (وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وخصوا بهذه التسمية، لأن الفتوى بعد الصحابة صارت إليهم، وشهروا بها مع وجود غيرهم، وكانوا في المدينة في عصر واحد، وعنهم انتشر العلم والفتيا في البلاد، وكانوا مرجع الناس والقضاة والحكام). وكان أبوه وجدّه صحابيان أسلما يوم الفتح، وكانا من سادات العرب، ومن أرومة عريقة، واستشهد جده يوم اليمامة سنة

١٢هـ في محاربة المرتدين.

ولد سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى سنة ١٥هـ (٦٣٦م) بعد سنتين من استخلاف عمر بن الخطاب ﷺ، سنة ١٣هـ، ورأى سعيد عمر وسمع منه، ومن كبار الصحابة في المدينة المنورة التي كانت حاضرة الخلافة الراشدة، وموئل العلم والعلماء، ومركز الإشعاع والصلاح والتقوى، ومأوى الفقهاء، ودار الحديث.

وجمع سعيد بن المسيب بين الحديث والفقه، مع الصلابة في الحق، والاستقامة في السلوك. تأثراً بصحابة رسول الله ﷺ، وتأسياً بالسنة الشريفة، والسيرة النبوية، حتى لقب سعيد **براهب قريش**، مع الورع والجرأة في الفتيا، وتزوج ابنة الصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ، وله عدة أولاد، منهم محمد الذي صار نسابة في عصره.

◈ مكانته:

كان سعيد صالحاً، ولا يأخذ عطاء من الحكام وبيت المال، ويعيش من التجارة بالزيت، وكان متين الديانة، فقيه النفس، قوالاً بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم، وله مواقف مشهودة مع ولاة بني أمية وخلفائهم، وكان يقال له: **فقيه الفقهاء**، وهو أعلم الناس بالحلال والحرام، وكان أحفظ الناس للسنة، ولآراء أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في القضاء، وكان يحفظ أقضية عمر وأحكامه، حتى سمي **راوية عمر** ﷺ، كما كانت أكثر روايته المسندة للأحاديث عن أبي هريرة ﷺ، وكان يقول: «من استغنى بالله افتقر إليه الناس» ويقول: «قلة العيال أحد اليسارين» وله قصة طريفة في امتناعه من تزويج ابنته لابن الخليفة عبد الملك بن مروان، ثم زوجها لتلميذه كثير ابن أبي وداعة.

وكان سعيد رحمه الله تعالى متواضعاً، حسن الأخلاق، كثير العبادة،

ويسرد الصوم، وحج أربعين حجة، وواظب على صلاة الجماعة والصف الأول خمسين سنة، وكان يصلي الفجر بوضوء العشاء، وشهد الفتوحات الإسلامية وازدهار العلم والفقه، والفتن الكثيرة السياسية والفكرية التي نشبت في عصره، وهو يتعمق في فهمها ودراستها واستقصاء المعاني لها، والفتوى فيها، حتى سمي (**الجريء**) بسبب علمه وسعة نظره وقوة حفظه، وعمقه في الاجتهاد في مستجدات عصره، مع الالتزام بالسنة ومقاصد الشريعة، وكان **أحد الفقهاء السبعة** في المدينة كما سبق.

وروى عنه كثير من التابعين، وتابعي التابعين، وآلاف من الطلاب، وأحاديثه التي رواها مدّونه في كتب الصحاح والسنن وسائر كتب السنة، قال الزهري: «كنت أطلب العلم من ثلاثة: سعيد بن المسيب وكان أفقه الناس،... وعروة، وعبيد الله» وقال الخزرجي عنه: «**رأس علماء التابعين وفردهم وفاضلهم وفقيههم**».

◈ وفاته:

توفي سعيد بن المسيب في المدينة المنورة سنة ٩٤هـ (٧١٣م) وله حوالي ثمانين سنة، ودفن بالبقيع، ويقال لهذه السنة «**سنة الفقهاء**» لكثرة من مات فيها من فقهاء أهل المدينة، وقد وصى قبل وفاته بالالتزام بالآداب الشرعية والسنة النبوية في تشييعه ودفنه، وكان أثناء مرضه يصلي مستلقياً إيماناً برأسه، متزوداً بالعمل الصالح ليكون نجاة له في الآخرة، دون أن يفتن بالدنيا، أو تغره زخارفها، ويعتبر العلم وسيلة لخشية الله تعالى والحصول على رضاه، وكسب الثواب.

رحم الله سعيد بن المسيب وأجزل مثوبة، وعوض المسلمين خيراً. والحمد لله رب العالمين.

خامس عشر: السلقيني

الفقيه، الإداري، المفتي

الحمد لله القائل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والصلاة والسلام على رسول الله القائل: «العلماء ورثة الأنبياء» رواه البخاري معلقاً، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان والبيهقي.

ورضي الله عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان، وعنا معهم، إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كنت مسافراً في شوال عام ١٤٣٢هـ الموافق أيلول (سبتمبر) ٢٠١١م حين وردتني رسالة بالجوال تنعى إليَّ الأخ الفاضل، والزميل الكريم، الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد سلقيني، مفتي حلب، إثر عملية جراحية، ومضايقات نفسية أودت بحياته، ولقي وجه ربه راضياً مرضيا.

وعادت بي الذكريات إلى استعراض الصفحات التاريخية التي عشت فيها معه، مع أنه أكبر مني سناً، لأنه من تولد ١٩٣٤م، وسمعت به كثيراً في أوائل السبعينات من القرن العشرين، وأنا مدرس في كلية الشريعة، وهو عضو في مجلس الشعب السوري، ثم تقدَّم للالتحاق بهيئة التدريس بكلية الشريعة، بجامعة دمشق، وتم تعيينه في قسم الفقه الإسلامي وأصوله.

فتأصلت الزمالة معه في التدريس، **وكان يدرس الفقه الإسلامي وأصول الفقه**، فكان دمث الأخلاق، حسن المعشر، لطيف المعاملة، محبباً للطلبة، ناصحاً لهم، ومحبباً للفقه ومعرفة الأحكام الشرعية، مع الدعوة

بالالتزام بالشريعة والأخلاق الإسلامية، وكان الطلبة يلتفون حوله، ويبادلونه حباً بحب، مع الاحترام والتقدير، وصنف كتاب «الفقه الإسلامي» في العبادات لطلبة السنة الأولى في الكلية، بشكل مبسط، وعرض جميل، وأسلوب ناصع، وترتيب منطقي، واستعراض للجوانب العملية والتطبيقية في العبادات، ونال حظوة كبيرة، واستمر يدرس هذا الكتاب طوال عمله في الكلية، وبقي يُدرس بعد ذلك لسنوات، لحسن بيانه، ونجاحه في تحقيق أهداف التدريس والتربية وحاجات الطلبة، ومقررات الدراسة، فاستفاد الطلبة والناس من هذا الكتاب، الذي تخرج به الآلاف، ويصدق عليه حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد، فكتاب «الفقه الإسلامي» علم ينتفع به إن شاء الله تعالى.

وبمناسبة ما ورد في الحديث الشريف، فإن الأستاذ الدكتور السلقيني ينتفع من الفقرة الثالثة أيضاً «أو ولد صالح يدعو له»، فله أولاد صالحون، وأتقياء، وبررة إلى الدرجة العليا، مع الأدب الرفيع، والخلق السامي، حتى كنت أصف ابنه الكبير، الدكتور محمد، بأنه كالعذراء في خدرها، من شدة أدبه، وحيائه، وتواضعه، واحترامه لأبيه وللعلماء وللناس أجمعين، وكذلك ابناه أحمد، ومحمود، وأسمع بصلاح ابنته طبيبة الأسنان، وسائر أولاده، حفظهم الله تعالى، وجعلهم قرة عين لوالديهم، وذخراً لهما في الدنيا والآخرة، وبارك الله فيهم، ليكونوا خير خلف لخير سلف.

وكان الدكتور السلقيني يمارس أثناء التدريس والتأليف النشاط الديني والاجتماعي مع الناس، وطبقات المجتمع، ويحتل مكانة مرموقة، واحتراماً كاملاً.

وفي الثمانينات عين عميداً لكلية الشريعة بجامعة دمشق، فكان إدارياً ناجحاً، في التزام النظام، والمحافظة على الوقت، وحسن المعاملة المثالية مع زملائه أعضاء هيئة التدريس في الكلية، والجامعة، ومع الهيئة الإدارية في الكلية، ويحسن إدارة الأمور في الوقت الحساس نحو الكلية والشريعة والدين، ويقف مدافعاً عن الكلية ومدرسيها وطلابها وموظفيها بحكمة، وأسلوب لطيف، فيحقق الأهداف، دون أن يتنازل عن المبادئ والقيم والحقوق، وكان في الإدارة هادئ النفس، ولم يسمع أنه رفع صوته إلا مرة واحدة عندما تطاول مدرس في التعليم العالي، وهو أحد مندوبي وزارة التعليم العالي للكلية، على منصب العميد ومجلس الكلية، وأساء الأدب، وخرج عن القيم الدينية، فغضب الدكتور السلقيني لله تعالى، ووقف موقفاً صلباً، وتضافر معه أعضاء هيئة التدريس في الكلية بالتهديد بالاستقالة الجماعية حتى يطرد هذا المدرس، وينهى ندبه للكلية، وهو ما تمَّ فعلاً.

وكنت في فترة عمادته وكيلاً لكلية الشريعة للشؤون العلمية، ولمست منه عن قرب طيب المعشر، وحسن الإدارة، وسلامة الأسلوب في رعاية الكلية، والسير فيها إلى بر الأمان داخلياً وخارجياً.

وبعد انتهاء عمادة الدكتور السلقيني في جامعة دمشق، طلبته كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، لتولي العمادة فيها، وإدارة دفتها، نظراً لعلمه، وسمعته الطيبة، وإدارته الحكيمة، وحصل ذلك، وانتقل إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، وبقي فيها عميداً أكثر من عشر سنوات، ينظم أمور الكلية، ويرعى شؤونها، العلمية والإدارية، ويحظى باحترام الجميع من مختلف الجنسيات، ومن الطلبة والإداريين.

وفي أثناء عمادته في دبي دعاني أستاذاً زائراً للتدريس في الكلية في قسم الدراسات العليا، بشكل مكثف، ولمدة محددة، وألقيت على طلبة الدراسات العليا محاضرات في حقوق الإنسان في الإسلام، مقارنة بالأنظمة الدولية والقانونية، ثم طبعت مجدداً بعد التعديل والتنقيح والزيادة، واستمر التعاون بيني وبين الدكتور السلقيني عندما عينت عميداً لكلية الشريعة، بجامعة الشارقة، فازدادت العلاقة الشخصية والعلمية توثيقاً، وتم التعاون العلمي معه في مجال نشر البحوث في مجلة الكلية، والمشاركة في مناقشة رسائل الماجستير، وغير ذلك.

ثم استقال الأستاذ السلقيني من عمادة الكلية، وعاد إلى بلده الأصلي في حلب، فوقع عليه الاختيار ليكون **مفتياً** لمدينة حلب، وكان رحمه الله تعالى يمارس الإفتاء غير الرسمي منذ تخرجه من جامعة الأزهر، وأثناء عمله في مجلس الشعب، والتدريس في كلية الشريعة، وإدارتها، وتابع الإفتاء غير الرسمي في دبي، وكانت الأسئلة تطرح عليه في جميع الأماكن، وتوجه إليه الاستفسارات الشرعية، فيجيب عنها حتى تولى منصب الإفتاء الرسمي بحلب، وتفرغ له، فكان موفقاً في فتاويه، وملتزماً بالأحكام الشرعية، وحكيماً في القضايا المفصلية والحساسة، ويبين حكم الله تعالى في المسائل دون أن يعرف عنه شذوذ، أو ينقل عنه انحراف، أو ممالأة للسلطات والمسؤولية والأشخاص، وآمل أن تجمع فتاويه لتنشر، ويعم النفع بها.

رحم الله الفقيد الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد سلقيني، وتغمده الله بواسع رحمته، وأنزل عليه شآبيب مغفرته، وجمعنا الله به تحت لواء سيدنا محمد، مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً، والحمد لله رب العالمين.

سادس عشر: سَلَمَة بن مُسْلم العُوتَبي الصُّحاري

العلامة- الفقيه- المؤرخ

أشرق نور الإسلام في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم عمّ وانتشر إلى أنحاء المعمورة، وفتح العقول والقلوب، وأنجبت الأمة الإسلامية العلماء والمفكرين في جميع الأقطار الإسلامية، فتركوا لنا تراثاً زاخراً، وثروة غنية، ونوراً مشعاً، وهذا نموذج لعلماء الخليج العربي في عُمان في القرن الخامس الهجري.

◈ اسمه ونسبه ونشأته:

هو سَلَمة بن مُسْلم بن إبراهيم العُوتبي، أبو مسلم، الصُّحاري، نسبة إلى صُحار (بضم الصاد) التاريخية، وهي قصبة أو ناحية عمان مما يلي البحر، واسمها مشتق من الصحراء كما ذكره ياقوت في «معجم البلدان».

ولا يعرف بالضبط والدقة تاريخ ولادته وتاريخ وفاته، وعرف بالاستنتاج والترجيح أنه من علماء القرن الخامس الهجري.

وتتأكد هويته ونشأته العمانية من لقبه المنسوب إلى صُحار، ومن شعوره القوي بالولاء والانتماء إلى وطنه وأهله، ثم من اهتمامه بذكر فضائل عمان ودورها التاريخي في الجاهلية والإسلام.

◈ كتبه ومؤلفاته:

يعتبر سلمة بن مسلم العُوتبي الصُّحاري فقيهاً، ومؤرخاً، وعلامة في النسب والأدب والبلاغة والحكمة والأمثال، (كما صرح في كتاب الأنساب ١/١٠٣) وأهم كتبه:

١- **الأنساب (أو موضح الأنساب)**: وهو جزءان، وهو موسوعي في مادته،

إذ يضم إلى جانب علم النسب معلومات تاريخية، وقصصية، ولغوية، وأدبية، ودينية كثيرة.

ويتحدث الكتاب عن أنساب البشر وأخلاقهم منذ بدء الخليقة، فيتحدث عن آدم وأبنائه حتى تفرع البشر إلى شعوب وقبائل، ثم يركز على أنساب العرب، ويفصل القول في قحطان وهو جد العرب الجنوبيين حتى يصل إلى تاريخ عمان، ومن نزلها من العرب، وبخاصة «الأَزْد»، ويبرز دور عُمان في صدر الإسلام، مما يدل على تمكنه من علم الأنساب، ويقع الكتاب في مجلدين ٧٥٠ صفحة، وقدمت له دراسة في ١٣٧ صفحة، وطبعتها وزارة التراث القومي والثقافة بمسقط، عمان، عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، وتكررت طباعة الجزأين عدة مرات، مع التحقيق، الجزء الأول، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ /١٩٩٤م، والجزء الثاني، ط٣- ١٤١٥هـ/١٩٩٤م بتحقيق محمد علي الصليبي.

٢- **الضياء**، وهو كتاب كبير جامع بين علوم العقيدة والشريعة ويقع في ٢٤ جزءاً، طبع منها ١٨ جزءاً، فيبحث في صفات الله، ثم الأحكام الفقهية، وحققه الشيخ رزق هيبة من علماء الأزهر، وطبعته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م، وما بعدها، ويجمع في الأحكام الفقهية مختلف أبواب الفقه، وبعض أبواب الحسبة، وسائر أحكام الحياة، وفيه بعض أحكام أصول الفقه، ومصادر التشريع من القرآن والسنة، ويعتمد على الأخبار، وينقل أقوال العلماء ويحدد أسماءهم، ويذكر مسائل واقعية من أحوال الناس لبيان الحكم الشرعي فيها، مما يدل على سعة علمه، وكثرة اطلاعه ومعرفته بالأحكام

الفقهية، وجمعه لأقوال العلماء، مما يقربه من منهج الفقه المقارن الذي شاع سابقاً.

ويسعى العلماء والباحثون لتتبع أخبار العوتبي، وكشف حياته، ونشأته، ومعرفة المزيد عن كتبه ومصنفاته المفقودة أو التي لا تزال في حيز المخطوطات المحفوظة في المكتبات الخاصة والعامة.

٣- كتب أخرى:

أشار العُوتبي رحمه الله في أثناء كتابه الأنساب وغيره، أنه سبق له تأليف كتاب «الحكمة في الحِكم والأمثال» وصنف بعد كتاب الأنساب كتاب «محكم الخطابة في الخطب والرسائل» ثم كتاب «ممتع البلاغة في الوفود والوافدات» وكتاب «أنس الغرائب في النوادر والأخبار والفكاهات والأسمار» وهذا يدل على غزارة علمه، وأفقه الموسوعي، مع كتاب «الإبانة» في اللغة، وتم تحقيقه، وطباعته الآن في عُمان في ثلاث مجلدات

ولم يتم العثور على أكثر هذه الكتب، وهذا مثال على عظمة تراثنا الإسلامي الذي فقد جزءاً منه، ولا يزال القسم الثاني مجهولاً، كما أن العوتبي نموذج من أعلام الأمة الذين قدموا في حياتهم الكثير، وإن لم يصلنا عنهم إلا القليل، ولكن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، وكل ذلك مدّخر في صحائف الأعمال ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنين إلا من أتى الله بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين.

سابع عشر: السمهودي (علي بن عبد الله)
(٨٤٤-٩١١هـ) (١٤٤٠-١٥٠٦م)
مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها

◈ اسمه ونسبه:

هو علي بن عبد الله بن أحمد الحسني، الشافعي، نور الدين، أبو الحسن، السمهودي، نسبة إلى سمهود، وهي قرية كبيرة في صعيد مصر، ويقال لها: سمهوط، على شاطئ غربي النيل قرب فيره شوط.

ولد في سمهود في صفر ٨٤٤ هـ، وكان أبوه عالماً بها، وكذلك كان جده أحمد المعروف بالشريف السمهودي، وله إخوة علماء أيضاً ذكرهم السخاوي.

◈ نشأته:

نشأ في بلده، ولازم والده، وحفظ القرآن الكريم، والمنهاج في الفقه الشافعي، وقدم القاهرة مراراً، أولها سنة ٨٥٨هـ، ثم استوطن القاهرة، وكان يذهب لبلده لزيارة أهله، وعين في القاهرة معيداً لدرس الحديث.

ودرس الفقه والحديث وأصول الفقه، والعربية والتفسير والتوحيد والتصوف، وأتقن هذه العلوم، وأذن له بالإفتاء، والتدريس، وناب في القضاء، وكان أهالي الصعيد يقصدونه ليصلح بينهم محتسباً لله تعالى.

استيطانه المدينة المنورة:

ذهب السمهودي للحج، ثم توجه إلى طيبة (المدينة المنورة) فقطنها سنة ٨٧٣هـ، ولازم فيها الدراسة على الشيخ الأبشيطي والشيخ أبي الفرج محمد المراغي وحضر دروسهما في الفقه والتفسير والحديث، وتزوج في المدينة،

وأذن له الأبشيطي بالتدريس، وقدم إلى مكة في رمضان سنة ٨٨٦هـ قبل حريق المدينة فسلم من الحادثة، لكن احترقت جميع كتبه، وكانت شيئاً كثيراً، ثم سافر إلى القاهرة رفيقاً لابن العماد، ولقي فيها السلطان فأحسن إليه بمرتب، ثم أوقف السلطان وغيره أوقافاً كثيرة على المدينة بتذكير من السمهودي، وسافر لزيارة أمه التي ماتت بعد لقائه لها، ثم زار بيت المقدس، وعاد إلى القاهرة ثم المدينة، ثم مكة فحج، ثم رجع إلى المدينة مستوطناً، وابتنى بها بيتاً، وصنف معظم كتبه، وصار شيخ المدينة ومؤرخها ومفتيها وعالمها ومدرسها، وانتفع به جماعة من الطلبة في الحرمين، ومع ذلك كان يتكسب بالبيع والشراء بنفسه أو عن طريق مندوبه، وربما عامل الشريف أمير المدينة علي أرضه وماله. وقرأ عليه خاصة أهل المدينة، بحيث قل منهم من لم يقرأ عليه، وصار الإمام القدوة ، والتقى به العلامة السخاوي بمكة والمدينة أكثر من مرة، وغبطه على استيطانه المدينة، وترجم له في كتابه «الضوء اللامع»، وأثنى عليه كثيراً، وأنه متميز بالتدين والورع والصلاح والزهد والعبادة والجد والصبر في طلب العلم، وأنه لقي كثيراً من السلاطين والأمراء الذين وثقوا به، وأوكلوا إليه بعض الأعمال العلمية والمالية في القاهرة والمدينة، وذكرهم بأعمال الخير فاستجابوا له، وقاموا بإصلاحات متعددة تنفع الناس.

وأثنى العلماء على السمهودي لدرجته العلمية، حتى قال السخاوي: «وبالجملة فهو إنسان فاضل متفنن متميز في الفقه والأصلين، مديم للعمل والجمع والتأليف، متوجه للعبادة وللمباحثة والمناظرة، قوي الجلادة على ذلك، طلق العبارة فيه، مغرم به، مع قوة نفس، وتكلف، مع مخاشنه أحياناً» في المناظرة.

◈ **مؤلفاته:**

كان السمهودي مكباً على التأليف، وصنف عدة كتب، أهمها:

١- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبوع قديماً في مجلدين، وهو أجمع وأوسع المصادر في تاريخ المدينة المنورة، وما ورد في فضلها، وأحكام حرمها، جمع فيه ما وصله من المصادر التي ألفت قبله، وأضاف إليها الكثير من المعلومات الصحيحة الموثقة حتى عرف بأنه مؤرخ المدينة ومفتيها، وقرظه كاتبه وعلماء عصره، وقرئ بعضه عليه بمكة المكرمة.

٢- خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، طبع حديثاً في مجلدين مع التحقيق الواسع، وهو اختصار للكتاب السابق.

٣- مختصر خلاصة الوفا لما يجب لحضرة المصطفى، وهو اختصار للخلاصة.

٤- اقتفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، احترق قبل تمامه.

٥- جواهر العقدين في فضل الشرفين: العلم والنسب، ويوجد منه نسخ خطية كثيرة.

٦- الفتاوى، وهي مجموع فتاواه في مجلد.

٧- الغماز على اللماز، رسالة في الحديث الشريف، مخطوط.

٨- رد السموط في شروط الوضوء، رسالة مطبوعة.

٩- الأنوار السنية وأجوبة الأسئلة اليمنية، مخطوط بالرباط.

١٠- العقد الفريد في أحكام التقليد، جزء صغير مخطوط بالرباط مع نسخ متعددة متفرقة.

١١- أمنية المعتنين بروضة الطالبين، شرح وحاشية على الروضة في الفقه الشافعي للنووي، وصل بها إلى باب الربا.

١٢- الإفصاح، وهو حاشية على الإيضاح في مناسك الحج للنووي.

١٣- فرش البسط المنقوشة، بين فيه حكم بسط الفرش المنقوشة رداً على من نازعه في ذلك، وقرضه له علماء القاهرة.

◈ المراجع:

١- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين- بيروت ط١١، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.

٢- عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب- طبعة المقدسي- القاهرة- ١٣٥٠ هـ.

٣- محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع- دار مكتبة الحياة- بيروت- د.ت.

٤- ياقوت بن عبد الله الحموي، مراصد الاطلاع، دار صادر- بيروت- د.ت.

ثامن عشر: الإمام الشافعي

الشافعي رحمه الله تعالى هو أحد أئمة المذاهب الفقهية، وإليه ينسب المذهب الشافعي الذي ينتشر في أقطار الأرض، ويعول عليه المسلمون في معرفة أحكام الشرع في العبادات والمعاملات وغيرها، وينتسب إليه آلاف الأئمة والعلماء والفقهاء الذين خدموا المذهب ونقحوه وطوروه، وصنفوا فيه آلاف الكتب.

◈ اسمه ونسبه:

هو محمد بن إدريس، أبو عبدالله الشافعي القرشي، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في عبد مناف، والشافعي نسبة لجد جده شافع بن السائب.

◈ ولادته ونشأته:

ولد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى بغزة سنة ١٥٠هـ، ثم انتقلت به أمه إلى مكة وعمره سنتان، وتربى صغيراً في أكناف عائلته، ومرت نشأته بالمراحل التالية:

١- نشأ بمكة المكرمة، وترعرع بجوار الكعبة المشرفة، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وأخذ تفسير القرآن الكريم عن علماء مكة الذين ورثوه عن ترجمان القرآن ومفسره الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وقد اشتهرت مكة بذلك، وكانت مجمع العلماء، وأخذ الشافعي الفقه والعلوم الشرعية عن جلة علمائها حتى أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي بالإفتاء، وهو ابن خمس عشرة سنة.

٢- رحل الإمام الشافعي إلى المدينة المنورة ليأخذ العلم عن علمائها المشهورين بالحديث، وقصد الإمام مالك، وأخذ عنه كتابه «الموطأ» مشافهة بعد أن حفظه على ظهر قلب في مكة وهو ابن عشر سنين،

ولازم الإمام مالكاً، وتفقه عليه، ودارسه في المسائل التي يفتي بها، كما استفاد من جميع علماء المدينة، فأخذ عنهم السنة، وأتقن علوم الحديث، ثم دافع عنها، وبين مكانتها من القرآن الكريم، وردَّ شبه المنحرفين عنها حتى لقب **بناصر السنة** أو **ناصر الحديث**.

٣- خرج الإمام الشافعي إلى البادية، ولزم قبيلة هزيل التي أعرقت بالشعر، وتعلم كلامها، وأخذ اللغة عنها، وكانت أفصح العرب، فاستفاد منها- مع كونه عربياً قرشياً- المعرفة الواسعة باللغة والشعر، وأصبح كلامه حجة في اللغة، ونقل شعر الهذليين، واكتسب فصاحة اللسان وجودة النطق، واتقن أسرار اللغة وبيانها، فساعده ذلك على فهم معاني القرآن والسنة، مع القوة في التعبير، والرصانة في الأسلوب.

٤- سافر الإمام الشافعي في سبيل طلب العلم إلى العراق، وأخذ عن الإمام محمد بن الحسن فقه العراقيين، فجمع بين علم الحجاز في علوم القرآن وعلوم السنة، وبين علم العراق في الفقه والرأي، أي جمع بين علم النقل وعلم العقل، والتقى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى واستفاد منه المزيد في الحديث، وأعطاه في المقابل الفقه وأصول الفقه.

٥- رحل الإمام الشافعي إلى اليمن وردس فيه علم الجدل والمناظرة والمنطق، وأصبح مناظراً من الطراز الأول. وتولى باليمن القضاء مدة وجيزة.

٦- عاد الإمام الشافعي إلى مكة ليستفيد من موسم الحج، ويجتمع مع كبار العلماء في العقيدة والتفسير والحديث والفقه واللغة، وكان يجادلهم ويناظرهم بعد أن اجتمع فيه رجاحة العقل، وسعة الاطلاع، وفصاحة اللسان، وقوة البيان، ورصانة الأسلوب، فكان كما قال عنه الإمام أحمد

رحمه تعالى: «الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس (الفقه المقارن) والمعاني، والفقه» وكتب في مكة «الرسالة» في أصول الفقه، وهو أول من دوَّن علم أصول الفقه، ثم كتب في مكة والعراق مذهبه القديم في الفقه.

٧- وأخيراً رحل الإمام الشافعي إلى مصر، واستقر فيها، واستفاد من علمائها، وتكونت عنده خبرة واسعة، واطلاع شامل، فكتب مذهبه الجديد، وصنف كتابه القيم «الأم» في الفقه، كما أعاد صياغة «الرسالة» في أصول الفقه، وجعلها مقدمة لكتابه «الأم».

◈ إنتاجه وآثاره:

أهم كتب الإمام الشافعي «الرسالة» في أصول الفقه، و«الأم» في الفقه، و«جماع العلم» في حجية خبر الآحاد في الحديث، و«إبطال الاستحسان» للرد على القائلين به، و«اختلاف الحديث» وهو أول كتاب من نوعه في هذا الموضوع، و«أحكام القرآن» في آيات الأحكام، و«القياس» وكان الإمام الشافعي شاعراً مفطوراً، ومجيداً، ومحلقاً، ولكنه تعَّمد عدم الإكثار من قول الشعر، وقال:

ولولا الشعر بالعلماء يـــزري   لكنت اليوم أشعر مـــن لبيـــد

وله «ديوان» في الحِكم الخالدة، والآداب الرفيعة، وتزوج الإمام الشافعي وترك عددا من الأولاد، أخذوا عنه الأدب والتربية والفقه.

◈ وفاته:

بقي الإمام الشافعي في مصر حتى توفي بها سنة ٢٠٤هـــ ودفن في قرافتها، وله قبر مشهور، وترك ذكراً خالداً، وتلاميذ عدة وأصحابا قاموا

بنقل مذهبه، والعكوف على كتبه، وملأت ذكراه العطرة البلاد، وكأنه حي، تحقيقاً للحديث الشريف «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، وعلم ينتفع به، وصدقة جارية» وينطبق عليه قول الشاعر:

ارفع لنفسك قبل موتك ذكرها   فالذكر للإنسان عمر ثان

رحم الله الشافعي، وأسكنه فسيح جنانه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً، والحمد لله رب العالمين.

تاسع عشر: الشيخ الصابوني

العالم، صاحب المواقف المجيدة

الحمد لله الذي أعز العلماء، والصلاة والسلام على رسول الله القائل «العلماء ورثة الانبياء» وعلى آله وأصحابه الغر الميامين أجمعين الذين كانوا علماء وفقهاء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وكانوا خير جيل عرفه التاريخ، مع حمل الدعوة ونشر الإسلام في الخافقين، وبعد:

فقد عرفت الأخ الفاضل، والأستاذ الجليل، الشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله تعالى، ومتع بعمره، ونفع بعلمه، منذ أكثر من ثلاثين سنة، عندما التقينا به في رحاب جامعة أم القرى بمكة المكرمة (وكان اسمها جامعة الملك عبد العزيز- شطر مكة) وزاملناه في التدريس وفي الندوات، والمحاضرات، واللقاءات الأخوية، فعرفنا فيه الشخصية الفذة، والآراء الجريئة في الحق، والمبادرة إلى تقديم النصيحة والوعظ والإرشاد، وإبداء الأقوال الموافقة للقرآن والسنة، مع شدة الحماس، وقوة الاندفاع، حتى كنا نرى فيه الفتوة والشباب وقد ناهز -في ذلك الوقت- الخمسين من العمر، واستمرت المعرفة ومتابعة أعمال الشيخ، وصموده أمام العواصف، والتعصبات المقيتة، والعصبيات العنصرية، والتشنجات في الآراء الضيقة، حتى أصبح في نظري **صاحب المواقف الحميدة**، ويمثل جانب الرجولة الصادقة في سبيل الدعوة والحق.

وتشعبت المعرفة بالشيخ علميّاً، فاقتنيت معظم كتبه ومؤلفاته، وعرفت سائر إنتاجه الذي يصب نحو اللقب الجميل الذي اختاره لنفسه، ويسجله على كتبه، وهو «خادم الكتاب والسنة» فكان صادقاً في اللقب، وصائباً في الاختيار، ومحققاً للمضمون، وخاصة تفسير كتاب الله تعالى بمناهجه المختلفة،

بدءاً من «مختصر تفسير ابن كثير» إلى «صفوة التفاسير» وانتهاء بالوجيز الموسوم بـــ«درة التفاسير» وكلها واضحة الهدف والمقصود، سهلة المأخذ، قريبة المتناول، تصلح لجميع المستويات الفكرية والثقافية، وإلى جميع مستويات الطلبة، وكنت باستمرار أنصح العامة، والطلبة، والباحثين إلى هذه الكتب، ثم ظهر كتابه «شرح رياض الصالحين» باختصار وإيجاز، مما يسهل نشره، وتتوسع دائرته، لأن كتاب «رياض الصالحين» أنفع كتب السنة، وأكثرها انتشاراً في العالم اليوم بعد القرآن الكريم، فجاء الشيخ -جزاه الله خيراً- فوشح الهوامش بالبيان، وتوضيح المفردات، والمصطلحات، فازداد نوراً على نور، حتى نال الشيخ بحق واستحقاق وجدارة جائزة «الشخصية الإسلامية» في دبي، وتجلت فيه الرجولة، والمواقف، والهمة، والنشاط، والحيوية، والعطاء، وقد جاوز الثمانين.

جزى الله الشيخ الصابوني خير الجزاء، ونفع الله بعلمه، ومتع الله بعمره، وأكثر من أمثاله، وبارك الله في أولاده وذريته، وفي طلابه وتلامذته، وفي أصدقائه ومحبيه.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين

عشرون: عبد الله بن رواحة[1]

الشاعر الأمير الشهيد

إن من النعم الإلهية أن يمنح الإنسان عطايا متنوعة ويتفوق في كل منها، ليصل إلى القمة والذروة، وهذا ما تحقق بالصحابي الجليل عبد الله بن رواحة.

والمعروف أن الحرب تكون باللسان والحسام، وقد جمع هذا الصحابي الجليل السلاحين معاً، بل كان أميراً متميزاً وزعيماً مطاعاً وفارساً مقداماً حتى نال الشهادة والخلود في جنات النعيم، لخصاله الكريمة، وأعماله الجيدة في سبيل الدعوة الإسلامية، وحظي بفضل الصحبة والرضا من الرسول ﷺ.

◈ اسمه ونسبه:

هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة، ويرتقي نسبه إلى امرئ القيس الأكبر، وهو خزرج، أنصاري من بني الحارث في يثرب، ويكنى بأبي محمد، أو أبي رواحة، وأمه كبشة بنت واقد، يتصل نسبها بنسبه عند جده مالك الأغر، وكان النعمان بن بشير رضي الله عنه ابن أخته عمرة. وليس لعبد الله عقب.

◈ نشأته وإسلامه:

تمتاز أسرته بالفروسية والسيادة والتضحية والشعر في الجاهلية والإسلام، ونشأ عبد الله تنشئة حسنة في الجاهلية، كان يقرأ ويكتب من صغره، وقرض الشعر صغيراً، ولما اشتد ساعده صار شاعراً خطيراً يمثل جانب الخزرج، مقابل شاعر الأوس قيس بن الحطيم.

وقد أسلم عبد الله بن رواحة قبل الهجرة، في بيعة العقبة الثانية في مكة

---

(١) المنبر الجامعي، العدد ٢٣- أكتوبر ٢٠٠٣م- السنة ٣.

مع السبعين، وعينه رسول الله ﷺ أحد النقباء الاثني عشر، ورجع إلى المدينة لينشر النور فيها حتى هاجر إليها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام، فآخى عليه الصلاة والسلام بين عبد الله بن رواحة والمقداد بن عمرو، وأصبح عبد الله شاعر النبوة، وأحد أمناء الوحي، يكتبه بين يد الرسول ﷺ.

◈ جهاده ومشاهده:

كان عبد الله فارساً مقداماً وزعيماً فريداً، فشارك في معركة بدر الكبرى، وله فيها مواقف مشهودة، وأسرع للمبارزة مع صناديد قريش، وبعد الانتصار المبارك أسرع عبد الله ليزف البشرى لأهل المدينة بذلك، ثم حضر موقعة بدر، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وتألم لمقتل حمزة رضي الله عنه، ورثاه شعراً، ولما خرج رسول الله ﷺ في بدر الصفراء بعد أحد استخلف على المدينة عبد الله ابن رواحة، فكان أميراً لعاصمة الإسلام، ثم شهد غزة الخندق، وكان رسول الله ﷺ يشارك الصحابة في حفر الخندق، ويرتجز بأبيات عبد الله بن رواحة:

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ثم شارك الأمير الشاعر المجاهد في غزوة المريسيع، وأمّره رسول الله ﷺ على سرية من ثلاثة نفر لمواجهة تآمر أسير بن رزام اليهودي في ناحية خيبر، ومعرفة خبره في جمع كتائب اليهود لقتال المسلمين، ولما جاء الخبر أرسله أيضاً أميراً في سرية في ثلاثين رجلاً، ولما أراد زعيم اليهود الغدر به أسرع إليه فضربه وقطع رجله فهجم عليه اليهودي فشجه في رأسه. ولما عاد مسح رسول الله ﷺ على وجهه وبارك شجته فلم يصبه منها أذى، ثم بعثه رسول

الله ﷺ إلى خيبر بعد فتحها ليقدر الزرع والثمار، وحاولوا رشوته، فصدهم وأقام فيهم العدل والإنصاف.

وشارك عبد الله في غزوة الحديبية، ثم رافق رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، وكان يسير بين يديه آخذاً بزمام ناقته، وهو يرتجز بشعره الإسلامي الرقيق ويهجو المشركين وقال فيه رسول الله ﷺ: «فوالذ نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل».

◈ استشهاده:

لزم عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ في جميع الأوقات وقام بالدعوة بالقلم والحسام حتى جاءت السنة الثامنة من الهجرة فبعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة ليؤدب من قتل حامل كتاب رسول الله ﷺ صاحب بصرى بالشام، وقال عليه الصلاة والسلام: «زيد بن الحارثة أم الناس فإن قتل فجعفر ابن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرضى المسلمون رجلاً بينهم فيجعلوه عليهم»، وخرجت السرية إلى مؤتة في ثلاث آلاف، وأوصاهم الرسول ﷺ وصية رائعة خالدة في آداب القتال وخطته ومنهجه، وودع الأمراء رسول الله ﷺ والمسلمين، وقال ابن رواحة شعراً رقيقاً مؤثراً في الوداع، وطلب وصيته الخاصة به فوصاه بأمور سامية، وكان عبد الله يتغنى بالشعر ويطلب الشهادة، ووقعت الحرب القاسية الطاحنة وقتل الأمراء الثلاثة شهداء بعد قتال مرير، وتضحيات جسيمة، وكان عبد الله يتغزل بالجنة ويشتاق إليها شعراً أثناء المعركة حتى تولى القيادة، وطعن، ثم صرع بين الصفين، وهو يوصي جنده بالثبات، ثم وصل الخبر من السماء إلى الرسول ﷺ فتأثر تأثراً كثيراً ونعاهم إلى المسلمين إلى أن قال: «ثم أخذ الراية عبد الله بن

رواحة فقاتل حتى قتل شهيداً» في جمادة الأولى السنة الثامنة للهجرة ٦٣٠م، رحمهم الله رحمة واسعةً ورضي الله عنه وعن أصحابه الشهداء، حتى بكى المسلمون شهداء مؤتة.

وهكذا شارك عبد الله بتشييد صرح عظيم للإسلام قبل الهجرة، وبعدها، وفي السلم والحرب، والإمارة والشعر الخالد الذي تحلو له النفس، ويرتاح له المؤمن حتى قال فيه الرسول ﷺ «رحم الله ابن رواحة، أنه كان يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة».

وله مناقب كثيرة، وخصال حميدة، تستحق المطالعة والدراسة. والحمد لله رب العالمين.

الحادي والعشرون: الصحابي عبد الله بن عبّاس

حَبر الأمة وترجمان القرآن

ما أشبه ابن عباس بالبدر في كبد السماء ليلة النصف من الشهر، فإنه يبدأ هلالاً، ثم يتدرج في التمام حتى يبلغ الكمال، مع فارق أن البدر يعود أدراجه للصغر شيئاً فشيئاً، أما سنة الله في الخلق والبشر فتكون بقبض الروح دفعة واحدة لينتقل صاحبها إلى الحياة الأبدية فإن كان علماً تلألأ ذكره بعد وفاته، وبقي أثره تتنفع به الأجيال، وهذا شأن حبر الأمة وترجمان القرآن الصحابي الفذ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

◈ اسمه ونسبه:

هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله ﷺ، ومن دوحة بني هاشم المتميزة، ومن قريش ذات الحسب والنسب والفضل والشرف، وأبوه العباس هو أبو الفضل عم رسول الله ﷺ الذي ولد قبل النبي بسنتين، وكان إليه سقاية الحجيج في الجاهلية، وأسلم في مكة سراً وبقي فيها حتى قبيل فتحها، وكانت أول مشاركته بالجهاد يوم حنين، وكان الرسول ﷺ يجله ويعظمه ويعتبره بمنزلة الوالد، ويقول عنه: «هذا بقية آبائي»، وأم عبد الله هي أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية أخت أم المؤمنين ميمونة زوج النبي ﷺ، وأسلمت أمه قبل الهجرة وكتمت إسلامها وولدت عبد الله قبل الهجرة بثلاث سنوات أثناء حصار الشِّعب، وكان له ١٣ سنة لما توفي رسول الله ﷺ.

◈ نشأته وتربيته:

أسلم عبد الله وهو صغير بتأثير أمه وتربيتها وتوجيهها، وبقي معها في

مكة، وكانا من المستضعفين الذين تعذرت عليهم الهجرة، حتى استطاع ذلك قبيل فتح مكة بعد إسلام أبيه فهاجرا معاً، وشهدا فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وبايع رسول الله ﷺ وهو صغير للالتزام بأمر الله والدفاع عن العقيدة، وعاش في كنف الرسول ﷺ ولازمه حتى الوفاة، وكان يبيت عند خالته ميمونة زوج النبي ﷺ، وقد ينام هو ورسول الله ﷺ في بيت واحد، وعلى وسادة واحدة، فاطلع على حياته، وكان مثله الأعلى في السلوك، وكان عليه الصلاة والسلام يداعبه، وأردفه يوماً خلفه، وبايعه مع الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا، وتعرف نظرياً وعملياً على هديه ﷺ في العبادة والورع والتقوى والتطبيق الكامل للإسلام، فسار على نهجه، واقتدى بسيرته، وحفظ سنته، ثم كان أحد الستة المكثرين بالرواية عنه وعن كبار الصحابة للأحاديث والأحكام، ثم صحب عمر ﷺ الذي عرف مكانته، وقربه، وجعله في مجلس الشورى مع كبار الصحابة، وقال فيه «نعم ترجمان القرآن ابن عباس ولا يلومني أحد على حبه».

◈ علمه وفضله:

كان ابن عباس رضي الله عنهما فذاً ومتفوقاً في الذكاء، والعقل، والحافظة، والفطنة التي وهبه الله تعالى، ثم أورقت وأثمرت وأينعت بملازمته رسول الله ﷺ ثم بفضل دعائه له «اللهم فقّهه في الدِّين، وعلّمه التأويل» فكان من كبار الفقهاء حتى سمي حبر الأمة، وتعمق في تأويل القرآن وتفسيره حتى سمي ترجمان القرآن، وبرع في شتى ميادين العلم والمعرفة فكان فقيهاً، ومفسراً، ولغوياً، وقارئاً، ومحدثاً، وأديباً، وخطيباً، وشاعراً، وأتقن تحصيل هذه العلوم، ثم تولى تدريسها، وقصده الصحابة والتابعون لأخذها عنه، وقسم وقته لتدريس كل منها في وقت محدد.

واشتهر ابن عباس رضي الله عنهما بثلاثة علوم وهي الفقه والتفسير والحديث، ويعتبر ابن عباس رضي الله عنهما من كبار فقهاء الصحابة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ يرجع إلى رأيه، وكذلك كثير من الصحابة، وكان يقوم بالفتوى لبيان الأحكام الشرعية للناس، فكان أحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتيا بعد رسول الله ﷺ وكانوا مكثرين فيها، حتى صار له مدرسة تتسم بالتساهل واليسر في الأحكام، كما أسس مدرسة التفسير في مكة وأخذ عنه سائر الصحابة وكبار التابعين التفسير وعلوم القرآن حتى جمع بعض الباحثين آراءه في التفسير المنسوب إليه، ثم كان من المحِّدثين البارزين عن رسول الله ﷺ مع التحرز والاحتياط في الرواية والتثبت من الرواة، حتى روى ١٦٦٠ حديثاً مما سمعها مباشرة من الرسول ﷺ، أو من سائر الصحابة الذين كان يقصدهم للاستماع والرواية.

وإن انشغال ابن عباس رضي الله عنهما بالعلم لم يمنعه من الاشتراك في شؤون الخلافة والحكم والدولة، وكان له مواقف سياسية وجولات مشهودة، فكان قريباً من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، وقدم مشورته لعلي ﵁، وقدم له نصائح خالدة، وشهد معه وقعة الجمل وصفين، وتولى له بعض المناصب السياسية، فولاه أميراً على بعض المناطق الهامة لحل المشكلات فيها، وكان المرشح لتولي قضية التحكيم، وانبرى لمناظرة الخوارج مناظرة سديدة وقوية دفعت معظمهم إلى الرجوع إلى الحق والصواب، ثم قدم النصح للحسين رضي الله عنه بعدم الخروج إلى العراق الذي أدى إلى استشهاده، ثم شارك في الدعوة والجهاد ورافق كتائب الفتح إلى أفريقيا والقسطنطينية، ثم عاد إلى الحجاز.

◈ وفاته:

أصاب المرض عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وكفّ بصره في آخر عمره دون أن يؤثر ذلك على علمه ونشاطه وتعليمه ومجالسه، وصبر وصابر، وكان يردد:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دَخَل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وعاش معظم حياته بين مكة والطائف، وجاء الأجل المحتوم سنة ٦٨هـ وقد ناهز الحادية والسبعين من عمره، ودفن في الطائف، وصلى عليه ابن عمه محمد بن الحنفية الذي قال عند دفنه: «اليوم مات رباني هذه الأمة» وقبره في الطائف مشهور، وهو بجوار المسجد الذي حمل اسمه، وقال عنه جابر ﵁ عندما سمع نبأ موته: «مات أعلم الناس، وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق».

رضي الله عنه، وأسكنه فسيح جنانه، ونفعنا الله بعلمه، وأكثر من أمثاله، والحمد لله رب العالمين.

الثاني والعشرون: الشيخ الدكتور علي السالوس

العالم العامل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فقد جاء في الحديث الصحيح «أن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما وُرّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»، وورد أيضاً «أن علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» وورد أن «الناس هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون»، وأن علماء الأمة كثيرون، ولكنهم متفاوتون في العمل، والإخلاص، والوقوف عند مرضاة الله تعالى.

وإن الشيخ الدكتور علي السالوس أحسبه من العلماء المخلصين الواقفين عند حدود الله تعالى والعمل في مرضاته، سواء في التدريس، والتأليف، والدعوة والتبليغ.

وإن معرفتي بالشيخ قريبة العهد، ولذلك سأذكر ثلاثة أمور في ذلك:

١- أول ما سمعت بالشيخ الدكتور السالوس عندما اطلعت على كتابه القيم «أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار» ولمست فيه الصدق لله، والحرص على آداء الأمانة، والإخلاص في الفتوى، وتذكير الغافلين عن مرضاة الله تعالى، وعدم ممالأة الحكام والطغاة والسلاطين في الفتوى، ووجوب الالتزام بالأحكام الشرعية الصريحة، دون مواربة، ولا مخاتلة، والحرص على رضاء الله تعالى ولو سخط الناس، ولذلك لقي الكتاب قبولاً حسناً في الأوساط العلمية، حتى طُبع ضمن «موسوعة القضايا الفقهية» في الطبعة الثالثة عشرة.

٢- عرفت الشيخ السالوس عن قرب منذ عشر سنوات باجتماعات مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، وهو يتولى مركز النائب الأول لرئيس المجمع، فتأكد لي إخلاصه، وحرصه على العمل المفيد الذي ينفع المسلمين، والتزامه بالأحكام الشرعية الصحيحة والصريحة، وبيانها للناس، ليطلعوا على دينهم وخاصة في القضايا المعاصرة، والمستجدات الطارئة، وما يشغلهم في حياتهم.

٣- ومن خلال الاجتماعات الدورية للمجمع، واللقاءات العملية للجلسات لمست بالشيخ الجدية والحرص على النظام والانتظام، والعمل الدؤوب، والمتابعة المستمرة، والأمل الدائم، والتفاؤل بالمستقبل، فكان سبّاقاً للاجتماعات، ومتابعاً لأعمال المجمع، ومشرفاً مباشراً لعقد الدورات، ومتحملاً للمشاق، وحكيماً في التعاون مع المسؤولين لاستضافة المؤتمرات، ولبقاً في المداخلات، ومبتسماً مع الأعضاء.

أطال الله تعالى في عمر الشيخ، ومتّعه بالصحة والعافية، ونفع الله تعالى بعلمه وعمله، وأبقاه ذخراً للمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

الشارقة ١٤٣٤/٥/٢١هـ

٢٠١٣/٤/٢م

الثالث والعشرون: الشيخ علي خالد الشربجي

العلامة- الفقيه- صاحب الخلق الرفيع

الحمد لله العالم العليم رب العرش العظيم الذي دعا إلى العلم، ورفع مكانة العلماء، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وبيّن الله منزلة العلماء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، معلّم الناس الخير، والمعلّم الأول للبشرية، الهادي إلى الصراط المستقيم، القائل: «إنما بُعثت معلماً» فدعا إلى الله تعالى، وأنار للأمة طريقها، وأخرجها من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الحضارة، وربّى الصحابة حتى كانوا أفضل جيل عرفه التاريخ، فرضي الله عنهم أجمعين، وعلى الآل، ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد طلب بعض الأحبة أن أكتب ما أعرفه عن العلامة الشيخ الفقيه علي خالد الشربجي، ورغبوا إليّ أن أدوّن بعض الأسطر عن خلقه وشمائله، وفضله وعلمه، فرأيت ذلك لازماً عليّ، لحبتي له، ولحق الأخوة معه، فإن العلم رحم بين أهله، وقد عرفت نبله، وفضله، ودماثة أخلاقه، وتواضعه.

◈ المعرفة بالشيخ:

إن الشيخ علي من جيل أساتذتي، ولم ألتق به في مدرسة أو جامعة، وأول ما تعرفت عليه من خلال كتبه ومؤلفاته، وأول ما اطلعت عليه عندما كنت أستاذاً بكلية الشريعة بجامعة دمشق في مطلع الثمانينات من القرن الماضي

فاطلعت على مشاركته في كتاب «الفقه المنهجي» مع ثلة من العلماء الأفاضل، فرأيته من أحسن الكتب الميسرة في الفقه الشافعي، لاقتصاره على أهم أحكام المذهب مع الدليل والتعليل، وصرت أنصح الطلبة والأحبة باقتنائه للاستفادة منه، وتعلّم الأحكام منه، وكنت ألتقي بالشيخ مصادفة في بعض المناسبات.

ولما قدمت إلى الكويت بالإعارة للتدريس في جامعتها (١٩٩٧-٢٠٠٠م) تعرّفت على الشيخ علي عن قرب في عمله مستشاراً شرعياً في اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وتكرر اللقاء في العمل وخارجه، ثم زادت المعرفة واللقاءات أثناء زياراتي للكويت بعد ذلك لحضور المؤتمرات وتقديم الاستشارة العلمية لجامعة الكويت، وتوثقت الاتصالات الهاتفية عن طريق ابننا الشاب الأستاذ محمد يوسف -مدرس التربية الإسلامية- الذي يلازم الشيخ علي، وينسق معه اللقاءات العلمية، وإقامة الدروس النافعة المفيدة في بيته، وقد حضرتها مرة واحدة، لأزداد قرباً ومعرفة بالشيخ مما سنبينه، فصرنا إخوة وأحبة، وننهل من علمه وفضله، وتأكيداً للمثل: «العلم رحم بين أهله».

◈ الشيخ علي صاحب الخلق الرفيع:

إن العلماء في العصر الحاضر كثيرون، وأخذنا العلم عن بعضهم، والتقينا مع كثير منهم، ولكن يمتاز الشيخ علي بالخلق الرفيع، والتواضع الجم، والأدب السامي، والابتسامة الدائمة، والحرص على البعد عن المظاهر، والمداومة على الذكر والعبادة، ويجمع بين عمله الرسمي مستشاراً شرعياً وبين الإمامة في الصلاة، وأداء خطبة الجمعة، وإقامة الدروس الدينية في البيوت، ولقاء الطلبة الراغبين بعلمه، والاستفادة من فضله.

وفي هذه المناسبة أذكر جانباً من فضله ولطفه وخلقه، فكلما قدمت إلى الكويت لمؤتمر أو غيره، كان الشيخ -حفظه الله تعالى- يقدم للسلام، مع كبر سنه، ويمتعنا بطيب الكلام، والمدح والثناء، ونتذاكر معه العلم، وما يهم المسلمين، وفي أحد المرات اتصل واعتذر عن عدم الحضور لوعكة في صحته، فذهبت -بصحبة الأخ الأستاذ محمد يوسف- للاطمئنان عن صحة الشيخ والأنس به في مترل ولده الأديب خالد حفظه الله وأقر عينه به.

فالشيخ علي -كما لمست وعرفت- مدرسة عملية في التقوى والتربية والعبادة، وحسن المعاملة ودماثة الأخلاق، فجمع الفضائل الإيمانية والدينية والإنسانية والاجتماعية، يأنس به كل من يراه، ويجتمع به، ويلتقي به، وتطمئن له النفس والروح، فهو بمثابة الأب الحنون للجميع، ويفتح لهم قلبه وصدره وعقله، ويحرص على الإفادة، والنصح، والتذكير، وقد جاوز الآن الخامسة والثمانين من عمره، وهو حريص على العطاء الدائم، والنفع والإنتاج، والدعوة والتعليم.

وأدعو الله تعالى أن يطيل في عمره ويبارك فيه، وأن يمتع به أهله وطلابه وأحبائه، وأن يمّن عليه بموفور الصحة والعافية، وينفع به، وبعلمه، الأمة والطلبة.

◈ الإنتاج العلمي للشيخ علي:

ومما يلفت النظر أن سمات الشيخ علي الخلقية تجلتّ في كتبه ومؤلفاته في الوضوح، والبساطة، والتوجيه، والجمع بين العلم والعمل والتطبيق، وأذكر بعضاً منها مما اطلعتُ عليه:

١- **الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي**، الذي ذكرته سابقاً، وكان

مشتركاً فيه مع بعض العلماء الأفاضل، وقدّموا للناس عامة، والطلبة خاصة، كتاباً شاملاً لأحكام المذهب، بأسلوب واضح، وسلس، وجذّاب، ويصلح للتدريس في المرحلة الإعدادية والثانوية، وفي حلقات التدريس للمذهب الشافعي، وطُبع عدة طبعات في ثمانية أجزاء بدار القلم بدمشق، ثم طُبع في ثلاثة مجلدات.

٢- **الفقه المبسط**، بعنوان «الكافي في فقه العبادات» ويشتمل على أحكام العبادات الأربع، ومنتقاة من جميع المذاهب، مع الإشارة أحياناً للمذاهب، ويغلب فيه المذهب الشافعي، مع الحرص على بيان الأدلة من القرآن الكريم والسنة الشريفة المقترنة بتخريج الأحاديث بعزوها لكتب الصحاح والسنن، وبيان درجتها أحياناً، والكتاب مختصر وميّسر، ويقع في (٣٢٤ صفحة)، ويصلح لعامة الناس الذين يتعبدون الله تعالى دون معرفة مذهب ما، ولا التزام بمذهب معين، وفي آخر كل عبادة قدّم المؤلف الشيخ حفظه الله المسائل والأحكام المختارة على شكل جدول لاختصار الأحكام السابقة في الباب، والتركيز على أهم المسائل، وحكمها، ثم إضافة بعض الملاحظات على أغلبها، وتمّ إخراج الكتاب وطباعته بشكل فني رفيع، مع الألوان لكل باب، ووضع الصور المعبرة والجميلة التي تفتح الشهية للقراءة والمتابعة، ونشرته شركة الإبداع الفكري، بالكويت في طبعته الأولى، أبريل (نيسان) ٢٠١٣م، ١٤٣٤هـ.

ويمكن للمثقف البسيط أن يقرأه، ويفهمه، ووقف الشيخ المؤلف -جزاه الله خيراً- عند أمهات القضايا والأمور التي يحتاج إلى معرفتها كل مسلم، وقرن كل حكم بدليله من القرآن والسنة، وتوضيح مغزاه وتعليله بقدر الحاجة.

٣- **تفسير البشائر وتنوير البصائر**: ولعله أول كتاب يؤلفه الشيخ علي حفظه الله تعالى (سنة ١٣٩٥هـ) وقدّم له كبار علماء دمشق، وهم الشيخ حسن حبنكة الميداني، والشيخ حسين خطّاب، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمهم الله تعالى، ولكن الكتاب «ظلّ حبيس صدفه» أكثر من عشرين سنة، وهو تفسير نافع، مفيد، بلغة رصينة، وأسلوب واضح وسهل وممتع، مع اختيار القول الأقرب لروح الآية من أقوال المفسرين القدماء والمعاصرين والإشارة باختصار لأسباب النزول لتسليط الضوء على المراد من الآية، وبيّن المؤلف -حفظه الله تعالى- بعض الأحكام الفقهية باختصار، ووشّحه بالأحاديث الشريفة التي توضح المعاني، وزينه بوضع العناوين لكل طائفة من الآيات، وجاء عنوان الكتاب جميلاً وموفقاً ومبدعاً «تفسير البشائر» ليكون تنويراً للأبصار والبصائر، فجزاه الله خير الجزاء، وهنيئاً له بالمساهمة في خدمة كتاب الله تعالى، وتقديمه للمسلمين، ليزدادوا تعلقاً بكتاب ربهم، وشغفاً بحبه، وتلاوته، وتدبره، لفهم معناه، ومعرفة أحكامه، للعمل بها، والاتعاظ بما ورد فيها من قصص الأنبياء والرسل، وما فيها من عظات وفوائد، ومتعة روحية، وثواب وأجر.

وطُبع التفسير في طبعته الأولى سنة (١٤١٨هـ-١٩٩٧م) في ثلاثة مجلدات كبيرة بثوب قشيب، وإخراج جميل، ثم جاءت الطبعة الثالثة سنة (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م) أكثر عناية ورونقاً، مع كتابة المصحف الشريف في أعلى الصفحة، والتفسير بأسفلها، وطباعة ألفاظ القرآن الكريم بلون أحمر لتمييزه، وزيادة المتعة في النظر إليه، والترغيب في القراءة والإفادة، فجزى الله

الشيخ علي خير الجزاء، وجعل هذا التفسير في صحائف عمله، وليبقى عملاً صالحاً دائماً طوال العصور إن شاء الله تعالى.

وقامت إحدى الأخوات الفضليات من أهل الكويت بطلب تصوير الطبعة الثالثة، وطبعت منه خمسة آلاف نسخة لتوزيعها على نفقة والدها محمد عبد الواحد الأيوب رحمه الله تعالى، فجزاها الله خيراً، لنشر هذا العمل المفيد النافع، ليشترك الجميع في الثواب والأجر الدائم إن شاء الله تعالى.

٤- **الفقه الجلي على المذهب الحنبلي**: وهو مشاركة طيبة لتقديم فقه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى بأسلوب سهل ومعاصر لجماهير المسلمين، والوقوف عند المسائل المهمة، والأقوال المعتمدة والمُفتى بها في المذهب، وهذه لفتة موفقة وخطوة سديدة في التوجه إلى التأليف في المذهب الحنبلي، مع أن الشيخ علي -حفظه الله تعالى- نشأ وتربى على المذهب الشافعي ، مما يؤكد على التسامح في فكره وعقله، ويتفق مع طبائعه وشمائله في نبذ التعصب المذهبي، وعمله الدائب القويم في الفكر الإسلامي عامة، والدعوة بالرفق والحكمة والحسنى، وقد سألته عن هذا التوجه بالمساهمة في التأليف حسب المذهب الحنبلي فقال: إنه مذهب سهل، ومتسع، ورحب، وأكدّ ذلك في مقدمته فقال: «فإن فقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من أغنى المذاهب الفقهية أدلة من الكتاب والسّنة، وما ذلك إلا لأن صاحب هذا المذهب يُعدّ من سلاطين علماء السّنة ورواتها» وشاركه في التأليف في أبواب المعاملات المالية الشيخ أحمد محمد سالم بن غيث، وقدّما للكتاب بعض المقدمات العامة في الفقه، والخاصة في المذهب، لتعين على التصّور والفهم، وهي دراسات مفيدة

جداً، وتساعد على معرفة الجوانب المهمة في الفقه عامة، وفي الفقه الحنبلي خاصة، ثم عرضا أبواب الفقه بدءاً من الطهارة، وانتهاء بالجنايات والحدود والتعزير ثم الأطعمة والصيد، والأيمان، والنذور، والإمامة العظمى، والإفتاء والقضاء، وبدون وضع الأبواب والفصول، وبدون توثيق للمصادر والمراجع إلا ما ورد من عزو الأحاديث إلى كتب السنّة المشرفة في صلب البحث، والإحالة قليلاً إلى بعض كتب المذهب وسط الكلام عند اقتباس بعض النصوص منها، كالمغني، ومنار السبيل.

وطبع الكتاب بإخراج جميل، وتقسيم للفقرات، وإبراز للعناوين الرئيسة والجانبية، ووضع الفهرس العام في نهاية كل مجلدّ، وجاء الكتاب في خمس مجلدّات متفاوتة بالحجم.

جزى الله الشيخ علي الشربجي وزميله خيراً، ونفع الله بعلمهما، وجعل هذا الكتاب نافعاً مفيداً، ومحققاً للهدف والغاية.

٥- **غزارة الإنتاج العلمي**: إن الشيخ علي الشربجي متع الله بعمره، كثير الإنتاج، غزير العطاء، مكباً على البحث والتأليف، وألف مجموعة من الكتب تزيد على الأربعين، وفي فنون شتى، في العقيدة والإيمان مثل: البرهان في شعب الإيمان، والزواجر في التحذير من الكبائر، ومنها في التفسير كما ذكرنا، ومنها في الحديث الشريف مثل: خلاصة الكلام في الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، والأربعون المختارة في الفضائل الدينية والإنسانية، والمرأة في رحاب السّنة النبوية، وقرة العينين شرح المنتخب من الصحيحين، والاشتراك في نزهة المتقين في شرح رياض الصالحين، ومنها في السيرة النبوية، مثل: مهارات في رحاب السيرة

النبوية، وفي الفقه، كالاشتراك في كتاب الفقه المنهجي، وكتاب الفقه الجليّ على المذهب الحنبلي، وحقّق كتاب رحمة الأمة في اختلاف الأئمة تأليف محمد بن عبد الرحمن الدمشقي العثماني، واختصر كثيراً من الكتب من بينها: تلبيس إبليس، وعمل اليوم والليلة للنسائي، والدعاء للطبراني، والمنهاج للحليمي، والأذكار للنووي، وإرشاد العباد، وتنبيه الغافلين، مع المساهمة الطيبة في الأحاديث المذاعة في إذاعة القرآن الكريم في دولة الكويت، ويغلب على أعماله جانب التربية والتعليم، والتوجيه والتهذيب، والدعوة والإرشاد حسب المنهج النبوي الرشيد.

بارك الله بالشيخ علي الشربجي، ومتعه بالصحة والعافية والعمر المديد، وبارك الله في إنتاجه وعطائه، وفي الدروس والإمامة والخطابة، والعمل اليومي في اللجنة الاستشارية التي يصر القائمون عليها على استمرار الشيخ على رأس عمله، وأفسحوا له المجال في ممارسة وظيفته بالعمل والعطاء مع هذا السّن المبارك، تقديراً لمكانته وفضله وعلمه ودماثة أخلاقه ووفائه وإخلاصه بالعمل، والاستفادة من خبرته وتوجيهاته واستشاراته.

وبإيجاز فإن الشيخ علي الشربجي صاحب خلق رفيع، وإنتاج غزير، وعطاء مبارك، ومربٍ للأجيال في وطنه سورية، وفي السعودية أثناء إعارته، ثم في الكويت التي قضى فيها عدّة عقود في الاستشارة والخطابة والإمامة والتربية والتعليم والتأليف، ولا زلنا نطمح بالأنس به، وبالمزيد من إنتاجه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الشارقة في ٢٩/٥/١٤٣٦هـ الموافق ٢٠/٣/٢٠١٥م.

رابع وعشرون: فيض الله

العلامة، الفقيه، الأديب، الأصولي، القدوة

إن أعلام الأمة الإسلامية لم ينقطعوا منذ عهد الصحابة إلى الآن، وسيبقون حتى تقوم الساعة، تحقيقاً لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» وجاء في حديث آخر «العلماء ورثة الأنبياء».

وقد تجلت رحمة الله ومنته على المسلمين في العصر الحاضر بعددٍ وفيرٍ من العلماء والفقهاء والدعاة، ومنهم أستاذنا الفاضل العلامة، الفقيه، الأديب، الأصولي، القدوة، الداعية الأستاذ الدكتور محمد فوزي فيض الله، بارك الله في صحته وعمره المديد.

وإن المدرسين والأساتذة الذين يرفدون المدارس والمعاهد والكليات الجامعة كثر، ولكن قلَّ منهم من يترك أثره الفريد المميز على طلابه وتلاميذه، ليكونوا لهم أسوة، وقدوة، ومَعْلَما بارزاً ومثلاً أعلى، وأنموذجاً يقتفون خطاهم، ومن هؤلاء شيخنا الدكتور محمد فوزي فيض الله، الذي جمع بين الحِلْم والحكمة، والعلم والفقه، والأصول واللغة، وجمال الصورة والجوهر، والأدب العلمي والأدب الاجتماعي، مع الالتزام بما يقول، والوقوف على ما يعتقد، ويترجم علمه وأدبه إلى سلوك ويضفي عليه الوقار والاتزان، والجدة والحماس، والمثابرة والعطاء.

وهو كثير العبادة والذكر، وتلاوة القرآن في حله وترحاله، ومشيه وجلوسه، فلسانه لا يفتر عن الذكر والقرآن الذي يحفظه عن ظهر قلب، وهو أوّاه يقوم الليل، ويحافظ على صلاة الجماعة، ودروس العلم في المسجد الذي

خصص له يوم الجمعة من الفجر إلى العشاء من كل أسبوع، وهو دقيق في مواعيده، وحضور محاضراته.

شرفنا بالتلمذة على يديه في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وسعدت بصحبته في التدريس في نفس الكلية ثم في كلية الشريعة بجامعة الكويت، وآنست بجواره في السكن بالكويت، وأفدت من توجيهه وملاحظاته وآرائه في اللجان والتقويم، فكان في مجالسه واجتماعاته أستاذ الأساتذة، محدّث القوم، ومحط الأنظار، وملتقى الأفئدة، شغوف بخدمة الآخرين وتقديم العون لهم وقضاء حوائجهم.

جمع في دراسته بين علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، فأضفى ذلك تأثيراً بليغاً على دروسه ووعظه، ونصحه، وإرشاده، وعلى كتبه وبحوثه ومقالاته، وسائر أعماله.

امتازت كتبه بالدقة العلمية، والتمحيص الدقيق، والعبارة المحكمة، والصياغة الواضحة، والأدب الناصع، والأسلوب الفريد، والتوثيق العلمي، والأمانة العلمية، والموضوعية في العرض والمناقشة والتوجيه.

أسأل الله تعالى أن يديم عليه نعمة الصحة والعافية، وأن يبارك في عمره، وأن ينفع بعلمه، وأن يجمعنا به تحت لواء سيدنا محمد ﷺ في الفردوس الأعلى، والحمد لله رب العالمين.

خامس وعشرون: الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان

الداعية الأول واسطة العقد

الحمد لله رب العاملين الذي أعلى شأن العلماء، والصلاة والسلام على رسول الله الذي أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وحمل العلماء مسؤولية الدعوة في كل زمان ومكان.

وبعد:

فقد عارض علماء الحديث على السلسلة الذهبية في الرواية، وهي الإمام مالك رحمه الله تعالى، عن شيخه نافع رحمه الله، عن الصحابي الجليل عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

وتوالت في التاريخ الإسلامي سلسلة العلماء الذين يتوارثون العلم كابراً عن كابر، وأباً عن جد، ابتداء من الخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة، والتابعين، حتى عصرنا الحاضر.

وكانت هذه السلاسل الفاضلة تحت المجهر والمقارنة من الأجيال اللاحقة؛ لأن نعم الله لا تعد ولا تحصى، وقد يسطع نجم الجد، وينتقل إلى الأب، فالابن الحفيد، وقد يكون العكس فيكون الحفيد سبباً لشهرة الأب والجد «كما علا برسول الله عدنان»، وقد يكون الطرفان أكثر شهرة من الوسط، كأسرة آل تيمية رحمهم الله تعالى، فأولهم الجد مجد الدين عبد السلام ابن تيمية (٦٥٢هـ) ثم الأب عبد الحليم بن تيمية (٦٨٢هـ) ثم الحفيد أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)، وكان كل منهم عالماً فاضلاً، وإماماً في المذهب الحنبلي في الفقه والأصول والدعوة، حتى اشترك الثلاثة بتأليف كتاب واحد، بدأ الجد بتصنيف «المسودة» في أصول الفقه الحنبلي، وأضاف إليها الأب، ثم

أكملها الابن الحفيد، وكانت شهرة الجد أكثر من الأب، ثم جاء الحفيد فذاع صيته، وانتشر اسمه، وعلت مكانته، وكانت له المواقف المشهودة الخالدة، ولذلك تساءل الناس عن مكانة الأب عبد الحليم، وهل كان عالماً، وما هو أثره في المذهب؟ فأجاب المؤرخون بقولهم «إنه كان عالماً وله مكانته، ولكنه تضاءل أثره، وضاع بين ضوء القمر (والمقصود به الجد عبد السلام) ونور الشمس (والمقصود به الحفيد أحمد).

وهذا يذكرنا ببعض الأسر المعاصرة التي تشبه ما سلف، ومنهم الأسرة العريقة للأخ الكبير، والزميل الفاضل، والمربي الداعية، الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي الذي ورث العلم عن أبيه الجليل، العالم الوقور، الشيخ ملا رمضان رحمه الله تعالى، الذي عرفه أهل دمشق والبلاد الشامية، فأخذ عنه ابنه، ثم تابع التحصيل عن جلة علماء دمشق، ثم التحق بالدراسة في الأزهر، ونال شهادة الدكتوراه فيها، وعين مدرساً في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وبلغ رتبة الأستاذية، ورئاسة قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه.

ثم اتصلت الحلقة العلمية إلى ابنه الأخ الدكتور محمد توفيق الذي تتلمذ على جده، وأبيه، وتابع دراسته في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وعمل مدرساً في وزارة التربية عشرين سنة، ثم استأنف الدراسات العليا في كلية الإمام الأوزاعي ببيروت، وحصل الدكتوراه في الفقه من جامعة دمشق، وعين مدرساً فيها، والآن يحتل منصب رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه، ونأمل منه الخير الكثير إن شاء الله تعالى. ولكن الأستاذ الدكتور محمد سعيد قد بزغ نجمه، وعلا شأنه، وارتفعت مكانته، وعرفه العلماء والطلاب والعامة، والمسلمون وغير المسلمين، وخاصة النخبة من المثقفين والمفكرين وعشاق

المعرفة والباحثين، وتجاوز عطاؤه إلى مختلف الأقطار العربية والإسلامية، ثم توسع إلى سائر المسلمين في أرجاء العالم، وصار الداعية الأول، وذلك بدروسه النافعة المفيدة التي يقصدها القاصي والداني، والتي واظب عليها -متطوعاً- عدة عقود، ابتداءً من جامع السنجقدار بدمشق، ثم جامع الإيمان، ثم جامع العثمان، مع المحاضرات في سائر المساجد، وفي حفلات عقد القران والأفراح، ومناسبات التعازي، واللقاءات الجماعية التي تشهد له بالمساهمة الفاعلة والمؤثرة، والعطاء الغزير من علمه الوفير، وحديثه الجذاب الممتع.

كما تولى المناصب العلمية الرفيعة، وأجلها عمادة كلية الشريعة، والمشاركة في كتابة البحوث في المؤتمرات والندوات والمؤسسات الأكاديمية، وبالاستضافة في البرامج المهمة في الإذاعة والتلفاز، وفي المراكز الثقافية المنتشرة في مختلف البلدان.

وكان للدكتور محمد سعيد المواقف العديدة التي تجمع بين الشدة واللين، والعزم والحكمة، والتساهل والصرامة، وحسن الظن بالبعض أحياناً، والترصد والحذر والتحذير من آخرين.

كما ساهم الأستاذ الدكتور سعيد بالإنتاج الوفير، ذي البعد العلمي والدعوي، بدءاً من رسالة الدكتوراه المتميزة «ضوابط المصلحة في الشريعة» التي يعتمد عليها معظم المجتهدين المعاصرين والباحثين في المستجدات الفقهية، إلى كتاب «الفقه المقارن» المعمق، وكتاب «فقه السيرة» المتألق ذي الانتشار الواسع، إلى رسائل «أبحاث في القمة» وأخص منها اثنين، الأول «إلى كل فتاة تؤمن بالله» الذي أصبح في حقيبة كل فتاة مسلمة في العصر الحاضر، والثاني «منهج تربوي فريد في القرآن» الذي أصبح منطلقاً لتأسيس التصور

الإسلامي في التربية، والمنهج التربوي الفريد في القرآن الكريم، مما يعتمد عليه المربون وعلماء التربية، إلى غير ذلك من الكتب القيمة، والبحوث الفريدة، والدراسات المعمقة.

وعلى الرغم من أن التخصص الرئيس للأستاذ الدكتور محمد سعيد هو في الفقه عامة، وأصول الفقه خاصة، ولكنه جال وصال في جوانب الفكر الإسلامي، والعقيدة والإيمان والفلسفة الإسلامية، وأصبح الداعية الأول في بلده.

وهكذا وصل الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي السلك والرابطة بين أبيه وابنه وصار بحق وجدارة واسطة العقد وترقى إلى الدرجة العليا والمكانة الرفيعة، والشهرة العالمية، ومحط الأنظار.

وإن هذه الأسر العريقة في تاريخ الفكر الإسلامي، والعلوم الشرعية هي مجال الفخار والاعتزاز، ومن الخصائص البارزة في الحضارة الإسلامية.

وإن الإسلام لا يعترف في الأصل وحسب المبدأ بتوارث المناصب والمراتب العلمية بمجرد الدم والنسب، ولا يقر بذلك إلا لمن أثبت الجدارة، وترك البصمات الخالدة، وتبوأ المكانة بمؤهلاته وعطائه، وإنتاجه وعلمه، وفضله وعمله، ليلتقي العلم مع النسب، ويتحقق توارث الدم والعلم، ويتكون من ذلك صفة مميزة في تاريخ الفكر والدعوة والعلم.

حفظ الله علماءنا ودعاتنا، وبارك الله في الأستاذ الدكتور محمد سعيد، ومتع الله بحياته، ونفع الله بعلمه مع سائر الدعاة والعلماء لتبقى راية الإسلام والحق شامخة، ويستمر الأمل في العودة الرشيدة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ويقوم المجتمع الإسلامي، وتعود الشريعة إلى الحياة والتطبيق، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويسعدون بنعمه وفضله، والحمد لله رب العالمين.

سادس وعشرون: الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي

الداعية- المفكر- المجاهد

إن المنبع الثر للفكر الإسلامي في القرآن والسنة لم يقتصر على إنجاب القادة، والعلماء، والمفكرين، والمجاهدين، والمجددين، والأئمة، في العهد النبوي، ولا على العهد الراشدي، ولا على القرون الثلاثة الأولى فحسب، بل إن هذا النبع الغزير الذي لا ينضب يمدّ الأمة والعالم طوال التاريخ، وفي العصر الحاضر، وحتى تقوم الساعة.

وظهر في القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي، أئمة كبار، ورجال مفكرون، ودعاة مخلصون، ومجاهدون صادقون، وقادة بارزون، وعلماء مصلحون، ومنهم العلامة الداعية المجدد المفكر المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، وطيب ثراه.

◈ اسمه ونشأته:

هو مصطفى بن حسني السباعي، ولد بحمص (١٣٣٣هـ-١٩١٥م) وهو سليل أسرة عريقة، وبيت علمي منذ مئات السنين، وكان أبوه فقيهاً، ويحضره معه مجالس العلم وحلقات الفقه، ثم وجهه لدراسة العلوم الشرعية، وبخاصة دراسة الفقه المقارن ومسالك الأئمة في اجتهادهم.

ونشأ في مدينة حمص -وسط سورية- وأخذ العلم والفقه والقرآن على يد والده، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية، ثم انتقل إلى الثانوية الشرعية بحمص، وتخرج منها سنة ١٩٣٠م، واطلع أثناء دراسته على مجلة الفتح التي كان يصدرها الداعية المصلح محب الدين الخطيب بالقاهرة، فتأثر بها، وتفتحت آفاقه السياسية والاجتماعية منها، واطلع على حاضر العالم الإسلامي.

◈ نشاطه وأعماله:

انتسب إلى الرابطة الدينية بحمص، ثم أسس جمعية لمقاومة التبشير المدعوم من الانتداب الفرنسي، وبدأ مقارعة الاستعمال الفرنسي، فسجن، وبعد خروجه من السجن سافر إلى القاهرة لمتابعة الدراسة (١٩٣٣م) وجمع بين طلب العلم، والنشاط الإسلامي على مختلف الأصعدة، ثم عاد إلى سورية وقاد الحركة الإسلامية، وخاض معركة الجهاد في فلسطين (١٩٤٨م) وقاد كتائب المجاهدين في القتال، وبعد عودته ترشح لانتخابات الجمعية التأسيسية (البرلمان) عن مدينة دمشق (١٩٥٠م) وصار عضواً فيها، وكان له السهم الأوفى لاعتماد الإسلام في الدستور، وناقش رسالة الدكتوراه بالأزهر في هذه الأثناء، ثم عمل محاضراً في كلية الحقوق بجامعة دمشق، ثم طالب بإنشاء كلية الشريعة بجامعة دمشق، وافتتحها (١٩٥٤م) وصار عميداً لها، واستمر في نشاطه السياسي والدعوي، وأدى فريضة الحج مرتين، ثم ترأس بعثة كلية الشريعة وطلابها إلى الحج، ثم سافر باسم جامعة دمشق إلى جامعات أوربا، والتقى بالمستشرقين، وناقشهم، وفند حججهم، وردّ عليهم في مقالات كثيرة، وفي رسالة للدكتوراه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» التي خصص قسماً كبيراً منها لكشف أعمالهم وتحريفاتهم، وافتراءاتهم على الصحابة والخلفاء والعلماء وتاريخ المسلمين.

◈ إنتاجه العلمي:

ملك الأستاذ الداعية الشيخ المجاهد ناصية القلم، وقوة البيان، وفصاحة اللسان، فكان خطيباً مصقعاً يلهب مشاعر الجماهير والأمة والشباب وأعضاء البرلمان، وكتب مقالات عدة في شبابه في القاهرة ودمشق لفتت أنظار العالم،

وسلطت الأضواء عليه، ثم قدّم إنتاجاً مباركاً طيباً، ونافعاً ومفيداً، منه أطروحة الدكتوراه، ومن روائع حضارتنا، وعظماؤنا في التاريخ، وشرح قانون الأحوال الشخصية السوري (ثلاثة أجزاء) والمرأة بين الفقه والقانون، وهذا هو الإسلام، واشتراكية الإسلام، وهكذا علمتني الحياة (قسمان: الاجتماعي والسياسي) وأحكام الصيام وفلسفته، والسيرة النبوية (دروس وعبر) والقلائد من فرائد الفوائد، والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين، وله كتب أخرى لم يكملها، وأسس مجلة «حضارة الإسلام» بدمشق التي كانت رائدة بين المجلات الإسلامية.

◈ مرضه ووفاته:

أثناء عمله السياسي تأمر عليه المنافقون مع أعداء الإسلام في لعبة انتخابية فأصيب بالمرض العضال الذي حدّ من حركته العارمة، ولكنه استمر في نشاطه وتدريسه وتألقه الفكري وعطائه العلمي، وازداد شوقه للحرمين فأدى الحج والعمرة مع الابتهال والدعاء حتى خف عنه المرض بشكل مذهل، وبدأ بتدوين انطباعاته بها، وبيّن فضل الحرمين، وعظمة الحج، وبركة المسجد النبوي، وعزم على إكمال ذلك، ولكن وعد الله المحتوم كان سابقاً فتوفي سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ولم يتجاوز التاسعة والأربعين من العمر، وشيعت دمشق جنازته بعشرات الآلاف من بيته إلى جامع بني أمية الكبير، ثم دفن في مقبرة باب الصغير بدمشق التي تضم أجساد مئات الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين، وترك الذكرى الخالدة، والأثر العميق في النفوس، وبقي اسمه متلألئاً على مختلف الأصعدة التي تدعو له بالرحمة والمثوبة، فجزاه الله أحسن الجزاء، وأنزل عليه شآبيب الرحمة، وعوّض المسلمين خيراً، والحمد لله رب العالمين.

سابع وعشرون: الصحابي الشاب الداعية مصعب بن عمير

إن الشباب فتوة، ويكتنزون الطاقة، وهم أمل الأمة إذا تم إعدادهم، وتوجهوا للخير، وصرفوا طاقتهم في سبيل الله.

وهذا نموذج فريد متميز من شباب الصحابة الذي ضرب أروع الأمثلة في الدعوة والجهاد والتضحية بالنفس والروح، وعزف عن الدنيا، وعشق الآخرة بالعمل لها، وهو مصعب بن عمير القريشي رضي الله عنه.

◈ اسمه ونسبه ونشأته:

هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، فهو من بني عبد الدار أهم بطون قريش، ومن أماجد النسب في قريش.

وكان والده عمير ثرياً ويحب ولده، ويدلله أقصى الدلال، وأمه خناس بنت مالك المطرف المعروفة بقوة إرادهٓا وصلابة رأيها وهيمنتها على أولادها وشدة تأثيرها في أسرهٓا، وكانت تحب مصعب حباً شديداً، وتقدم له كل ما يشتهيه في شبابه المنعم، وكانت مليئة وكثيرة المال، وتكسوه أحسن الثياب وأرقه، حتى كان يغير ملابسه في كل روحة وغدوة مع العطور حتى عرف بمكة بأنه أعطر أهل مكة، ويأكل الفاخر من الطعام، واشتهر بأنه فتى مكة شباباً وجمالاً، وتسريحاً لشعر الناصية، وكانت الحلة التي يلبسها بمائتي درهم، وبعد إسلامه لقب بمصعب الخير، ويكنى بأبي عبد الله، وتزوج حمنة بنت جحش التي كانت تحبه، ورافقته في أحد، واحتسبت قتله وولدت له ابنة اسمها زينب.

◈ إسلامه وهجرته:

كان مصعب الشاب المتفتح يسمع الحوار بين رسول الله ﷺ لدعوته الجديدة في التوحيد والأخلاق والعقل، وبين زعماء قريش، ويدرك عجز

المنطق الجاهلي عن مقارعة الحق، ويسمع سخافات قريش ومجرد عنادها على الكفر، فثار فكره وعقله في الدين الجديد، وما يعرفه عن محمد الصادق الأمين، ثم اتجه إلى دار الأرقم ابن أبي الأرقم ودخل على رسول الله ﷺ فأسلم، وكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، ثم صار يأتي الرسول سراً، فكان من السابقين للدخول بالإسلام، ثم أعلن إسلامه معتزا بإيمانه، وتغيرت حياته إلى الجد والوقار والتعقل، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى سنة خمس من النبوة بعد إظهار الدعوة بسنة ثم عاد إلى مكة ثم هاجر الهجرة الثانية للحبشة مع المكابدة والمشقة، وحضنه مجلس النجاشي في حواره وسؤاله عن الإسلام من جعفر بن أبي طالب، وصار مصعب من فضلاء الصحابة وخيارهم، حتى حبسه أهله، وبقي محبوسا حتى بيعة العقبة الأولى، وهنا اختاره رسول الله ﷺ ليكون السفير الأول للإسلام لأهل يثرب ليعلمهم الإسلام، وكان أول داعية خارج مكة، وكان أول معلم للقرآن في المدينة حتى فشا فيها الإسلام، وعم الخير، واستعدت لاستقبال النبي المصطفى المختار، وصحبه الكرام، لتنشر النور إلى أرجاء الكون، وكان مصعب أول إمام للصلاة في المدينة، وأول مقرئ للقرآن، فارتبط به قلوب أهلها ليتعلموا منه الإسلام، ويفقههم في الدين، ونزل ضيفاً على أسعد بن زرارة، واتخذ من داره قلعة للدعوة، وكان تأثيره باهراً حتى أسلم على يديه زعماء بني الأشهل سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير عندما قدموا إليه ليقتلوه، لأنه أدخل الدين الجديد إلى يثرب، وفرق شملهم بين مؤمن ومشرك، فجاء أولهم أسيد بن حضير حاملاً حربته فقال أسعد رضي الله عنه لمصعب ((هذا سيد قومه فاصدق الله فيه)) فأحسن استقباله، ثم دعاه للإسلام بحكمة وروية، وقرأ عليه القرآن شجياً من قلبه، فدخل الإيمان قلب أسيد، وأسلم، وذهب إلى سعد بن معاذ الذي اعتاظ أكثر، لأن هذا

الشاب كان سبباً في إسلام أسيد والتفريق بينهما، فقدم متأبطا شراً مصمماً ليقتله، فأعاد سعد بن زرارة قوله لمصعب: ((هذا سيد قومه، فاصدق الله فيه)) فاتجه إلى الله بالدعاء أن يكتب الخير على يده، ودعا سعد بن معاذ للإسلام ثم قرأ عليه القرآن فأسلم، فكان مصعب نموذجاً حياً للداعية المسلم، فمكن إرساء ركيزة الدعوة في المدينة لتكون عاصمة الإسلام الأولى، وأقام مصعب أول صلاة جمعة في الإسلام، وفي المدينة المنورة بأمر رسول الله ﷺ لأنه استحال إقامتها في مكة، إلى أن قدم الرسول والمسلمون إلى المدينة.

◈ مشاركة مصعب بالجهاد:

الجهاد ذروة سنام الإسلام، والجهاد يكون باللسان والمال والحسام، وقد ساهم مصعب رضي الله عنه بذلك، إلى أن خاض الحرب والمعركة، وشارك في معركة بدر الفاصلة الحاسمة التي امتاز أهلها بميزات فريدة، واحتلوا المكانة العليا، وكان مصعب صاحب الفضل في حمل اللواء الذي رفعه شامخاً في سبيل الله، وكان في أول الصفوف وفي مقدمة المقاتلين، وكان كالأسد الضاري رافعاً اللواء حتى اخترق صفوف المشركين، وهو يهتف:

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد

وانتهت المعركة بهزيمة المشركين وانتصار المسلمين، ووقع سبعون مشركاً أسرى، منهم أبو عزيز ابن عمير، أخو مصعب لأبيه وأمه، فأوصى بالشد عليه حتى تفديه أمه الغنية، ففدته بأغلى فداء للأسير أربعة آلاف درهم.

لكن الدماء ثارت في قلوب المشركين في مكة مع الحقد وحب الانتقام، والاستعداد للثأر في معركة أحد، وخرج المسلمون لملاقاتهم، وكان في طليعة المجاهدين مصعب الذي أبلى في المعركة بلاء حسناً، وحمل اللواء فيها أيضاً،

وانتصر المسلمون أولاً، ثم دارت عليهم الدائرة، وتجمهر الكفار على قتل الرسول الذي أحاطه الأبطال للدفاع عنه، وبينهم مصعب، فانهال المشركون بالضرب والفتك، وبقي اللواء بيد مصعب عاليا يفديه بالروح ويهتف ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)) فضربه المشرك ابن قمئة فقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، فضربه الكافر فقطع يده اليسرى، فضم اللواء بعضديه إلى صدره، فحمل عليه اللعين بالرمح فأنفذه في صدره، وسقط اللواء وخرجت روح مصعب إلى بارئها راضية مرضية، تنعم بالرضا والقبول، ووقف الرسول عليه وقرأ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] ثم قال عنه وعن شهداء أحد «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه» ولما أرادوا دفنه لم يجدوا له مالاً ولا ثوباً، فكفنه بثوبه القصير، ووضع رسول الله ﷺ على قدميه الاذخر، وواراه الثرى، ليكون مثلا أعلى للتضحية والشهادة، والعزوف عن الدنيا والعمل للآخرة، وليكون نموذجاً للمجاهدين الصادقين في سبيل الدعوة، وقدوة للشباب في العمل لمرضاة الله تعالى، فرضي الله عنه، وأسكنه فسيح الجنان، والحمد لله رب العالمين.

ثامن وعشرون: الصحابي معاذ بن جبل

يقول رسول الله ﷺ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» أي أن صاحب الخير والفضل والأعمال الحميدة والقيم النبيلة هو خير الناس في الجاهلية، ويكون كذلك بهذه الصفات في الإسلام إذا اعتنق العقيدة والإيمان، وعرف أحكام الشرع والدِّين، فقد جمع بين الإيمان والعمل، والعقيدة والسلوك، وينطبق ذلك على عدد من الصحابة، ومنهم معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي وصفه رسول الله ﷺ فقال: «معاذ إمام العلماء يوم القيامة» وقال له أيضاً: «يا معاذ، والله إني أحبُّك» فقال معاذ: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا أحبك».

◈ اسمه ونشأته:

هو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، توفي والده قبل انتشار الإسلام في المدينة المنورة، ونشأ في بني سلمة الذين تزوج أحدهم أم معاذ بعد موت زوجها، فعاش معها معاذ دون أن يتأثر بعاداتهم القبيحة، بل توجه إلى الفضيلة والسيرة الحسنة بفضل الله وتوفيقه وعنايته، فالتزم الطهر والعفاف والقيم في نشأته وشبابه، حتى حضر مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلم أهلها القرآن ويدعوهم إلى الإسلام، فأسلم معاذ على يديه وهو في باكورة شبابه، وعمره ثمانية عشر عاماً، وكان صادق الإيمان، متحمساً للدين الجديد، مما دفعه لمرافقة قومه إلى الحج في مكة، فالتقى بالنبي ﷺ، وشهد بيعة العقبة الثانية لنصرة الإسلام والذود عنه، وعاد إلى المدينة ممتلئاً حماساً ونشاطاً لتهيئة المدينة لاستقبال الرسول ﷺ والدِّين الجديد، فوجد من واجبه تطهير المدينة من الأصنام، فاتجه إليها مع بعض الشباب وكسروها وتخلصوا منها، ثم

اتجه معاذ الشاب الداعية المتحمس الجريء إلى اليهود يدعوهم إلى الإسلام، ويذكرهم بما كانوا يستبشرون بظهور نبي، ويستفتحون به على أهل يثرب، واستمر على حماسه للدعوة حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فآخى بينه وبين جعفر بن أبي طالب الذي كان غائباً في الحبشة، فآخاه مع عبد الله بن مسعود الذي أقرأه القرآن، حتى صار معلِّماً الخير للناس، ومدحه ابن مسعود فقال: «كان أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يك من المشركين، كان يُعلِّم الناس الخير، وكان مطيعاً لله ولرسوله».

◈ مكانته وفضائله:

كان معاذ رضي الله عنه كثير الملازمة لرسول الله ﷺ في الحضر والسفر، ويأخذ حديثه، ويحظى بتوجيهه وهديه ووصياه، وكان يردفه خلفه على الدابة أحياناً، ويلقنه المواعظ الرشيدة، ثم عاهده على الجهاد لإعلان كلمة الله، وشهد مشاهد الجهاد كلها مع رسول الله ﷺ، بدراً، وأحداً، والخندق حتى غزوة تبوك، وبعدها أرسله رسول الله ﷺ قاضياً وأميراً إلى اليمن بعد أن خبر ذكاءه وكفاءته وفقهه في الشرع، فروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي والبيهقي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: «كيف تصنع إن عَرَض لك قضاء» قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد رأيي، ولا آلو (أي لا أقصر) فضرب رسول الله ﷺ على صدري، وقال: «الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله ورسوله» وكان هذا الترتيب هو المنهج الإسلامي في القضاء والاجتهاد وغيره، ولما دخل أهل اليمن في الإسلام، اختار لهم رسول الله ﷺ

أكفأ أصحابه، وهم معاذ وأبو موسى الأشعري وعليٌّ بن أبي طالب ﵃، وأوصاهم بأهل اليمن، وأوصى أهل اليمن بهم خيراً، واستمر معاذ قاضياً وأميراً وداعياً في اليمن حتى تمت المبايعة لأبي بكر الصديق ﵁ خليفة للمسلمين، وأسس مسجداً في اليمن سمي بعد ذلك باسمه، ولا يزال فيها حتى اليوم، ثم وصل مكة في موسم الحج سنة ١١هـ، فحجّ مع أمير الحج عمر بن الخطاب ﵁، ثم اتجه إلى المدينة، وفاضت دموعه وأجهش بالبكاء، على فقد رسول الله ﷺ، وصار يقضي معظم وقته في مسجد رسول الله للعبادة والبكاء متذكراً الوصايا الخالدة التي سمعها قبل الرحيل إلى اليمن.

وفي عهد الصديق ﵁ استأذنه معاذ ليخرج إلى الجهاد في بلاد الشام، فأذن له رغم معارضة عمر ﵁ الذي رأى أن بقاءه في المدينة أكثر فائدة للمسلمين، فشارك في معارك فتح الشام، وصار الساعد الأيمن للقائد أبي عبيدة بن الجراح في تصريف الشؤون الكبرى، وكتبا معاً كتاباً إلى عمر بالنصح والموعظة والمشورة، فتقبلها شاكراً، وداعياً لهما، ولما مات أبو عبيدة ﵁ بالطاعون تولى معاذ بن جبل ﵁ القيادة العامة لجنود الشام.

◈ علمـــه:

واشتهر معاذ ﵁بالعلم، وبلغ فيه مكانة رفيعة، وأثنى عليه رسول الله ﷺ، فقال في حديث طويل عن مناقب الصحابة: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل» رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً، وجمع معاذ بين الفهم والفقه والحفظ، فكان من كبار حفاظ القرآن الكريم، وأوصى رسول الله ﷺ بأخذ القرآن عنه، ولذلك استخلفه في المهمات العلمية الكبيرة، فاستخلفه في مكة بعد فتحها ليعلم أهلها القرآن الكريم، ويفقههم في الدّين، مع أميرها عتاب بن

أسيد ثم أرسله إلى اليمن قاضياً ومعلماً وداعياً، وكان يأمر الصحابة بالاقتداء به، واشتهر بالإفتاء في عهد النبي ﷺ مع كبار الصحابة، وثابر على ذلك في اليمن، ثم توسع به في الشام عند خروجه إليها للمشاركة بالجهاد فكان المرجع العلمي للصحابة في بلاد الشام.

وكان معاذ فعلاً من رواة الحديث، وروى عنه بعض الصحابة، وكبار التابعين، وأحبوه، ولما رآه أبو مسلم الخولاني في مسجد حمص ورأى هيبته وجماله ومكانته بين الصحابة قال: «فوقع حبُّه في قلبي»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، فاستعملهم في طاعة الله».

◈ وفاتـــه:

لما انتشر الطاعون بالشام، المعروف بطاعون عَمَواس، ومات فيه عدد كبير من المسلمين، تمنى معاذ أن يلحق بهم شهيداً بالطاعون مع أهله، فاستجاب الله دعاءه، وأصيب ولداه، ثم ماتا، ثم أصيبت امرأتاه، وهلكتا، ثم أصيب هو، فغلبت عليه صفات المؤمن بالخوف والرجاء، والدعاء والذكر، حتى حانت ساعة الوفاة سنة ثماني عشرة للهجرة، وعمره ثمان وثلاثون سنة، ودفن في بلاد الشام، ولما حضرته الوفاة جلس تلاميذه حوله يبكون، فقال: ما يبكيكم ؟ قالوا: نبكي على العلم الذي ينقطع عنا عند موتك، فقال رضي الله عنه: إن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة، ومن اتبعهما وجدهما: الكتاب والسنة، فاعرضوا على الكتاب والسنة كل كلام، ولا تعرضوهما على شيء من الكلام، وابتغوا العلم عند عمر وعثمان وعلي، فإن فقدتموهم، فابتغوه عند أربعة: عويمر (أبو الدرداء) وابن مسعود، وسلمان، وابن سلام الذي كان

يهودياً فأسلم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هو عاشر عشرة في الجنة»، «واتقوا زلّة العالم، خذوا الحق ممن جاء به، وردُّوا الباطل على من جاء به كائناً من كان»، ولما طعن عمر رضي الله عنه وشعر بدنو أجله قال: لو أدركت معاذ ابن جبل فاستخلفته؛ فسألني ربي عنه، لقلت: يا رب سمعت نبيك يقول: إن العلماء إذا اجتمعوا يوم القيامة كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة حجر، فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه، ليبقى مشعل خير ونور وهداية للأجيال، والحمد لله رب العالمين.

تاسع وعشرون: الأستاذ الدكتور نور الدين عتر

العلامة، المحدث، المجدّد كما عرفته

الحمد لله رب العالمين، العالم العليم، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، ومعلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الإسلام دعا إلى العلم بأوسع أبوابه، وإن الله تعالى فضّل العلماء على غيرهم، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وجاءت أحاديث كثيرة في الدعوة إلى العلم، وبيان درجة طالب العلم، وفضل العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وأنهم يحملون رسالة الإسلام، ويبلغون الدعوة، ويعلمون الناس الأحكام، ويرشدونهم إلى الحق والصواب، وإذا كان الحكام رؤساء على الناس، فإن العلماء سادة على الحكام والناس، وتتفوق مكانتهم على جميع الأمة، ولهم المنزلة الرفيعة في نفوس الأمة جميعاً، فهم كالنجوم على الأرض.

وإن الله تعالى اختار لنا الإسلام، وأتمّ لنا الدين، وتكفل بحفظه إلى قيام الساعة عن طريق العلماء، ولا يزال هذا الدين غضّاً طريّاً، وسليماً وصحيحاً ما دام العلماء قائمين عليه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» رواه البخاري رقم ٦٨٨١، وقال في حديث آخر: «ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله» رواه البخاري رقم ٦٨٨٢، وذلك عن طريق العلماء ومن يسير في ركبهم.

وهذا ما تأكد طوال أربعة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي، ولا يزال العلماء اليوم، وحتى تقوم الساعة، يحملون مشعل النور والخير، ويحافظون

على الدّين والشرع، ويعلمون الناس الأحكام، ويدرّسون، ويكتبون، ويؤلفون، وينتجون، ويجاهدون، ويثبتون على الصراط المستقيم.

ونحسب من هؤلاء الأخ الفاضل، والزميل الأثير، العلامة، المحدّث، المجدّد، المربي، المدّرس، الداعية، الأستاذ الدكتور الشيخ نور الدين عتر متّع الله بعمره وصحته، وهو ما نريد كتابة هذه الأسطرعنه ،كما عرفته في كلية الشريعة بجامعة دمشق طوال ربع قرن ونيف.

◈ معرفتي به:

كنت قبل عام سبعين وتسعمائة وألف ميلادية من القرن العشرين بسنة أو سنتين أسير أمام جامعة دمشق، فوقع نظري على رجل بزي العلماءِ بالعمة والجبة، مع حيوية الشباب، والطلعة البهية، ويسير بخطا متزنة، ونظرات ثاقبة، حتى التقينا في كلية الشريعة، وعرفت أنه الدكتور نور الدين عتر، وأنه حصل على الدكتوراه في الحديث الشريف من جامعة الأزهر، ويرغب بالتدريس في كلية الشريعة، وأنه تقدّم بطلب للالتحاق بالجامعة، وعرفت أنه الشقيق الأكبر للزميل الأخ الدكتور حسن عتر الذي عشنا معه أربع سنوات في كلية الشريعة بجامعة دمشق، ثم التحق بالأزهر، وحصل على شهادة الدكتوراه في التفسير، وصار أستاذاً بمكة المكرمة، ثم بالمدينة المنورة، بينما عُيّن الدكتور نور الدين في جامعة دمشق، ولا يزال يحافظ على زيه في كل مكان، وفي الحلّ والترحال.

◈ الزمالة في كلية الشريعة:

انقطعت الصلة مع الدكتور نور الدين بسبب سفري إلى مصر لتحضير الدكتوراه، حتى عدت عام ١٩٧١ م، وعُيّنت مدرساً في كلية الشريعة بجامعة دمشق لتتم الزمالة مع الدكتور نور الدين في العمل والتدريس حوالي ربع قرن.

وعرفت الدكتور نور الدين مدرساً ناجحاً، ويُحسن العلاقة مع الزملاء

وإدارة الكلية، وكان محبوباً من طلابه الذين كانوا يحرصون على حضور محاضراته للاستفادة منه، ولم يرد من أحدهم مراجعة أو شكوى على الدكتور نور الدين في تدريسه، ومعاملاته، وفي امتحاناته وتصحيحه، فكان مدرساً متفوقاً، ومتميزاً، وجاداً، وحريصاً على رفع المستوى العلمي للطلبة والكلية، مع المحافظة على دقة مواعيد وقت المحاضرات، وأدائها، وكثيراً ما يتجمع الطلبة حوله بعد المحاضرة في القاعة، وردهات الكلية، وفي مكتبه، وفي المسجد، وحتى في الطريق العام.

وترقى الدكتور نور الدين إلى درجة أستاذ مساعد ثم إلى رتبة أستاذ بجدّه ونشاطه، وبحوثه، وكتبه، ومؤلفاته، وبقي في الكلية حتى الآن بما ينوف عن خمسة وأربعين عاماً في التدريس مع العطاء والإفادة.

وامتاز الدكتور العتر بدماثة الأخلاق، وطيب المعشر، وهدوء الطبع، والتواضع، فلم أسمعه رفع صوته في محادثة، أو محاورة، أو مناقشة، أو لقاء، أو اجتماع عادي أو رسمي، وقلما ينفعل في كلامه، وأحاديثه، وهو عفّ اللسان، فلم نسمع منه كلمة نابية، ولا نطق بغيبة أو نميمة، مع حرصه على حرمات الله تعالى، والغضب إذا علم بمنكر أو مخالفة للدين.

ولم يقتصر الدكتور نور الدين على التدريس في كلية الشريعة، بل كان عالي الهمة والنشاط فكان يدرس لسنوات طويلة في كلية الآداب بجامعة دمشق في مادة الدراسات الإسلامية، وكان محورها عن القرآن الكريم والسنّة النبوية، فكان سفير كلية الشريعة إلى كلية الآداب، وكان ممثل علماء الشرع والدّين عند إدارتها وأساتذتها وطلابها وموظفيها، وكان يتنقل بين الكليتين للتدريس والإرشاد والتوجيه، كما عمل أستاذاً زائراً في بعض الكليات والجامعات العربية والإسلامية.

وكانت همّة الدكتور نور الدين أعلى من ذلك بكثير، فكان يذهب أسبوعياً للتدريس في جامعة حلب في كلية الآداب، وقبل إنشاء كلية الشريعة فيها، فكان يدرس الدراسات الإسلامية، ويستغل ذلك لزيارة بيته في حلب، وصلة أرحامه، وأهله، وأقاربه، وأصدقائه، فلم تنقطع صلته بمدينته الأصلية حلب، ولا بأحبابه ومعارفه، ليضيف إليهم الكثير الكثير.

ويُضاف إلى ذلك مساهمته الكبيرة بالإشراف على طلبة الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه، ومشاركته المهمة في مناقشة الرسائل والأطاريح، وتقويم الإنتاج العلمي للمدرسين والأساتذة المساعدين في الجامعات السورية، وجامعات البلاد العربية والإسلامية.

◈ الابتلاء والصبر:

تزوج الدكتور نور الدين بنت خاله علامة حلب والمربي والداعية، فأنجب عدة أولاد، ورباهم التربية الإسلامية النموذجية على الدّين والأخلاق، والأدب الجمّ، وكانوا يأتون معه -أحياناً- إلى كلية الشريعة، وكأنهم طيور الجنة، وسمى ابنه الأكبر مجاهد تيمنّاً باسم أستاذه الأثير الجليل علامة مصر والقاهرة والأزهر الأستاذ الدكتور الشيخ مجاهد، العالم العامل المخلص الثابت على الحق، دون أن تأخذه في الله لومة لائم، ولا تهديد سلطة، وقصد الدكتور نور الدين الوفاء لشيخه، والاعتراف بفضله، والمحبة والتقدير لعلمه، والتفاؤل باسمه، وكان الابن مجاهد شاباً يتسم بالحياء والدّين والمودّة واللطف، والجدّ والاجتهاد حتى تخرج من جامعة دمشق، والتحق بخدمة العلم، وكان في إجازة معتادة، ومسافراً في الباص الذي أصابه حادث مؤلم، وأصيب الشاب، ومات فوراً، فكانت مصيبته كبيرة، وفقده جللاً، وابتُلي الوالد والأهل والوطن بفقده، وذهبنا مع أساتذة كلية الشريعة إلى حلب لتقديم

واجب العزاء للأخ الدكتور نور الدين، فكان صابراً محتسباً، كما تقتضيه الأحكام الشرعية، والآداب الدينية، والوصايا الحكيمة، وكان ثابت القلب، ناصع العقل، هادىء الأعصاب، يتلقى التعازي بنفس رضية بقضاء الله وقدره، ويحتسب ابنه البكر عند الله تعالى، وأنه قدمه في سبيل الله والوطن.

◈ الإنتاج العلمي للدكتور نور الدين:

إن الأستاذ الدكتور العلامة نور الدين عتر كثير الإنتاج، وقلمه سيال، وفكره ناضج وناصع، ويعيش الواقع والأحداث، وكان أسلوبه سهلاً، واضحاً، نيّراً، ملتزماً.

وكتب مقالات كثيرة، وصنّف كتباً عديدة، وكنت أتمنى أن أكون في الوقت الحاضر بمكتبتي بدمشق لأحصي أهم كتبه، وأكتب عنها، وأحلل ما جاء في بعضها.

وألّف الدكتور نور الدين عدة كتباً دراسية وجامعية للتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وغطّى تقريباً جميع المواد الدراسية في الحديث والتفسير للسنوات الأربع.

وساهم الدكتور نور الدين في الدعوة والثقافة العامة، فكتب عن المرأة المسلمة، وكتب عن الاقتصاد الإسلامي وغيره من الأحكام الشرعية في الفقه، وعندما قرأت أول كتاب له في ذلك أصابني الاستغراب والدّهشة، وأن عالماً مختصاً في الحديث والرجال والسنّة يكتب في الفقه، وسألت عن السرّ في ذلك، فعلمت أن الدكتور نور الدين درس في الأزهر بكلية الشريعة أولاً، ودرس الفقه وأصول الفقه، قبل أن ينتقل إلى كلية أصول الدّين ويختص في الدراسات العليا بالسنة والحديث، فكانت ثقافته واسعة، وشاملة للاختصاصات الشرعية،

فأبدع وأجاد وأفاد، وهذا ما يؤكده الأديب الشاعر أبو الحسن النيخكردي: «ومن طلب الفقه ثم الحديث، فإن له همة عالية».

وساهم الأستاذ الدكتور نور الدين بالتحقيق العلمي، مباشرة، وإرشاداً، وإشرافاً، وخدم التراث الإسلامي الزاخر، وأعاد بعض المخطوطات للحياة والنور والنفع العام.

وإن كتب الأستاذ الدكتور نور الدين تدّرس في عدة كليات، وعدة جامعات، سواء في المرحلة الجامعية، أو في الدراسات العليا، وخاصة كتابه «منهج النقد» المقرر للتدريس في جامعة الشارقة، فهو أستاذ للأجيال المتعاقبة في سورية، وبقية أنحاء العالم، وخاصة في علوم الحديث الشريف والسنّة النبوية.

◈ نور الدين عتر الإداري:

لم يقتصر نشاط الأستاذ الدكتور نور الدين على التدريس والتأليف، بل كان إدارياً ناجحاً، ومتفوقاً، فتولى رئاسة قسم علوم القرآن والسنّة بكلية الشريعة بجامعة دمشق لسنوات عديدة، بل كان أحياناً متفرداً في القسم، ومعه المدرسون المتعاونون، ثم انضم إلى القسم عدد من طلابنا النجباء الذين يرأسهم الأستاذ الدكتور نور الدين.

وقد عُينتُ وكيلاً لكلية الشريعة للشؤون العلمية لمدة خمسة عشر عاماً (١٩٨٢-١٩٩٧م) وكنا نجتمع في مجلس الكلية أسبوعياً وشهرياً مع الأخ العزيز، والزميل الفاضل، وكان يمثل قسم علوم القرآن والسنّة خير تمثيل من الناحية الإدارية، ومن الناحية العلمية والموضوعية، وكان يسيّر أمور القسم بحكمة وروية، ويطوّر الدراسة فيه، وكان له الفضل الأول في إعداد برامج الماجستير والدكتوراه في القسم، فأقام بنيانه، وسوّى أركانه، وأحاطه بالرعاية، وجعله مثلاً وقدوة

وأسوة لأمثاله في الجامعات الأخرى التي اقتبسته وسارت على منواله.

◈ نور الدين المجدّد:

امتازت العلوم الإسلامية بعلم مصطلح الحديث، ورواية الأحاديث بالسند المتصل من الراوي إلى رسول الله ﷺ، حتى تمّ تدوين السنّة في الصحاح والسنّن والمسانيد وغيرها، وبقي علماء الحديث يحفظون الأحاديث الشريفة بأسانيدها كاملة، وكان آخرهم بدمشق العلامة المحدّث بدر الدّين الحسني رحمه الله تعالى الذي تُوفي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، فكان محدّث الشام برواية الأحاديث بالسند، نظراً لأهمية الإسناد، فإنه من الدّين، مع الاحترام والتقدير للرواة، ثم انقرضت هذه السنّة الحميدة، فجاء الأستاذ الدكتور نور الدين لإحيائها وتجديد العمل بها، وعمل دورات لفتيات دمشق الطاهرات، المخلصات، القانتات، الخاشعات، المؤمنات، الصادقات، لقراءة كتب السنّة، والابتداء بأهم كتاب وأصحه بعد القرآن الكريم، وهو صحيح البخاري لحفظه بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ، فكان الشيخ الأستاذ الدكتور نور الدين مجدّداً لهذا العلم المبارك، والعمل العظيم، وقد تخرجت عدة دورات ممن يحفظن صحيح البخاري بالسند المتصل بإشراف وإرشاد ورعاية وعناية الدكتور نور الدين الذي صار علماً بارزاً في دمشق وحلب، وانتشر ذكره وذاع صيته في البلاد العربية والإسلامية.

جزى الله الأستاذ الدكتور الشيخ نور الدين عتر خير الجزاء ومتّع الله المسلمين بعمره، وأمدّ في حياته، وبارك له في علمه وأولاده، ونفع به الأمة وطلاب العلم، وأكثر من أمثاله، والحمد لله رب العالمين.

❧

ثلاثون: وهبة الزحيلي

الشقيق المربي والأستاذ الأثير

الحمد له الذي أعلى مقام العلماء، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والصلاة والسلام على رسول الله، معلم الناس الخير، وقدوة المؤمنين، وأسوة الصالحين، الذي ورَّث العلم، وجعل العلماء ورثة الأنبياء، وبعد:

◈ مقدمـــة:

إن تكريم العلماء من فضائل الدِّين، وإن احترام الرجال من شمائل الأخلاق، وإن الاعتراف بالفضل من الشيم المحمودة، ولا يعرف الفضل لأهله إلا ذوو الفضل.

وإن دار الفكر بدمشق سنَّت سنَّة حسنة، وبادرت -مشكورة- لتسليط الأضواء على رجال الأمة الأحياء، وعلى المفكرين العظماء، والعلماء المعاصرين، وقدمت كتاباً هدية تكريم لأستاذنا الفاضل، العالم النحوي، البحاثة اللغوي، الأستاذ الدكتور مازن المبارك حفظه الله ورعاه، ومتَّعه، ثم تبع ذلك كتاب لتكريم الأخ الكبير، والزميل الفاضل، والداعية العلامة، والمفكر الإسلامي، الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله، وأطال عمره، ونفع الله بعلمه.

واليوم عقدت العزم على إصدار كتاب تهديه إلى الشقيق المربي، والأستاذ الأثير، فضيلة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي بمناسبة تكريمه في اليوم

العالمي للكتاب المصادف في ٢٠٠٣/٤/٢٣م ضمن نشاطات الأسبوع الثقافي الرابع الذي تزمع الدار إقامته في التاريخ المشار إليه، واستكتبت العلماء في ذلك لاستشارتهم وأخذ موافقتهم.

◈ الأقربون أولى بالمعروف:

عندئذ قلت في نفسي: ومن أولى الناس مني بالكتابة في هذا الخصوص؟ ومن أقرب الناس مني لتجلية الأمر، وتسليط الضوء على بعض الجوانب؟ ومن أعرف مني بالحقيقة الواقعة، والمسيرة الذاتية، والشخصية العلمية؟ ومن أكثر اتصالاً مني بالشقيق المربي والأستاذ الأثير؟ فقد نشأنا في بيت واحد وتربينا تحت مظلة واحدة، وشربنا من معين واحد، ونهلنا من مصدر واحد، وتلقينا التوجيه الأول من السيد الوالد رحمه الله تعالى، وعشنا في الأسرة الصغيرة وبما فيها من الحلو والمر، والآمال والآلام، والمسرات والأحزان، والأفراح والأتراح، كما التقينا مع الأسرة الكبيرة من آل الزحيلي في مناسباتها ولقاءاتها واجتماعاتها(١).

وكان توجه السيد الوالد أن نُيمِّم وجهنا شطر دراسة الشريعة الغراء، فاتحد الطريق، وكانت الغاية واحدة، والهدف محدداً، وسرنا على منهج واحد في دراسة الفقه الإسلامي، والمقارنة مع القوانين، ودراسة الحقوق.

---

(١) يضاف إلى ذلك التشابه الخَلْقي والفطري، وكثيراً ما عرفني الناس للشبه به، وقد يلتبس الأمر أحياناً فيوجّه لي الخطاب على أنني هو، ثم يرد السؤال لي عن الزيّ الرسمي الشرعي الذي يرتديه الشقيق، ولماذا تخليتُ عنه؟ فأبادر إلى التوضيح أنني أخوه وشقيقه، ولست هو، وامتد ذلك إلى أنحاء العالم، وظن الكثير أننا شخص واحد، بل كثيراً ما تأتي الرسائل والمكاتبات والدعوات للندوات والمؤتمرات تحمل الاسمين معاً في آن واحد: محمد وهبة الزحيلي، وقد يشتبه بعض الناس في التفريق بين الأصغر والأكبر، والطالب والأستاذ، فيكون جوابي باستمرار: إنه شقيقي الأكبر، وأستاذي.

فما من أحد أحق مني بالكتابة في ذلك، بل إنه الواجب الديني والخلقي، والمعرفي والمعلمي، والمنطقي والواعي، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، [الأحزاب: ٦]، وخصَّ الله تعالى شهادة الشاهد من الأهل بميزات ذكرها في القرآن الكريم، وذلك في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام، وإثبات براءته، وإلصاق التهمة بامرأة العزيز المدعية المفترية عليه، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، فوقر كلامه في قلب العزيز، وانطبع في نفسه، وعرف الحقيقة، وأيقن براءة يوسف، وكشف فعل امرأته، وتوجه إليها باللوم، وليوسف بطلب الصفح، قال تعالى عن ذلك: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

ونص الفقهاء على اشتراط الخبرة الباطنة في بعض الشهادات على الأمور الدقيقة التي يمكن إخفاؤها عادة، ولا يعرفها إلا الخواص، ليتم تجلية الحال، وكشف الغوامض من اطلاع الشاهد عن دراية، وصلة، ومعرفة بواطن الأحوال، وهذا أعلى درجات العلم الذي تعتمد عليه الشهادة في الإثبات أمام القضاء، وما أحوج ما نحن فيه إلى هذه الخبرة الباطنة.

وإن كان له قرابة ونسب، وصلة رحم، فأنا أحدهم، وأشدهم قرباً.

ولئن انتفع كثيرون بعلم الشقيق المربي، والأستاذ الأثير، فأنا واحد منهم -كما سيأتي- بل أنا أقربهم، فقد انتفعت بعلمه من المهد في البيت، ثم المدرسة، فالجامعة، أثناء الدراسة والتدريس، وانتفعت بإنتاجه ومحاضراته، وخطبه ودروسه، وتوجيهاته ومواعظه، ومع ذلك سوف أقصر كلامي على الجوانب الشخصية الذاتية، وأوثر غيري بالكتابة عن التراث الفكري

والعلمي، ومتابعة المؤلفات والإنتاج الغزير.

◈ الاعتراف بالفضل والشكر عليه:

إن الاعتراف بالفضل من أفضل المروءات، وإن الشكر على المعروف من تراث الأنبياء قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يَشْكُرِ النَّاسَ لا يَشْكُرِ اللهَ» ولذلك كان الاعتراف بالفضل لأهله، وشكرهم عليه من الأدب والأخلاق السامية، وهذا يقتضي أن اعترف بفضل الشقيق، وأن أزجي له الشكر والدعاء، لقوله ﷺ: «مَنْ أسْدى إليكم مَعروفاً فكافئوهُ، فإنْ لم تقدرُوا فادعوا له بخير» فكيف إذا كان المعروف كبيراً وغير محصور؟ فإنه يتطلب كثرة الدعاء بما يَلهج به اللسان.

◈ تكريم المعلم:

يقول المثل العربي الرفيع: «من علمني حرفاً كنت له عبداً» وهذا تدريب على المُثُل العُليا، للإقرار بحق المعلم، وبيان الواجب تجاه.

ويقول الشاعر العربي الحكيم حافظ إبراهيم رحمه الله تعالى:

قمْ للمعلّم وَفِّه التَبْجيلا ... كادَ المعلّمُ أنْ يكونَ رَسُولا

وذلك لما له من فضل وتأثير، وتربية وتوجيه، وإعداد للفرد والمجتمع، فالمعلم أو المدرس أو الأستاذ أب روحي يمنح الطلاب الغذاء المعنوي، وينمي فيهم العقل، ويثقف الفكر، ويزوِّد المعرفة، وكثيراً ما يفوق أثره وفضله عن الأب من النسب.

فالمعلم هو المثل الأعلى في حياة الناس، والمعلم أستاذ ومصلح ومربّ، وهو ضياء ونور، ومرشد للخير والفضائل، وهذا ما أكده المعلم الأول للبشرية، محمد رسول الله ﷺ عندما قال: «إنّما بُعِثْتُ مُعَلِّماً» فإنه أنقذ الناس

من الجاهلية إلى النور، ومن الأمية إلى ذروة العلوم والحضارة، وبيَّن الأحكام عن ربّه، وتمثل به الشرع الحنيف، وتجسدت فيه الأخلاق الإنسانية.

والمعلم مرآة، يرى الناس فيه مواقفهم في الحياة، وقربهم من الصراط، وهو ميزان يقيّم أعمالهم، ويراقب أفعالهم، ليحاسب كل منهم نفسه ليستقيم أمره، قبل أن يحاسب يوم العَرْض.

◈ المعلم المؤثر:

إن المعلمين والمدرسين والأساتذة لكل طالب كُثُر، لكن بعضهم يترك أثراً مميزاً على شخصية الطالب، حتى يصل بالتلميذ أن يتقمص شخصية أحدهم، ويحاكيه في أعماله وتصرفاته وحركاته، ويتبعه كظلّه وخياله، ويكون له القدوة والأسوة.

وكثيراً ما يكون تأثير المعلم باعثاً لتحبيب الطالب بتخصص معين، أو مقرر خاص، أو منهج متفرد به في الحياة، وفي الدراسة، والبحث، ليقتفي أثره، ويتتبع خطاه، ويكون امتداداً لشخصيته وعلمه.

◈ أستاذي الأثير:

إن أساتذتي عديدون في المرحلة الابتدائية، والمتوسطة والثانوية، والجامعية والدراسات العليا، اعترف بفضلهم، واعتز بالتتلمذ على أيديهم، والاستفادة من فضلهم وعلمهم وتوجيهاتهم.

وكثير منهم له تأثير مباشر ومميز، ولكن هناك أحد أساتذتي جمع بين التأثير العلمي والشخصي، والعاطفي والعائلي والاجتماعي، ولازمته في الحياة الشخصية والعائلية منذ نعومة الأظفار، ومن الطفولة حتى الشيخوخة، ولا أزال أنهل من معينه، وأقتبس من فكره وعلمه ومواقفه، لذلك رأيت من

الواجب أن أكتب عنه، تقديراً ووفاء، واعترافاً بالفضل، وبياناً للواقع، وحباً وإخلاصاً، وإجلالاً واحتراماً، ألا وهو شقيقي الأكبر، الأستاذ العلامة، الفقيه الأصولي، المفسر الشيخ، الدكتور وهبة الزحيلي، حفظه الله ورعاه، ومتّعه بنعمة الصحة والعافية والإيمان، ونفع الله به وبعلمه، وأطال في عمره.

بدأ تأثيره وتوجيهه من بيت الوالد والأسرة الصغيرة، ثم امتد إلى مجالات الحياة الاجتماعية، والعلاقات العامة، ثم في الروابط الشخصية والعائلية، فكان متميزاً، وفريداً، وطموحاً في الحياة، لا يرضى إلا بالقمم، وأعلى الشهادات، وأرقى الرتب والمقامات الرفيعة، وكان منظماً في أعماله تنظيماً دقيقاً طوال حياته، ورائداً وموجهاً داخل الأسرة الصغيرة والكبيرة، ويتصرف باعتباره قدوة لغيره، وأسوة لمن حوله، ولمن يحوط به، ويتمتع بظاهرة القيادة والريادة في كل لقاء، ويمقت التبعية والتقليد للآخرين، أو مجرد الانخراط في الصفوف، وكان المستشار الأول للوالد رحمه الله تعالى في جميع الأمور.

وانقطع تأثيره العلمي المباشر بيننا لإيفاده للدراسة بالقاهرة في الأزهر الشريف، إلى أن عاد أستاذاً إلى كلية الشريعة في جامعة دمشق عام ١٩٦٣م، وكنت عندها في السنة الثالثة فيها، ودرَّسني أهم العلوم الشرعية وأدقها في الفقه والأصول والفقه المقارن في السنتين الثالثة والرابعة، إلى أن صار عميداً، ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه.

ثم انقطع التأثير ثانية عند إيفادي للدراسات العليا في الأزهر الشريف بالقاهرة، ثم تجدد التأثير والعطاء والإفادة عندما حصلت على الدكتوراه (عام ١٩٧١) وعدت مدرساً إلى نفس كلية الشريعة في جامعة دمشق، فكان رئيساً لقسم الفقه الذي أنتمي إليه، وكان متألقاً في التدريس والإشراف، والتخطيط والاجتماعات، والمشاركة في الندوات والمحاضرات.

◈ رسالة تقدير وإجلال:

لما طلبت مني بعض وسائل الإعلام أن أشارك في كتابة «رسالة إلى أستاذ» اخترت أن يكون شقيقي المربي هو ذلك الأستاذ، وكتبت شيئاً مما ذكرت، وقلت:

«إليك شقيقي وأستاذي التقدير والإجلال، والمحبة والاحترام، وإنني طوع أمرك، ورهن إشارتك في الأمور الخاصة والعامة، وفي المجالات العلمية والعملية».

«إنني نقطة في صحائف عملك، وأثر من إنتاجك الوفير، وامتداد لعطائك، وناقل لعلمك، ومتحدث بفضلك، ومعتز بك، وفخور بشخصيتك».

«ومهما قلتُ، أو زدتُ، فإني أقرر الحقيقة ولست منطلقاً من مقولة المثل: «كلٌّ فتاة بأبيها مُعجبة» ولكني معبر عن الأحاسيس والوجدان، وقراءة الواقع، وأحد الذين يلهجون بذكرك وعلمك، فإن إنتاجك وفير، وطلابك الذين استفادوا منك أكثر، وأثرك في الحياة والمجتمع لا يحصى، مع شدة الانتباه والجذب إليك في ردهات العلم، وفي المؤتمرات الدولية، والندوات العلمية، وعلى شاشات التلفاز، ومن وراء المذياع، وعلى أعواد المنابر».

◈ تقديم التهنئة والدعاء:

«شقيقي وأستاذي: أهنئك من أعماق القلب على عطائك، وقوة شخصيتك، وريادتك وإنتاجك، وما تحصل عليه من ثناء الناس، وما تلاقيه من احتفاء وتكريم، ليكون ذلك ذكراً خالداً في الدنيا، وذخراً طيباً مباركاً لك في الآخرة، ورسول الله ﷺ يرشدنا بقوله: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له بخير»، فأسأل الله تعالى أن يطيل في عمرك،

ويمدَّ في حياتك، ويبارك لك فيما أعطاك ووهبك، ويزيد في إنتاجك، ويمتعك بالصحة الكاملة والعافية التامة، وأن يحفظ عليك سمعك وبصرك، وأن يجعله الوارث منك، ليتحقق فيك الحديث الشريف «خيركم من طال عمره، وحسُن عمله»، كما أبتهل إلى الله تعالى أن يجزيك خير الجزاء عن كل ما ذكرت أو أشرت، وأن يحسن ختامك، وأن يرفع قدرك ومقامك في عليين، وأن يجمعنا مع الوالدين والأحبة برفقة الأنبياء والشهداء والعلماء والصالحين والأولياء المقربين في جنات النعيم، والفردوس الأعلى يوم الدِّين.

«أدام الله فضلك وعزك، وحقق الخير على يديك، وجعلك هادياً مهدياً، لتبقى علماً شامخاً، مع سائر العلماء العاملين المخلصين، لهذه الأمة، لحمل مشعل النور، ورسالة الإسلام، فيبقى المصباح مضيئاً، والخير والعطاء مستمراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها».

◈ عود على بدء: الشمائل الفريدة:

إن الشقيق الأكبر يتمتع بشمائل جمة، واكتفي ببعض الشمائل الفريدة التي تركت بصماتها على حياته في الناحية الشخصية والاجتماعية، والناحية العلمية والعملية.

۱- الالتزام بالجُبّة والعمامة:

إن ارتداء الجبّة والعمامة هو شعار إسلامي، وأصبح شعار العلماء منذ العهد العباسي، وخلافة هارون الرشيد، عندما طلبه قاضي القضاة الأول الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة عليهم الرحمة، من القضاة والعلماء ليتميزوا عن عامة الناس، وليعرفهم الحكام والولاة والقادة والأمراء والعامة، ليتجهوا إليهم بالسؤال والفتوى، ويترلوهم منازلهم اللائقة، إلى أن تخلى كثير

من العلماء عن هذا الزي الذي هو مبعث العز والاحترام لمن ارتجاه بحق، وحافظ عليه بصدق.

وقال العلماء في المثل: «العمائم تيجان العرب» وهي لباس العلماء، ورمز الأصفياء.

وارتدى الشقيق الجبّة والعمامة منذ نعومة أظفاره، وهو في الثانوية الشرعية، في أربعينيات القرن العشرين، وحافظ عليها طيلة حياته، وعُرِف بها، وأصرّ على الالتزام بها وفي جميع الظروف، حتى صار مثار الندرة ولفت النظر بين طلاب كلية الحقوق في جامعة عين شمس بالقاهرة، وكلية الحقوق بجامعة القاهرة، في الوقت الذي يعصف الحكام بالعلماء ويسخرون منهم.

وكان الشقيق يحافظ عليها، ويحرص على اعتبارها، ويغار على المساس بها، مادياً ومعنوياً، كحرصه على نفسه وجسده، وعلمه وكرامته، فلا يسمح لأحد بالمساس بها قولاً أو إشارة، أو همزاً أو لمزاً، وينبري للدفاع عنها، ولا يسمح لأحد بلمسها بيده، ويحيطها كالأسد الهصور بالرعاية والحفظ، ويلتزم بحمل المنديل الأبيض في جميع الأماكن ليحيطه بالعمامة عند رفعها عن رأسه للوضوء، أو الراحة، أو الاستجمام، ويهتم بنظافتها بنفسه، وبيده، أكثر من جسده وسائر ثيابه، ويحيطها بالعناية الفائقة عند الغسل وإعادة التكوير في السفر والحضر، وفي جميع مراحل طلب العلم، أو التدريس، أو الزيارات، أو المشاركة في جميع الندوات والمؤتمرات، وعند القيام بالواجبات الرسمية والاجتماعية، فكانت ملازمة له، وتركت أثراً كبيراً من الناحية الشخصية وفي سلوكه الخاص، ومن الناحية الاجتماعية في الحياة وفي نفوس الناس، ومن الناحية الرسمية في الوظيفة والتدريس واللقاءات.

٢- الحرص على النظام والتنظيم:

كان الشقيق طوال حياته حريصاً منتهى الحرص على المحافظة على النظام، وتنظيم الوقت، والالتزام به بدقة متناهية في أموره الشخصية كالاستيقاظ المبكر في ساعة محددة صيفاً وشتاء، وتناول الطعام، والقيلولة، والنوم بعد العشاء في وقت محدد، وفي الدراسة، والبحث والتأليف وكأنه ضابط في جيش نظامي بل كان أكثر التزاماً بالنظام والتنظيم من الضباط والجنود. وكان ذلك -في نظري- أحد العوامل الرئيسة في عطائه، وكثرة إنتاجه، وغزارة مؤلفاته وكتبه وبحوثه، وخاصة التزام ذلك في الصباح المبكر الذي بارك الله فيه.

وكان محافظاً على النظام في أموره العلمية، فيؤديها في وقتها المعين لها، وكذلك في أداء واجباته، ومشاركاته في المناسبات الاجتماعية، وكثيراً ما يغضب ويثور ويضطرب حاله إن عكّر نظامه أحد، أو أخل شخص معه في موعد، أو تأخر عن العمل.

٣- فراسة الوالد فيه ولقب شيخ الإسلام:

كان الوالد رحمه الله تعالى (١٨٩٨-١٩٧٥م) منذ مطلع القرن العشرين حريصاً على طلب العلم الشرعي في صغره وشبابه، ونهماً في معرفة مسائله، فحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكان مواظباً على تلاوته طوال حياته، في السفر والحضر، والبيت والطريق والمسجد، ولا يمر عليه يوم إلا ويتلو عدة أجزاء منه قبل الفجر وبعده، وفي الضحى والعصر، سواء كان قاعداً أو قائماً أو راكباً أو ماشياً، وإن كان جالساً في البيت وصلت تلاوته إلى نصف القرآن يومياً، وكان رحمه الله تعالى كثير الذكر والتسبيح والتهليل، ولسانه

رطب بذكر الله تعالى، وكان جهوري الصوت، صيتاً في الأذان والقراءة والدعاء والذكر، ولازم في صغره الشيخ العلامة عبد القادر القصاب رحمه الله تعالى (ت١٣٦٠هـ/١٩٤١م) بعد عودته من الأزهر الشريف، وإنشاء مدرسة العلوم الشرعية في دير عطية، وكان مواظباً على قيام الليل قبل الفجر، وصيام ثلاثة أيام في كل شهر، وأحياناً صيام الاثنين والخميس، حتى نهاية الستين من عمره، ولكن الحظ والظروف القاسية لم تسعف الوالد رحمه الله تعالى في التفرغ لطلب العلم، ومتابعة التحصيل، فأثّر ذلك فيه تأثيراً بليغاً، ونذر في نفسه، وعزم في قلبه، أن يحقق ذلك في أولاده.

ومن هنا وجّه الشقيق وهبة إلى طلب العلم، والتفرغ له، والبذل في سبيله، حتى كان يكرر له، ويكرر ذلك لي، وللشقيق الأستاذ أحمد: «أُطلب تُعط» ويقول: «إني مستعد أن أبيع ملابسي لتأمين ما تحتاجون في طلب العلم».

ولما أنهى الشقيق وهبة الدراسة في الثانوية الشرعية، لم يكن في سورية كلية للشريعة في أول الخمسينيات من القرن العشرين، فحرص الوالد رحمه الله تعالى على ابتعاث الشقيق على حسابه، ورغم الأحوال الاقتصادية المتواضعة- لمتابعة الدراسة الجامعية والعليا في الأزهر الشريف عام ١٩٥٢م، وأصر على ذلك وتحقق الهدف، وحصل الشقيق على الشهادة العامة من الأزهر، وشهادة الدكتوراه في الشريعة من جامعة القاهرة.

وكان الوالد رحمه الله تعالى يتوسم بالشقيق الخير الكثير، ويتفرس في مستقبله، ويعقد عليه الآمال الجسام لحمل الشريعة وخدمة الإسلام، حتى كان يناديه أثناء طلب العلم بشيخ الإسلام، وكنت -في صغري- أستغرب ذلك، واستكبره، حتى رأيت ذلك الآن بأم عيني، وتحققت الفراسة، وأصبح الشقيق

فعلاً شيخ الإسلام بعلمه وعطائه، وشهرته ابتداء من رسالة الدكتوراه، ثم بكتبه الجامعية، وكتبه الفكرية، ومقالاته وبحوثه، وخاصة موسوعته الفقهية «الفقه الإسلامي وأدلته» الذي أعطى العلم الإسلامي واستفاد منه الخاصة والعامة، وعرف به في أرجاء المعمورة، وانتهاء بالمؤتمرات العلمية، والندوات الدولية، والمشاركة بالبحوث المعمقة، ودراسة المستجدات الفقهية التي تخص المسلمين، وتخدم الإسلام، مع عضوية العديد من المجامع الفقهية والدولية، وكما رأيت ذلك عدت بذاكرتي إلى فراسة الوالد رحمه الله تعالى التي تحققت كاملة أمام ناظري، وشهادة الخاص والعام، ليكون الشقيق أحد رجال الصحوة الفقهية والإسلامية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين، ولتبقى شريعة الله مزدهرة، وأحكامه ناصعة، ولتتحقق المقولة الفقهية الخالدة «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان» وليبقى حديث رسول الله ﷺ لسان صدق للعالمين بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون».

وأخيراً وليس آخراً:

أسأل الله تعالى أن يحفظ الشقيق المربي، والأستاذ الأثير، وأن يمده بالعون، والتأييد، وأن يديمه ذخراً لنا وللأمة، ليستمر العطاء، ولينتفع به الناس عامة، ويزيد في ثوابه وأجره ومكانته، ولتبقى راية الإسلام مرفوعة خفاقة، وتُؤدى الأمانة من جيل إلى جيل، إلى أن تقوم الساعة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

واحد وثلاثون: حفصة بنت عمر

الصحابية- أم المؤمنين- الصوامة- القوامة

كان للنساء المسلمات دور بارز في التاريخ الإسلامي، ظهر منهن الفقيهات، والمحدثات، والحافظات، والمجاهدات، والداعيات، والزوجات الصالحات، والأمهات الفضليات، والمربيات الخالدات.

◈ اسمها:

حفصة بنت عمر رضي الله عنها وعن أبيها نموذج ومثال لذلك، فهي بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، وهي زوجة رسول الله ﷺ، وأم المؤمنين، ومدحها جبريل عليه السلام للنبي ﷺ فقال: «إنها الصوامة، القوامة، وإنها لزوجتك في الجنة».

◈ ولادتهـــا:

ولدت حفصة قبل البعثة بخمس سنوات بمكة المكرمة، وهي عدوية قرشية، أي سنة ١٨ قبل الهجرة، وهي أكبر إخوتها وأخواتها، وأمها زينب بنت مظعون الزوجة الأولى لعمر رضي الله عنهم، وأبوها الخليفة الراشد أبو حفص الفاروق عمر، وخالها عثمان بن مظعون من سادات الصحابة المهاجرين وأولياء الله المتقين.

◈ حياتها الزوجية:

تزوجت السيدة حفصة بالخُنَيْس بن حُذّافة السَهْمي ﵁ الذي هاجر إلى الحبشة وحده، ثم هاجر إلى المدينة مع حفصة، وشهد بدراً وأحداً، وأصابته جراحة أُحد فاستشهد، ولا عقب له، فأصبحت حفصة أرملة مسكينة تعيش الوحدة والحزن على زوجها، فأوصاها أبوها بالصبر والمصابرة لعلّ الله يأجرها

في مصيبتها، ويُخلفها خيراً منه، فاستسلمت لقضاء الله وقدره، وسعى أبوها ليبحث لها عن الزوج الصالح، فكانت من نصيب رسول الله ﷺ، وتزوجها سنة ثلاث من الهجرة، فحظيت -جزاء صبرها- بأفضل زوج في الدنيا، وعاشت في بيت النبوة، ومدرسة الإسلام الأولى، وكانت شديدة الغيرة من سائر زوجات النبي ﷺ وكانت رائدة في المنافسة بينهن في التبعل والعبادة والتقوى والعمل الصالح، وكانت في صف عائشة رضي الله عنها في بيت النبوة، وتتزعم المطالب الزوجية، حتى همَّ رسول الله ﷺ بطلاقها، فأتاه جبريل وقال له: «لا تطلقها، فإنها صوامة، قوامة، وإنها من نسائك في الجنة».

◈ شمائلها وخصائلها:

وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعتمد على حفصة في بعض المواقف الحرجة لتنوب عنها لثقتها بها، وتوافقها معها في كثير من الأمر، حتى قالت السيدة عائشة فيها: «إنها ابنة أبيها» تنويهاً بفضلها، كما كانت تغار منها أحياناً، وتنافسها في التقرب من النبي ﷺ.

◈ مكانتها ومنزلتها:

كانت حفصة رضي الله عنها تتمتع بالمترلة العالية من العلم والمعرفة والبيان مما جعلها من ذوات العلم والخبرة والرأي والمشورة، فكانت تروي أحاديث رسول الله ﷺ، وروى عنها جماعة من الصحابة والتابعين، وكان أبوها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يستشيرها أثناء خلافته في أمور النساء والشؤون العامة، وكان يكلفها برعاية أملاكه والإشراف عليها، وكان أخوها عبد الله رضي الله عنه يختارها نائبة عنه في إدارة أملاكه، وكانت ذات فصاحة، وبلاغة، وألقت خطباً وكلمات بليغة ومؤثرة ومعبرة عن أبيها عند طعنه وبعد موته، وذلك

بجمل قصيرة، وعبارات مختارة، وأسلوب بديع، متأثرة بأسلوب القرآن الكريم، ومما قالت في أبيها ﷺ: «أوْلى الناس بخلافة رسول الله ﷺ، الماضي على سننه، المتوقي بدينه، المقتفي لأثره، فلم يَزَل سراجُه زاهراً، وضوؤه لامعاً، ونوره ساطعاً، له من الأفعال الغُرَر، ومن التقدم في طاعة الله اللُّباب إلى أن قبضه الله إليه..» وقالت: «حتى فتح الله عز وجل على يديه أقطار البلاد ونصر الله بقدمه، وملائكته تكنفه، وهو بالله معتصم، نوره في الدُّجنُّات ساطع، وضوؤه في الظلمات لامع، قالياً للدنيا إذ عرفها، لافظاً لها إذ عجمها، وشانئاً لها إذ سبرها».

◈ بعض مواقفها:

وكانت السيدة حفصة من دعاة الصلح بين معاوية والحسين رضي الله عنهم، ولما مات أبوها عمر بقي المصحف الإمام عندها حتى طلبه خليفة المسلمين عثمان ﷺ، ونسخ منه ست أو سبع نسخ وأرسلها إلى الأمصار.

◈ وفاتهـــا:

ماتت حفصة رضي الله عنها سنة ٤٥هـــ، في خلافة معاوية ﷺ، وهي بنت حوالي ستين سنة، وقيل غير ذلك، فكانت مثلاً فذاً للنساءِ المسلمات في الإيمان والسلوك والتدبير والعمل، فرضي الله عنها، وأسكنها فسيح جناته، والحمد لله رب العالمين.

الثاني والثلاثون: خديجة الكبرى

أم المؤمنين– سيدة الإسلام الأولى

أفرد علماء التراجم والتاريخ أسماء الأشخاص الذين تبوؤا الدرجة الأولى في بعض الأعمال بعنوان «الأوائل». والسيدة خديجة تصنف بمداد من ذهب وافتخار أنها أول النساء إيماناً ودخولاً في الإسلام، بل هي أول المسلمين رجالاً ونساءً في تصديق محمد بن عبد الله بنبوته، وأنه رسول الله إلى الناس، فكانت **سيدة الإسلام الأولى**.

ولم تقتصر السيدة خديجة على هذه الفضيلة فحسب، بل ضمت إليها أوسمة فخار كثيرة، فقد تفرست بالشمائل والفضائل التي اكتنزها محمد بن عبد الله في شبابه، فطلبت بنفسها الزواج منه، فكان ذلك سنّة للآباء والأمهات في الاختيار لبناتهم، والسعي لتأمين الزوج الكفء والصالح لهن، وكانت بعد الزواج زوجة مثالية، فآزرت زوجها في مالها فوضعته بين يديه، وأطلقت يده في الإشراف عليه، وإدارته، واستثماره، والانتفاع به، وجادت بفكرها وعقلها وحكمتها في تقديم المشورة والنصح له في مختلف جوانب الحياة، ثم وقفت بجانبه ضد المشركين والوثنيين من أهل مكة عند إعلان النبوة والوحي والدعوة إلى التوحيد، فانبروا لإيذائه وتكذيبه، والنيل منه، فكانت له ملجأ ومعيناً، تثبته على الحق، وتخفف عنه الويلات والأذى، وتهوِّن عليه ما يلقاه من الصدّ والعدوان.

وصفها ابن عباس رضي الله عنهما فقال: «كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّق محمداً ﷺ فيما جاء به عن ربه، وآزره على أمره، فكان لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه: من ردّ عليه، وتكذيب له، إلا فرّج الله عنه بها، تثبّته، وتصدّقه، وتخفّف عنه، وتهوِّن عليه ما يلقى من قومه».

◈ اسمها ونسبها:

هي خديجة بنت خويلد القرشية، يلتقي نسبها مع رسول الله صلى الله عليه في الجد الخامس: قصي بن كلاب، فكانت كما قال ابن هشام: «أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهن مالاً»، وكان والدها من أشراف قريش، وكبار رجالها، وذوي الوجاهة فيها، ومات قبل حرب الفِجار التي وقعت قبل البعثة بحوالي خمس وعشرين سنة.

◈ زواجهـــا:

تزوجت السيدة خديجة من عتيق بن عائذ المخزومي الذي مات عنها، ثم تزوجت أبا هالة بن النباش بن زرارة التميمي الذي مات عنها بعد أن أنجبت ابناً اسمه هند، وهو ربيب رسول الله ﷺ فنشأ عنده، وتربى في حجره، ثم انصرفت عن الزواج ورفضت أن تتزوج أحداً بعد أن تقدم لها رجال قريش وأشرافها يطلبون يدها، لجمالها ولعقلها، ولشرفها، ولأخلاقها، ولمالها، وانصرفت لاستثمار أموالها في التجارة.

لكنها كانت تأنف السفر للتجارة فتستأجر الرجال ليعملوا في تجارتها، حتى سميت الطاهرة، وسيدة نساء قريش، وقال الذهبي عنها: «وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة، ديّنة، مصونة، كريمة» حتى سمعت بأخلاق محمد بن عبد الله وصدقه وأمانته الذي سمي في مكة بالأمين، فاختارته للمضاربة بمالها، وحمل تجارتها إلى الشام مع غلامها ميسرة الذي نقل لها ما رآه من الشيم والفضائل والمكرمات التي رآها عنه وكان عمره خمساً وعشرين سنة، فأحبته وطلبت منه الزواج، فوافق بعد تردد، ثم أعلن الزواج بحفل رفيع، وخطبة سامية من عمها عمرو بن أسد، وعمه أبي طالب، وكان

سنها أربعين عاماً، فكانا أسعد زوجين، وأكرم عروسين، وعاشت معه خمساً وعشرين سنة ونيفاً، وأنجبت له بناته الأربع الطاهرات، العفيفات ؛ زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة الزهراء رضي الله عنهن، وولدت له القاسم الذي مات صغيراً، وكان رسول الله ﷺ يكنى به: أبا القاسم.

◈ فضلها ومواقفها:

كانت السيدة خديجة زوجة مثالية في رعاية بيتها، ومعرفة حق زوجها، بل كان ذكاؤها أن تتفرس بزوجها الفضائل الجمة، والقيم الرفيعة، والتأهب للأمور الجسام، فكانت تمنحه الراحة، وتوفر له الجو الذي يناسبه ويتطلبه، وتضع مالها تحت تصرفه، وتهبه جانباً منه، وتواسيه في مآسي الحياة، وتخفف عنه من شظف العيش، وتقدر مشاعره في حب الخلوة والتحنث في غار حراء، وتهيئ له الزاد الكافي لأسبوع حتى يرجع ثانية، حتى فاجأه جبريل الأمين بالوحي، كما جاء في الحديث الصحيح، فرجع إليها يرتجف، فقالت كلماتها الخالدة التي تنبض بالحكمة، وتشع بالنور، وتنطلق من واقع ما عرفته عنه، فقالت «كلا، والله لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتقري الضيف، وتحمل على نوائب الحق» واصطحبته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان يعرف أخبار الديانات، فهدأ روعه، وبشره بالنبوة، وبدأت الرسالة والدعوة، وكان رسول الله ﷺ يكابد كيد المشركين وإيذائهم وسخريتهم، فكانت خديجة رضي الله عنها وراءه، تمتص كل نقمة وكل عنت، وتخفف عنه ألمه حتى تهدأ نفسه ويطمئن قلبه، ويتابع مسيرة الدعوة، وعاصرت حصار الشعب من الكفار للمسلمين، وبقيت كذلك عشر سنوات حتى وافاها الأجل، وكانت وفاتها بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه ويدافع عنه،

فحزن عليهما حزناً شديداً، وسمى ذلك العام بعام الحزن، واستمر على الوفاء لها طول حياته مع صلة أصحابها، وأعلن فضلها أمام زوجاته فقال: «آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء».

وقالت عنها ضرّتها عائشة رضي الله عنهما: «ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة -وما رأيتها- ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطع أعضائها، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟! فيقول إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد».

◈ وفاتهـــا:

توفيت السيدة خديجة رضي الله عنها في العاشر من رمضان سنة عشر في البعثة بعد خروج بني هاشم من الشعب، وبعد موت أبي طالب بثلاثة أيام، وكان عمرها خمساً وستين سنة، ودفنت بالحَجون (قرب مكة) ونزل رسول الله ﷺ في قبرها، وروى البخاري أن جبريل أتى النبي ﷺ يعزّيه بعد وفاتها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب (من لؤلؤ) فرضي الله عن خديجة، وأكرم مثواها، وجعلها قدوة للنساء المسلمات، والزوجات الصالحات، والحمد لله رب العالمين.

৪০০৪

الثالث والثلاثون: زينب بنت جحش

صحابية لها قصة في القرآن الكريم

كان صحابة رسول الله ﷺ أفضل جيل عرفه التاريخ، فقد تربوا في مدرسة النبوة، وعلى يدي المربي المثالي، والمعلم الأول، سيدي رسول الله ﷺ، وثبت فضلهم في آيات كثيرة في القرآن الكريم، وورد في شأنهم عموماً، وفي أسماء معظمهم خصوصاً، آحاديث عدة تبين مناقبهم الرفيعة، وشمائلهم الفريدة، وهي ثابتة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد وتراجم الصحابة.

هذه الفضائل تشمل الرجال والنساء، واختص بعضهم بمزايا معينة، وصفات خاصة، انفرد بها، وعرف بها، ومنهم أمهات المؤمنين زوجات رسول الله ﷺ اللاتي كان لهن الحظ الأوفر بمعرفة حياة رسول الله ﷺ، والاطلاع على شؤونه الخاصة، ونقل الأحكام الشرعية عن سيرته الزوجية، والبيت والأسرة، إلى الناس، ومن هؤلاء أم المؤمنين زينب الناسكة، العابدة، الصالحة، الصوامة، القوامة، التي كانت تعمل بيدها، وتتصدق على المحتاجين حتى عرفت بأنها أم المساكين، والتي وردت قصتها في القرآن الكريم، فعرف المؤمنون صدقها ومكانتها، واتخذها المنافقون والمغرضون والمشككون والمستشرقون غرضاً للطعن والنيل من بيت النبوة عامة، ومن مكانة رسول الله ﷺ خاصة.

◈ اسمها ونسبها:

هي زينب بنت جحش الأسدية، كان اسمها برة، فسماها رسول الله ﷺ زينب، على سنته في تغيير الأسماء إلى ما هو أحسن منها وأتقى وأورع، لأن اسم برة يوحي بالتزكية للنفس، وكنيتها أم الحكم.

ولدت سنة ٣٣ قبل الهجرة، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وخالها حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضي الله عنه، والعباس بن عبد المطلب، وأخوها عبد الله بن جحش أحد السابقين للإسلام، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وكان مجاهداً، وقائداً لأحد السرايا، واستشهد يوم أحد، ومثل به المشركون، ودفن مع حمزة رضي الله عنهما في قبر واحد.

◈ قصتها وزواجها:

وقع زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو صغير في الرق، واشتراه رسول الله ﷺ لخديجة رضي الله عنها، ثم وهبته إياه، فأعتقه، فكان مولى له، وله قصة طريفة عندما اختار البقاء عند رسول الله ﷺ ورفض الذهاب مع والده، فتبناه رسول الله ﷺ، وكان يسمى زيد بن محمد، وكان رسول الله ﷺ يحبه كثيرا ويكرمه، ويحسن معاملته، ثم عرض عليه الزواج من زينب مكافأة له على تضحياته ومواقفه، فتأبى ذلك، لفارق الحسب والنسب والشرف بينهما، كما أنفت زينب من هذا الزواج، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الاحزاب: ٣٦]، فأعلنا رضاهما بالزواج، ولأن رسول الله ﷺ قد رضيه لهما، وقالت زينب: «لا أعصي الله ورسوله» ثم قالت: «ومن أعز من زيد بن محمد» حتى أبطل الله التبني، وصار اسمه زيد بن حارثة.

سارت الحياة الزوجية بصعوبة، لم تشعر به زينب من استعلاء أدى بها إلى إيذاء زيد بلسانها أحياناً، وعدم طاعته أحياناً أخرى، فضاق بها زيد ذرعاً، ولكنه كان متخوفاً ومتحرجاً من رسول الله ﷺ الذي زوجه إياها، ثم تشجع وأعلن أنه يريد طلاقها، فأوصاه رسول الله بها خيراً، وقال له: «اتق الله في

قولك، وأمسك عليك زوجك» واستمر زيد يطلع الرسول على سوء التفاهم، ووقوع النفور بينهما لتعاظمها عليه، فأذن له فى طلاقها، فطلقها زيد، وانتهت عدتها.

ثم نزل القرآن الكريم ثانية يأمر رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب لإبطال آثار التبني وعاداته القبيحة من تحريم الزواج من مطلقة الابن المتبنى، كما هو شأن الجاهلية، وليكون رسول الله ﷺ القدوة المثلى، وصاحب الخطوة الرائدة في هدم حصون الجاهلية، فكان الزواج إلهياً من قبل الله تعالى فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [الاحزاب: ٣٧]، ثم بين الله تعالى الحكمة من ذلك بالنص الصريح، فقال عز وجل: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ (أولاد التبني) إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وسجدت زينب شكراً لله على هذا التكريم الإلهي لها بتزويجها من أفضل الخلق وحبيب الله، وعزمت أن تصوم شهرين امتناناً على هذه النعمة، وكان ذلك قضاء مبرماً على عادة التبني قولاً وفعلاً، وذلك فى ذي القعدة سنة خمس للهجرة، وصنع رسول الله ﷺ وليمة لذلك، ولما دخل عليها سماها زينب، وكانت تتباهى بهذا الزواج والإكرام الإلهي، وتقول: «أنا زوجني الله من فوق سبع سموات».

◈ منزلتها وفضلها:

كان لزينب منزلة عظيمة في قلب رسول الله ﷺ، لما عرف عنها من جمال وفضائل وصفات، أهمها الالتزام الكامل بالدين، وكثرة الخيرات

والصدقات، والورع والصلاح والصدقة، وكثرة الدعاء والخشوع فيه، وصفتها السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: «كانت صالحة، قوامة، صوامة، تعمل بيدها، وتتصدق بذلك على المساكين» وكانت تصنع بيدها مع الحذق به، وكانت ذكية فطنة، ولها المواقف العديدة، كما كانت سبباً في نزول عدة آيات كريمة لا مجال لتفصيلها هنا.

◈ الشبهة وردها:

إن المنافقين والحاقدين والأعداء لا هم لهم إلا الطعن بالإسلام وبالرسول، ولا يدخرون وسعاً ليشيعوا لذلك، ويتخيرون المناسبات لها، واستغلوا قصة زواج النبي ﷺ بزينب لينشروا الأباطيل، ويفتروا الأكاذيب، وأنه تزوج من زوجة ابنه، وأنه رأى جمالها فأعجبته، وطلب من زيد طلاقها ليتزوجها، وغير ذلك من الأوهام.

علماً بأن زينب هي بنت عمته، فهو يعرفها منذ طفولتها، ومنذ شبابه، وهو الذي زوجها بنفسه من زيد، ولم يدر بخلده ولا في ذهن أحد أنه سيتزوجها، وقد بقي مع السيدة خديجة الكبرى زوجته الوحيدة ما يزيد عن خمس وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها، ولم يلتفت إلى امرأة سواها، ولم يشك أحد قبل البعثة، ولا بعد البعثة، بطهارته وعفته وحرصه على الأعراض، فكيف يقع ذلك منه بعد الثامنة والخمسين من عمره، ويمكنه أن يتزوج ما شاء من النساء.

ولكن هذه الفرية لم يأبه لها المؤمنون، وتبقى سمعة رسول الله ﷺ فوق الشبهة أو الشك أو الظن أو الريبة، وهو القدوة العليا، والمثل الأعلى، الذي يعرفه أصحابه قبل أعدائه، ويثق به المسلمون ثقة مطلقة، لأنه المعصوم، وتبقى

سيرة زينب نموذجاً للمرأة المؤمنة المجاهدة الصابرة الصوامة القوامة المتصدقة على المساكين، فـرضي الله عنها، وأرضاها، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا الأدب وحفظ اللسان، وحسن الظن، وطهارة القلب، وزيادة الإيمان والاقتداء.

◈ وفاتهـــا:

توفيت السيدة زينب رضي الله عنها سنة عشرين هجرية، وكان عمرها ثلاثا وخمسين سنة، كانت أول نساء النبي ﷺ لحوقاً به، كما أخبر رسول الله ﷺ، فكان ذلك من معجزاته ﷺ، وكانت قد أعدت كفنها، وقد أوصت أن ينفق كل مالها في سبيل الله، ولم تترك درهماً ولا ديناراً، وصنع لها نعش لحمل جنازتها، فكانت أول امرأة جعل عليها النعش، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، ودفنت بالبقيع فى المدينة المنورة.

ꕥ

الرابع والثلاثون: أم المؤمنين أم سلمة

◈ الحكيمة الفقيهة

كان صحابة رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، أفضل جيل عرفه التاريخ، وهذا الجيل يتكون من الرجال والنساء، ويشترك الجميع بالفضل والخصائص والميزات.

وكان الصحابيات يشاركن الرجال في حمل الدعوة، وحفظ القرآن، ورواية الأحاديث، والخروج للجهاد، والتبرع بالأعمال، والتسارع للخيرات، مع ميزة خاصة في تربية الأولاد والجيل الجديد على منهج الإسلام والإيمان والدين، ليواصل المسيرة الخيرة.

وامتازت بعض الصحابيات بميزات أخص، وهنَّ زوجات النبي ﷺ وأمهات المؤمنين، لإقامتهن الدائمة في بيت النبوة، ومدرسة الوحي والقرآن، وقربهن من الأنوار النبوية، واقتباس الشهد الطيب مباشرة من حياة رسول الله ﷺ الخاصة لينقلنها تشريعاً خالداً لسائر المسلمين.

ومن هؤلاء أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها الفاضلة الجليلة التي كانت من السابقين إلى رحاب الإسلام، ومن العشرة الأوائل المهاجرين للحبشة مع زوجها أبي سلمة، وأول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة، وتعد من فقهاء الصحابيات، العالمات بأحكام الشرع ومقاصده، وباشرت الفتوى والرواية، وكانت مرجعاً للصحابة والتابعين.

◈ اسمها ونسبها:

هند بنت أبي أمية المخزومية، وتكنى أم سلمة نسبة إلى ولدها سلمة من زوجها عبد الله ابن الأسد المخزومي، وبنو مخزوم ثالث قبيلة من قريش،

وحازت على الرئاسة والشرف الرفيع في الجاهلية والإسلام، ومنها أبو جهل (فرعون الأمة، لعنه الله) وخالد بن الوليد (سيف الله المسلول، رضي الله عنه) ومنهم عمار بن ياسر رضي الله عنه، وهو أخو أم سلمة من الرضاعة.

◈ إسلامها وهجرتها وزواجها:

لما ظهرت الدعوة الإسلامية سارعت أم سلمة مع زوجها للدخول في الإسلام، فكانا من العشرة الأوائل المهاجرين للحبشة، وولدت هناك أولادها (سلمة، وعمر، ودرة، وزينب، وقيل ولدت الثلاثة بعد عودتها)، ثم عاد الزوجان المؤمنان إلى مكة، ثم هاجرا معاً إلى المدينة المنورة، وكانت أم سلمة أول ظعينة تدخل المدينة مهاجرة، وكان زوجها ابن عمها، وكان صحابياً جليلاً. وأبلى بلاء حسناً في خدمة الإسلام، وهو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخوه من الرضاعة، وشهد بدراً، وأحداً، وجرح في أحد جرحاً بليغاً في عضده، ثم مات منه (سنة ٣هـ، أو ٤هـ) وصلى عليه رسول الله، ووقف على جثمانه، ودعا له بالخير، وحزنت عليه أم سلمة حزناً شديداً، حتى أكرمها الله تعالى بالزواج من أفضل الخلق، وسيد البشر، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاشت مع أولادها في كنف النبي صلى الله عليه وسلم، فتعهدهم بالرعاية كالأب الحنون، وقالت: «لقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله» وضمها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمهات المؤمنين تكريماً لها، ورفعاً لمكانتها، ومواساة لها.

◈ مكانتها:

امتازت أم سلمة برجاحة العقل، وسداد الرأي، ولها مكانة رفيعة في العلم، وأخذت الأحاديث، وروت أكثر من ثلاثمائة وثمان وسبعين حديثاً، وكان جابر رضي الله عنه يرجع إليها بالرواية والعمل بفتواها، وأخذ كثير من كبار التابعين الحديث عنها.

وصحبت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، في غزواته، ومنها غزوة خيبر، وفتح مكة، وغزوة هوازن، وحصار الطائف، وكان لها موقف حكيم رائد عند صلح الحديبية، عندما اشتد الخطب على المسلمين لنظرتهم السريعة لشروط الصلح، وصعوبة تنفيذه، وأمرهم رسول الله ﷺ بالتحلل من العمرة للعودة إلى المدينة، فتردد بعضهم، فأشارت إلى رسول الله ﷺ بأن يبادر بنفسه بالحلق والتحلل، ففعل، فتسارع الصحابة للاقتداء به، وانتهت المشكلة، وقال لها رسول الله ﷺ: «رعاك الله يا أم سلمة فإن رب العالمين يجلي عن الناس بك»، ثم رافقت رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها تعمل بيدها، وتطحن الدقيـــق، وامتازت بالفصاحة والبلاغة في الكلام، وكانت تراجع عمر رضي الله عنه في بعض المسائل، وردت على معاوية رضي الله عنه اجتهاده.

◈ وفاتهـــا:

عاشت أم سلمة بعد زواجها من رسول الله حوالي ستين سنة، وعمّرت أربعاً وثمانين سنة، وقيل تسعين سنة، وكانت آخر نسائه وفاة، وكانت بعد وفاة الرسول ﷺ مرجعاً للفتوى والفقه والمشورة، وتعيش مع المسلمين في مشكلاتهم، وقدمت النصيحة لعائشة رضي الله عنها بعدم الخروج لوقعة الجمل مع الحجج البليغة، ولما قتل الحسين رضي الله عنه، وهو سيد شباب أهل الجنة حزنت عليه حزناً شديداً، ووجمت لذلك، وغشي عليها، ولم تلبث بعده إلا يسيراً، وقبلت التعزية به، ثم توفيت سنة ٦٢ هـــ، وقيل غير ذلك، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة قريباً من موضع فاطمة رضي الله عنها، وهي آخر زوجات النبي ﷺ موتاً.

الخامس والثلاثون: أم عمارة

كثيراً ما يسأل الناس: هل تشارك المرأة المسلمة في الجهاد؟ وهل الجهاد مطلوب منها؟ والجواب السريع أن الجهاد ليس فرضاً على المرأة كالرجل، ولكنها ليست محرومة منه، فإنها تساهم فيه، وتشارك به، وتنافس فيه، وتحظى به بالأجر العظيم، وهذا نموذج لذلك من أفضل جيل عرفه التاريخ، وهو جيل القرآن الفريد، الذي تربى في مدرسة النبوة، وكانت سيرته أفضل تطبيق للإسلام وأحكام الشرع، لتكون الصحابيات المثل الرائع للمرأة المسلمة.

◈ اسمها ونسبها:

هي نسيبة بنت كعب، من بني النجار، الأنصارية الخزرجية المازنية المدنية الصحابية، كنيتها أم عمارة، وليس لها ولد بهذا الاسم، ولكن كان لها هذه الكنية على عادة العرب في الجاهلية، وأصبحت سنة في الإسلام، ولم تعرف سنة ولادتها، وبنو النجار هم أخوال جد رسول الله ﷺ، فإن والدة عبدالمطلب منهم، وثبت فضل بني النجار، وأنهم خير دور الأنصار في الأحاديث الصحيحة، ولا يعرف شيء عن أبويها، لكن شقيقها عبدالله شهد بدرا، وكان عاملا للنبي ﷺ على الغنائم، وشهد أحداً والخندق وبقية المشاهد، وشقيقها الآخر عبدالرحمن شهد أحدا والخندق والمشاهد الأخرى، وتخلف عن غزوة تبوك لقلة الزاد والراحلة، وصار يبكي، فكان أحد البكائين.

◈ حياتها الزوجية:

تزوجت أم عمارة قبل الإسلام بزيد بن عاصم الأنصاري المازني رضي الله عنه الذي أسلم وشهد العقبة وبدراً وأحدا، ثم تزوجت غزية بن عمرو الأنصاري الخزرجي المازني رضي الله عنه الذي شهد العقبة وأحدا، ولها من زوجها الأول ولدان

وهما عبدالله الذي قتله مسيلمة الكذاب، وحبيب الذي قتل في الحرة، وولدان من زوجها الثاني تميم وأخوه.

◈ إسلامها:

سمعت أم عمارة بالدين الجديد في المدينة المنورة، وراقبت أخباره، وأشرق الإيمان في قلبها، ثم أسلمت قبل الهجرة، وحضرت بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وبايعت النبي ﷺ مع أم منيع بنت عمرو، وهما المرأتان الوحيدتان في هذه البيعة، فكانت أم عمارة من الأنصار السابقات للإسلام الذي صار شغلها الشاغل، ونذرت نفسها لخدمته والتضحية في سبيله، لتكون مثلاً أعلى للمرأة المسلمة في الإيمان والدعوة والعطاء، وسألت رسول الله ﷺ عن مكانة المرأة في القرآن، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

◈ جهادها:

شهدت أم عمارة بيعة الرضوان بالحديبية، وحملت عموداً وسكيناً لطعن المشركين عند التأهب للقتال، وحصلت على بعض شعرات النبي ﷺ عندما حلق للتحلل من العمرة، وكانت تغسلها للمريض وتشفيه فيبرأ، حتى ماتت، وشهدت عمرة القضاء، وكانت ترافق رسول الله ﷺ وتروي ما يصدر عنه

في كل ذلك، وشهدت غزة أحد لسقاية العطشى، وتضميد الجرحى، مع زوجها وأولادها، ولما انهزم المسلمون باشرت القتال والدفاع عن رسول الله ﷺ بالسيف والقوس حتى أثخنتها الجراح، وصمدت في المعركة مع قلة من الرجال حتى رد الله كيد المشركين، وأصابتها الجراح حتى تقاطر الدم من كتفيها، وأجهزت على أحد فرسان المشركين بالسيف مع أولادها، فقال رسول الله ﷺ فيها: ((ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة)) وقال: ((ما التفتت يميناً ولا شمالاً إلا رأيتها تقاتل دوني)) وكان طموحها أكثر، فسألت رسول الله أن ترافقه في الجنة مع زوجها وأولادها، فأجابها وقال: ((اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة)) فصاحت فرحة: ((ما أبالي ما أصابني من الدنيا)) ثم حضرت غزة بني قريظة، وخيبر، وحنين، وهكذا ضربت المثل الفذ للنساء المسلمات، وقد شاركها بهذه الروح الجهادية والفداء والتضحية عدد من الصحابيات، فكن ينشدن الشعر الحماسي للقتال والشهادة في سبيل الله، ويداوين الجرحى، ويناولن السهام، ويسقين المقاتلين، ويشاركن في القتال عند الحاجة واللزوم، ويشرفن على الأسرى، ويهيئن السيوف للمجاهدين.

ولم يهدأ حماس أم عمارة للجهاد وللإسلام والدعوة بعد وفاة رسول الله صلى الله وسلم، فسجلت اسمها مع المجاهدين في معركة اليمامة لحرب المرتدين، وأبلت بلاء حسنا، وقال لها أبوبكر ﷺ: ((اخرجي على اسم الله)) واستلت سيفها الصارم، وقاتلت، واستبسلت استبسالاً شديداً، وحرصت أن تصل إلى مسيلمة نفسه لتقتله، وعاهدت الله تعالى أن تقتل دونه، وجرحت أحد عشر جرحاً، وأصرت على الاقتراب من مسيلمة، فضُرِبت بالسيف فقطعت يدها بضربة، فحمل ابنها والمسلمون على مسيلمة حتى قتل مع عدد

كبير من المرتدين، وتحقق النصر، فسبحت شكراً لله، ثم جاء قائد المسلمين سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ إلى منزلها بطبيب العرب لمداواة جراحها، وكانت تدفع أولادها للقتال والاستشهاد في سبيل الله.

◈ مكانتها:

تصور هذه الأعمال التي قدمتها منزلتها الرفيعة في الحياة والمجتمع، وكان رسول الله ﷺ يتفقدها أثناء المعارك وبعدها، وكان خالد ﷺ يحرص على الاطمئنان عن جراحها وصحتها، وكان خليفة المسلمين أبوبكر الصديق ﷺ يتعهدها بحسن الصحبة، ويعرف حقها وفضلها، ويسأل عنها، وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ يعلي شأنها بين النساء، وكانت محل الاحترام والتقدير من سائر الصحابة والتابعين حتى يومنا هذا.

◈ وفاتها:

بقيت أم عمارة على قيد الحياة حتى وافاها الأجل المحتوم سنة ١٣هـ، فلقيت ربها راضية مرضية، لتبقى في سجل الخالدين، وتمثل المرأة المسلمة المؤمنة الداعية المجاهدة، وقد روت عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ في السنن الأربعة، وروى عنها عدد من الصحابة والتابعين، فرضي الله عنها وأرضاها، وبارك الله في جهادها ومثواها، وأدخلها الله الجنة.

السادس والثلاثون: فاطمة الزهراء

سيدة نساء العالمين

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فالله سبحانه تعالى يصطفي من البشر ما يشاء، ويأتي في قمة الاصطفاء الأنبياء، وذريتهم، إلى أن اصطفى محمداً ﷺ وختم به النبيين، وحصل الاصطفاء لذريته الطاهرة، وتمثل ذلك بأجلى صوره بسيدة نساء العالمين في زمانها فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

◈ اسمها ونسبها:

إنها فاطمة بنت رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية القرشية، بَضْعَة رسول الله ﷺ، وأم أبيها، كما سماها رسول الله بعد وفاة أمها خديجة الكبرى، وقيامها بشؤون بيت أبيها، وهي بنت سيد الخلق وخاتم الأنبياء، وزوجة الإمام علي كرم الله وجهه ابن عم رسول الله.

وهي أم الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، ورياحنتي هذه الأمة، وهي إحدى بنات رسول الله ﷺ الأربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وهي أصغرهن، وهي الوحيدة التي بقي نسلها الشريف.

◈ ولادتها وزواجها:

ولدت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها سنة خمس قبل البعثة النبوية،

وعاشت في كنف الزوجين المثاليين محمد بن عبد الله وخديجة بنت خويلد، ولقيت الرعاية الكبرى، والنشأة الفضلى، والتربية المثلى، وورثت صفات أبيها الذي قال عنها: «فاطمة بَضْعة مني (أي قطعة مني) وإني أكره ما يسؤوها».

ثم اختار لها أبوها ابن عمه علي بن أبي طالب زوجاً لها، وهو من هو في الأسبقية للإسلام، فقد أسلم وعمره سبع سنوات، وكان رسول الله ﷺ كفله في صغره، ورباه في كنفه، فامتاز بالفضائل الجمة، وكان فارساً مغواراً ومقاتلاً صلداً، وبطلاً مقداماً، وله الحصافة والحكمة، والعقل والتدبير، قال فيه رسول الله ﷺ: «أقضاكم علي»، وبعثه قاضياً إلى اليمن، وقال فيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «قضية ولا أبا الحسن لها» أي لا يحل المعضلات إلا هو، وقال أيضاً: «لولا عليّ لهلك عمر»، ثم أكرمه الله تعالى بالخلافة فكان رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

ولكن علي رضي الله عنه كان زاهداً في الدنيا، وكان قليل المال، وعاش مع زوجته الفاضلة بقلة ذات اليد، فصبرت فاطمة الزهراء على ذلك، وكانت تشاركه شظف العيش، فكان يعمل بيده، ويكسب بجهده، وكانت رضي الله عنها تطحن بالرحى في بيتها حتى أثر الرحى بيديها، فاشتكت ذلك لبعلها علي رضي الله عنه، فحمل الشكوى إلى رسول الله ﷺ الذي فتحت عليه الدنيا، وجاءته خيراتها من مختلف الأصقاع، لعلهما يحصلان على حظوة منها مثل بقية المسلمين، وسأل خادماً لها، فردَّ رسول الله ﷺ ذلك وقال: «ألا أعلمكما خيراً مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»، فرضي رسول الله ﷺ لصهره وابنته ما يرضاه لنفسه ولأهل بيته من الزهد في الدنيا، وحبذا لو يفعل حكام العالم اليوم ذرة من ذلك مع أنفسهم وأولادهم؟!

وأنجبت فاطمة الزهراء من علي كرم الله وجهه الحسن والحسين وزينب ﭫ، الذين كانوا قرة عين لرسول الله ﷺ، ومنحهم من المحبة والرعاية والتوجيه والتربية أعلى الدرجات، وبلغوا قمة التكوين والإيمان، وكان لهم شأن في التاريخ والحياة، وامتدت بهم دوحة النبوة، وأطياف الرسالة، وكانوا قطب الرحى لآل البيت.

◈ مكانتها وفضائلها:

مات أولاد النبي ﷺ في حياته إلا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فكانت سلوته عنهم، وعزاءه عن إخوتها وأخواتها، فمنحها المحبة الشديدة، وكان كثير التعلق بها، يغضب لغضبها، ويرضى لرضاها، وقال: «فاطمة بَضْعة مني، فمن أغضبها أغضبني» فكانت أفضل بنات النبي ﷺ بلا منازع.

ولما فكر الإمام علي ﭬ أن يتزوج عليها غضبت غضباً شديداً، شأن سائر النساء في مثل هذه الأحوال، وأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، فغضب لغضبها، وأخبر علياً بأنه يكره ذلك، فترك الخطبة، وعزف عن الزواج عليها، وبقيت زوجته حتى ماتت رضي الله عنها، ثم تزوج بغيرها بعد ذلك.

وكان أكبر مصابها حين شهدت وفاة أبيها رسول الله ﷺ فكانت أشد الناس فجعة به، ولكنها احتسبت أمرها عند الله، وقالت بقلب حزين: «يا أبتاه، أجاب رباً دعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه»، وما رُئيت ضاحكة بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى لحقت بالله عز وجل، ووجدت عليه وَجْداً عظيماً أي حزناً عظيماً.

◈ وفاتهـــا:

كانت السيدة فاطمة الزهراء موضع سر أبيها، فعزّاها بنفسه قبل وفاته،

وبشرها بأنها أول أهله لحوقاً به، فجاءته تمشي يوماً كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال: «مرحباً يا بنتي» فأجلسها، ثم أسر إليها حديثاً، فبكت، ثم سارّها فضحكت، ولم تفش سر رسول الله ﷺ إلا بعد وفاته، وأنه أخبرها أولاً أنه حضر أجله فبكت، ثم قال لها: «وإنكِ أول أهلي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك» فبكت أيضاً، ثم قال لها ثالثاً: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» فضحكت لذلك.

ولم تطل حياتها، وتوفيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد نبي الله ﷺ بستة أشهر، فكانت أول أهله لحوقاً به، ثم دفنها زوجها علي كرّم الله وجهه ليلاً بالبقيع في المدينة المنورة، وتركت أثرها الخالد، وذريتها البررة الطاهرة، وذكراها العطرة التي تملأ القلوب، وتنتشي بها الأفئدة، ويملأ حبها النفوس، فرضي الله عنها وأرضاها، ورضي الله عن الحسن والحسين وزينب وكرّم الله وجه زوجها علي رضي الله عنه، والحمد لله رب العالمين.

الفصل السادس عشر

فتاوى شرعية[1]

أولاً: وظيفة الفتوى في الحياة والحاجة إليها

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل الشرع القويم ليسير عليه الناس في تحقيق مصالحهم، وتأمين سعادتهم في الدنيا والآخرة، والصلاة والسلام على رسول الله المُوحَى إليه من ربه، والمبلّغ عنه دينه، والهادي إلى الصراط المستقيم، ورضي الله عن الآل والأصحاب الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الفتوى في الإسلام تحتل مكانة رفيعة، ومنزلة عالية، لأنها إحدى الوسائل المهمة لبيان الأحكام الشرعية التي يجب على المسلم أن يعرفها أولاً، ويعمل بموجبها ثانياً، ويلتزم بها ثالثاً، ليسير على منهج الله تعالى في دينه، ولذلك اهتم الشرع بالفتوى، وأولاها الفقهاء والعلماء أهمية كبيرة، وذكروها في كتب الفقه وأصول الفقه، وأفردها بعضهم بكتب مستقلة، وصار لها مناصب رسمية في الدولة، ويظهر ذلك في الفقرات الآتية:

أولاً: تعريف الفتوى: ذكر العلماء تعريفات كثيرة للفتوى، وكلها تدل على معنى واحد، وتهدف إلى غاية واحدة، وهي بشكل عام: إخبار العالم عن حكم الله تعالى في قضية ما، وميّزوها عن حكم القاضي، بأنها على

---

(١) للمزيد من ذلك انظر كتابنا «فتاوى فقهية معاصرة» دار الإعجاز، طرابلس، لبنان، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

غير وجه الإلزام، وإن أصبحت في بعض الحالات ملزمة، كما أن فيها إلزام رباني أمام الله تعالى ديانة.

والفتوى بشكل عام تصدر بعد السؤال والاستفسار، أو بعد وقوع أمر حادث، أو مسألة واقعة، أو نازلة بالأفراد أو الأمة، لذلك عُرفت الفتاوى أحياناً بالنوازل، مما يجب معرفة الحكم الشرعي فيها، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأمر بذلك القرآن الكريم صراحة، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، [الأنبياء: ٧]، وأهل الذكر في الشرع: هم العلماء، والفقهاء المختصون الذين كلّفهم الله تعالى بالبيان والجواب، اقتداء برسول الله ﷺ الذي بلّغ الرسالة، وحمّلها لأصحابه، وللعلماء، وقال: «بلغوا عني ولو آية»[١]، وحذّرهم من السكوت والكتمان، فقال عليه الصلاة والسلام: «من سُئل عن علم فكتمهُ ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[٢]، وقام كبار الصحابة رضوان الله عليهم بالبيان والفتوى خير قيام، وسار على نهجهم فقهاء التابعين، ومن بعدهم من علماء الأمة على مدار التاريخ، وإلى يومنا هذا.

ثانياً: أهمية الفتوى: إن الفتوى بيان لحكم الله تعالى، والمفتي هو المخبر عن ذلك، وكأن المفتي واسطة بين الخالق والمخلوق، ونائباً عن رسول الله ﷺ في الجواب، وأنه وريثه في العلم، وقال عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورّثوا ديناراً ولا درهماً، إنّما ورّثوا العلم، فمن

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ٣ / ١٢٧٥ رقم ٣٢٧٤، والترمذي ٤٣١/٧، وأحمد ١٩٥/٢، والدارمي ١٣٦/١، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هذا الحديث رواه ابن ماجه ١ / ٩٧، والحاكم ١ / ١٠٢، وصححه ووافقه الذهبي.

أخذه أخذ بحظ وافر»[1]، وقال ابن المنكدر رحمه الله تعالى: «العالِم بين الله وخلقه» وقال غيره: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم» وعدّ ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى المفتين بأنهم الموقعين عن الله تعالى، وسمى كتابه «أعلام الموقعين عن رب العالمين» وسبقه إلى ذلك النووي رحمه الله تعالى، مبيناً أهمية الفتوى ومكانتها فقال: «اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل، لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله عليهم، وقائم بفرض الكفاية، لكنه معّرض للخطأ، ولهذا قالوا: المفتي موقّع عن الله تعالى»[2] وأكد ابن القيم هذا المعنى، مبيناً صفات المبلغين عن الله، وعن رسول الله، فقال: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يُبلّغ، صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مَرضْي السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله...، وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا يُنكر فضله، ولا يُجهل قدره، وهو من أعلى المراتب أن يُعِدّ له عدّته، وأن يتأهّب له أهبته، وأن يعلم قَدْر المقام الذي أقيم فيه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه ربُ الأرباب، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء: ١٢٧]، وكفى بمن تولاه الله بنفسه شرفاً وجلالة إذ يقول في كتابه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ

(١) هذا الحديث رواه البخاري معلقاً في شطره الأول ٣٧/١ باب العلم، ترجمة لباب ١٠، وأبو داود ٢٨٥/٢، والترمذي ٤٥١/٧، وابن ماجه ص ٢٢٧، وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

(٢) المجموع للنووي ٦٧/١.

﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النساء: ١٧٦]، وليعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقن أنه مسؤول عنها، وموقوف بين يدي الله»[1].

ويؤكد ابن القيم رحمه الله تعالى أن رسول الله ﷺ هو أول من قام بالتبليغ والإفتاء، فيقول: «وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، فكان يفتي عن الله بوحيه المبين....، فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب إتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إلى ذلك سبيلاً»[2].

ثم تولى الصحابة ﷺ الإفتاء، ثم التابعون، وكبار علماء الأمة، ثم صارت الفتوى وظيفة رسمية في الدولة الإسلامية، ولكن تراوح المفتون الرسميون بين القمة والمثل الأعلى، وبين الحضيض في ممالأة الحكام، والتجارة في الدِّين، وبقي سائر العلماء يؤدّون الفتوى حسبة وتطوعاً، ويقصدهم الناس في كل حين لمعرفة أحكام الله تعالى في كل ما يجري في الحياة، بدءاً من العبادات، ثم المعاملات، ثم الأحوال الشخصية وأحكام الأسرة ثم الآداب والأخلاق، وانتهاء بالعقوبات وغيرها من سائر أحكام الشرع الحنيف، واتجهت الدول المعاصرة إلى تشكيل هيئات رسمية للفتوى لتؤدي عملها يومياً، وفي كل ساعة، كما عمدت المؤسسات والشركات والمصارف إلى تعيين هيئات للفتوى والرقابة الشرعية، لترشدها إلى أحكام الله تعالى، وتسدّد أعمالها لتبقى

---

(١) أعلام الموقعين ١/١١.

(٢) المرجع السابق.

في الإطار الشرعي.

ثالثاً: شروط المفتي: نظراً لأهمية الفتوى، القائمة على السؤال عن حكم واقعة عملية في الحياة، والجواب الشرعي لها، فقد أناط الشرع الفتوى بالمختصين بالشريعة والفقه، وحصروها بمن تتوفر فيهم الشروط، وشدّد الفقهاء في ذلك، فقال ابن السمعاني رحمه الله تعالى عنهم بشكل عام: «والمفتي من استكمل ثلاثة شروط: الاجتهاد والعدالة والكف عن الترخيص والتساهل»، ووصفهم ابن القيم رحمه الله تعالى بأنهم «فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصّوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٤]، وأولو الأمر هم العلماء»[١].

وعرض الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى شروط من يصلح للفتوى فقال: «أول أوصاف المفتي الذي يلزم قبول فتواه أن يكون بالغاً... عاقلاً... عدلاً ثقة، لأن علماء المسلمين لم يختلفوا في أن الفاسق غير مقبول الفتوى في أحكام الدين، وإن كان بصيراً بها...، ثم يكون عالماً بالأحكام الشرعية»[٢].

وعدّد النووي رحمه الله تعالى شروط المفتي فقال: «شرط المفتي كونه

---

(١) أعلام الموقعين ١/١٠.

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب ٢/٣٣٠.

مكلفاً مسلماً ثقة مأموناً متنزّهاً عن أسباب الفسق وخوارم المروءة، فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرف والاستنباط، متيقظاً»[1]، ونكتفي بعرض أهم الشروط المطلوبة اليوم، وهي:

١- **العلم بالأحكام الشرعية**، وطرق معرفتها من مظانها ومصادرها المعتمدة، وأن يكون المفتي مؤهّلاً لتمييز القول الصحيح، والترجيح بين الأقوال والأدلة، بأن يبلغ مرتبة كافية من العلم الشرعي والفقه التي تخوّله القيام بالفتوى، ويعرف ذلك في العصر الحاضر بأن يكون حاصلاً على إجازة (بكالوريوس- ليسانس) على الأقل في الشريعة أو الفقه الإسلامي.

٢- **العدالة**: وهذا شرط متفق عليه، وهو مهم جداً في المفتي، فيشترط فيه الاستقامة على دين الله، والتحلي بالآداب والصفات التي تقوده إلى مرضاة الله وتوفيقه، مما يعبر عنه الفقهاء بالعدالة والمروءة، ليكون ثقة مأموناً غير متساهل في أمور الدين، ولذلك قرروا أنه: يحجر على المفتي الماجن.

٣- **المعرفة بالواقعة التي يفتي بها**، معرفة دقيقة، مع فهم ما يحيط بها من الظروف، والدوافع لها، فهماً صحيحاً لتحديد الأهداف التي قصدها الفاعل أو السائل من فعله، وما يمكن أن ينتج عنه من نتائج، وخاصة العلم بفقه الواقع المعاصر، والقضايا المستجدة، والأمور المستحدثة، لذلك يُكلف بالاستفصال عن أطراف المسألة ليتم حسن التكييف، ثم تطبيق النص الشرعي على الواقعة العملية، ويضاف إلى ذلك وجوب الاستعانة بأهل الخبرة والاختصاص في القضية ذاتها، ليكشفوا له حقيقتها، فيتعرف على جوهرها، ليكون الحكم الشرعي مناسباً لها، فالحكم على الشيء

---

(١) آداب الفتوى، للنووي ص١٩.

فرع عن تصوّره.

٤- **المعرفة بالمستفتي وأحواله** من فسق وتديّن، وسن وأحوال نفسية، وفقر وغنى، وغير ذلك من الأحوال التي قد يكون لها أثر في الفتوى.

رابعاً: التحذير من الفتوى: إن مكانة الفتوى عظيمة ورفيعة، ولكن مزالقها كثيرة، ومخاطرها جسيمة، لذلك حذّر رسول الله ﷺ من السرعة بالفتوى، والجرأة عليها بدون تثبت، أو بدون علم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار»[1]، والحديث ضعيف، ولكن معناه صحيح، وتؤيده أدلة كثيرة من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال رسول الله ﷺ: «من أُفتي بغير علم كان إثمه على مَن أفتاه، ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه»[2]، وقد تصل الجرأة في الفتوى إلى الكذب على الله ورسوله الذي حذّر منه رسول الله ﷺ بقوله: «مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

---

(١) هذا الحديث رواه ابن عدي عن عبد الله بن جعفر مرسلاً (كشف الخفا ٥١/١) ورواه الدارمي، كتاب العلم، باب الفتيا وما فيه من الشدة، وروى ابن الجوزي أن رسول الله ﷺ قال: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض»، وهو حديث ضعيف، صفة الفتوى لابن حمدان ص٦.

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود ٢٨٨/٢، وابن ماجه ص ٢٣ رقم ٥٣، وأحمد ٢١٦/٢.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري بعدة روايات ٥٢/١ رقم ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ومسلم بعدة روايات أيضاً ٦٦/١ رقم ٢، ٣، وأبو داود ٢٨٧/٢، والترمذي ص٥٨١، رقم ٣٧١٥، وقالوا عنه متواتر.

ومن مخاطر الفتوى التعجيل فيها، فيجب عدم التسرع فيها، لأن ذلك يؤدي إلى الخطأ والوقوع في الزلل، لذك حذّر العلماء من ذلك، فقال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: «قلّ من حرص على الفتوى وسابق إليها وثابر عليها إلا قلّ توفيقه واضطرب أمره، وإذا كان كارهاً لذلك غير مختار له ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه على غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في جوابه وفتياه أغلب، ولذلك كان الصحابة وغيرهم يتحرزون من الفتوى، وكان كل واحد منهم يودّ لو أنّ صاحبه كفاه الفتوى»[1].

ولذلك يجب التنبيه والتحذير من الإقدام على الفتوى من غير علم، أو لإرضاء الآخرين، أو للمجاملة معهم، أو للمتاجرة في الدين، أو تحت تأثير السلطة والسلطان، أو الإكراه غير المباشر، فإن الدنيا لا تغني عن الآخرة، وإن دين الله لا يقبل ذلك، والمفتي مطلوب منه شرعاً وعقلاً أن يخبر عن حكم الله تعالى، ويوقّع عنه كما سبق، ولأنه لا يُسأل عن رأيه الشخصي.

والأخطر من كل ذلك أن تكون الفتوى حسب رغبة السائل أو الحكام، وهو ماحذّر منه العلماء فقال سحنون رحمه الله تعالى: «أشقى الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره»[2].

وكان الصحابة والسلف الصالح يتحرزون من الفتوى، ويحتاطون كثيراً عند إصدارها، ويحاولون ما أمكن التهرب منها خوفاً من الخطأ والمسؤولية، قال البراء رضي الله عنه: لقد رأيت ثلاثمائة من أصحاب بدر، ما فيهم أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتيا، وقال ابن أبي ليلى رحمه الله تعالى: أدركت

---

(١) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي ٣٤٩/٢، ٣٩٥، ٣٩٨ مع التصرف.

(٢) أدب الفتوى، للباحث ص٢٣.

عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة، فيردّها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول، وفي رواية: ما منهم من أحد يحدّث إلا ودّ أن أخاه كفاه إياه، ولا يُستفتى عن شيء إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا، وقال سفيان بن عُيينة رحمه الله تعالى: أعلم الناس بالفتيا أسكتهم عنها، وأجهلهم بها أنطقهم بها، وقال أيضاً: أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بدّاً أن يفتوا، وقال: أدركت العلماء والفقهاء يترادّون المسائل، يكرهون أن يجيبوا فيها، فإن أعفوا منها كان أحب إليهم، وقال عطاء بن السائب التابعي رحمه الله تعالى: أدركت أقواماً يُسأل أحدهم عن الشيء فيتكلم، وهو لا يريد، وقال ابن مسعود وابن عباس ﷺ: من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه فهو مجنون، وقال أبو حصين الأسدي رحمه الله تعالى: إن أحدهم ليفتي في المسألة لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر، وكان كثير من العلماء يتخذ شعاراً: لا أدري، خشية الوقوع في الخطر والإثم، وقال محمد بن عجلان رحمه الله تعالى: إذا أغفل العالم: لا أدري، أصيب مقاتله، وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف خلاصه في الآخرة، وكيف يجيب فيها، وقال أيضاً: إذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل، ولا يجيب أحدهم في مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رُزقوا من السداد والتوفيق، مع الطهارة، فكيف بنا الذين غطّت الخطايا والذنوب قلوبنا؟![1]

خامساً: كتب الفتاوى: ونظراً لأهمية الفتوى، وحتى تؤدي وظيفتها،

---

(١) انظر: صفة الفتوى، ابن حمدان ص ٧، المجموع للنووي ١/٦٨.

ويتم الانتفاع بها، فقد قام العلماء بجمع الفتاوى التي أصدروها، ودوّنوها في كتب مستقلة، وصارت مرجعاً للناس، وطُبع الكثير منها، وحُقّق ونُشر، مثل فتاوى ابن الصباغ، وفتاوى الشاشي، وفتاوى القاضي حسين، وفتاوى النووي، والفتاوى الكبرى، والفتاوى الصغرى كلاهما للصدر الشهيد الحنفي، وفتاوى ابن نجيم، وفتاوى قارىء الهداية، والفتاوى البزازية، وفتاوى ابن أبي الدم الحموي، وفتاوى الغزالي، وفتاوى العلائي، والفتاوى الكبرى لابن حجر، وفتاوى أبي زرعة، والفتاوى الكبرى لابن تيمية، والمعيار للونشريسي، وفتاوى ابن مزروع، وفتاوى ابن الصلاح، وفتاوى البرزلي المالكي، ويضاف إلى ذلك فتاوى العلماء المعاصرين، كفتاوى ابن عثيمين، وفتاوى الزرقا، وفتاوى الشيخ أبو زهرة، وغيرها، كما يُضاف إلى ذلك الفتاوى التي لا تحصر، والمبثوثة في كتب الفقهاء القدامى والمعاصرين، وصدرت عن الأئمة والمجتهدين والفقهاء والقضاة وسائر المؤلفين.

كما ظهر في هذا العصر فتاوى هيئات الفتوى الرسمية، وفتاوى هيئات الفتوى والرقابة الشرعية في المؤسسات الإسلامية، وفتاوى الندوات الفقهية والمؤتمرات الدولية، والمجامع الفقهية، وتمتاز هذه الفتاوى المعاصرة بتناولها للقضايا المعاصرة، والمستجدات الطارئة، وخاصة في المعاملات المالية المعاصرة، ومسائل الطب، والمكتشفات والعلم الحديث، وأحوال المجتمع.

ونسأل الله التوفيق والسداد، والثبات على الإيمان، وحسن الختام، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: الصورة الناصعة للإسلام[1]

➢**السؤال:** ثمّة صورة قاتمة عن الإسلام، مشكلة في أذهان عدد كبير من الأشخاص، ما أسباب ذلك في رأيكم؟ وكيف يتم إظهار الصورة الحقيقية؟

➢**الجواب:** هذا السؤال صحيح، ومهم، ويجب طرحه ومعالجته، لأنه توجد فعلاً صورة قاتمة عن الإسلام في البلاد الإسلامية داخلياً، وفي بلاد العالم خارجياً، مع أن الإسلام دين الله الخالد، ورسالته الخاتمة، ونور الله المبين، وقد تركنا رسول الله ﷺ على محجّة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وأن الإسلام بعقيدته وشريعته، وكتابه وسنته، ونظامه وأحكامه قد تكفل الله بحفظه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وأنه وصل إلينا صحيحاً سليماً كاملاً، لا تشويه فيه ولا اضطراب، ولا تحريف ولا تبديل، ومع ذلك فإن صورته قاتمة في أذهان بعض الناس ممن ينتسبون إلى الإسلام، أو يقطنون ديار الإسلام، ومن خارجه!!

وهذه ظاهرة اجتماعية لا تُعلَّل بسبب واحد، ولا تُنسب إلى جانب واحد، أو شخص بعينه، أو فئة، ولها أسباب عديدة نكتفي بتعداد بعضها، والإشارة إلى أهمها، وهي:

١- جهل أناس (داخلياً وخارجياً) بالإسلام، وأحكام الشرع الحنيف، والإنسان عدو ما يجهل، فكثير من حقائق الإسلام مغيّبة عن الناس، وهذا بحد ذاته له أسباب كثيرة، منها عملية التغريب والاستشراق، والاستعمار والتخلف، والتأخر عن مظهر الحضارة التي سبقنا إليها

---

(١) منار الإسلام- رجب ١٤٢٧هـ- يوليو ٢٠٠٦م، العدد ٣٧٩- السنة ٣٢.

الغرب، ثم أصبحنا عالة عليه، وتتلمذ أبناء المسلمين على أساتذة أوروبا، وانصرف هؤلاء إلى الجانب المادي والحياة الدنيوية، مع قلة العلماء والدُّعاة وكليات الشريعة والجامعات الإسلامية التي كانت قبل خمسين سنة فقط لا تتعدى أصابع اليد في العالم الإسلامي كله، واليوم لا تتناسب مع الكليات والجامعات الأخرى التي تزيد أضعافاً مضاعفة عن الكليات والجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية.

٢- العداوة السافرة للدين عامة، وللإسلام خاصة، وإعلان الحرب عليه فكرياً وثقافياً وإعلامياً من الحركات القومية المتطرفة، والمبادئ الإلحادية، والثورات المادية والاشتراكية العسكرية، بدءاً من مواقف الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية وغيرهما من الكنيسة والدير بسبب موقف رجال الدين المتزمت في أوروبا في العصور الوسطى، وقتل العلماء، ومحاربة العلم، ومحاكمة المفكرين، فنشأ من ذلك حقد دفين، وعداوة عنيفة للدين والكنيسة، تجلى في الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وإبعاد رجال الدين وطردهم في أوروبا عن الحياة والمجتمع ومواطن التأثير وتكرس ذلك في البحوث، والدراسات، والجامعات، ثم نقلت هذه الصورة بشكل عجيب، وتقليد أعمى إلى البلاد الإسلامية، وطبق ذلك بغباء وبلاهة، وجهل وحقد، وسوء نية وتخطيط مدروس على الإسلام وعلماء المسلمين، وهم بريئون من ذلك براءة كاملة، وهذا يقودونا للسبب الثالث.

٣- تشويه الإسلام، وحقائقه، وعقيدته، وأحكامه، وصورته التاريخية، حتى وصل التشويه المدسوس إلى القرآن الكريم والسيرة النبوية العطرة، وخلفائه الراشدين المهديين، وكبار قادته وعلمائه ومفكريه، وألحقت

الشبه والتهم والأباطيل بالإسلام في الغرب خاصة، فصارت صورة الإسلام قاتمة، سوداء في أذهان الغربيين، وأصبحت ترفع في وجه الإسلام والمسلمين والعلماء، ولا تزال، وكأن الإسلام في قفص الاتهام، ثم نقلت هذه الأفكار والآراء إلى كثير من البلاد الإسلامية، حتى تبنّاها بعض المسلمين والقاطنين معهم.

وما تزال أجهزة الإعلام في أوروبا وأمريكا والشرق عامة، وأجهزة الصهيونية خاصة، وحكومات عديدة، بشكل أخص تقوم بهذا التشويه، وتصف الإسلام والمسلمين بالهمجية والتأخر والرجعية والجمود والإرهاب والتخلف، وتوصم المسلمين بأبشع العبارات والأوصاف التي يندى لها الجبين، فيخجل المسلم المقيم في الغرب من إسلامه، ثم وصل هذا السم الزعاف إلى أقطار المسلمين، عن طريق إذاعات موجهة للمسلمين في بيوتهم، وكثيراً ما تردد أجهزة الإعلام في البلاد العربية والإسلامية ما يبثه الأعداء، وينقلونه بغباء وجهل، أو بخبث وسوء طوية.

٤- التناقضات السلوكية من المسلمين أنفسهم الذين يحملون اسم الإسلام زوراً وبهتاناً، ويطبقون عكسه في الحياة والتعامل، حتى صار كثير من المسلمين صورة منفرة منه، وأضحوا عاراً على الإسلام، وهذا واقع ملموس في البلاد الإسلامية، وينتقل كثير من صوره إلى البلاد الأخرى، مما يثير الكراهية، والاشمئزاز، والحقد والنفور من الإسلام خاصة، والمسلمين عامة، وهذا عكس الصورة المطلوبة بحق والتي سادت في السيرة النبوية، والسلف الصالح، والتاريخ الإسلامي في الالتزام بالإسلام سلوكياً مما يحبب الناس فيه، ويرغبهم في قبوله، ويدفعهم إلى اعتناقه،

والأمثلة ناصعة وأكثر من أن تحصى.

٥- غياب الصورة الكاملة للإسلام والمسلمين اليوم في معظم البلاد الإسلامية في الحكم والتشريع، فقد تم تقويض دعائم الإسلام، وتمزيق أحكامه، وترقيعه بالأنظمة والقوانين الأجنبية المستوردة، وقيام الحكومات العميلة أو الموالية عملياً ورسمياً للشرق أو الغرب، لتطبق سياسته الفكرية والتربوية والتشريعية والاقتصادية، وهي صورة جديدة للاستعمار القديم الذي كان عسكرياً في القرن الماضي، ومنتصف القرن العشرين، فتحول لإيجاد العملاء الذين ينتسبون ظاهراً إلى أمتهم وبلادهم ودينهم، ويرفعون الشعارات البرّاقة، والمبادئ المبطنة الدخيلة ويشكلون المؤسسات والأحزاب من أبناء الأمة، ولكنهم يتلقون الوحي من الخارج، وينفذون الخطط الأجنبية، والسياسات المفروضة عليهم، حتى وصل الأمر إلى امتناع كثير من الحكام عن تطبيق الشريعة الغراء، بل يصرون على ذلك، أو يتحايلون عليه باسم اللجان، أو يتلاعبون باللعب السياسية المبطنة أو المكشوفة، أو يستغيثون بأنصاف العلماء لتسويغ سياستهم، وتبرير مخططاهم، وفرض آرائهم، واهام المناوئين لهم بشتى التُّهم والأوصاف.

٦- يضاف إلى ذلك الأحقاد التاريخية الناشئة من الفتح الإسلامي للأندلس وجنوب أوروبا أولاً، وفي شرق أوروبا ثانياً، والناشئة أيضاً عن الحروب الصليبية وما لحقها.

والعلاج لإظهار الصورة الحقيقية للإسلام هو بالدعوة الصادقة، والتعليم الديني الصحيح، والإعلام الإسلامي المخلص، والوعي الديني الشامل، لإزالة

الأسباب السابقة، ومعالجتها بالحكمة وكشف الأباطيل، ووضع النقاط على الحروف، والالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة، والصبر والمصابرة حتى يتم الله هذا الأمر، وهو واقع لا محالة، وقد حصل مثل ذلك أكثر من مرة في التاريخ الإسلامي أثناء الغزو التتري الهمجي، والحرب الصليبية الجائرة، والاستعمار الشنيع، ثم عاد الحق إلى نصابه، وظهر الدين ناصعاً منتصراً: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧].

ثالثاً: القضايا الاقتصادية المعاصرة[1]

➢**السؤال:** هل هناك أزمة فتوى تجاه القضايا الاقتصادية المعاصرة التي تشهد تطوراً مطرداً؟

➢**الجواب:** لا، لا توجد أزمة فتوى بمعنى «الأزمة»، ولكن الاختلاف في الاجتهاد أمر طبيعي، وواقعي، ومحمود، والاختلاف في جميع العلوم، وفي جميع الأمم، وفي مختلف الأزمنة والأمكنة، أمر ثابت ومقرر، وهذا الاختلاف يعطي أحكاماً متنوعة ليأخذ أحدها طريقه للتطبيق والعمل عندما تتبناه الدولة، وتصدره تشريعاً، أو تعمل به مؤسسة أو شركة، وعندما تأخذ هذه الاجتهادات طريقها للتطبيق يظهر النافع منها والصالح وما يثبت جدواه فيستقر ويتطور، ويتنحى ما يثبت خطؤه أو ضرره، أو فساده، وهذا ما يجري في مختلف دول العالم بالأمس واليوم والمستقبل.

ومع غياب التطبيق العملي للاقتصاد الإسلامي تبقى ظاهرة الاختلاف في الفتوى، وكأنها أزمة، ولكنها في الواقع ظاهرة صحية، وتدل على تفتح الفكر، وحرية الرأي، وفتح باب الاجتهاد لمن تتوفر فيه شروطه، وفيما لا نص فيه، وتدل على بث الحياة في الشرايين، وقيام الفقهاء المختصين بواجبهم، مع وجوب التحرُّز من الفتاوى الباطلة التي تخالف النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والتحرز من الأقاويل الباطلة الصادرة من غير المختصين، الذين يفتون بغير علم، فيَضلُّوا ويُضلَّوا، ويظهر عدد منهم اليوم، ليصطادوا في الماء العكر، مع بلبلة الأفكار، وغياب المرجعية الشرعية في معظم البلاد الإسلامية، وفقدان التطبيق العلمي لأحكام الإسلام عامة، وللاقتصاد الإسلامي خاصة.

---

(١) منار الإسلام- رجب ١٤٢٧هـ- يوليو ٢٠٠٦م، العدد ٣٧٩- السنة ٣٢.

رابعاً: مراجعة الزوجة[1]

➢**السؤال:** كيف يراجع الزوج زوجته إن طلقها؟

➢**الجواب:** لا شك أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، وأنه يهدم الأسرة، ويشتت الأولاد، ويلحق الضرر بالزوجين، وقد تطرأ بعض الظروف التي تفوق الأضرار السابقة، وتجعل الطلاق وسيلة ضرورية لحل المشكلات والمآسي، والعاقل من يقارن، ويبحث عن الأسباب والظروف والنتائج، ويتخذ القرار الذي سيتحمّل نتائجه.

ولكن شاع في العصور الأخيرة كثرة اللجوء إلى الطلاق، واستخدامه في غير محله، ولغير غاياته وأهدافه، أو يتلاعب بعضهم به، ثم يندم، ويبحث عن السبيل لمراجعة الزوجة.

فإن كان الطلاق هو الثالث فلا يحق للمطلق أن يرجع إلى زوجته إلا بعد زواجها بآخر زواجاً صحيحاً وكاملاً، ومن دون تحايل ولا تلاعب ولا قصد للتحليل، فإن طلقها الزوج الثاني، وانتهت عدتها منه، جاز للزوج الأول أن يرجع إلى زوجته بعقد جديد (أي برضاها الكامل وبعقد صحيح شرعاً) مع مهر جديد.

وكذلك الحال إذا كان الطلاق لأول مرة، أو للمرة الثانية، وانتهت العدّة، فلا يمكن الرجوع إلى الزوجة إلا برضاها بعقد ومهر جديدين.

وإن كان الطلاق رجعياً، وهو الطلاق الأول أو الثاني، ولا تزال المرأة في عدتها، وهي ثلاثة قروء (أطهار أو حيضات) أو ثلاثة أشهر، فيمكن

---

(١) منار الإسلام- رجب ١٤٢٧هـ- يوليو ٢٠٠٦م، العدد ٣٧٩- السنة ٣٢.

للزوج أن يراجع زوجته، ولو من دون رضاها، وبمجرد إرادته وعزمه، وقوله: «راجعت زوجتي إلى عصمتي وعقد نكاح» لا يحتاج إلى عقد جديد، ولا إلى مهر جديد، ويكون الزواج بعد المراجعة كأنه استمرار للعقد الأول، ويستحب أن يشهد على المراجعة ليتم التوثيق، وحفظ الحقوق، وسدّ باب الإنكار والجحود، وأضاف الحنفية أنه تصح المراجعة بالفعل كالقبلة والمعاشرة، لأن المرأة المطلقة تبقى في بيت الزوجية أثناء العدّة، لتبقى المسافة قريبة بينهما وللترغيب في الرجعة والعودة، ومراجعة النفس، ومنع التدخل الخارجي بين الزوجين فيما يفسد العلاقة بينهما، لأن الرجعة مرغوب فيها، والعدة إلى عش الزوجية أحمد، ومن تعرفه خير ممّن ستتعرف إليه، وخاصة إذا وجد بينهما أولاد، وعلى الأخص إذا كانوا صغاراً، لتلتم الأسرة من جديد، وتعود المياه إلى مجاريها، ويكون الطلاق مجرد تجربة في الحياة، ولو كانت مرة وقاسية.

خامساً: المصارف الربوية[1]

➢**السؤال:** هل يجوز التعامل مع المصارف الربوية؟

➢**الجواب:** إن معاملات المصارف الربوية (أو التقليدية، أو التجارية) تقوم على الإقراض والاقتراض، وحفظ الودائع، وسائر الحسابات والخدمات المصرفية.

وإن الإقراض والاقتراض (إيداع النقود) يتم بفائدة ربوية، وهذا حرام قطعاً بالاتفاق، ولا عبرة لمن شذ عن إجماع العلماء، لأن تحريم الربا ثابت بنص قطعي في القرآن والسنة، وأنه محاربة لله وللرسول، وأكل لأموال الناس بالباطل، إلى غير ذلك من أضرار الربا، والفائدة المصرفية رباً قطعاً بصريح إنشاء هذه المصارف وأنظمتها، ولا تحتاج لتحايل أو لف ودوران، ولا يجوز ممارسة الحرام إلا للضرورة الشرعية التي حددها العلماء، وليست الضرورة التي يدعيها من يشاء.

أما مجرد حفظ المال في المصارف التجارية التقليدية الربوية، والاستعانة بها في الحسابات والخدمات المصرفية كفتح الاعتماد وغيره، فهنا نفرق بين حالتين:

الأولى: حالة وجود مصارف إسلامية في البلد، فيحرم في هذه الحالة التعامل قطعاً مع المصارف التجارية التقليدية، لأنها تقوم على الربا ومحاربة الله والرسول، وتستترف أموال الناس، وتخلط الحلال بالحرام، والتعامل معها دعم لها، واعتراف بها، وتأييد لنظامها، وكل ذلك حرام، مع وجود البديل في المصارف الإسلامية التي تحقق للإنسان الخدمات السابقة.

---

(١) منار الإسلام- رجب ١٤٢٧هـ- يوليو ٢٠٠٦م، العدد ٣٧٩- السنة ٣٢.

الثانية: حالة عدم وجود مصارف إسلامية فيجوز للضرورة حفظ النقود في المصارف التجارية مع تحريم الفائدة والربا وعدم الاستفادة مطلقاً بها، كما يجوز الاستعانة بها في الخدمات المصرفية عند الضرورة والحاجة، كفتح الاعتماد للاستيراد وغيره، وذلك لعدم وجود مصارف إسلامية تؤمن هذه الخدمات، وعدم وجود الأمن الكافي لإبقاء النقود في البيوت، فتُودع في المصارف للحاجة والضرورة، وإن أخذ صاحب الوديعة فائدة ربوية -حسب قول بعض العلماء- فلا يجوز له الاستفادة منها قطعاً، لأنها مال خبيث وحرام، وإنما يتخلص منها بدفعها للمصالح العامة كمدرسة ومستشفى وطريق، وفي قول: يجوز دفعها للفقراء والمساكين، ولا تعتبر صدقة، وليس له أجر عليها، وإنما يُثاب على نيته الطيبة، وسعيه للتخلص من الحرام.

سادساً: الحلف بغير الله[1]

➢**السؤال**: بعض الناس يحلف بشرفه، أو بحياة أبيه، أو بالكعبة فهل يجوز ذلك؟ وما حكم اليمين؟

➢**الجواب**: إن الحلف نوع من التعظيم للمحلوف به، ويتعلق ذلك بالعقيدة والإيمان، ولا يجوز التعظيم الحقيقي إلا لله تعالى، ولذلك لا يجوز الحلف إلا بالله تعالى، وهذا ثابت في السنة الصحيحة، مع النهي عن الحلف بغير الله تعالى، فمن ذلك ما رواه ابن عمر ﷺ مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت». وفي حديث آخر عن ابن عمر ﷺ مرفوعاً: «من حلف بغير الله أشرك» وفي رواية «فقد كفر».

ولذلك لا يجوز الحلف بالآباء، ولا الأمهات، ولا بالكعبة، ولا الأمانة، ولا بالشرف، ولا بحياة فلان، ولا بجاه النبي، ولا برأس الأولاد، ومن فعل ذلك فهو آثم، وكفّارته أن يقول: «لا إله إلا الله» لما جاء في الحديث الشريف: «مَن حلف فقال في حلفه: باللات والعزى فليقل: «لا إله إلا الله».

وهنا نشير للأدب الإسلامي بعدم الإكثار من الأيمان ولو كانت بلفظ الجلالة (الله) لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. ولذلك قال عمر ﷺ: «ما حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً»، ونقل ذلك عن الشافعي (رحمه الله تعالى)، وهو منهج العلماء العاملين، ومسلك المؤمنين الورعين

---

(١) منار الإسلام- رجب ١٤٢٧هـ- يوليو ٢٠٠٦م، العدد ٣٧٩- السنة ٣٢.

الأتقياء، وأن المؤمن صادق في أقواله، ولا يحتاج لتأكيد كلامه بالحلف والأيمان، ويكره الحلف عموماً.

وإنما تجب اليمين إذا طلبها القاضي في المحكمة أو المحكم أثناء التحكيم، فيحلف الشخص إذا كان صادقاً، فإن كان كاذباً فيحرم، ويعتبر ذلك من أكبر الكبائر، وتسمَّى اليمين الغموس؛ لأنها تغمس صاحبها بالنار، وحذّر منها رسول الله ﷺ، فقال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، واليمين الغموس»، ولذلك أمر القرآن الكريم بالتحذير من ذلك قال تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وإن كان اليمين صادقة أمام القاضي والمحكَّم فتعتبر حجة وبيِّنة لصاحبها، ويحكم القاضي، لقوله ﷺ: «ولكن البيِّنة على المدّعي واليمين على مَن أنكر»، وقال ﷺ للمتخاصمين: «شاهداك أو يمينه»، فتكون اليمين لحفظ الحق لصاحبه.

سابعاً: مصافحة الأجنبية[1]

➢**السؤال:** هل تجوز مصافحة المرأة الأجنبية؟

➢**الجواب:** قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب بيان أمرين:

الأول: المُراد من المرأة الأجنبية: هذا مصطلح شرعي، وليس كما يتبادر إلى الذهن أن المرأة الأجنبية هي غير العربية، أو غير المواطنة في دولة ما، بل المراد كل امرأة مسلمة أو كتابية يجوز للإنسان أن يتزوج منها، أو بتعبير آخر هي المرأة غير الْمَحْرم، والمرأة المحرم: هي الأم والأخت والبنت وبنت الأخ وبنت الأخت، والخالة والعمّة، والجدّة، وزوجة الأب، وأم الزوجة، فهؤلاء تجوز مصافحتهن، وما عداهن هي المرأة الأجنبية.

الثاني: يخلط كثير من الناس بين مصافحة المرأة وبين نقض الوضوء بلمس المرأة، فلمس المرأة الأجنبية مع الوضوء فيه اختلاف بين الفقهاء، وهو مجرد ملامسة جلد الرجل بجلد المرأة، فقال الحنفية: لا ينقض الوضوء مطلقاً مهما كانت كيفية اللمس، وقال الشافعية: لمس المرأة ينقض الوضوء مطلقاً، وقال المالكية والحنابلة: إن كان اللمس بشهوة فينقض الوضوء، وإن كان بغير شهوة فلا ينقض الوضوء. أما المصافحة فتكون بالأيدي، وهي حرام باتفاق المذاهب، وليس في ذلك اختلاف بين الفقهاء، لثبوت ذلك في السنة الصحيحة، لقول عائشة رضي الله عنها: «ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه يُبايعهنّ بالكلام عندما بايع رسول الله ﷺ المؤمنات المهاجرات، حسب الآية ١٢ من سورة الممتحنة، ثم قالت عائشة رضي الله

---

(١) منار الإسلام- رجب ١٤٢٧هـ- يوليو ٢٠٠٦م، العدد ٣٧٩- السنة ٣٢.

عنها: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط إلا بما أمره الله تعالى، وما مست كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط، وكان يقول لهنّ إذا أخذ عليهن -أي العهد- «قد بايعتكن» كلاماً. رواه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة والمغازي). واستدل العلماء بهذا الحديث على عدم جواز لمس بشرة المرأة الأجنبية، وهو ما بينه النووي (رحمه الله) في شرحه (١٣/١٣) فقال: «فيه أن بيعة النساء بالكلام من غير أخذ كف، وفيه أن بيعة الرجال بأخذ الكف مع الكلام، وفيه أن كلام الأجنبية يُباح سماعه عند الحاجة، وأن صوتها ليس بعورة وأنه لا يلمس بشرة الأجنبية من غير ضرورة كتطبيب وفصد حجامة وقلع ضرس وكحل عين (عندما يكون الاكتحال للتداوي) وغيره مما لا توجد امرأة تفعله، جاز للرجل الأجنبي فعله ضرورة».

وجاء في حديث الترمذي أن رسول الله ﷺ بايع النساء لفظاً، وقال: «إنّما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة»، وورد أيضاً في الحديث الشريف: «أما أنا فلا أصافح النساء»، ولذلك اتفق العلماء على تحريم مصافحة النساء الأجنبيات مطلقاً، ويكفي السلام وحسن الكلام والاحترام الحقيقي للمرأة من دون مجاملات سخيفة، وذرائع للفساد والشر، والعياذ بالله، وأن عدم المصافحة تكريم للمرأة واحترام لمشاعرها، وعدم الضحك عليها بحركات مشبوهة وكلام معسول.

مسائل يوضح حكمها الشرعي الدكتور محمد الزحيلي[1]

ثامناً: مسابح النساء

➢**السؤال:** في فصل الصيف تعتمد بعض الدورات الدينية الصيفية للناشئات برامج ترفيهية ضمن مقرراها، ومن بين هذه الأنشطة: اصطحاب الناشئات إلى مسبح خاص بالنساء واستئجاره يوماً كاملاً بحيث لا يُسمح بدخول أي امرأة أخرى، وذلك لضمان عدم كشف العورات من غير الملتزمات، علماً بأن المسبح نفسه يفتح أبوابه للنساء غير المتدينات اللاتي يكشفن عوراقن. السؤال: هل استئجار المسبح من قبل الملتزمات يكون من باب دعم إدارة هذا المسبح وإعانتها على الحرام، وما هو الأولى للمتدينات.

➢**الجواب:** إن استئجار المسبح من قبل الملتزمات لاصطحاب الناشئات الملتزمات له، يجوز ولا شيء فيه، ولا يعتبر ذلك دعماً لإدارة المسبح، وذلك كاستئجار بيت من فاسق، أو استئجار سيارة من عاصٍ، أو استئجار سفينة من غير مسلم، مما يمكن أن يؤجرها لجهات أخرى، وصرح الفقهاء بجواز التعامل بيعاً وشراءً، وإيجاراً واستئجاراً، مع العاصي الذي يغلب على ماله الحرام، مع الكراهة، وأنه لا يكلف الشخص الذي يبيع شيئاً أن يسأل المشتري عن مصدر أمواله التي سيدفع منها الثمن.

وإن كان الأصلح والأولى أن يتم استئجار مسبح من إنسان صالح ملتزم في حياته وسلوكه بأحكام الشرع.. إن وُجد ذلك، فإن لم يوجد للملتزمات الكبيرات والصغيرات والناشئات، والسعي لدى أهل الخير والثراء للتبرع لإنشاء هذا المسبح.

---

(١) منبر الداعيات- العدد ٥٨- صفر ١٤٢١هـ/ أيار ٢٠٠٠م.

تاسعاً: الكذب في طلب المال من الزوج

➢**السؤال**: أنا امرأة متزوجة منذ فترة قريبة، ولقد حدث معي أثناء فترة الخطبة (أي مع وجود العقد) أنني استدنت من إخوتي مبلغاً وقدره (٢٠٠$)، وذلك لمصروفي الخاص حتى أظهر بالمظهر اللائق أمام خطيبي الذي كان لا يبخل علي بالمال، وهو من أسرة ثرية وكنت أحب أن أبدو بنفس المستوى دون أن أشعره بفقر عائلتي الحاد، والآن قد تزوجت، وطلب مني أحد إخوتي ردّ مبلغ (١٠٠$)، فقلت لزوجي -كاذبة- إنني نذرتُ نذراً أن أتصدق بمبلغ (١٠٠$) إن نحن تزوجنا، فأعطاني المبلغ وأعطيته لأخي، ثم أخذت منه (١٠٠$) أخرى سراً وأعطيتها لأخي الثاني، وانتهيت من الدَّين، ولكنني لم أنتهِ من عذاب الضمير، وأنا محتارة إن أنا أخبرت زوجي المشاكل التي لا أعلم مدى نهايتها، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن أسكت بدون مخرج شرعي، فأرشدوني ماذا أفعل؟

➢**الجواب**: ينقسم هذا السؤال إلى قسمين:

الأول: ادعاء الزوجة أنها نذرت أن تتصدق بمبلغ (كذا) إن تم الزواج، وأنها حصلت على المبلغ لوفاء دينها الذي كان بسبب الزواج، فهذا لا شيء فيه، ويجوز التورية بين الزوجين، كما يجوز كذب الزوج على زوجته، والزوجة على زوجها فيما يصلح الأحوال، ويمنع الفساد، ولا يخالف الشرع، ولا يترتب عليه حكم شرعي في حق أحدهما للآخر، واقترافها السابق كان بهدف إتمام الزواج، وقد حصل.

الثاني: ما أخذته الزوجة سراً من مال زوجها لقضاء دينها السابق للزواج، فهذا لا يجوز، لأنه لا يجوز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها بدون

إذنه حتى لو كان للتبرع، وكان الأولى أن تطلب منه المبلغ بأي حجة أخرى، أو تجمع المبلغ من مصروفها الشخصي، والآن يمكن أن تطلب منه مثلاً تبرعاً لعائلة مستورة عليها ديون للوفاء به، وفي هذه الحالة تأخذ المبلغ منه برضاه، ثم ترده له سراً كما أخذت القسم السابق سراً، فتكون قد برئت ذمتها، ولا شك أن التوبة والاستغفار يُذهب الخطأ السابق، ويُزيل عذاب الضمير.

عاشراً: سرقة الكهرباء

➢**السؤال**: شاعت في الآونة الأخيرة فتوى من بعض العلماء بجواز سرقة الكهرباء من الدولة، وذلك بأن يمد أحدهم خطاً لا يرتبط بساعة الكهرباء الرئيسية عنده، مما يمكنه بالتالي من سحب الكهرباء بدون أن يدفع مالاً مقابل ذلك. فما الحكم الشرعي في المسألة في الحالات التالية:

حالة توفّر الكهرباء؟ وحالة الحرمان في بعض المناطق من التيار الكهربائي وحالة الزيادة الفاحشة في الفواتير؟

➢**الجواب**: إن سرقة الكهرباء لا يجوز في حال من الأحوال، وخاصة في حالة توفر الكهرباء، لأن ذلك لا يتفق مع خُلق الإسلام وقيمه وتعاليمه، ولأن ذلك مال عام، وسرقة المال العامل لا يجوز، وينعكس ذلك على المجتمع والأفراد والفقراء وغيرهم ويعود بالشر الذي لا يقرّه الإسلام «لا ضرر ولا ضرار».

أما الحرمان من الكهرباء في بعض المناطق فيمكن حلّه بالمحركات الصغيرة، أو التعاون بين مجموعة بيوت، أو بشراء محرك ومضخة لحي معين، فإن لم يُتح ذلك نهائياً فيمكن وصل التيار مع تركيب حصالة خاصة، ويقوم المستفيد بتسديد الثمن إلى الدولة بأي أسلوب، فإن لم يمكنه فيُعطى لمؤسسات عامة، أو لجمعيات خيرية تضعها في الصالح العام والمصالح الاجتماعية.

كذلك لا يجوز التلاعب بالعداد، لأنه نوع من السرقة كالحالة الأولى. وإن كان في الساعة خلل فيجب إصلاحه لرفع الضرر في الزيادة الفاحشة إذا كان جازماً أنه لا يستهلك هذا المقدار الفاحش الذي تسجله.

حادي عشر: التشبه بلباس الكفار

➢**السؤال**: إن التشبه بلباس الكفار منهي عنه، ولكن هل هذا ينطبق على كل ما يلبسونه في جميع مناسباتهم؟ أم في عباداتهم الدينية فقط؟

➢**الجواب**: لعن رسول الله ﷺ التشبه بالكفار، وأن من تشبه بقوم فهو منهم، وهذا محصور فيما هو خاص بالكفار كالتشبه بلباسهم الذي يميزهم عن غيرهم، ولا يشاركهم به المسلمون، وأن من يرى هذا اللباس يعتقد ويسبق إلى ذهنه أن من يلبس هذا اللباس هو من الكفار، سواء في ذلك ما يلبسونه في جميع مناسباتهم، أو في عباداتهم الدينية، أو غير ذلك، أما الملابس التي لا تخص الكفار، ولا تميزهم عن غيرهم، ويشترك فيه الناس عادة كلبس البنطال اليوم، والبدلة الرسمية من الجاكيت والبنطلون، أو لبس طاقية العُمال من أجل العمل، وكذا ما يلبسه الصيادون عادة، فهذا لا يعتبر تشبهاً بالكفار ولا يحرم لبسه.

80 03

ثاني عشر: نقل الأعضاء

➢**السؤال**: هل قطع الأعضاء البشرية ونقلها من إنسان لآخر جائز؟ وما حكم الشرع في قطع أعضاء الميت ونقلها؟ وهل يجوز بيع وشراء الأعضاء البشرية (أي المتاجرة بها)؟ وهل يجوز التبرع بها؟

➢**الجواب**: إن قطع الأعضاء البشرية ونقلها من إنسان إلى آخر هو ما شاع وانتشر اليوم باسم نقل الأعضاء، وهذا جائز شرعاً بشروط، أهمها: عدم وقود ضرر على المنقول منه طبياً ومادياً في جسمه، ومعنوياً في نفسيته، ولا يشينه ذلك كقطع الأذن مثلاً، وأن لا يترتب الضرر في الحاضر والمستقبل، وأن يكون العضو المنقول مزدوجاً عند الإنسان كالكليتين، فيجوز نقل إحداهما، ما دام الشخص يستطيع أن يعيش بكلية واحدة، ويشترط أن لا يتضرر المنقول إليه بل يستفيد من العضو الجديد، بوجود احتمال كبير طبياً أن المنقول إليه ينتفع من هذا العضو الجديد، وإلا كان النقل عبثاً وبدون مسوّغ، وأن يتم نقل العضو بموافقة كاملة من المنقول منه، وبدون إكراه مادي أو معنوي.

ويجوز نقل أعضاء الميت بشرط مراعاة الآداب الإنسانية، لأن الإنسان محترم حياً وميتاً، ولا يُعبث بجسده، وبشرط أن يتم ذلك بعد موته موتاً كاملاً دماغياً وسريرياً، وأن يوصي بذلك، أو يؤخذ رأي ورثته وأقربائه، فإن لم يكن له ورثة وأقارب فالسلطان وليٌّ من لا وليَّ له، فيؤخذ إذن من المحكمة، أو الطبيب الشرعي.

ولا يجوز بيع الأعضاء البشرية نهائياً، لأن الإنسان الحر لا يدخل تحت اليد، ولا يقوَّم بالمادة والنقد إلا في الديات والجروح للضرورة تعويضاً للمجني

عليه وعقوبة للفاعل، ويجب محاربة هذه الظاهرة الخطيرة في المتاجرة بالأعضاء البشرية، لأن فتح الباب في ذلك خطير جداً، فيتم سرقة الأطفال وقتلهم لبيع أعضائهم، كما تُستغل حاجات الفقراء لاضطرارهم لبيع أعضائهم... ولغير ذلك من المفاسد، فيحرم بيع الأعضاء قطعاً سداً للذرائع، لكن يجوز التبرع بالأعضاء بالشروط التي وردت فيما سبق، كالتبرع بالدم، والتبرع بالكلية، والتبرع بأعضاء الميت بشروطه السابقة.

ثالث عشر: صوت المرأة المُفتن

➢**السؤال**: معلوم أن صوت المرأة إن لم تتغنَّ به و لم يكن شديد الفتنة (بشكل متفق عليه) ليس بعورة، فهل إذا كان صوتها مظنّة الفتنة (أو فتنته نسبية) يصير عورة؟ خاصة أن ن بعض النساء من هذا الصنف هن عاملات ومضطرات للتعامل مع الرجال ضمن الحدود الشرعية، ويحدث حرجاً في ذلك ويخشين أن يكُن سبباً في الفتنة من حيث لا يدرين، فماذا يفعلن؟

➢**الجواب**: إن صوت المرأة العادي ليس بعورة إن لم تتغنَّ به، أو تتصنع به للإثارة والفتنة، لما ورد في الحديث الشريف: «فقد ظهرت الريبة في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها».

أما مجرد مظنة الفتنة المجردة، مثل كلام الموظفة العاملة المضطرة للتعامل مع الرجال، ومثل إجراء صيغ العقود في المعاملات المالية، وتقديم النصح والمشورة، والتذكير والدعوة ضمن الحدود الشرعية، فلا يعتبر ذلك عورة، ولا يمنع منه شرعاً.

أما إن كانت إحدى النساء تخشى ذلك فيمكنها تجنب التخنث وإظهار الكلام بطريقة مثيرة، تجنباً لحرجها في ذلك، وسعياً منها لدرء المفسدة، ولا شك في أن النية تؤثر في ذلك «إنما الأعمال بالنيات» ديانة وإثماً أو غير ذلك، كما يعمل الإخلاص عمله في هذه الحالات، وكانت السيدة عائشة وأمهات المؤمنين، والصحابيات رضي الله عنهن، وكذلك العالمات والفقيهات، والمحدثات: يُدرسن ويُعلمن ويروين الأحاديث، وينصحن الرجال، ويتكلَّمن مع الرجال في جميع المجالات في السلم والحرب، والصحة والمرض، مع الأدب الإسلامي.

رابع عشر: قراءة القرآن على غير وضوء

➢**السؤال:** هل صحيح أنه يجوز قراءة القرآن والمرء على غير وضوء فلقد سمعت أنه يجوز إلا من كان على غير جنابة أو كان كافر؟

➢**الجواب:** الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وبعد: إجابة على سؤال هل يجوز قراءة القرآن لغير المتوضئ الطاهر من الحدث الأكبر أقول وبالله التوفيق إنه يجوز باتفاق العلماء إذ لا يلزم الوضوء لقراءة القرآن ولا يحرم على غير المتوضئ أن يقرأه وإنما يحرم قراءته على من كان محدثاً حدثاً أكبر كالجنب والحائض والنفساء والخلاف الذي دار بين العلماء إنما هو في جواز مس المصحف لغير المتوضئ حيث ذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يجوز مس المصحف إلا لمن كان متوضئاً مستدلين بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] وبما ورد عنه ﷺ من قوله: «لا يمس القرآن إلا طاهر».

وذهب جماعة من العلماء إلى أنه يجوز لغير المتوضئ مس المصحف وقالوا إن الضمير في الآية (يمسه) راجع إلى الكتاب المكنون وهو اللوح المحفوظ وأن المقصود بالمطهرين في الآية هم الملائكة فهو كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٣-١٥]، كما قال المجيزون لمس المصحف، إن حديث لا يمس القرآن إلا طاهر بأن الطاهر لفظ مشترك، يطلق على الطاهر من الحدث الأكبر والطاهر من الحدث الأصغر، ويطلق على المؤمن، وعلى من ليس على بدنه نجاسة، ولا بد لحمله على معين من قرينة فلا يكون الحديث نصاً في منع الحدث حدثاً أصغر من

مس المصحف، وأنا أرجع الرأي المجيز لمس المصحف من غير المتوضئ تيسيراً على الأمة ولأن أدلة المانعين ظنية فطالما استوت الأدلة الظنية وقابلة للاحتمال فالأخذ بالأيسر أولى.

خامس عشر: لوحة آية الكرسي

➢**السؤال**: يجري بيع لوحات تعلق على الحائط مكتوب عليها آية الكرسي تعلق في الغرف أو السيارة تكريماً وافتخاراً بالقرآن الكريم هل مثل اللوحات محرم بيعها وشرائها؟

➢**الجواب**: بناء على القول بجواز تعليق الآيات والأحاديث على الجدران يؤدي هذا التذكر إلى حفظها وتمثيلها دائماً في الذهن بما يقتضي العمل بها فيها.

فإننا نقول بجواز بيع وشراء مثل هذه اللوحات لكن ينبغي أن توضع في خير الأماكن وأن لا تهان.. والله تعالى أعلم.

༄༅

سادس عشر: قراءة المسيحي للقرآن المترجم

➢**السؤال**: هل يجوز للمسلم أن يدعو أحد المسيحيين (رغبة في أن يهديه الله) يقرأ القرآن المترجم ولو كان غير طاهر؟

➢**الجواب**: يجوز دعوة غير المسلمين إلى الإسلام بواسطة إهدائهم نسخاً من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغتهم. ويجوز لغير المسلم أن يقرأ في هذه الترجمات على أية حالة كان عليها.

وهذا من باب الدعوة إلى الله وتبليغ الناس بمختلف الوسائل المشروعة. وله الأجر في ذلك إن شاء الله تعالى.

سابع عشر: حفظ القرآن ثم نسيانه

➢**السؤال**: هل يأثم من حفظ القرآن ثم نسيه بعد ذلك لانشغاله بأمر حياته؟

➢**الجواب**: إذا نسي القرآن من غير قصد في هجره وإهماله فلا إثم عليه إن شاء الله، وإن كان يستحسن للمسلم والمسلمة أن يكون له ورد يومي من القرآن الكريم يستعيد فيه محفوظاته من القرآن ويقرأ في المصحف شيئاً منه يومياً.

ثامن عشر: قراءة القرآن للميت

➢**السؤال**: هل قراءة القرآن للميت بأن نضع في مترل الميت مصاحف ويأتي بعض الجيران والمعارف من المسلمين فيقرأ كل واحد منهم جزء مثلاً وبعد انتهائه من القراءة يدعو للميت ويهدي له ثواب القرآن. فهل تصل هذه القراءة والدعاء إلى الميت ويثاب عليها أم لا؟ أرجو الإفادة وشكراً لكم. علماً بأني سمعت بعض العلماء يقول بالحرمة مطلقاً والبعض بالكراهة والبعض بالجواز.

➢**الجواب**: هذا العمل وأمثاله لا أصل له، ولم يحفظ عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رضي الله عنهم أنهم كانوا يقرءون للموتى، بل قال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أخرجه مسلم في صحيحه وعلقه البخاري في الصحيح جازماً به، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته يوم الجمعة أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» زاد النسائي بإسناد صحيح: «وكل ضلالة في النار» أما الصدقة للموتى والدعاء لهم فهو ينفعهم ويصل إليهم بإجماع المسلمين. وبالله التوفيق والله المستعان.

تاسع عشر: سجدة التلاوة للسماع من جهاز

➢**السؤال**: إن كان الإنسان يستمع إلى تلاوة القرآن الكريم بواسطة جهاز التسجيل ومر القارئ بآية فيها سجدة تلاوة فهل يسجد؟ أفتونا جزاكم الله خيراً.

➢**الجواب**: لا يشرع للمستمع أن يسجد إلا إذا سجد القارئ لأن النبي ﷺ قرأ عليه زيد بن ثابت رضي الله عنه سورة النجم ولم يسجد فلم يسجد النبي ﷺ. فدل ذلك على عدم وجوب سجود التلاوة لأن النبي ﷺ لم ينكر على زيد تركه. كما دل الحديث أيضاً على أن المستمع لا يسجد إلا إذا سجد القارئ، وفق الله الجميع.

৪০ଔ

الفصل السابع عشر

الخطب[1]

أولاً: تجديد خطبة الجمعة ضرورة تمليها تطورات المجتمع[2]

تعتبر خطبة الجمعة أحد أهم الشعائر الإسلامية الأساسية والدينية بالإضافة إلى صلاتها ولذلك جعلت صلاة الجمعة ركعتين لتقوم الخطبة مقام الركعتين الأخريين من صلاة الظهر، ولأهميتها أيضاً كان الاستماع واجباً ومنع التكلم أثناء خطبة الجمعة حرصاً على الاستفادة مما يرد فيها، حتى ورد في الحديث الشريف: «من تكلم في صلاة الجمعة والإمام يخطب فقد لغى» يعني بطلت صلاته وخطبته.

وأضاف د. الزحيلي: إن النبي ﷺ حرص حرصاً شديداً على استماع المسلم للخطبة فرغب بالتبكير لها، والإسلام سبق العالم أجمع في فرضه لخطبة الجمعة أسبوعياً وقصد بذلك تعليم العامة أمور وأحكام دينهم وكل ما يهمهم اجتماعياً وثقافياً وشرعياً ولذلك فإن المسلم في التاريخ الإسلامي وإن كان أمياً إلا أنه بسبب حضوره للخطبة يعتبر مثقفاً إسلامياً وعالماً ومدركاً لكثير من أحكام دينه.

---

(١) للمزيد في ذلك ينظر: خطبة استقبال رمضان = فصل ٢٠ مناسبات، وقد ألقيت خطبة الجمعة مرة في الشهر بدير عطية، ثم في جامعة الشارقة، وفي أمريكا، وغيرها، وعندي أكثر من مائة خطبة، ولكني لم أنسقها للطباعة والنشر.

(٢) الضياء العدد ٨٠- يناير ٢٠٠٤م/ ذو القعدة ١٤٢٤هـ.

◈ تحديات كبيرة:

ويرى د. الزحيلي أن خطبة الجمعة بشكل خاص والخطاب الديني بشكل عام هما أمام تحديات كبيرة وفي أزمة حقيقية فالعالم الإسلامي أمام مفترق دولي تتقاذفه الأنواء وهو بحاله الراهنة غير قادر على التعامل مع بعض المعطيات وإن كنا لا نسلم بهذا في عامة المساجد والمنابر إلا أنه موجود في بعضها.

وعن سلبيات بعض الخطباء يقول د. الزحيلي: الخطباء على مستويات ثلاثة: فهناك المفكرون والعلماء وأساتذة الجامعات وهؤلاء يجتنبون ما يمكن أن يصدر من غيرهم من سلبيات، وهناك فئة متوسطة الثقافة وتتولى خطب الجمعة وهناك فئة ثالثة ضعيفة الأداء والمعلومات ممتهنة وهي لرفع المسئولية عن الإنسان ولمجرد التكسب وكثير منهم لا يحمل شهادة ولا تأهيلاً. فالفئة الثانية والثالثة نرى أنهم يتكلمون عن مواضيع بعيدة ومنفصلة عن الواقع ويركزون على الشكليات وترى جل خطبهم منصباً على الترغيب فقط أو الترهيب فقط في حين يجب أن يكون هناك توازن بين الترغيب والترهيب ولا ينبغي التركيز على واحد منهما دون الآخر. ونلاحظ كذلك انتقاداً لحضارة الغرب وهجوماً كاسحاً عليها في حين نراهم يتعاملون مع إفرازاتها، ومنهم من يطيل الخطبة في غير ما فائدة حتى يشعر الحضور بالملل فينفرون وتنعدم الفائدة.

لذلك يرى الدكتور الزحيلي أنه ينبغي الارتقاء بأداء الخطيب من خلال التحاقه بدورات تأهيلية ترقى به إلى مستويات يستطيع معها الإفادة للحضور وأن تكون الخطبة موضوعية وعامة وليست في أحكام تفصيلية فهذه الأخيرة مكانها الدروس والمحاضرات وليس في خطبة الجمعة وكذلك يجب الحرص على إفادة شرائح الحضور جميعاً ففيهم الأستاذ وفيهم الأمي فعلى الخطيب أن تكون خطبته بسيطة وعميقة في آن واحد وهذا يميز الخطيب الناجح.

◈ ماذا نجدد؟

وحول التجديد في خطبة الجمعة يقول الدكتور الزحيلي: الإسلام قسمان: مبادئ وأسس وغايات وأهداف، ووسائل لتحقيق هذه الأهداف فأما القسم الأول فهو لا يقبل التجديد ولا يجوز تبديله وتغييره وهذا يدخل تحت بند التبديل فيقول ﷺ: «من أحدث من أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» والقيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام لا تتغير بتغير الزمان والمكان بل هي صالحة لكل زمان ومكان أما الأساليب فتخضع للتغيير بل يجب فيها التجديد بحسب الزمان والمكان والتطور والمستويات، فالتجديد ينبغي أن يكون بحسب المعطيات المعاصرة والتقنيات فلا مانع مثلاً أن تقترن خطبة الجمعة بوسائل إيضاح وصور تمثل ما يطالب به الخطيب قياساً على المدارس فالوسائل المعينة تعتبر ركناً أساسياً في تقبل المتلقين وفهمهم للمعلومة، فلماذا لا يكون في المساجد لوحات إلكترونية للصور والمواضيع التي يريد الخطيب إيصالها وتفهيمها للناس ولماذا لا تدخل الآلات الحديثة كالتلفزيون والحاسوب والكاميرا إلى المسجد، فالمسجد في التاريخ الإسلامي لم يكن مكاناً للعبادة فقط بل كان يضطلع بأدوار اجتماعية وثقافية وفكرية والمسجد بهذا المعنى ارتقى بالأقليات المسلمة في بعض البلدان الغربية حتى أصبح يمثل مركزاً يضم بين جنباته المكاتب وقاعات المحاضرات والجامعات وغير ذلك.

ويلخص الدكتور الزحيلي أساليب الارتقاء بخطبة الجمعة فيقول: أولاً يجب إعطاء المسجد وظيفته الشرعية الإسلامية الكاملة ثم إقامة دورات تأهيلية للأئمة والخطباء يكونون معها قادرين على التعامل مع متطلبات العصر وتحدياته، وعقد جلسات تشاورية بين الأئمة والخطباء للتنسيق فيما بينهم حول المواضيع الفكرية والاجتماعية والثقافية، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: الشكوى والابتلاء[1]

◈ مقدمة:

نتناول في هذا المجال مرضاً اجتماعياً متفشياً بين الناس، وهو مرض الشكوى، والنطق به، والتحدث عنه.

إنه مرض نفسي خطير، وله صلة بالعقيدة والإيمان، وينتج عنه نتائج وخيمة أو سيئة، وله سبب عجيب، والشكوى: إظهار البث والحزن والألم، ويقال: أشكاه: أي أزال شكايته[2].

والمرض هو الشكوى التي تصدر عن الناس في كل وقت، وفي كل حين، وفي كل مجلس، وفي كل اجتماع، وكلما التقيت شخصاً أو فئة أو جماعة أو أصحاب مهنة وجدت الشكوى، وسمعت ألوان الشكوى وهي:

١- الشكوى من الجسم والمرض والصحة والعافية، فالمريض يشكو، ثم يشكو الصحيح أيضاً، وقد يكون أكثر شكوى من المريض.

٢- الشكوى من شح المال وقلة الكسب وضيق الرزق، وسدّ الأبواب أمام المتكلم، الفقير يشكو، والغني يشكو، والموظف يشكو ثم يشكو التاجر، ويشكو العامل، ويشكو رب العمل، ويشكو صاحب المهنة والحرفة.

٣- الشكوى من الأوضاع الاجتماعية، فقد يشكو الشخص من زوجته، ومن أولاده، ومن أبويه أو أقاربه وأهله، والطالب يشكو، والمعلم يشكو، والمدير يشكو، والعالم يشكو، ورب العمل يشكو.

---

(١) خطبة جمعة في مسجد الإيمان بدير عطية، في ١٤٢٥/٧/٢٢هـ- الموافق ٢٠٠٤/٧/٩م.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص٢٦٦.

٤- الشكوى من الأوضاع العامة في أي بلد كنت: بلد الإقامة أو السفر والغربة، بلد الإسلام أو دار الكفر، فالمقيم يشكو، والمسافر يشكو، والمغترب يشكو، والمواطن يشكو.

٥- الشكوى من الأوضاع الدولية بين الدول، أو العلاقات الدولية العامة.

وما أحسن ما قاله الشاعر الحكيم:

كل من تلقاه يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

فما دامت الشكوى قائمة من الجميع، فلمن هذه الخيرات الجمة والنعم التي لا تحصى في الدنيا والحياة؟

◈ صلة الشكوى بالعقيدة والإيمان:

هذا المرض له صلة بالعقيدة، وكثيراً لا يقصدها المشتكي، ولكن قد يقصدها أحياناً ويريدها، وهو أن الشكوى اعتراض على القدر، واعتراض على الله تعالى في تصريف الأمور، واعتراض على الله في الابتلاء وتقتير الرزق، وإنزول المرض، وسوء الاختيار للخلق والطبيعة والفطرة للفرد وللجماعة وللعلاقات الاجتماعية.

فكثير من الشاكين المسلمين المؤمنين لا يقصدون هذا المعنى الخطير الذي يؤدي -والعياذ بالله- إلى الكفر، واتهام الباري الخالق، والاعتراض على القدر المحتوم، والانزعاج من التدبير الإلهي للكون والحياة والإنسان.

وقد يقصد بعض الناس ذلك إما بحسن نية دون التفكير بهذه المعاني المكفرة، وإما هزواً وسخرياً عن طيب قلب في غير محله، وقد يقصد فريق هذا المعنى، فيقول الكلمة -لا يلقي لها بالاً تهوى به في جهنم سبعين خريفاً-.

◈ أسباب الشكوى:

أما أسباب الشكوى فترجع إلى أمرين أساسيين:

الأول: الجهل بحقيقة الدنيا، والحياة التي نعيشها، فيظن كثير من الناس أن الدنيا متع وترف، ورفاهية وسعادة، وصحة وغنى، وطيبات وملذات.

ويتصور الكثيرون أن الدنيا جنَّة لا لغو فيها ولا رفث، وكأنهم في كوكب سماوي آخر، وليس على الكرة الأرضية.

الثاني: الجهل بأحد المبادئ الإسلامية الأساسية، والتصورات الشرعية عن الكون والحياة والإنسان وهو الابتلاء، الذي يدفع للشكوى، والابتلاء هو الطريق لمعرفة حقيقة الشيء، وسمي الغم بلاء، لأنه يبلي الجسم، وسمي التكليف بلاء؛ لأن التكاليف كلها مشاق على الأبدان فصارت بلاء، أو لأنها اختبارات، أو لأن الله تعالى يختبر الإنسان تارة بالمسرات، ليشكر، وتارة بالمضار ليصبر، فصارت المحنة والمنحة جميعاً ابتلاء مقتضية للشكر، ولأن القيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، قال عمر رضي الله عنه: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر، وإذا قيل ابتلي فلان، فيتضمن تعرف حاله والوقوف على ما يُجهل من أمره، وظهور جودته ورداءته[1].

فالدنيا دار ابتلاء، ودار اختبار للإنسان، ودار امتحان في الحياة، فالله خلق الإنسان وفيه عنصر الخير والشر، ثم وضعه أمام الطريقين ليختبر إيمانه وعمله قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٦١.

وقال تعالى في ثلاثة آيات متفرقة: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، [الأعراف: ١٤١]، [إبراهيم: ٦]، وعرض عز وجل بيان طبيعة الحياة الدنيا في الكرة الأرضية، فقال تعالى في [سورة الكهف: ٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وأكد الله تعالى ذلك فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

وبيّن تعالى أحد أوصاف الحياة في الدنيا، وما فيها من موت، مبتدئاً بالثناء على نفسه وعلى خلقه وملكه، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

فالدنيا بحقيقتها، وتكوينها، وخلقها الذي خلقها الله عليها، فيها الحلو والمر، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والشباب والشيخوخة، ونعمة الأولاد والحرمان منهم، وفيها الرفاه والسعادة، وفيها الشقاء والتعاسة، وفيها الطفل والشاب والشيخ والهرم، وفيها من يقصف عمره فيموت طفلاً أو في ريعان الشباب، أو شيخاً، ومنهم من يرتد إلى أرذل العمر، فيشيخ ويهرم ويفقد السمع والبصر، والقوة والصحة، وعدم القدرة على القيام أو الجلوس أو النوم الهنيء.

وهذا الكلام ليس فلسفة، ولا خيالاً، ولا مجرد وصف للواقع والحياة، بل هذا هو التصور الإسلامي الصحيح الدقيق عن الحياة والكون والإنسان.

هذا هو التصور الذي يجب وجوباً شرعياً أن يعرفه المسلم، وإلا كان ضعيف الإيمان، أو وقع في سخط الله، سواء كان يدري أم لا يدري، أو وقع

في الكفر والاعتراض على القدر والخالق والعياذ بالله، أو كان جاهلاً بحقيقة الحياة، وجاهلاً بالمنهج الإسلامي وتصوره.

قال تعالى عن أطوار حياة الإنسان وما يعتريه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [الحج: ٥].

فالخطاب للناس جميعاً، مسلمين وغير مسلمين، لبيان أطوار الخلق، ثم لبيان مراحل العمر.

وبيَّن القرآن الكريم -مع التأكيد- وجود الابتلاء، فقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. واللام للتأكيد، وهو تأكيد من الله تعالى خالق الكون والإنسان.

وفي مجال صور الابتلاء قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

◈ الهدف والغاية من الابتلاء:

قال تعالى في بيان الهدف والغاية من الابتلاء للأمة عامة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى في بيان الابتلاء للأفراد حسب الطبقات والأحوال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

◈ أنواع الابتلاء:

يكون الابتلاء بالخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

نعم إن الخير ابتلاء ليختبر الله تعالى عبده، هل يستعمل ما أنعم الله عليه من النعم التي لا تحصى في مرضاته، وفيما خلقت أو وجدت من أجله.

فالصحة نعمة وابتلاء، والزوجة نعمة وابتلاء، والزوج نعمة وابتلاء، والأولاد نعمة وابتلاء، والمال نعمة وابتلاء، والسيارة نعمة وابتلاء، والبيت نعمة وابتلاء، وأنواع الطعام والشراب نعمة وابتلاء، والحياة نعمة وابتلاء، والشباب نعمة وابتلاء، وحتى الشيخوخة والهرم نعمة وابتلاء، والموت نعمة وابتلاء.

والمصائب نعمة وابتلاء، فالمرض نعمة لمن يعرفها وما يحققه للجسم من مناعة، وتحريض الكريات البيض للمقاومة، وهو ابتلاء في الألم.

والفقر نعمة وابتلاء..، والفراغ وقلة العمل نعمة وابتلاء، والتقتير في الرزق والمال نعمة وابتلاء.

وانعدام الولد نعمة وابتلاء، وقلة العمل نعمة وابتلاء..

◈ نتائج الشكوى والابتلاء:

١- يجب التقليل في الشكوى، وأن تنحصر الشكوى لله تعالى، فلا يشتكي المرء إلا لله، ولا يتحسر على شيء إلا لله الخالق البارئ المعطي، السميع المجيب، قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦].

٢- أن يحذر الإنسان في السر والعلن، وفي قلبه وعلى لسانه، من كون الشكوى اعتراضاً على الخالق الذي يبتلي عبده بالخير والشر، أو أنها حسرة، أو أنها اعتراض على القضاء والقدر.

٣- أن لا يقترن مع الشكوى مهما كانت حسد لغير المبتلى ظاهراً بشيء، فالكفيف لا يشكو العمى ليحسد المبصر؛ لأن المبصر مبتلى بغير البصر، والفقير لا يشكو الفقر، ليحسد الغني؛ لأنه مبتلى بغير ذلك، والموظف لا يشكو التاجر أو العامل ليحسده على عمله، فهو في بلاء كبير، والعاقر عديم الأولاد لا يشكو من قلة الأولاد ليحسد ذوي الأولاد؛ لأن الولد بلوى وقد يكون سبباً للشقاء لنفسه ولأهله، وإنما علمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند رؤية البلاء في الآخرين: الحمد لله الذي عافانا من كثير مما ابتلى به خلقه.

٤- الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، وأن كل شيء من عند الله تعالى سواء كان خيراً أو شراً، وهذا يزيد الإيمان، ويرفع الروح المعنوية للمبتلى، ويساعده على الراحة النفسية، ثم السعي لتجاوز البلوى.

٥- الشكر الدائم لله تعالى حتى على البلوى، سواء كان الابتلاء بالخير أو بالشر، فينال الشاكر أجر الشاكرين، وتدوم عليه نعمة الخير، ويفرج الله عنه بلوى الشر، ويصبر على الشر، فيكون له أجر الصابرين الذين يوفيهم الله أجرهم بغير حساب، ويبشر بالصبر والمصابرة.

٦- يجب على العاقل أن ينظر إلى مصيبة غيره فتهون عليه مصيبته، لأنه ما من ابتلاء أو مصيبة إلا يوجد أكبر منها وأشد، ومصائب الدنيا لا حصر لها، وقد تكون لمرة، وقد تتجاوز ذلك إلى مرتين ومرات، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، والعاقل من اعتبر بغيره، وأخذ العظة من سواه. والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: الحث على التعليم الشرعي[1]

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٢].

وقد قام المحسنون وهل الخير ببذل الملايين لبناء هذا المسجد وتجديده، ليصبح قطعة فنية فاخرة، مع روعة البناء وجماله، فجزاهم الله خيراً، وأخلف الله عليهم ما بذلوه، وقد ثبت أجرهم عند الله قبل افتتاحه، فالصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع موضعها.

ولكن إعمار المساجد لا يقتصر على البناء الذي يمثل المرحلة الأولى فقط من الإعمار المقصود من الآية، ويمثل الجانب المادي الأولي فقط.

وإن إعمار المساجد المطلوب في الآية الكريمة يشمل أموراً كثيرة ومتعددة بحسب إعجاز القرآن وبيان الرسول له، وتحتاج هذه الأمور والأعمال إلى دروس ومحاضرات وخطب كثيرة، اكتفي بمثالين يتعلقات بالعنصر البشري للإعمار، وليس بالجانب المادي.

الأول: وهو لمجرد التذكير، وهو إعمار المسجد بالصلاة، وخاصة صلاة الجماعة المطلوبة التي ينادي إليها المؤذن كل يوم خمس مرات «حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح» فهل يستجب السامع لنداء الله ودعوته وأذانه وإعلامه؟ ما هي نسبة الاستجابة

---

(١) خطبة جمعة في مسجد القصاب بدير عطية، يوم ١٤٢٥/٦/١٢هـ - الموافق ٢٠٠٤/٧/٣٠م.

لصلاة الجماعة التي لا تزيد عن صف واحد أو صفين، ولا أريد التوسع في فضل صلاة الجماعة في المسجد، فالجميع يعرف ذلك، ولكنه لا ينفذ، ولذلك أردت التذكير فقط لانتقل إلى المثال الثاني الأهم.

المثال الثاني لإعمار المساجد: هو تهيئة الأئمة للمساجد، وإعداد الدعاة، والمدرسين، والمفتين والقائمين على شؤون المساجد، وهذا هو العنصر البشري المهم، وهو إعمار طويل الأجل، ويحتاج إلى بذل النفس والأولاد والأموال والصبر، إنه التعليم الشرعي. وعندما ندعو للعلم الشرعي والتعليم الشرعي لا أبخس بقية العلوم فضلها وأهميتها، وحرص الشرع والإسلام عليها، سواء في الطب والهندسة والصيدلة والكيمياء والفيزياء والرياضيات، والتاريخ والحقوق والآداب واللغة العربية خاصة، فكل هذه العلوم فروض كفاية في الإسلام، ويكسب صاحبها الأجر والثواب إن نوى وجه الله تعالى، وقام عن طريقها بخدمة الدين والإسلام إن قصد ذلك، وأن القائمين على الدعوة اليوم في أوروبا وأمريكا هم الأطباء والمهندسون والمخبريون ورجال الأعمال، وقل بينهم وجود العلماء في الشريعة.

ولكن أدعو للتعليم الشرعي لأن معظم الناس تزهد به، وإن عدد المتعلمين في الشريعة قليلون، ففي هذه البلدة يوجد المئات من الأطباء، والمهندسين، والصيادلة وغيرهم، بينما لا يتجاوز عدد المختصين بالشريعة عدد الأصابع، وإذا مشيت في شوارع دمشق وجدت آلاف الآرمات للأطباء والمهندسين والصيادلة والمخبرين، ولكن قلما تجد في الحي الواحد رجل علم وداعية.

إن المدارس العامة تغصّ بالطلاب وأعدادهم الوفيرة التي تعجز الدولة عن استيعابهم، وتخصص لهم المنح والبعثات الدراسية، بينما تبقى المقاعد في مدرسة العلوم الشرعية فارغة وقليلة العدد.

نعم يزهد الآباء والأهل والشباب عن التوجه لهذه المدرسة لتحصيل العلوم الشرعية وإلى كلية الشريعة، وخاصة الدراسات العليا التي تُعد المتخصصين أولاً، وتهييء الباحثين والمجتهدين والدعاة وأئمة الدِّين مع أئمة المساجد والخطباء والوعاظ، نعم ينصرف الناس غالباً عن هذا المجال، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً (أي للجهاد أو لسائر أمور الحياة وينسوا دينهم) فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

كما وردت الأحاديث في ذلك، وهي كثيرة، ورسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ودعا لابن عباس بذلك فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فكان حبر الأمة وترجمان القرآن.

يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «العلماء -أي في الشريعة والدِّين- ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر».

ويقول الرسول الحبيب ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يفعل».

هذا العلم الشرعي الذي يبين الحلال والحرام، ومعرفة الأحكام، ويحتاجه كل الناس، بل إن البشرية بحاجة لعلوم السماء، والمدد الدِّيني لتهذيب النفوس، وتربيتها، وتعريفها بالحقيقة عن الله والكون والحياة والإنسان.

ولكن لنتساءل مباشرة وصراحة وحقيقة لماذا نوجّه أولادنا للمدارس وطلب العلم؟ ولندع الجانب الديني والطمع بالثواب والأجر والآخرة؟

إننا نطلب العلم من الناحية المادية لسببين رئيسيين؟

١- إما لكسب الرزق والمعيشة، ليحصل الطالب على شهادة وتخصص يعتمد عليها في الوظيفة وكسب القوت وتأمين المستقبل.

٢- وإما من أجل المكانة الاجتماعية، والمركز، والمنصب، والجاه.

أما الرزق -فإننا نعتقد- ديانة وإيماناً- أن الله تعالى قدّره للإنسان قبل أن يولد وهو في رحم أمه، سواء كان طبيباً أم مهندساً، أم أديباً، أم مؤرخاً، أم صيدلانياً، أم شاعراً، أم محامياً، أم موظفاً إدارياً، وسواء كان متعلماً أو غير متعلم في العمل والحرف وسائر الأعمال.

وإن التوسع في الرزق، أو التوسط فيه، أو التقليل منه، يتحقق لكل فئة وصنف ومهنة، فتجد في كل صنف الغني واسع الثراء، والمتوسط، والعادي المستور، فالأطباء فيهم الغني الثري واسع الدخل، وفيهم المتوسط، وفيهم العادي، وكذلك المحامون، والمهندسون والعمال، والمعلمون، وحتى التجار وأصحاب العمل منهم الأغنياء، ومنهم المتوسطون، ومنهم العاديون المستورون، وكذلك المشايخ والعلماء فيهم الأصناف والمستويات نفسها.

إذن فلا يصح أن يكون التوسع في الرزق سبباً لتفضيل علم على آخر، ووسيلة لاختيار علم دون آخر، وقد قال رسول الله ﷺ: «لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا بالطلب» أي ترفقوا وأحسنوا وتأدبوا مع الله تعالى، فالرزق آت لا محالة.

وبقيت المكانة الاجتماعية والمعنوية، فكلكم يعلم علم اليقين مكانة

علماء الدين، في المجتمع، وفي قلوب الناس، وأقصد طبعاً العلماء العاملين المخلصين وليسوا التجار بالدِّين أو المتخذين الدِّين مجرد وظيفة واكتساب.

وإن الناس تعلق قلوبهم وعيونهم بعلماء الدين في كل مناسبة في الأفراح والأحزان، وفي المناسبات الدينية والوطنية والاجتماعية، وعند الإصلاح بين الناس، فالعلماء يتصدرون المجالس، وترمقهم الأعين، ويستمع لهم الجميع، فلهم المكانة الأولى اجتماعياً وعلمياً.

والمطلوب منا في هذا المجال ثلاثة أمور:

أولاً: لقد ظهرت نتيجة الشهادة المتوسطة، وبدأ الأهل والطلبة الناجحون بالتفكير في التسجيل بالمدارس الثانوية العامة والمهنية، ومنها الشرعية.

ولذلك يجب أن نوجه أولادنا وفلذات أكبادنا لمدرسة العلوم الشرعية للطلاب، والطالبات، للفتية والفتيات.

ثانياً: وخلال اليومين القادمين ستصدر نتائج الشهادة الثانوية، ويجب أن نوجه أولادنا إلى كلية الشريعة، والمعاهد الشرعية، وكليات الشرعية وأصول الدين والجامعات الإسلامية في دمشق وغيرها، وعلى الشباب الناجحين الذين نهنئهم سلفاً أن يُيَمِّمُوا قلوبهم وعقولهم وأنفسهم لهذه الكليات والمعاهد، ليحظوا بخيري الدنيا والآخرة، وليكونوا ورثة الأنبياء، ويحملوا هذه الأمانة والرسالة التي حملها الأنبياء والمرسلون والأئمة والعلماء والدعاة قديماً وحديثاً، وسواء كان ذلك من الشباب والشابات، والطلاب والطالبات.

ثالثاً: نتوجه إلى الأغنياء والأثرياء وأصحاب الأموال مهما كانت قليلة أو متواضعة، أو وافرة، أن يوجهوا أموالهم للإنفاق على طلبة العلم الشرعي، ويتبنى كل منهم واحداً أو اثنين ينفق عليه حتى ينتهي من أعلى الشهادات الشرعية، وبذلك يكون قد عمرَّ ليس مسجداً فحسب، بل أشاد

وساهم في بناء داعية يعمّر المسجد حقيقة بالعلم والنور، ثم يهيئ الأجيال للدعوة لبناء المساجد، ويساهم في حمل الرسالة المحمدية.

وإن الإنفاق على المعاهد الشرعية، وطلاب العلم الشرعي لا يقل فضلاً وأجراً عن بناء المساجد، وقد يكون أفضل من بناء المسجد عند الحاجة واللزوم كما هو في واقعنا، وإن العالم أو الداعية الذي تبناه شخص بالإنفاق على علمه وإكمال تحصيله هو في صحيفة الغني الثري المنفق طوال حياته وبعد موته، ليكون له ذخراً وفخراً وثروة في آخرته.

ولا بد من أخذ الأمر جدياً، وأن نحرص على إعمار المساجد بالأئمة والدعاة والباحثين والمجتهدين، قبل أن يفوت الأوان، ويحل بنا القحط والجدب من العلماء، وحينئذ لا ينفع الندم، ولا تجدي الوسائل وهو ما حذّر منه رسول الله ﷺ سواء كان ذلك في قلة العلماء أو فقد العلماء، مما يؤدي للمأساة المروعة فقال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

إن آباءنا وأجدادنا لم يحملوا للعالم عندما فتحوه الحضارة المادية فحسب التي نتجت وحصلت تبعاً، بل حملوا لهم مشعل النور والهداية، ورسالة السماء، فحققت أمة إسلامية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وهو ما يقع على عاتق الأمة اليوم، إنقاذ البشرية من وهدة المادية والأنانية والنفعية والعنصرية، لتسود القيم الإنسانية، والمعاني الروحية السماوية، فيسعد الناس في الدنيا، ويحصلون على رضوان الله وجنته في الآخرة، إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، وذكّر إن الذكرى تنفع المؤمنين، اللهم فاشهد، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: الاتحاد والتعاون[1]

لن أتكلم عن أحكام شرعية، ولا عن الفلسفة الإسلامية، ولا عن النظريات الفقهية، وإنما أتناول جملة واحدة، سورة صغيرة، يحفظها الكبار منذ عشرين وثلاثين أو خمسين وستين سنة، ويحفظها جميع أطفالنا في الروضة والمدارس الابتدائية والثانوية.

سورة يقول عنها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «إن الناس أكثرهم في غفلة عنها» ويقول: «لو نزلت هذه السورة وحدها من السماء على الناس لكفتهم».

إنها سورة العصر التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

بدأت السورة بالقسم من الله تعالى بالعصر، وهو الوقت عامة، للدلالة على أهمية الوقت عند الله تعالى، وفي الإسلام، فالوقت هو الحياة، أو أن القسم بصلاة العصر ووقتها للدلالة على فضلها وأهميتها، وأنها الصلاة الوسطى التي أمر الله تعالى بالمحافظة عليها في آية أخرى، فقال تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ (عامة) وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ (خاصة) وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ولن أتحدث عن الإيمان، فأنتم أهله، وهو ما دفعكم وحملكم لترك بيوتكم وأهلكم وأولادكم للحضور إلى المسجد وأداء أفضل الصلوات في الإسلام، وهي صلاة الجمعة.

---

(١) خطبة جمعة في مسجد الحميرة بريف دمشق- بسورية في ١٤٢٥/٦/٦هـ الموافق ٢٠٠٤/٧/٢٣م.

ولن أتكلم عن خسارة الإنسان، جنس الإنسان، في حياته، وتجارته، في دنياه وآخرته، في بيعه وشرائه، في وقته وماله، وغير ذلك إن بقي غافلاً عن الله تعالى، وعما استثناه في آخر السورة.

ولن أتناول الذين عملوا الصالحات، فعمل الصالحات واسع وكثير، وتمارسونه -والحمد لله- في حياتكم، تبتغون وجه الله تعالى، وتحرصون على الخير بأنواعه.

وبقيت الجملة الأخيرة ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي يوصي بعضهم بعضاً، وتنحصر وصاياهم بالدعوة إلى الحق، وعمل الحق، والدعوة إلى الصبر، وتحمل الصبر على البلواء، والتجمل بالصبر عملياً في الحياة على السراء والضراء.

وأحصر كلامي على فقرة واحدة، وجملة واحدة من الآية كلها، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾، وحتى هذا كثير وطويل، فالحق يشمل كل ما أنزله الله تعالى، ودعا إليه الإسلام، وحثّ عليه الدين والحق هو الله تعالى، وهو كل ما أثبته في شرعه للإنسان، وهو مقابل للباطل والفساد والشر.

ولذلك أحدد كلامي بجانب واحد من التواصي بالحق، وهو التعاون والاتحاد فيما بيننا على مختلف المستويات والأصعدة، لأن المؤمن ضعيف بنفسه، قوي بأخيه، ولأن الله تعالى أمر المسلمين الأوائل، وهو أمر لنا ولجميع المسلمين- أن يعتصموا بحبل الله جميعاً، ويتحدوا على كلمة الحق، للتعاون بينهم، ونهاهم عن التفرق، وحذرهم من التشتت، فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومعنى اعتصموا: تمسكوا بدين الله، واجتمعوا عليه، واتحدوا على طريقه، وتعاونوا على الالتزام به، والعض عليه بالنواجذ، والعصم: الإمساك، والاعتصام؛ الاستمساك، والتمسك بالشيء»[١].

ثم بيَّن الله تعالى منهج الاتحاد والتعاون، وذلك بطاعة الله ورسوله، ثم حذر من التنازع والفشل، والتفرق الذي يذهب بالأمة، ويجعلها هباء منثوراً، ولقمة سائغة في أفواه الأعداء، ويبدد طاقات المجتمع، وأن المسلمين ملزمون بالصبر على تحمل مشاق الاتحاد والتعاون والتضحية في سبيلهما، ليكونوا من الصابرين المحتسبين المأجورين عند الله، الفائزين في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وجاءت هذه الآية في المجال العملي عند لقاء العدو، والاستعداد للوقوف في وجهه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وتأكد الأمر بالاتحاد والتعاون عن طريق الاعتصام بحبل الله ودينه في الآية السابقة، مع التذكير بالأمراض الفتاكة السابقة في التفرق والاختلاف، والتقاتل والتناحر، ليذكروا نعمة الله تعالى الذي وحّد قلبهم، وألف بينهم بالإيمان والإسلام، فأصبحوا بفضل الله تعالى إخواناً متحابين متعاونين، بعد أن كانوا على شفا حفرة من الوقوع بالنار، فأنقذهم الله منها، وذلك توجيه

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص٣٣٧.

للهداية، والسير على سبيل الخير والنصر والظفر، والنجاح والفلاح.

كما أكد القرآن الكريم الأمر بالتعاون على البر والتقوى، فقال عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والبرُّ: كلمة جامعة لجميع أنواع الخير، والبَّر: خلاف البحر، ويتصور منه التوسُّع، فاشتق منه البِّر، أي التوسع في فعل الخير، وبرَّ العبد ربَّه توسع في طاعته، ويكون من الله تعالى الثواب: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، ويكون من العبد الطاعة في السلوك، والطاعة في الاعتقاد، والطاعة في الأعمال في مختلف شؤون الحياة الدينية والاجتماعية والمالية والسياسية والإدارية[١].

ويقابل ذلك التحذير من التعاون على الباطل والإثم والعدوان، والإثم والآثام: اسم للأفعال الباطلة، الضارة، الفاسدة، والمدمرة، التي تفتك بالفرد والمجتمع في الدنيا، وتحبط الأجر، وتبطل الثواب في الآخرة، ولو كانت لمجرد الإبطاء عن عمل الخيرات، كما يطلق الإثم على الكذب، لكونه من جملة الإثم، كما يطلق البِّرُ على الصدق، لأنه من أنواعه[٢].

وقد يعترض الخلاف والاختلاف عند التعاون على البر والتقوى، فأرشد القرآن الكريم إلى وجوب الإصلاح بين الإخوة، ليتم التعاون، ويستمر الوفاق، ولذلك جاء القرآن الكريم بصيغة الوصف للمؤمنين بالإخوة، ليزيلوا كل شقاق بينهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

---

(١) المفردات ص٤٠.

(٢) المفردات ص١٠.

وجاء البيان النبوي الشريف مؤكداً لهذه المعاني السابقة، ومرشداً للمنهج القويم لتحقيقها، وذلك في أحاديث كثيرة، نذكّر ببعضها.

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[١].

وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي بدأ صاحبه بالسلام»[٢].

وعن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ: إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»، والتحريش: الإفساد وتغيير قلوبهم وتقاطعهم[٣]، وهذا هو الخطر المحدق بالأمة، ويحذر منه رسول الله ﷺ وليس مجرد الشرك والوثنية.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٤].

---

(١) هذا الحديث متفق عليه (رياض الصالحين، ص٥٨٢).

(٢) هذا الحديث متفق عليه (رياض الصالحين، ص٥٨٢).

(٣) هذا الحديث متفق عليه (رياض الصالحين، ص٥٨٣).

(٤) هذا رواه البخاري ومسلم (رقم ٢٥٨٠) (رياض الصالحين، ص١٢٦، ط دار المأمون- دمشق).

ومنها وجوب التواصي بالحق، مع وجوب ترك الأهواء، ونوازع النفس، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وفي سبيل الله عز وجل، لينعم الناس بالتفيؤ بظلال الشرع الحنيف، وإقامة الدّين في القلوب، والبيوت، وفي الأسرة، وفي المجتمع، ويتم إقامة الحق والعدل والبر مع النفس والأهل، ومع الجيران والأحبة، وفي المسجد وأهل البلد، ومع كل من يتم معه لقاء أو معاملة، ليكون الجميع يداً واحدة، وقلباً واحداً، ومجتمعاً واحداً يعمل على الخير والصلاح والإصلاح، وليس على الشر والفساد والإفساد، ويتواصى بالحق، ويتناهى عن المنكر والبغي.

وينتج عن هذه المقدمات، والتوجيهات، والوصايا، والإشادات، ما يلي:

١- تحقق القوة في الوحدة، والتماسك، والتعاون الذي ينتج العزة، ويثمر الكرامة.

ويكفينا ذلاً وهواناً أمام كثرة الأعداء علينا مع التفرق والتقاتل فيما بيننا، ويكفينا خجلاً وشناراً بهذه الملايين من المسلمين، وهم غثاء كغثاء السيل، وقد نزع الله المهابة من قلوب عدوهم، وقذف في قلوبهم الرعب، لحبهم الدنيا، وتمسكهم بها، وكراهيتهم للموت.

وهذا ما دعا إليه الشاعر الحكيم، وصية وتحذيراً، فقال:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعتـــرى ... خطب ولا تتفرقــوا آحـــاداً
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسُّراً ... وإذا افترقن تكسرت آحـــاداً

٢- إن التعاون، والتكاتف، والاتحاد، والاعتصام بدين الله، يحل المشكلات، ويبني الفضائل، ويحقق المعجزات.

وإن الأعداء يتجمعون، ويتحدون، ويتعاونون على الباطل والعدوان، فكيف نقبل لأنفسنا التفرق، والتمزق، والتناحر، والتقاتل على الفتات

وحطام الدنيا، وننسى الله تعالى ووصاياه؟

كيف نقبل أن يطعن الأخ أخاه، ليحمله على موافقته كرهاً ولو على الخطأ والباطل وإلا قاطعه، وأدار له ظهره؟ والأنكى والأدهى أن يتجه المسلم إلى العدو ليتحالف معه ضد الأخ المسلم، أو يتآمر معه على مصالح الإسلام والمسلمين.

وإن بواعث التفرق والتمزق، ووراء هذا الداء، ثلاثة بواعث للغواية، وهي:

١- الدرهم والدينار، أو المال، وحطام الدنيا، ومتاعها الزائل.

٢- حب الزعامات والرئاسات الفارغة، وحب الاستعلاء والارتقاء ولو كان ذلك على حساب القيم والمبادئ، وعلى جماجم الأهل والأحبة.

٣- اتباع الشهوات والغرائز الجامحة، وغير المضبوطة، والبدائية الهمجية.

ويقف وراء هذه البواعث الثلاثة الشيطان، وأعداء الله والدين والإسلام الذين يضمرون الشر للمسلمين، والتأخر، والجمود، والتشتت، والتناحر، بينما ننسى، أو نتناسى، وصايا القرآن والسنة، ونضع خلف ظهورنا تعاليم الدين والإسلام وخطاب القرآن، وتوجيه النبي العدنان.

ونحن ننسى -أو نتناسى- تاريخنا الحافل، وسيرة الآباء والأجداد والسلف الصالح عندما توحدت كلمتهم، وتعاونوا على الخير والبر والتقوى، ففتحوا العالم أولاً، وانتصروا على البغي والعدوان ثانياً، وأقاموا الدّين والحضارة والمدنية ثالثاً، وكانت النتيجة العزة والكرامة والسعادة في الدنيا، والفوز برضوان الله تعالى وجنات النعيم في الآخرة.

إن الألفة والمحبة، والوحدة والاتحاد، والتعاون والتكاتف، هي دعائم الإسلام والدين، وهي أركان المجتمع والأمة، وهي وسائل الرقي والتقدم،

وهي ما دعا إليها القرآن الكريم في الآية السابقة ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إنه أمر بالاعتصام بحبل الله تعالى لتوحيد الكلمة، ونهي عن ضد ذلك وهو التفرق والتمزق والأنانية والفردية التي تفسد وتدمر.

إنه توجيه رباني قرآني محمدي، وهو نعمة جلى من الله تعالى الذي يؤلف بين القلوب، ويوحد بين النفوس، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ثم أكد ذلك القرآن الكريم، وذكّر به حبيبه محمد ﷺ ليكون في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

أما **الأهداف والنتائج** التي نريد الوصول إليها، فهي:

١- يجب توحد الكلمة، واجتماع القلوب لصنع المعروف، واللقاء على التعاون على البر، وعمل الخير، في المسجد، ودروس العلم، ومساعدة المحتاجين والمساكين، وتعظيم شعائر الله تعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ويبدأ ذلك من لقاء الجمعة وصلاة الجماعة، والوعظ، والتذكير، ليخرج المسلمون من المسجد بقلب واحد، واتجاه واحد، وشعار واحد، ويتركوا دواعي الهوى والنفس والشيطان.

٢- يجب الأخذ بأسباب الألفة والتعاون في ذلك، وتبدأ بالتهادي، والزيارات، وإفشاء السلام، وعيادة المريض، وتعزية المصاب، وتشييع الجنائز، وتنقية

النفوس، وتطهير القلوب، واحترام الآخر، والتضحية والإيثار، والتخاطب المحبوب، والمشاركة في الآلام والآمال، والتعاطف بين الغني والفقير، والتراحم بين الكبير والصغير، والمودة والسكن بين الزوجين، والبر بين الأولاد والآباء، وحسن المعاملة، والسماحة في التعامل.

وإن قصرنا في ذلك تنافرت القلوب، وابتعدت الأجسام، وتناءت الأرواح، وأصابه التخاذل والتفرق الذي يؤدي إلى الذل ليكون المسلمون لقمة سائغة لأعداء الله والدين.

٣- إصلاح ذات البين، فقد أمر الله تعالى بذلك لإزالة الخلاف والشقاق والبغضاء، سواء كان بين الزوجين، أم بين أفراد المجتمع، ليتم التكافل بين الجماعة، والتعاون بين الأفراد، حتى بيَّن الله تعالى أنه لا خير في اللقاءات والاجتماعات أفضل من الإصلاح، قال تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤]، وأرشد رسول الله ﷺ إلى أن الإصلاح أفضل من الصلاة والصيام والصدقة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[1].

ولذلك يجب الإسراع والمسارعة في ذلك، قبل أن يُقطع ما أمر الله به أن يوصل، وتقطع وشائج الرحم، وصلات القربى، وتهدم دعائم المجتمع، فإن تم

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود (أدب/ ٥) والترمذي (قيامة/ ٥٦) ومالك (الموطأ/ حسن الخلق ٧)، وأحمد (٦٥/١، ٦٧، ٤٤٥/٦).

الإصلاح والصلاح فقد قطع دابر الفساد في مهده، وهذا ما أمر به الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

اللهم ردنا إلى دينك، رداً جميلاً، وأصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، ووفقنا للعمل بكتابك وسنة نبيك في الوحدة والاتحاد، والتعاون والتآلف، والحمد لله رب العالمين.

خامساً: الشرط الشرعي للنصر والانتصار

◈ **التقديم:**

الحمد لله رب العالمين، القائل: ﴿**أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهو المتصرف في الكون والخلق، يفعل ما يشاء ويختار.

وأشهد أن لا إله إلا الله، الفعال لما يريد، المختار لما فيه الخير والصلاح في الزمان والمكان، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، اختاره واصطفاه، وأرسله للعالمين هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعن الصحابة أجمعين، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨].

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

➢**المقدمة:** أما بعد: فقد تقرر عادة وشرعاً، وعقلاً، أن لكل فعل شروط، وأن من يريد التقدم إلى عمل، أو دراسة، أو كلية، أو معهد، أو وظيفة، أو تأشيرة، أو إجازة، أنه يشترط لذلك شروط، فإن توفرت الشروط حصل على الهدف.

➢**مشكلة الموضوع**: إن الناس اليوم، بمناسبة ثورة الحرية والكرامة، يسألون، ويتساءلون متى نصر الله، ولماذا لا ينصر الله المجاهدين، ولماذا يتأخر النصر عنهم، ولماذا لا ننتصر؟ ألا ينصر الله المسلمين، ألم يَعد الله النصر لعباده المؤمنين؟

➢**تأصيل المشكلة**: هذه الأسئلة ليست جديدة، بل لها أصل في التاريخ، ومع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم، وقد كرروا هذا السؤال: متى نصر الله؟

والأصل في ذلك أن الإنسان ضعيف من جهة، ويستعجل النتائج، ويأمل، ويحلم بالفوز والانتصار، وفي التاريخ الإسلامي ظهر ذلك في مكة المكرمة بعد البعثة والإيذاء والاضطهاد للمسلمين، فسألوا النصر والانتصار، وطلبوا الشروع بالقتال لدفع الظلم والإيذاء، ويأتي جواب رسول الله ﷺ: «لم يأذن لي بالقتال».

وبرز هذا السؤال بشكل بارز في صلح الحديبية، وبعد كتابة شروطه التي شعر فيها المسلمون بالحيف وعدم المساواة، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ سائلاً ومستغرباً ومتعجباً، فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: أليسوا على الباطل؟ فقال: «نعم»، فقال: إذن لماذا نعطي الدّنيّة في ديننا؟ فقال له النبي ﷺ: «إني رسول الله، ولن يضيعني الله»، فرجع عمر رضي الله عنه ولكنه لم يرتو، ولم يكتف بالجواب، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه، وسأله نفس الأسئلة، فأجابه تلقائياً واتفاقياً بنفس الأجوبة السابقة.

➢**شرط النصر والانتصار**: إن الجواب الحقيقي على أسئلة الناس قديماً وحديثاً يتعلق بجوانب متعددة، وله تفاصيل كثيرة، وأسباب عديدة من جهة المسلمين، ومن جهة العدو.

واقتصر هنا على جانب واحد عام يتعلق بالعقيدة فقط، وهو أن الله

تعالى هو المتصرف بهذا الكون، وهو يخلق ويختار، ويعلم الغيب في الحاضر والمستقبل للخلق جميعاً، وهو العليم الحكيم في تحديد وقت النصر.

وإن الله تعالى حدّد جواب السؤال السابق بشكل صريح وقاطع، ولا يحتاج إلى تفسير، وتفاصيل، وحدده بشكل دقيق، ولكنه يحتاج إلى الفهم والتدبر والتطبيق والالتزام، وإن الله قرّر بشكل حازم وقاطع ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وبين تعالى المنهج والسبيل والطريق للنصر بقوله عز وجل: ﴿**إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ [محمد: ٧].

إنه جواب مختصر، وكامل، ودقيق، وحتمي، و يكرره المسلمون، وكثيراً ما يغفلون عن حقيقته وتطبيقه.

➢**الواقع**: ونريد أن نرجع إلى واقع المسلمين اليوم ونلقي الشرط الشرعي للنصر والانتصار على حياتهم المشاهدة الملموسة التي لا يجادل فيها اثنان، مع التسليم الكامل بإيمانهم، الذي لا نشكك فيه، ولا نطعن بوجوده، فالإيمان بالله تعالى بشكل عام موجود ومتوفر، ولكن مجرد الإيمان لا يكفي، وأن النصر لا يتوقف على الإيمان فحسب، فلا بد من العمل، والقرآن الكريم قرن الإيمان بالعمل، فلننظر في أعمال المسلمين.

هل يؤدي المسلمون بقية أركان الإسلام، وهل يؤدون العبادات الرئيسة في حياتهم؟ وما هي نسبة المصلين اليوم؟ ألا يدل الواقع أنهم لا يصلون إلى النصف؟ وما هي نسبة المزّكين اليوم؟ وأظن أنها لا تتجاوز عشرين بالمائة، وقد تزيد النسبة قليلاً في الصوم والحج، ولكن كيف حال الحجاج إلى بيت الله؟ وهل يحققون مقاصد الحج والعمرة؟ أليسوا مجرد غثاء كغثاء السيل؟

وما هي نسبة تطبيق الأخلاق الإسلامية في الصدق والأمانة، والوفاء بالوعد، والبذل، والإيثار والكرم والتصدق، والصبر؟

وما هي نسبة المسلمين الملتزمين بالأحكام الشرعية في الأسرة، والمعاملات، والقضاء، ونظام الحكم والخلافة الإسلامية، وتطبيق الحدود الشرعية، والعقوبات، والميراث والفرائض؟

أين تطبيق الإسلام في البلاد الإسلامية خاصة؟ وأين تطبيق القرآن الكريم الذي وضع في المساجد وعلى الرفوف وعلى صدور النساء، وهو يصرخ قائلاً: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وما مقدار المحرمات التي تنتهك بها حرمات الله ومقدساته، بل نجاهر بها، كالخمر والكذب، وشهادة الزور، وأكل الربا الذي يعمّ البلاد الإسلامية وغيرها، وانتشار الزنا، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم والفساد المستشري في أرجاء المعمورة وفي البلاد الإسلامية خاصة.

كيف حال المرأة المسلمة اليوم والتزامها بالإسلام والحجاب وحتى في ظلال الأسرة؟ إن النسبة خجولة، ولا تصل إلى النصف في أحسن الأحوال.

أين التآلف بين المسلمين؟ وأين التكافل الاجتماعي؟ والصورة الواقعية مخزية، فالتفرق قاتل، والبساطة والسذاجة مميتة، والدول متفرقة، والجماعات متباينة، والأحزاب الإسلامية متشرذمة، وحتى المذاهب والفرق والطوائف متباينة مع كثرتها، وكل واحدة تصرخ في واد، بل تتقاتل مع الأخرى، وتصل الطامة الكبرى بينهم للتكفير والتخوين!!

فلو انتصر المسلمون في هذه الحالة لكان كلام الله تعال باطلاً، ولكان شرطه للنصر وهماً، بل لكانت النتائج خطيرة، والويلات أشد.

➢**الحل**: يتمثل الحل لهذه المشكلة، والجواب عن هذه الأسئلة بأمرين:

➢**الحل الأول**: يتعلق بنا، وهو في قدرتنا، ويقع تحت أيدينا، وهو وجوب العودة للدين، والالتزام بأحكام الشرع، واعتماد منهج الإسلام للحياة، وأن نسعى ونعمل بالجهد الحثيث على نصرة الله تعالى بتطبيق شرعه، والسير على هديه، وأن نتواصى به، ونعضّ عليه بالنواجذ، وعند ذلك نحقق الشرط الذي ورد في الآية السابقة، لنستحق النصر ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ونذكر مثالاً إسلامياً في معركة السواك عندما تأخر النصر على المسلمين، وراجعوا أنفسهم، فتذكروا ترك سنة السواك، فأقبلوا عليه فظن الأعداء أنهم يشحذون أسنانهم ليأكلوهم فانهارت معنوياتهم، وتحقق النصر مباشرة للمسلمين، كما نذّكر بقصة أحد الصهاينة الذي سأل مسلماً عن عدد المصلين في صلاة الفجر، فأجابه بأنهم صف أو صفان، فقال: إذن، فهذا اطمئنان على دولتنا، ولن يغلبنا المسلمون حتى يصير عدد المصلين في الفجر كعدد المصلين في صلاة الجمعة.

➢**الحل الثاني**: حل إلهي، يتعلق بسنة الله الكونية للأخذ بيدنا إلى الحل الأول، وهو الابتلاء والاختبار من الله تعالى لعبده، لأن الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه، وإن البلاء يترل بالفرد والجماعة للتصفية من الموبقات والفساد والانحراف والعودة إلى حظيرة الدين، إن التربية بالشدة والقسوة محبة للعودة إلى روضة الإيمان والإسلام.

ونضرب أمثلة عملية من الابتلاء والاختبار الذي أعاد كثيراً من المسلمين اليوم إلى الدين، منها أداء الملايين للصلاة في ميدان التحرير خلال الثورة المصرية المجيدة، وامتلاء المساجد في سورية بالمصلين، وكان كثير منهم

لا يصلون، أو لا يدخلون المساجد.

ومن ذلك التكافل الاجتماعي والتكاتف مع المهجرين والمنكوبين واللاجئين الذين يُستقبلون استقبالاً يُذكّر باستقبال الأنصار للمهاجرين، وتقسيم الأطعمة والأشربة والملابس فيما بينهم ، وتأمين الإيواء والمسكن المجاني.

ومن ذلك جمع التبرعات السخية التي لم يسبق لها مثيل في العصر الحاضر لإمداد المجاهدين وعائلاتهم بالنفقات والمساعدات من جميع أرجاء الوطن ومن الجاليات في بلاد الغربة والمهجر ومن ذلك التركيز على الإيمان بالله تعالى، والإخلاص له، وطلب العون والمدد منه، والاستغاثة به، ورفع الشعارات الإيمانية والدينية، واللافتات التي تعبر عن عمق الإيمان والإخلاص لله تعالى.

ومن ذلك ابتلاء واختبار الشباب ليرجعوا إلى دينهم، ويثوبوا إلى رشدهم، وتتيقظ فيهم حمية الإيمان والإسلام، ويجدِّدوا العهد مع الله تعالى، ويحقِّقوا الآمال الجسام المعقودة عليهم، بعد أن خطط لهم الفساد الفكري والفني والثقافي والاجتماعي، وخطط لهم الانعزال عن الحياة الاجتماعية والسياسية حتى كاد اليأس من صلاحهم أن يتحقق، فرجع الكثير منهم إلى الدين والإيمان، والتفكير والوعي، والمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية، ليجدِّدوا تاريخ السلف الصالح من الشباب.

➢**استدراك:** وهنا لابد من الاستدراك والتنويه لعدة أمور:

١- أن تصوير حالة الناس السابقة، وتساؤلهم عن النصر لا يدعو إلى اليأس والقنوط وفقدان الأمل والرجاء.

٢- إن الأسئلة السابقة، والتصور السابق لا يعني تعميم ذلك على جميع المسلمين، فالمسلمون اليوم فيهم فئات مؤمنة، وملتزمة، ومحافظة على

الدين وشرعه وأحكامه، وإن كانوا قلة.

٣- إن المسلمين عامة، والفئات المؤمنة خاصة، هم اليوم أحسن حالاً بكثير من الماضي القريب قبل قرن مثلاً، وطوال القرن الماضي.

٤- إن الصحوة الإسلامية في العالم اليوم تبشر بخير كثير في جميع النواحي العلمية والفكرية والثقافية والاجتماعية، وحتى في بعض الجوانب التشريعية والتنظيمية، وإن الربيع العربي يمثل قمة الصحوة الإسلامية اليوم، بعد فترة من الجمود والركود والتخلف والسُبات والنوم الذي طال حتى كاد اليأس أن يتسرب إلى الشعوب الإسلامية.

٥- إن صحوة الشباب خاصة تبشر بأن الأمة لا تزال باقية وحيّة، وإن ساد الهرم والشيخوخة للكبار حتى صرّحوا وقالوا: هرمنا، هرمنا، والدور للشباب.

٦- إن طريق الصحوة والعودة إلى الإسلام والحرية والكرامة لا يزال في أوله، وإن السنة والسنتين والثلاث قليلة وقصيرة في عمر الزمان.

٧- إن طول المخاض، والتجربة، والثورة، يمثل عمقاً، ويمهد لأمل طويل في حياة الأمة التي ستذكر هذه التجارب والمحاولات والتضحيات والكوارث والمصائب والظلم والاستبداد والصراع بين الحق والباطل، ستذكر ذلك بمداد من النور، وأحرف من ذهب، وسيبقى ذلك في سجل التاريخ.

٨- إن الأمل كبير، والتفاؤل بالنصر، ولو جزئياً، في ازدياد، ومهما طال الليل، فلا بدّ للفجر أن ينجلي، وإنّ الصبح لناظره قريب، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة، والمهم اليقظة والبدء بالحركة والعمل، وإن تباشير النصر قد حصلت في تونس ومصر وليبيا واليمن، وكثير من البلاد العربية والإسلامية.

سادساً: خطبة عيد الفطر

يوم الجائزة والأفراح[1]

◈ الخطبة الأولى:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، تسع مرات.

الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله العظيم وبحمده بكرة وأصيلاً.

الحمد لله على نعمة الإيمان والإسلام، الحمد لله الذي أحيانا حتى صمنا رمضان، وبلغنا عيد الفطر، لنحصل على الجائزة والثواب.

وأشهد أن لا إله إلا الله، تفضل على عباده بالرحمة والمغفرة والرضوان، وخلقهم ليربحوا عليه، وينالوا الأجر والفوز بجنات النعيم.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، اصطفاه واختاره، وأرسله هادياً وبشيراً، ومبلغاً وداعياً، ورحمة للعالمين، فكان إمام المتقين والصائمين، وحبيب رب العالمين، والأسوة القويمة إلى يوم الدين.

اللهم صل وسلم وبارك عليه، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، مع الوصية بتقوى الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وبعد، أيها الإخوة الصائمون بالأمس عبادة وتقرباً، المفطرون اليوم شكراً وتعبداً، هذا يوم الجائزة كما يبشرنا الحبيب المصطفى ﷺ -فيما رواه الطبراني في

---

(١) صباح يوم الجمعة في مسجد جامعة الشارقة في غرة شوال ١٤٣١هـ، ١١، ٩، ٢٠١٠م.

الكبير- عن سعد بن أوس الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان **يوم عيد الفطر** وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا: اغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم يمنّ بالخير، ثم يثيب عليه الجزيل، لقد أمرتكم بقيام الليل فقمتم، وأمرتكم بصيام النهار فصمتم، وأطعتم ربكم، فاقبضوا **جوائزكم**، فإذا صلوا نادى منادٍ: ألا إن ربكم قد غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى رحالكم، **فهو يوم الجائزة**، ويسمى ذلك اليوم في السماء **يوم الجائزة**»[1].

أيها الإخوة المؤمنون، أيها الإخوة الصائمون بالأمس، المفطرون اليوم:

إننا سمعنا طوال شهر رمضان، وطوال العام عن جوائز متنوعة ومتعددة، من جائزة الأولمبياد الرياضي إلى جوائز الشركات والمؤسسات، إلى جوائز حفظ القرآن الكريم، وجوائز الشخصية الإسلامية العالمية، وجوائز المبيعات والتجار، وكل هذه الجوائز يشترك فيها المئات والآلاف فأكثر، ولكن لا يفوز فيها إلا واحد، أو اثنان، أو ثلاثة.

أما جائزتنا اليوم فقد اشترك فيها الملايين في أرجاء المعمورة، وكل مسلم صام رمضان فهو مشارك في المسابقة إلى الخير العميم أولاً، وفائز بالفضل الكبير ثانياً، فهي مسابقة عامة شاملة، وجائزة الفوز فيها من رب العالمين، من رب كريم، يمن بالخير، ثم يثيب عليه الثواب الجزيل، فمنّ علينا بشهر رمضان المبارك، وهو أفضل الشهور، وفتح لنا أبواب الجنان، وأغلق أبواب النيران، وصفد عنا الشياطين، ودعانا للصيام والقيام، ثم تفضل علينا

---

(١) هذا الحديث رواه الطبراني في الكبير من رواية جابر الجعفي، وهو حديث ضعيف السند، الترغيب والترهيب ص ٢٥٥ رقم ١٦٨١، كتاب العيدين والأضحية، الباب ٢ الترغيب في التكبير في العيد وذكر فضله.

بالجزاء والفضل العميم، وهو الكريم المنان.

وموضوع المسابقة -أيها الإخوة المؤمنون- هو لجميع الصائمين الذين قد يبلغون المليار، وموضوعه هو ما ذكره لنا العلماء والخطباء والوعاظ طوال شهر رمضان فيما جاء في القرآن الكريم عن الصيام في أول آياته ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] ثم قال في آخر آياته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧] فالموضوع أولاً هو التقوى، وبين لنا حبيبنا المصطفى مفردات المسابقة عن رمضان «أمرتم بقيام الليل فقمتم، وأمرتم بصيام النهار فصمتم»، «ورمضان أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار»، «ورمضان شهر الصبر».

وقام المتسابقون في أرجاء المعمورة بإطعام الطعام، وفتح أبواب خيام الخير، وموائد الرحمن للفقراء والمساكين الذين يرددون «نتمنى أن تكون السنة كلّها رمضان» وذلك في معظم البلاد، حتى في أوروبا وأمريكا واستراليا.

وقام المتسابقون بالزكاة والصدقات حتى ختموها أخيراً -وليس آخراً- بزكاة الفطر، وأنفقوا الأموال في سبيل الله، وابتغاء مرضاة الله، طمعاً بفضل رمضان الذي تتضاعف فيه الحسنات فمن «أدى فيه فريضة فكان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ومن أدى فيه خصلة من خصال الخير فكان كمن أدى فريضة فيما سواه».

وتنافس المتسابقون في تلاوة القرآن وختمه في شهر رمضان، وهو شهر النصر والانتصارات الكبرى في بدر وعين جالوت وفتح الأندلس وفتح القسطنطينية، وغيرها، وهو شهر ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

وتسابق الصائمون إلى عماد الإسلام إلى الصلاة، وملؤا المساجد، وشاركوا في صلاة الجماعة، وفاكهة رمضان بالتراويح وقيام الليل والتهجد والاعتكاف، وخاصة في العشر الأواخر.

وهو شهر التربية المستمرة، ومدرسة الثلاثين يوماً، ويوم المراقبة لله تعالى، وإحياء الضمير.

وخشع الصائمون بين يدي ربهم بالدعاء الخالص، فيما بينهم وبين ربهم مباشرة وهو القائل وسط آيات الصيام ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وأعلن الآلاف التوبة في رمضان وعادوا إلى ربهم، ليغفر لهم، ويتوب عليهم.

وتجلى بين الصائمين الوئام، والإخوة، والتعاون، والمحبة، والعطف، وصلة الأرحام.

ونضحت الأجساد من الشحوم والترسبات وفضلات الدسم «صوموا تصحوا» ومن الدهون، لتجديد الخلايا والنشاط في الجسم.

وغير ذلك كثير وكثير في شهر الصيام الذي يستحق فيه اليوم كل مسلم صام، وكل مسلمة صامت، الجائزة -التي ليست كأساً أو ميدالية ذهبية، أو مبلغاً من المال- إنما جائزة في السماء والأرض، إنه يوم المغفرة من الذنوب، فمن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، فهنيئاً لكم هذه المغفرة والتوبة إلى الله سبحانه، وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به».

حتى العيد عبادة واستمرار لعبادة الصيام، فيبدأ بالتكبير ليلة العيد حتى يدخل الإمام إلى المحراب، ثم صلاة العيد، ثم كل عمل فيه طاعة وصلة حتى الابتسامة، فهو عبادة وتقرب إلى الله تعالى.

ولذلك ثبت في صحيح مسلم قوله ﷺ: «للصائم فرحتان، فرحة عند فطره (أي كل يوم، وفي يوم العيد) وفرحة عند لقاء ربه».

أيها الإخوة المؤمنون:

إن هذا اليوم، ليس يوم استلام الجوائز وقبضها وحسب، بل هو **يوم الأفراح والبهجة والسرور**، يوم اللقاء والحبور، يوم الاجتماع والابتسامة، يوم التهاني واللقاء بين الأهل والأحبة والإخوة والجيران والزملاء، لقاء الجميع في المسجد أولاً، ثم في البيوت والزيارات، وفي المجالس والمنتديات، وكلهم يردد الدعاء المأثور «تقبل الله منا ومنكم».

إنه يوم الفرحة والسرور للجميع، وخاصة للأطفال وطيور الجنة الذين يغردون في كل مكان، وكأنهم الأبطال الحقيقيون لفرحة هذا اليوم، فشاركوهم الفرحة والبسمة، وساعدهم على الابتهاج، وممارسة الألعاب، وأدخلوا إلى قلوبهم السعادة والسرور.

ولكن يجب أن تكون جميع الأعمال، للكبار والصغار، **مباحة ومشروعة**، وحذار من ارتكاب المعاصي والمحرمات، حتى لا تنقلب الأمور رأساً على عقب، وتضيع الأعمال السابقة، وتهدر الطاعات المقدمة، فكما أن العبادات يتضاعف ثوابها في هذه الأيام الفضيلة، فكذلك الذنوب والمعاصي والسيئات يتضاعف عقابها.

تقبل الله مني ومنكم الطاعة في شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار، شهر العبادة والصيام والقيام، شهر الصدقة والزكاة وإطعام الطعام، شهر الصبر والجهاد والنصر.

◈ الخطبة الثانية:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبع مرات.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، ثم لحق بالرفيق الأعلى راضياً مرضياً، وقد أمرنا الله تعالى بالصلاة عليه، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، وعمن تبعهم إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون: أريد التنبيه والتنويه والتذكير بأمور:

١- صدقة الفطر أو زكاة الفطر تجب على كل مسلم، وتدفع في نهاية شهر رمضان، وليلة العيد، وحتى قبل صلاة العيد، فمن أداها فقد ثبت أجره، ومن نسي أو تأخر، أو لم يقدمها لأي سبب كان، فيجوز أن يدفعها

للفقراء والمساكين يوم العيد، إما على أنها زكاة فطر، على رأي الشافعية، وإما على أنها صدقة من الصدقات في هذا اليوم الفضيل، على رأي الآخرين.

٢- إن يوم العيد يوم طعام وشراب وبهجة، ومشاركة للمسلمين في سرورهم، فيحرم فيه الصيام قطعاً، وباتفاق العلماء، وذلك ثابت بالسنة الشريفة.

٣- إن صلاة العيد **سنة مؤكدة** عند جماهير العلماء، وصلاة الجمعة فرض، وهي أفضل صلاة في الإسلام، فإذا اجتمع العيد والجمعة فالمطلوب صلاة العيد وصلاة الجمعة، وإن ما ورد في الحديث عن اختيار إحداهما فكان ذلك **أولاً رخصة** لأهل العوالي الذين هم من خارج المدينة، وكانوا يتكبدون المشقة للحضور لصلاة العيد مع رسول الله ﷺ، فرخص لهم بعدم أداء الجمعة، لأنه لا صلاة عليهم أصلاً، وهذا كالرخصة للمريض والمسافر بالفطر في رمضان، فلا يعني جواز الفطر لكل المسلمين، وإن رسول الله ﷺ صلى العيد، ثم صلى الجمعة قطعاً ويقيناً، وكذلك سائر الصحابة، ولنا فيهم قدوة حسنة، وإن السنة لا تسقط بالفرض.

٤- يسن لمن جاء إلى صلاة العيد من طريق أن يعود من طريق آخر، اقتداء برسول الله ﷺ لتشهد له الملائكة والطرقات بذلك.

وإني داع فأمنوا...، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر، وكل علم وأنتم بخير.

سابعاً: نبش القبور وسب الموتى(1)

◈ **مقدمات:**

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ثم يتولى بنفسه الحساب يوم الجزاء.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، الذي كان أكمل الناس خلقاً، وقال له ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ».

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الطاهر الزكي، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعن الصحابة أجمعين، وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(١) خطبة الجمعة / جامع الإيمان ١٤٣١/٨/١٨هـ، ٢٠١٠/٧/٣٠م.

أما بعد: أيها الإخوة المؤمنون:

فإن موضوع الخطبة غريب وعجيب، ومضحك ومبك، لأنه يعالج مرضاً يسري بين الناس، وينتشر بينهم مع مافيه من خطر وضرر في الدين، وفساد في الحياة، وسوء للأخلاق، إنه «**نبش القبور وسب الموتى**».

والإسلام: عقيدة وشريعة وأخلاق، وهذا المرض يتنافى مع العقيدة والشريعة والأخلاق ،لأن الأخلاق الحسنة أحد أركان الإسلام، ورسول الله ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أو «صالح الأخلاق».

ولكن غياب العقيدة الصحيحة، وضعف الإيمان، وتحريض الشيطان وأعوانه، يشغل الناس في أمور جانبية، ليهدم ما بقي من العقيدة والإيمان، ويشغلهم بسفاسف الأمور، ويبعدهم عن جوهر الدين وأركانه وأحكامه، ومشاكل الحياة وأهوالها.

ومن ذلك ما يشيع اليوم من «نبش القبور وسب الموتى» وليس المراد حفر القبور فهذا يتم عند موت الإنسان ليُحفر له القبر ليُوارى تحت التراب ويستر، وهو منهج الدين منذ قتل قابيل أخاه هابيل، وتحير في جثته ﴿**فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ**﴾ ففطن و﴿**قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ**﴾ [المائدة: ٣١].

وحفر القبر لدفن الميت فرض على جماعة المسلمين، وهو سنة متبعة، ومنهج سديد لتكريم الميت.

ونسمع بنبش القبور في أوروبا وفلسطين المحتلة **حقداً** على الإسلام

والمسلمين من اليهود، **وتعصباً** يمينياً متطرفاً، وإيذاء لمشاعر المسلمين، **مما** يستنكره العقلاء والمعتدلون.

ولكن الموضوع الأهم اليوم هو نبش القبور القديمة في ديار المسلمين، وتناول الأموات بالسب والشتائم، وتجريح أعراضهم، والتذكير بمساوئهم، وقد يكون هذا صغيراً وبسيطاً، ولكن يصل الأمر إلى **الافتراء والكذب وإلحاق التهم بهم**، ونسبتهم إلى الفساد والانحراف، ثم إلى الضلال والتكفير.

إنه **انحراف سلوكي**، وإشغال للناس بما لا يجدي ولا يفيد، ولا يسمن من جوع، ولا يحقق فائدة واحدة، ويثير الأحقاد والضغائن على السابقين، ويوقع العداوة والبغضاء بين الأحياء، ليقسم الأمة، ويمزق الشمل، ويثير النعرات الطائفية والسياسية.

ويبدأ النبش بمن مات قريباً من الناس وخاصة **الحكام**، والمشهورين، ثم يتم السير للوراء والقديم، للنيل من **خلفاء بني عثمان**، ثم الإساءة لدولة المماليك، ثم لخلفاء **بني العباس**، ثم يتركز الشتم والسب على **خلفاء بني أمية**، ليصل إلى الطامة الكبرى بسب **الخلفاء الراشدين** الذين هم أزكى الأمة وأفضلهم، ثم تصب اللعنات على الصحابة عامة وأبي بكر وعمر وعائشة

خاصة، رضي الله عن الصحابة أجمعين، ولا يستثنون إلا بعض الصحابة الذين لا يبلغون عدد الأصابع، مع المغالاة في حبهم والثناء عليهم وتقديسهم، مع بخس الآخرين حقهم.

والهدف من ذلك سياسي، مع إثارة للنعرات الطائفية، وتمزيق للأمة، وتوجيه الناس نحو الماضي، لإبعادهم عن الحاضر المؤلم، والاحتلال الأجنبي، والأعداء الحقيقيين.

وهذا طعن بالوحدة الوطنية، وتفريق الناس، وإشاعة الأحقاد والضغائن بينهم، وذلك عند شتم رموز الأمة وخلفائها وأجدادها وسلفها.

◈ فما هو الموقف الشرعي في ذلك؟

لقد رسم القرآن المنهج للمسلم فقال تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١] فتكررت الآية مرتين، ليبين القرآن الكريم **تحديد المسؤولية** أمام الله تعالى وحده، وأننا لا نسأل عن عمل غيرنا، لنتجه إلى أعمالنا ،ولعدم التحدث بما لا يفيد عن أخطاء الماضين، بل لنعالج الحاضر، ونعمل للمستقبل.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» رواه البخاري، وقال رسول الله ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم».

وهذا منهج تربوي وأخلاقي، لنذكر بالمحاسن فتكون مدحاً لصاحبها، وتذكير لسامعها، وحثاً على الاقتداء بها، ومواساة وجبر خاطر للأقارب الأحياء.

مع تجنب ذكر المساوئ، لأنها إشاعة للمنكرات والمفاسد، وإساءة للأحياء والأقارب، وتلويث اللسان بالكلام الضار الذي لا يفيد.

وإذا انتقلنا مباشرة إلى الصحابة فهم **أولاً: أفضل جيل عرفه التاريخ،** وهم الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ، وتخرجوا من مدرسة النبوة، وحملوا رسالة الإسلام، وبلغوها للناس، ونشروها خارج الجزيرة العربية في الشام ومصر والعراق وفارس، وطهروا هذه البلاد من احتلال الرومان والفرس، ومن الوثنية والكفر.

ثانياً: ثبتت طهارة الصحابة وفضلهم في القرآن الكريم، فقال تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ وختم الآية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: ١٨]، وكانوا ألفاً وأربعمائة بما فيهم كبار الصحابة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، والآيات في ذلك كثيرة، وتتحدث عن فضلهم وأعمالهم وجهادهم وعلمهم.

ثالثاً: في خصوص **زوجات رسول الله** ﷺ يقول تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، فزوجات النبي ﷺ ورضي الله عنهن هم أمهات للمؤمنين، ومنهم السيدة عائشة التي تعد كوكبة فيهم، وثبتت فضائلها الكثيرة، ونزلت براءتها من السماء مما اتهمها به المنافقون، في سورة النور، في عدة آيات، وأولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ

بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٤].

رابعاً: أما الأحاديث في **فضل الصحابة** رضوان الله عليهم فكثيرة جداً، ومتوفرة في جميع كتب السنة المشرفة، عن فضائل الصحابة عامة، وفضل كل واحد منهم خاصة، وفضل آل البيت وأمهات المؤمنين على الأخص.

فمن ذلك قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وقوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ».

وقوله: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً، فمن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» رواه الترمذي وأحمد، وقوله: «لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه» وقوله: «أرحم أمتي لأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤهم لكتاب الله أبيٌّ، وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت، وأقضاهم علي، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم (رياض الصالحين ص١٦٦).

خامساً: صنف القرآن الكريم الناس إلى ثلاث فئات: **المهاجرون، والأنصار ثم التابعون**، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وبشكل عام فيحرم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية كالتحذير من الاقتداء بهم في البدعة والفسق ونحو ذلك، وإلا يحرم ذلك لما روت عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الأموات، فإنهم أفضوا إلى ما قدموا» رواه البخاري (رياض الصالحين ص٥٧٢) وحتى يحرم الجلوس على القبر (رياض ص٦٣٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من **سلم المسلمون من لسانه** ويده، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه» متفق عليه (رياض ص ٥٧٣).

◈ النتائج:

١- إن الأموات **أفضوا إلى ما قدموا**، وعلينا السعي لما نقدم نحن من أعمال سنسأل عنها حتماً.

٢- إن الصحابة أولاً والخلفاء ثانياً **ليسوا ملائكة** مفطورين على الخير المحض، بل هم بشر.

٣- إن الصحابة والخلفاء **ليسوا معصومين** كالأنبياء، فقد يقع منهم الخطأ، وهم مسؤولون عنه يوم القيامة، ولا نسأل عنه ولا نحاسب ﴿**تِلۡكَ أُمَّةٞ** قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

٤- إن **أخطاء الصحابة والخلفاء قليلة جداً** بالنسبة لأعمالهم المجيدة

وجهادهم في سبيل الدين والدعوة، وحمل راية الإسلام والدولة الإسلامية في تطبيق الأحكام الشرعية، كما أن أخطاء الصحابة والخلفاء مهما كانت فهي أقل نسبة، وأقل خطراً وضرراً، بمئات المرات مما يصدر من الناس المعاصرين.

٥- لقد حذر الإسلام من **التعرض والشتم والسب للسلف الصالح**، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن من علامات الساعة (أي علامات الفساد والانحراف والضلال) أن يلعن آخر هذه الأمة أولها»، وإن سب الأموات عامة، والصحابة خاصة تثير الفتن، والنعرات، والتعصب، والخلاف، والشقاق.

٦- تقتضي التربية الدينية، والتربية الوطنية، أن **نعتز بأمجاد الأسلاف** الذين كونوا دولة لثلاثة عشر قرناً، وكونوا أعظم حضارة ومدنية، سادت العالم أكثر من ثمانية قرون، بينما نرى الأمم الأخرى تعتز بتاريخها العادي، بل والمشين.

٧- توجب الأخلاق الإسلامية أن **نذكر محاسن الموتى**، ونغض الطرف عن مساوئهم، ولذلك قال الشاعر: **لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس أعين.**

٨- يوجب العقل والمنطق أن **نشغل عقولنا** وطاقاتنا وشبابنا وأجيالنا بما يعود عليها **بالنفع والخير**، والتقدم، والرخاء، والاهتمام بالأعداء الحقيقيين، ومكرهم، وتوجيه الطاقات نحوهم.

٩- كل من يتعرض للصحابة والخلفاء بسوء أو قدح **يتهم في عقيدته ودينه وأخلاقه**، وأهدافه.

١٠- إن الكلام السابق لا يمنع **دراسة التاريخ للاستفادة والعبرة من حسناته**، وتجنب سيئاته وتاريخ الأمة هو مجال فخرها ومجدها، وهو ما تحرص عليه الأمم الناهضة، ويدعو إليه المفكرون والعلماء الحكماء.

١١- لقد حثنا رسول الله ﷺ **للدعاء للأموات عامة**، وهذا أدب المسلمين الذين يدعون للأموات والثناء عليهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: معرفة الأحكام الشرعية[1]

◈ **المقدمـــة:**

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين.

وأشهد أن لا إله إلا الله، تكفل لعباده أن يرسل لهم الرسل وينزل عليهم الكتب بالهدى والبينات والأحكام، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وكلفه بالتبليغ والبيان، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

اللهم صل وسلم على هذا النبي الكريم، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الآيات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

---

(١) خطبة جمعة / مسجد القصاب- دير عطية ١٤٣١/٨/١١هـــ ٢٠١٠/٧/٢٣م.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد:

أيها الإخوة المؤمنون:

- ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال في بعض العصاة «أما إنهم يعذبون في كبير، وما هو بكبير» أي يعذبون في قبورهم بسبب كبير عند الله تعالى، ولكنه ليس بكبير في نظرهم، أو ليس كبير في الأداء والفعل، بل سهل ويسير

- هذا المبدأ متوفر في كثير من الحالات والأعمال التي تصدر عن الناس، فهو كبير عند الله، وإثمه كبير، ولكن فعله سهل ويسير، أو يظنه الناس يسيراً، وهو أمر خطير.

- ومن ذلك موضوع خطبتنا، وهو **معرفة حكم الله تعالى،** أو ما يعرف عند العلماء أنه «الفتوى في الدين» وهي الإخبار عن الحكم الشرعي عند السؤال عنه أو هي: «إجابة السائل عن الحكم الشرعي لتصرف ما».

والمراد به أمران، الأول: **بيان حكم الله تعالى في الحلال** ليقوم به المسلم، ويؤديه، ويطيع الله فيه، ويكسب فيه الأجر والثواب، ويسير على منهج الله ودينه، ويسعد في الدنيا والآخرة.

والثاني: **بيان حكم الله تعالى في الحرام** ليتجنبه المسلم، ويبتعد عنه، ويحذر منه، لئلا يقع في الإثم والذنب والمعصية، ولئلا يتعرض لسخط الله في الدنيا، ووقوع الشر والضرر والفساد عليه، ولئلا يصيبه غضب الله تعالى في الآخرة، والعياذ بالله.

وبيان الحكم الشرعي له مكانة رفيعة في الشرع، لأنه أهم وسيلة لبيان حكم الله تعالى في كل أمور الحياة، ولجميع الناس، فهو أمانة جسيمة، ومسؤولية خطيرة في الدنيا والآخرة، ليكون الناس على الصراط السوي الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

◈ أهمية ذلك وعمومه اليوم:

وهذا الأمر **مهم جداً**، ولأجله أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الحرام إلى الحلال، ومن الضلال إلى الهدى، ومن المعصية إلى الرضا.

وهذا الأمر **عام لجميع الناس**، وعلى جميع المستويات، ويشمل الخواص والمتعلمين والمثقفين إلى سائر عامة الناس.

وهذا الأمر **شامل لجميع شؤون الحياة**، الخاصة والعامة، الأسرية والاجتماعية، الإدارية والموضوعية، فالمسلم يسأل عن كل ما يتعلق به في الحياة منذ البلوغ، وحتى الموت، وما بعد الموت، وفي العبادات كلها، وفي المعاملات المالية، والأحوال الشخصية، والعلاقة بين الأقارب والأزواج والأهل والجيران والشركاء، وكل ما يتعلق بالحياة.

◈ وسيلة المعرفة:

إن الوسيلة سهلة جداً في ديننا، فليس لدينا أسرار دينية، ولا رجال كهنوت، وإنما لدينا علماء ومتخصصون في الشرع والدين، وهم الذين درسوا الأحكام الشرعية وتخصصوا بها، كما يتخصص أهل كل علم وفن في الطب والهندسة والاقتصاد والمحاسبة والصيدلة، واللغات، وسائر العلوم والفنون،

ليصبحوا مسؤولين أمام الله والمجتمع والأمة عن الجانب الذي اختصوا به.

وعلماء الشريعة مسؤولون عن بيان الأحكام للناس، تجاه واجبهم واختصاصهم، وتجاه دينهم وأمتهم ومجتمعهم، وهم كثر والحمد لله من كليات الشريعة والجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية، ودروس المساجد الخاصة تؤهل هؤلاء ليؤدوا الرسالة التي حملوها، ويبلغوا الدين الذي صار في أعناقهم، ويسيروا على خطا النبي ﷺ في التبليغ والبيان، لأن العلماء ورثة الأنبياء، بل حذرهم رسول الله ﷺ من التقصير أو التباطؤ، فقال عليه الصلاة والسلام: «من سئل عن حكم فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة» بالإضافة إلى الأحاديث والآيات التي تأمر بالتعليم وحمل الرسالة وأداء الأمانة، وخاصة قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولكن هذا نصف الطريق والمشوار، والأهم من ذلك هو الشطر الثاني، وهو **السؤال من كل مسلم** للعلماء عن حكم الله تعالى، وهذا واجب ديني، بل هو فرض رباني، وأمر مقرر عقلاً وواقعاً، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أي ومسلمة.

◈ أركان الفتوى:

وهنا تكتمل أركان المسألة من توفر **العلم أولاً**، ووجود **العلماء ثانياً**، وطرح **السؤال ثالثاً**، و**بيان الحكم الشرعي رابعاً**.

والسؤال مفتاح العلم، وهو واجب على كل من ليس بفقيه، أي كل شخص لا يعرف حكماً شرعياً في مسألة أو قضية فأكثر، ويسأل غيره عن

حكمها، وحتى العلماء يقومون بالسؤال لمن هم أعلم منهم، لأنه فوق كل ذي علم عليم، وقل ربي زدني علماً، وما حوى العلم جميعاً أحد لا ولو حصَّله ألف سنة، ومن هنا تأتي هيئة كبار العلماء، والإفتاء الجماعي، ودار الفتوى.

◈ المحاذير والأخطار في بيان الأحكام:

١- أهم هذه المحاذير والأخطار أن **يسأل غير العلماء، وغير المختصين في الدين**، فيفتوا بغير علم فيضلوا ويضُلوا، ولذلك حذر الرسول ﷺ من ذلك أشد تحذير فقال: «أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار» لأنه إخبار باطل، مع نسبته إلى الله تعالى، فهو قول على الله تعالى بغير علم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي لا يوجد أعظم إثماً ومعصية من هذا، وقوله تعالى باستنكار ﴿**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٨٠].

٢- **أن يتجرأ بعض الناس**، وهذا كثير، وابتلاء كبير، وشائع في الحياة، أن يبادر بعض الناس في أحاديثهم، ومناقشتهم، وحوارهم، بأن يقول في بيان الأحكام الشرعية «رأيي كذا» «أقول بكذا» «أعتقد كذا» ويزيد الطين بلة أن يقوم هؤلاء بأعمال على كيفهم ومزاجهم ويدعون أن هذا هو الشرع، وهذا هو الدين؟ فيؤولون النصوص والأحاديث حسب أهوائهم.

أيها الإخوة المؤمنون: إن الدين لا يمنع الناس عن إبداء آرائهم، والتحدث بما يشاؤون، ولكن يمنع أن يفتري الإنسان على الله الكذب، أو يدعي أن هذا حكم الله، أو أن يكون الدين والأحكام تبعاً لهواه، «فلا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وإذا كان لا يعرف الحكم الشرعي، وهذا كثير، فعليه أن يسند ذلك

لأهل الاختصاص، وأن يقف عند حده، شأنه في ذلك شأن جميع العلوم، بالسؤال عن المختصين لأخذ العلم منهم، بل إن هذا شأن العلماء أيضاً فإذا سُئلوا عن حكم لا يعرفونه، قالوا: لا نعلم، لا ندري، وراجعوا المصادر والأعلم ليجيبوا فيما بعد.

٣- **المحذور الثالث**: وهو خاص بالعلماء، بأن يبينوا حكم الله تعالى **دون مواربة،** ودون تزلف لسلطان أو حاكم، بأن يفتوا حسب أهواء الحكام، أو الأغنياء، أو حسب الرغبة والهوى، فهذا هو الضلال بعينه، وذلك لتسويغ الأعمال لأصحاب المال والسلطان للتقرب إليهم والزلفى، فيبيعون دينهم مقابل دنيا غيرهم، وهو ما يثير الشك والريبة بالعلماء، بل وسقوط هيبتهم ومكانتهم، ولذلك اشترط الفقهاء في المفتي العدالة ليكون ملتزماً التزاماً كاملاً بالشرع والدين، وبيان الحكم، لا يخشى في الله لومة لائم، أو يسكت على الأقل.

٤- **المحذور الرابع**: الذي يجب أن يتنبه له العلماء والمفتون هو **عدم التشدد في الفتوى وبيان الأحكام،** والتيسير ما أمكن -من خلال الشرع حتماً- حتى لا ينفر الناس من الدين، ولئلا يحملهم مالا يطيقون، وخاصة في الجائز والحلال والمشروع، ثم التنبيه إلى الأفضل والأورع والأتقى، أو التفريق بين الحرام الممنوع قطعاً وبين المكروه الذي يحسن تجنبه، ولكن لا يعاقب فاعله.

٦- **المحظور الخامس**: وهو ما يقع من كثير من الناس، وهو السؤال عن الحكم الشرعي، فإن كان الجواب **لغير مصلحته،** أو يخالف هواه، أو يجد فيه تكليفاً شرعياً وواجباً دينياً، فيسعى **للتهرب منه،** وذلك بالبحث عن عالم آخر، أو فقيه، لعله يفتيه بأسهل، أو بما يوافق مصلحته.

٧- **المحظور السادس: عدم الصدق والأمانة** من المستفتي في عرض المسألة أو الواقعة، لأن المفتي يخبر عن الحكم الشرعي بحسب ما سمع، وعلى الصورة التي عرضت عليه، ولذلك تكون المسؤولية هنا أمام الله تعالى على السائل والمستفتي، كالإخبار عن كلمة في يمين، أو في طلاق، أو عن حالة، أو عن واقعة، أو عن عقد.

ولذلك قال علماؤنا: «السؤال معاد في الجواب» وقالوا «الفتوى على قدر المستفتي» فإن غير وبدل كان كاذباً أولاً، لأنه يخبر على غير الواقعة، وبخلاف الحقيقة، ويكون مسؤولاً عن الفتوى والحكم ثانياً، ولا ينجيه من المسؤولية أن المفتي أعطاه الحكم، لأن المفتي يبين الحكم حسب الصورة التي عرضت عليه، وبحسب الظاهر، ولا يعلم الغيب، والله يتولى السرائر، ولذلك جاءِ في الحديث الشريف «استفت نفسك، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

الفصل الثامن عشر

المحاضرات[1]

أولاً: المستجدات المعاصرة في الوقف[2]

◈ التقديم للبحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد: فإن هذا اللقاء طيب وميمون؛ لأنه يجمع الجانب العلمي والفقهي في الجامعة والتدريس والتأليف والتنظير عن الوقف، مع الجانب العملي في التطبيق والتنفيذ لأحكام الوقف، كما يتعاون المهندس المدني

(١) للمزيد من ذلك ينظر كتابنا «محاضرات ثقافية وفقهية وفكرية»، وخاصة:

- محاضرات الهند في كتابنا «محاضرات ثقافية» ص٥٣٨.
- محاضرات في جامعات أندونيسيا في كتابنا «محاضرات ثقافية» ص٢٥٠.
- محاضرات في أستراليا في كتابنا «محاضرات ثقافية» ص٥٥١.
- الأصالة والمعاصرة في العلوم الشرعية جامعة مفيد «محاضرات ثقافية» ص٤٠٧.
- أضواء على حقوق الإنسان، محاضرات ثقافية، ص٤٥٣.
- القرآن في واقع الأمة، محاضرات ثقافية، ص٢٢٧.
- مكاسب المرأة في القانون الإماراتي، محاضرات ثقافية، ص٥٢٣.
- القبض في العقود وصوره الحديثة، محاضرات ثقافية، ص١٣٥.
- نظرة في تاريخ الفقه الإسلامي والعصر الحاضر، محاضرات ثقافية، ص٣٩٣.

(٢) محاضرة في الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة- يوم الخميس الواقع في ١٣/٧/١٤٣٤هـ، الموافق ٢٣/٥/٢٠١٣م.

والمعماري مع مهندس التنفيذ والإشراف على البناء، ويبقى الجانب العملي هو الأهم في الحياة، كالمدرس الذي تتوقف عليه العملية التعليمية، ونجاح أو فشل النظريات التربوية، وتنفيذ المخططات والأساليب والأسس التي يضعها علماء التربية وفلاسفتهم، وما ترسمه وزارة التربية، أو ترك ذلك في مهب الرياح، وخلف الأبواب.

ولذلك فإن الموظفين في الأمانة العامة للأوقاف يقع على عاتقهم العبء الأكبر، وهم يتحملون المسؤولية العظمى في نجاح الأوقاف وازدهارها أو غير ذلك.

وإن الوقف من أعمال الخير والبر، بل هو من أوسع أبواب الخير؛ لأنه يمكن المساهمة فيه من جميع الناس، أما الزكاة فلا تجب إلا على الأغنياء، كما أن الصدقة العامة فإنها مؤقتة، أما الوقف فإنه دائم ومستمر، وإننا نستفيد من أوقاف سلفنا الصالح منذ مئات السنين، ونظراً لأهمية الوقف فقد بادر له المسلمون طوال التاريخ، وثبت أن جميع الصحابة رضوان الله عليهم ساهموا فيه، كما أن أبواب الوقف واسعة وكثيرة في الحياة.

وإن الوقف في التاريخ الإسلامي قام مقام الدولة عندما تفرغت للجهاد والسياسة الخارجية، وحصرت اهتمامها في الشؤون السياسية والإدارية، وتخلت تقريباً عن واجباتها الاجتماعية والاقتصادية، فسد الوقف ذلك، وغطى هذه المجالات، ثم شمل الجوانب العلمية والتعليمية والصحية والتكافل الاجتماعي وفك الأسرى وعتق العبيد، وحتى الخدم والرفق بالحيوان، وغير ذلك مما هو مسجل في الدواوين، ومدون في الكتب.

وإن أحكام الوقف العامة معروفة غالباً، وكتبتُ فيه مذكرة مختصرة،

وستطبعها الأمانة، وستوزع عليكم، وعلى جماهير الناس، وتبقى الأحكام التفصيلية والفرعية ليرجع فيها إلى العلماء والفقهاء المختصين عند الحاجة.

ولذلك اخترت موضوع «المستجدات المعاصرة في الوقف» للاطلاع والتعرف عليها للاستفادة مما فيه خير ومنفعة، ولتجنب واستدراك ما فيه من خلل أو نقص أو اضطراب أو فساد أو شائبة، لأن التجربة خير برهان، والخطأ أبو الصواب، والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها، وسنة الحياة التطور، مع وجوب المعاصرة والاستفادة من تقدم العصر والتقنيات الحديثة.

وقد استعرضت أهم المستجدات المعاصرة في الوقف، وقسمتها إلى قسمين: المستجدات الإيجابية، والمستجدات السلبية.

أولاً: المستجدات الإيجابية في الوقف:

وهي كثيرة، ونذكر أهمها:

١- **نظارة الوقف:** كان الوقف في العصور السابقة محصوراً بين الواقف والناظر والقاضي، فالواقف يقوم بالوقف شفاهاً أو كتابة، وقد يعين نفسه ناظراً طوال حياته، وقد يختار ناظراً لوقفه، فإن لم يفعل، وهو قليل، قام القاضي باختيار ناظر للوقف، واقتضت المصلحة العامة والسياسة الشرعية أن يقوم القضاء بالإشراف على الأوقاف والنظار لتأمين مصالح الوقف والموقوف عليهم، لما يتمتع به القضاء من النزاهة والثقة الكاملة من الدولة والشعب.

وفي العصر الحاضر رأى العلماء والحكام إنشاء نظارة خاصة ومستقلة للأوقاف، فوجدت وزارة الأوقاف، أو الأمانة العامة للأوقاف، أو مؤسسة الأوقاف، أو مديرية الأوقاف، مع إدارات متعددة، وعدد كبير من الموظفين،

حسب النظام العام للدولة.

ونظراً لأهمية هذا الأمر الجديد في الوقف فإني أرى ضرورة الوقوف عنده قليلاً، لارتباط موظفي الأوقاف بالدولة من جهة، ولما يقع على عاتقهم من تطبيق أحكام الوقف من جهة أخرى، ولما يتحملون من مسؤولية أمام الله والمجتمع والأمة.

فقد حدد دستور دولة الاتحاد في الإمارات العربية المتحدة في المادة ٣٥، وقانون الموارد البشرية الاتحادي في الفصل ١٠، واجبات الموظف عامة، وقسمها إلى واجبات إيجابية، وهي: أداء العمل المناط به، والقيام بالخدمات المكلف بها، وتخصيص أوقات الدوام الرسمي للعمل بدقة وانضباط، وإطاعة الأوامر وتوجيهات الرؤساء، والالتزام بآداب اللياقة في التعامل حسب المعايير الأخلاقية في سلوكه ومع زملائه، والحرص على أموال الدولة وصيانتها حسبما يوجبه قانون العقوبات في المادتين ٢٢٤، ٢٢٥، ثم الواجبات السلبية بعدم استغلال نفوذ الوظيفة، وعدم إفشاء الأسرار تحت طائلة المسؤولية الجنائية والمدنية والتأديبية، وعدم المساس بشرف الوظيفة وكراماتها، وعدم الجمع مع أعمال معينة[١].

والموظف في الأمانة العامة للأوقاف مكلف بهذه الواجبات، ويضاف إليها أنه موظف دين ويجب عليه أمور أخرى أهمها: الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في جميع أعماله وتصرفاته، لقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٨]، وخطاب الرسول خطاب لأمته، ومنها: التفرغ للعمل وإتقانه، لقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ**

---

(١) امتناع الموظف العام عن القيام بواجبات وظيفته، نشبة المنصوري ص٦٣.

﴿هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وقوله ﷺ: «إنّ الله يُحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(١)، ومنها: طاعة الرؤساء، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، ولقوله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية..»(٢)، ولقوله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصا أميري فقد عصاني»(٣)، ومنها: الأمانة والولاء والإخلاص لله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، على أن تكون الطاعة في المعروف، لقوله ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»(٤)، وإلا يأتي العزل والعقوبة والتأديب، ومنها: التفاني والجد في العمل، لقوله ﷺ: «ما من راع يسترعيه الله رعية، يموت وهو غاش لها، إلا حرّم الله عليه رائحة الجنة»(٥)، ومنها المحافظة على كرامة الوظيفة، وتجنب مواطن الشبهات، لقوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشبهات لا يعلمها كثير من

---

(١) هذا الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان ٣٣٤/٤ ح٥٣١٢، وأبو يعلى في المسجد ٣٤٩/٧ ح٤٣٨٦، والطبراني في الأوسط ٢٧٥/١ ح٨٩٧، وقال الألباني: حسن (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٣٨٣/١ ح١٨٨٠).

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ٢٦١٢/٦ ح٦٧٢٥.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ٢٦١١/٦ ح٦٧١٨.

(٤) هذا الحديث رواه البخاري ٢٦١٢/٦ ح ٦٧٢٦.

(٥) هذا الحديث رواه مسلم ١٢٥/١ ح١٤٢.

الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]، ومنها: كتمان أسرار العمل؛ لأن السر أمانة، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وغير ذلك كثير[2]، مما يؤكد أن الموظف في الأوقاف يتحمل مسؤولية كبيرة أمام الله والأمة، وتتوقف عليه سمعة الوقف ونجاحه، وأنه تحت الرقابة الإلهية في الدنيا والآخرة.

فالموظف في الأوقاف صاحب رسالة يجب أن يؤديها للناس مثل الإمام والخطيب والشيخ والمفتي والمدرس الشرعي وغيرهم، وهو في عمل خيري، ويسعى للدعوة إلى الخير، والمساهمة في نجاحه وتحقيقه والتوسع فيه، وثبت في الحديث الشريف «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»[3]، وإن هذا الموظف في عنقه أمانة كبيرة في النظارة على الأوقاف والإشراف عليها وإدارتها وإعمارها واستثمار أموالها والحفاظ على أملاكها، فقام مقام الحاكم والقاضي الذي كانت الأمة تمنحه الثقة الكاملة في رعاية جميع شؤون الأوقاف، فإن قام الموظف بذلك كتب الله له الأجر في الدنيا والآخرة، وسجل في صحيفة أعماله، مع الأجرة والراتب الذي يستحقه كباقي الموظفين، مع ما يمتاز به عمله من آثار اجتماعية ومالية وصحية وعلمية وإنسانية وغير ذلك من وجوه الخير والبر التي لا حصر لها في الدّين والحياة.

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٢٨/١ ح٥٢.

(٢) امتناع الموظف عن القيام بواجباته، مرجع سابق ص٥٣.

(٣) هذا الحديث رواه مسلم ٣٨/١٣ ح ١٨٩٣، ورواه أبو داود والترمذي وأحمد.

٢- **الأموال الجديدة في الوقف**: هذه الأموال كثيرة، وأهمها اليوم: وقف النقود الذي قال به بعض الفقهاء، وكان تطبيقه قليلاً ونادراً في الحياة، واليوم كثرت النقود في أيدي الناس، وفتح أمامهم وقف النقود من درهم إلى الملايين، وفتح هذا الباب أمام الفقراء ومتوسطي الدخل والموظفين، وحتى الأطفال والطلبة، وحقق هذا الباب نتائج طيبة ومباركة، وجمع فيه الملايين التي استفادت منها الأمانة العامة للأوقاف، ووجهتها إلى الاستثمار، وإلى جهات الخير الكثيرة والتي أعلنتها مسبقاً، وطبعت النشرات لها، ووزعتها على نطاق واسع، كبناء المساجد باسم «مفحص القطاة» ومثل تحفيظ القرآن، ومساعدة المرضى، وإعانة الفقراء، وذوي الاحتياجات الخاصة، وغير ذلك.

ومنها: وقف الأسهم والسندات الحكومية، وهي تشكل اليوم معظم الثروات، فتم فتح المجال أمام أصحابها لوقفها في سبيل الله تعالى، وفي أوجه الخير الواسعة، وإن التطبيق العملي خير شاهد على ذلك، ونشرت مجلة «أوقافنا» القطرية، العدد ١٤، جمادى الآخر ١٤٣٤هـ ـ مايو ٢٠١٣م، أمثلة مذهلة من ذلك، ففي ص٢٤ منها قال رئيس قسم الاستثمار بالإدارة العامة للأوقاف: إن مجمل قيمة الأسهم الموقوفة تقارب المليار ريال»، والباب مفتوح أمام الواقفين للاستفادة من هذا الخير العميم، وهو ما درسته وبحثته المجامع الفقهية وأقرته، مما يجاري العصر، ويحقق الأهداف العامة للوقف الإسلامي، ويسود اليوم في كثير من الدول العربية والإسلامية، وخاصة في دول الخليج.

٣- **الندوات والمؤتمرات**: وهذا ما امتاز به هذا العصر في عقد الندوات الفقهية، والمؤتمرات الدولية عن الوقوف، لدراسته، وبحث أحواله، والاجتهاد في المستجدات فيه، وتطوير وسائله، وتقديم المقترحات والقرارات والتوصيات

فيه، من ذلك على سبيل المثال ما تقوم به الأمانة العامة للأوقاف في الكويت من عقد مؤتمرات دورية عن الوقف، وآخرها «منتدى قضايا الوقف الفقهية السادس» الذي عقد في قطر/ الدوحة بتاريخ ١٣-١٤ مايو ٢٠١٣م، ٣-٤ رجب ١٤٣٤هـ، وعرض فيه موضوع جديد لم يتطرق إليه أحد في التاريخ، وهو «الاستفادة من صيغة الوقف في حل المنازعات الدولية»، كما عقدت ندوات ومؤتمرات عن الوقف في كثير من المدن والعواصم العربية والإسلامية، وعرض الموضوع ودرس في المجامع الفقهية الدولية والمحلية، وصدرت فيه قرارات وتوصيات ممتازة ومفيدة، ونرجو الله تعالى أن تأخذ طريقها للتنفيذ والتطبيق في أسرع وقت، ليعم الخير والنفع إن شاء الله تعالى.

٤- البحوث والدراسات والمجلات وتحقيق المخطوطات ونشرها: فقد كتب سلفنا من العلماء بحوثاً وكتباً منفردة ومستقلة عن الأوقاف، كما تناول الفقهاء بيان أحكام الوقف في جميع الكتب الفقهية، ولكن امتاز هذا العصر بكثرة البحوث عن الوقف في الندوات والمؤتمرات، وفي المجلات الشهرية، والفصلية، وقدمت دراسات عديدة في مسابقات دولية عن الوقف، وصدرت مجلات خاصة بالأوقاف، مثل مجلة «أوقاف» في الكويت، ومجلة «أوقافنا» في قطر، كما تم تحقيق عدد من كتب التراث في الوقف، فأصبحت المكتبة الوقفية غنية، والحمد لله.

وتساهم وزارات الأوقاف، ومؤسسات الأوقاف، والأمانات العامة للأوقاف في طباعة الكتب ونشرها، ومنها المؤلفات والمخطوطات المحققة التي يعجز الأفراد عن طباعتها، وتزهد معظم دور النشر عن نشرها، بينما تطبعها الوزارة من أموال الوقف، وتوزعها مجاناً، أو تبيعها بأسعار معتدلة أو رمزية،

وهذا باب واسع من أبواب الخير، وترك آثاراً إيجابية طيبة في المجال العلمي.

٥- رسائل الماجستير والدكتوراه عن الوقف: فقد كتبت عدة رسائل وأطروحات جامعية عن الوقف، وأعلنت الأمانة العامة للوقف بالكويت عن إعطاء منح في الدراسات العليا في موضوعات الوقف، وتكفلت بطباعة الرسائل المكتوبة عن الوقف ونشرها، وذلك تشجيعاً للباحثين والدارسين، مع إعلان الجوائز لأصحابها.

٦- الإدارات المتعددة في وزارة الأوقاف، أو مؤسسة الأوقاف، أو الأمانة العامة للأوقاف، وهي دوائر متخصصة ومتكاملة، لتغطية جميع الأعمال فيها، مثل الدائرة الهندسية، والمالية، والقانونية، وشؤون الموظفين أو الموارد البشرية، والمحاسبة، والمراقبة أو النظار، والإعلام، ويجب عليهم جميعاً أداء الواجبات المنوطة بالموظف العام، بالإضافة لواجبات الموظف الديني التي سبق بيانها، وخاصة معرفة أحكام الوقف، مع الإخلاص والصدق والأمانة؛ لأن الموظف في الأوقاف يمثل الوقف كاملاً، وهو المرآة للوقف أمام الناس، ليعطي صورة صافية ومضيئة وجذابة عن الوقف، ليشجع الناس إلى وقف أموالهم، أو غير ذلك مما ينفرهم، فيكون مسؤولاً أمام الله والمجتمع والأمة والتاريخ، كما هو حال في بعض البلاد، مما سنذكره في المستجدات السلبية.

٧- انتشار الوقف بكثرة في العالم، وخاصة في أمريكا بأسماء متعددة، وقد اقتبسوه من الإسلام والبلاد الإسلامية، وتوسعوا به حتى صار ظاهرة بارزة، ويتشجع الأثرياء في التنافس فيه، وإن جامعة هارفرد، وهي التي تحتل المرتبة الأولى في العالم، تقوم وتعتمد على الوقف، وهو ما سبق به المسلمون قديماً

في جامعة الأزهر بمصر، وجامعة الزيتونة بتونس، وجامعة القيروان بالمغرب، مع عشرات وآلاف المدارس والمعاهد في سائر أنحاء العالم الإسلامي، ومن ذلك اليوم جامعة محمد الفاتح الوقفية باسطنبول في تركيا.

٨- وقف الكتب، وهذا منهج قديم، وقام به سلفنا من العلماء والحكام والأثرياء وعامة الناس، والجديد في الأمر التوسع في ذلك، كوقف ملايين المصاحف للمساجد وغيرها، ووقف المكتبات الخاصة للجامعات والمعاهد والمراكز العلمية والبحث العلمي والمدارس، ويضاف إلى ذلك النشرات التي تُذكر الناس بالوقف، وترشد إلى أهم أحكامه وغاياته وأهدافه، وتبين الوسائل المعاصرة لتطبيقه والمشاركة فيه.

٩- الاستفادة من التقنيات المعاصرة، فقد دخلت المخترعات الحديثة والتقنيات المعاصرة إلى الأوقاف، واستعان بها الموظفون والعمال كوسائل مساعدة في تنفيذ أهداف الوقف وأعماله، مع تقديم التسهيلات الكثيرة للواقفين والموقوف عليهم، كالحاسوب، والفاكس، والانترنت، والهاتف المحمول لإرسال الرسائل النصية، واستقبال التبرعات بها، وقضاء كثير من الحاجات بالهاتف، وفتح الحسابات بالمصارف الإسلامية لإيداع الأموال النقدية، واستقبال الأوقاف النقدية بالتحويل مباشرة لها دون عناء أو تعب، حتى من خارج الدولة، بالإضافة إلى السيارات وغيرها.

١٠- استثمار الوقف في المصارف الإسلامية، والشركات الإسلامية، وفي مجال البناء للسكن، والمحلات التجارية، ومراكز التسوق، والبورصة الإسلامية، وفي كل ما يبيحه الشرع، وقرره الفقهاء والعلماء المختصون؛ لأن الهدف واضح، ومتصل بأصل الوقف في حفظ الأصل،

لذلك يجب إعماره وتجديده، كما يجب استثماره، لزيادة الريع والغلة والدخل، وتعميم النفع، وقد صنفت بحوث ودراسات وكتب ورسائل معاصرة في استثمار الوقف، منها كتاب إدارة واستثمار الوقف للدكتور محمد محمود الجمّال الذي طبعته ونشرته الإدارة العامة للأوقاف بدولة قطر، ١٤٣٣هـ/٢٠١٣م، وغيره كثير.

١١- من أحدث مستجدات الوقف ما قُدم في منتدى قضايا الوقف الفقهية السادس الذي أشرنا له سابقاً، عن الاستعانة بالوقف في حل المنازعات الدولية، وقدمت فيه ستة بحوث علمية، واتخذت فيه بعض التوصيات.

١٢- شيوع وانتشار وقف النساء: وهذا أمر قديم عن مشاركة المرأة المسلمة بكل فخر واعتزاز، كوقف خاتون وغيرها، وكانت جامعة القيروان في المغرب وقفاً من امرأة في تونس، ولكن الجديد كثرة وقف النساء المعاصرات وشيوعه، حتى أصبحت ظاهرة في بعض الدول كالكويت وقطر والإمارات، وفاق وقف النساء على الرجال، ففي لقاء مع رئيس قسم شؤون الواقفين بقطر صرح بأن النساء يتقدمن على الرجال، وبلغ عددهن ١٤٥ واقفة، مقابل ١٢٠ واقفاً (مجلة: أوقافنا، العدد ١٤ ص٣٠).

ثانياً: المستجدات السلبية في الوقف في العصر الحاضر:

إن هذه المستجدات السلبية في الوقف كثيرة، وبعضها تم توارثه من الماضي ولا زال حتى العصر الحاضر، ولم يتم تداركه، وكثير منها موجود في بعض البلاد العربية والإسلامية، بينما فقد من بلاد أخرى أو تم إصلاحه وتداركه وتجنبه، والحمد لله، فأصبح الوقف فيها مفخرة العصر، وصار صورة مشرقة إما في بعض جوانبه، أو في أكثرها، مما يبشر بمستقبل زاهر إن شاء الله تعالى.

ونعرض هنا أهم المستجدات السلبية باختصار، للتنبيه عليها، والتحذير منها، وللعمل على تجنبها، وإصلاحها، أو للعمل على تقليلها، ووضع البديل لها، وهي:

١- ضعف مشاركة الوقف اليوم في الجانب العلمي، وقلة الإنفاق الشامل على طلبة العلم الشرعي، والاقتصار غالباً على شؤون المساجد والأعمال الخيرية للفقراء والمساكين واليتامى، بينما يشكو الطلبة مرارة العيش، وسوء الأوضاع المالية.

٢- كان الوقف قديماً متكفلاً بشكل كامل لتأمين حاجات علماء الشريعة الذين كانوا يستغنون به عن عطايا الحكام ورواتبهم، والتبعية لهم، وكانت الأوقاف تستقبل العلماء المسافرين والوافدين على أية مدينة أو عاصمة، وكأنها فنادق مجهزة لإقامتهم، ولا تشغلهم أمور الحياة عن انصرافهم الكامل للعلم والتعلم والتعليم، وكان العالم كالغزالي وغيره يرحل من المشرق إلى المغرب، فيجد الراحة والكفاية حيثما حل، فأصبح هذا الأمر في خبر كان، وأصبح العلماء اليوم تحت رحمة الحكام، مع تهديدهم بالراتب والوظيفة، والضغط عليهم في أمور كثيرة، مما يندى لها الجبين.

٣- انحسار أعمال الأوقاف اليوم على جوانب محصورة، كما سبق، وتقصيرها أو غيابها عن أعمال كثيرة كانت مشمولة تحت ظلال الوقف.

٤- قلة المشاركة في إنشاء المدارس الدينية، والمعاهد الشرعية، والجامعات الإسلامية، وكانت في السابق تعتمد بشكل شبه كامل على الوقف الخيري، وهو ما جاء مدوناً بمئات المدارس بدمشق في كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي، مع وجود مثلها وأكثر منها في القاهرة،

وبغداد، والقدس، ومكة، وفي أصفهان، ونيساور، وغيرها من حواضر العالم الإسلامي ومدنه.

٥- التخلف الإداري والاقتصادي في مؤسسات الأوقاف في بعض البلاد، إذا قورنت بسائر وزارات الدولة ومؤسساتها، حتى في المرتبات، وخاصة الأئمة والخطباء وموظفي المساجد، وكذلك في أعمال الإدارة اليومية، واستقبال المراجعين، والنشاط، والشفافية، والإنجازات، ويصل الأمر في الموظف إلى الاستحياء به من الأوقاف، مع انتشار الفساد المالي في الأوقاف أكثر من غيرها من الوزارات، ويقدم الوزراء الهبات والعطايا من أراضي الوقف تزلفاً للمسؤولين في الأمن، وأجهزة الدولة، والمعارف، والمقربين، مع التقصير في حصر أملاك الأوقاف، وتدوينها في السجلات، وغير ذلك.

٦- ضعف الثقة بالوقف والأوقاف، بل فقدانه في العصر الحاضر في بعض البلاد، للأسباب السابقة من جهة، ونتيجة للهجوم الشرس على الأوقاف، والغزو الفكري من الأعداء منذ مئة سنة، وأثناء الاحتلال والاستعمار الأجنبي، مع تشويه سمعة الوقف، نتيجة للحقد الدفين عليه وما قدّمه في التاريخ الإسلامي من صفحات مشرقة وازدهار، مع حرصهم على اقتباسه والعمل به، لكنه يزدهر في بعض البلاد العربية والإسلامية بصورة ممتازة، كما سبق.

٧- عدم الاستفادة من تجارب الغرب في الوقف، مثل إنشاء الجامعات، وإنشاء أوقاف مركز البحث العلمي، والأنكى من ذلك عدم الاستفادة من تجارب البلاد الإسلامية المعاصرة في الوقف التي وصلت إلى القمة في بعض البلاد مثل ماليزيا، وتركيا، والكويت، وقطر، والأردن، والإمارات إلى حد كبير.

٨- عدم وجود مختصين من الفقهاء وخريجي الشريعة أحياناً في الأمانة العامة للأوقاف، والمؤسسة العامة للأوقاف، وفي الدوائر الإدارية، إلا ما يتعلق بالأئمة والخطباء ومدرسي المساجد، وإن وجدت لجنة شرعية، أو هيئة لفتوى، فإنها تكون شكلية، أو مشلولة، أو فاقدة للصلاحيات.

◈ الخاتمة: تقديم التوصيات:

١- وجوب التعريف الكامل بالوقف، والتذكير به باستمرار.

٢- وجوب معرفة موظف الأوقاف بأحكام الوقف لتطبيقها أولاً، ولأنه المسؤول المباشر أمام المراجعين يومياً.

٣- وجوب دعوة الأغنياء والأثرياء وكبار التجار والشيوخ وأهل الخير للمساهمة بالوقف، ليكونوا قدوة لغيرهم.

٤- إصدار نشرات دورية عن الوقف والواقفين، وإعلان دعايات سريعة، وشعارات دائمة عن الوقف، مع الملصقات الورقية والضوئية، والعمل على توزيعها بتوسع.

٥- الاستعانة والاستفادة من جميع وسائل الإعلام المختلفة والمعاصرة للدعاية والتعريف بالوقف، كالصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية والشهرية، والإذاعة، والتلفاز، مع ضرورة تخصيص خطبة جمعة لذلك، وتخصيص حلقة أو برنامج للوقف في الإذاعة والتلفاز، لتعلق الناس بهما، مع استخدام الرسائل النصية وغيرها لذلك.

٦- عقد لقاءات دورية مع جميع الجهات التي لها صلة بأهداف الأوقاف، كالشؤون الاجتماعية، وكلية الشريعة، وكلية القانون، وكلية إدارة الأعمال والاقتصاد، والمحاكم والقضاة، والجمعيات الخيرية، والمصارف الإسلامية، وغيرها.

٧- إقامة حفلات تعارف مع التجار والأغنياء، والقيام بزيارتهم، وحثهم على المشاركة بالوقف ومساندته.

٨- الاهتمام بشكل واسع بالمجال الأنثوي، لتثمين دور المرأة في ذلك، ولما تمتاز به المرأة المسلمة من عاطفة دينية، وزهدها بالمال، وعدم تكليفها بمتطلبات النفقة، وغيرها.

٩- إصدار تعريف بكل وقف قديم أو معاصر لإبرازه والإشادة به وبواقفه.

١٠- زيادة التعاون بين مؤسسات الأوقاف، والوزارات، والأمانات العامة للأوقاف، بالزيارات وتبادل الخبرات والنشرات، علماً بوجد الاتحاد العالمي للأوقاف الذي يساعد في هذا المجال.

١١- ضرورة عمل دورات دائمة لموظفي الأوقاف، إما داخلية، وإما بالتعاون مع المختصين بالشريعة، أو القانون، أو إدارة الأعمال والمحاسبة، أو القضاة والمحامين، أو الشؤون الاجتماعية، أو غيرهم، وتقديم بحوث ودراسات من الموظفين أنفسهم، ومنحهم ترقية وشهادة يستفيدون منها في الحاضر والمستقبل.

١٢- ضرورة العمل على حصر الأوقاف القديمة والمعاصرة في سجلات ودواوين لمتابعتها، والعمل بها حسب قصد الواقف، أو في أعمال الخير والبر.

ونسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كما ندعو الله أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: الأصالة والمعاصرة في العلوم الشرعية

الحمد لله رب العالمين الذي علم بالقلم، وكان أولَ آية نزلت: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥].

والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، ومعلم الناس الخير، والقائل: «إنما بعثت معلماً» فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التأخر إلى التقدم، ومن الأمية إلى المدنية والحضارة الإنسانية العالمية.

وبعد:

فإني أبدأ الكلام عن مقدمات عن موقف الإسلام من العلم، وحكم طلب العلم، ثم أبيِّن أنواع العلوم في نظر الإسلام والشرع، والارتباط بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية، لأن المطلوب هو المعاصرة في العلوم الشرعية اليوم، وصلتها بين القديم والحديث، وواقعها في العصر الحاضر، وما طرأ عليها من المعاصرة، وما يجب حيالها اليوم على المسؤولين وعلماء الأمة[١].

أولاً: موقف الإسلام من العلم، وحكم طلب العلم:

دعا الإسلام إلى العلم بأوسع أبوابه، وكافة أشكاله، وبيَّن فضل العلم والعلماء، ورفع مكانتهم، فقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة على أعضاء الهيئة التدريسية بجامعة المفيد، قم، إيران، عصر يوم الأحد الواقع في ١٤٢٥/٣/١٢هـ الموافق ٢٠٠٤/٥/٢م بقاعة الاجتماعات الكبرى للجامعة، وذلك أثناء حضوري للتكريم والاحتفال بالحصول على أفضل كتاب في «حقوق الإنسان في الإسلام».

يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وبين تعالى أن العلم بحر واسع، فحث على طلبه، فقال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

ودعا القرآن الكريم إلى المزيد من العلم باستمرار بالكسب والعمل والدعاء، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وورد في الأثر: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

وقال الإمام علي ﷺ: «لا خير في يوم طلعت عليه الشمس لم أزدد فيه علماً».

وقال الشاعر العربي:

ما حوى العلمَ جميعاً أحدُ ... لا ولو حصّله ألف سنة

وبيَّن رسول الله ﷺ فضل طالب العلم، فقال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وإن جاءه الموت فهو شهيد في سبيل الله».

وقال عليه الصلاة والسلام: «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة».

وإن الاشتغال بالعلم، والدعوة إلى الحق والدِّين، وتعليم الناس أحكام الشرع، هو نوع من الجهاد في سبيل الله، بل هو أول مراحل الجهاد، وأفضل أنواع الجهاد، وهذا ما ذكره الجصاص الحنفي رحمه الله تعالى في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير آية الجهاد في سورة البقرة، وأكده ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد».

وحكم طلب العلم في الإسلام نوعان:

الأول: فرض عين على كل مسلم، وذلك في كل ما يتعلق بالمسلم مباشرةً وقصداً، كمعرفة الإيمان بالله تعالى جملة، وكون الشهادتين ركن الإيمان، وأساسه ومفتاحه، والصلاة الواجبة على كل مسلم، وكذا أحكام الصيام وزكاة الفطر، وأحكام زكاة المال على الغني، وأحكام الحج على المستطيع إليه، وأحكام المعاملات المالية على التاجر، وأحكام الجهاد على المجاهد، وأحكام المزارعة والمساقاة على المزارع وصاحب الزرع، وأحكام المضاربة والشركة على المضارب...، وهكذا، فإن لم يتعلم المسلم هذا النوع من العلم كان آثماً ومقصراً ومسؤولاً أمام الله تعالى.

النوع الثاني: فرض كفاية على المسلمين عامة، وهو كل ما يتعلق بالأمة، والمجتمع، والدولة، والحياة، فهو مطلوب من مجموع الناس، لتأمين وجوده وكفايته، وتحقق الاستفادة منه، فإن قام به بعض الناس كفى، وسقط الإثم عن الباقين، لتحقق مقصد الشارع الحكيم في وجود هذا النوع من العلم، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع.

وذلك كالتخصص في جميع العلوم النافعة، كالتخصص في دراسة الشريعة، وسائر العلوم الإنسانية، والتخصص في الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والذرة وعلم الحاسوب، وسائر العلوم الكونية التي تحتاجها البشرية.

ثانياً: أنواع العلوم في نظر الإسلام:

العلم: هو المعرفة، وكشف الحقيقة، وبيان الحق، والأمر الثابت، والشيء الواقع المطابق للواقع.

والعلم أنواع كثيرة لا حصر لها، ولا يمكن جمعها، ولا الإحاطة بها من الإنسان، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقال عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «العلم مع المحبرة إلى المقبرة».

وكل علم نافع للإنسان، وكاشف للحقيقة، وكل معرفة صالحة، فهو مطلوب شرعاً في تعلمه وتحصيله، ثم العمل به، ثم تعليمه للآخرين.

ولكن تنقسم العلوم في نظر الشرع إلى قسمين:

القسم الأول: العلوم الشرعية: وهي التي تتوقف على الشرع، أو تستمد أصولها من الشرع، أو تعتمد في معرفتها على مصادر شرعية دينية، ويرد لكل منها دليل شرعي فأكثر.

وهذه العلوم هي:

١- علم العقيدة والتوحيد والإيمان، ويسمى أيضاً علم الكلام، ويحلو لبعضهم أن يسميه علم ما وراء الطبيعة، أو العلوم الغيبية، أو الميتافيزيك.

٢- علم التفسير وعلوم القرآن.

٣- علم السنة وعلوم الحديث.

٤- علم الفقه بجميع أنواعه من العبادات، والمعاملات المالية، وأحكام الأسرة، والجهاد، والقضاء.

٥- علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة.

٦- علم السيرة النبوية التي تعتبر جزءاً من الحديث، وجزءاً من التاريخ، ولكن لها خصوصياتها.

٧- علم الخلاف أو الفقه المقارن.

٨- علم التصوف أو التزكية، أو الزهد، أو التربية الروحية.

٩- علم الأخلاق والسلوك.

١٠- علم الفرائض والمواريث، وهو جزء من الفقه، وصار له كيان شبه مستقل.

وهناك علوم أخرى متفرعة عما سبق كعلم القواعد الشرعية والأحوال الشخصية وعلم التراجم والرجال.

وهذه العلوم الشرعية تمثل **الأصالة** في الماضي، والحاضر والمستقبل، وعملت لها الأجيال السابقة، فأنتجت ثروة غزيرة، وتراثاً خالداً، وخدمت الإنسانية، وقدمت حصيلتها للأمم والشعوب طوال التاريخ، ثم ادخرته هدية ثمينة للأجيال، ليمثل جزءاً من الحضارة الإنسانية.

القسم الثاني: العلوم غير الشرعية: وهي كل ما عدا العلوم الشرعية السابقة، وهي العلوم التي لا تتوقف على الشرع والدين، وتشمل سائر العلوم الأخرى، مما تشترك به الإنسانية ويتناوله سائر البشر في حياهم، وبحسب مستواهم، والحالة التي هم عليها، وهي في تطور دائم حسب المعلومات والمكتشفات، والمخترعات، والتقدم العلمي، والإنساني الحضاري، ولذلك لا تدخل تحت الحصر، ولا تقف عند حد ما دام العقل البشري موجوداً وفاعلاً.

ومنها:

١- علوم اللغة والأدب والشعر والنحو، وتعلم اللغات.

٢- علوم التاريخ والحضارات القديمة والحديثة.

٣- علوم التربية بمختلف صنوفها.

٤- علم النفس.

٥- علم المنطق والجدل والمحاورة.

٦- علوم المادة الطبيعية كالكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا.

٧- علم الفلك والكون والنجوم والكواكب.

٨- علوم الهندسة والرياضيات.

٩- علم الحاسب الآلي والتكنولوجيا المعاصرة.

١٠- علم الذرة وتفجير الطاقة والبحوث النووية والإشعاع وغيره.

١١- علم الطب والتشريع والجراحة والصيدلة والمخبر والأشعة.

ويجب التحذير والتنبيه من العلوم الضارة والفاسدة بذاتها، والتي لا تفيد شيئاً، وتجلب الأضرار من جهة، وتشوه الحقائق، وتعكر صفو العلوم الصحيحة من جهة أخرى، كالسحر، والشعوذة، والرجم بالغيب.

ثالثاً: أثر العلوم الشرعية في العلوم الأخرى:

إن القسم الثاني من العلوم، وهو العلوم غير الشرعية سلاح ذو حدين، فتستعمل للخير ونفع الإنسان والبشرية، وتستعمل للشر والفساد والضرر.

فاللغة والأدب والشعر قد يكون قمة في النفع والصلاح للإنسان، وقد يستعمل للإفساد والفساد والهجو والقدح والذم حتى يثير كوامن العداوة، ويولد الخصام والخلاف والعدوان، ويوصل للحرب والقتل والقتال.

والذرة قد تستعمل في خير البشرية لتوليد الطاقة والكهرباء وتشغيل المعامل والسفن والزوارق، وقد تستعمل في الشر والدمار والتخريب والقتل وإبادة الناس، وإفساد الأرض والجو والبحر والبيئة.

وحتى الطب والصيدلة وعلم الأدوية قد يكون لتوفير الصحة، ومنع الوباء، ووقف الأمراض المعدية، ووضع حد للآلام المبرحة... وغير ذلك، وقد يكون وسيلة للقتل، وقد نشرت الصحف اليومية في مطلع عام ٢٠٠٤م أن أكبر قاتل في القرن العشرين والحادي والعشرين هو طبيب أمريكي يقتل مرضاه بأسلوب علمي دقيق لا يكشفه أحد، حتى تم ذلك بالصدفة واعترف بما جنته يداه، ونقلت وسائل الإعلام أن الهند تعاني من أكبر وسيلة للقتل والموت عن طريق الأدوية والصيدلية التي تبيع أدوية فاسدة، أو انتهى مفعولها، أو تغيرت طبيعتها لتصبح قاتلة، أو ذات تركيب ضار ومؤذ، وهذا ما لجأت إليه -حتى اليوم- بعض الدول الغربية من تصنيع أدوية مخدرة، أو تبيد النسل، أو تهلك الزرع، أو تفتك بالإنسان والحياة والزروع والثمار والمحاصيل، أو تؤدي للعقم أو إسقاط الأجنة، وغير ذلك مما تفتق عنه العقل البشري المهووس ماليا، والمريض نفسيا، والحاقد على الإنسانية والبشرية، والمحقون عنصريا للفتك بعنصر آخر، أو أمة معادية.

ولذلك يجب أن يكون هناك باعث شريف للعلوم، وهدف سام، وغاية نبيلة، وأن يكون عليها رقيب وضابط.

وهنا يأتي دور الدين لينطلق منه العالم والمتعلم، فيكون الباعث هو تنفيذ أمر الله تعالى، ويكون الهدف والغاية تحقيق مرضاة الله تعالى، والتقرب إليه بنفع الناس والبشرية، فالخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، بل أنفعهم لمخلوقات الله تعالى، ولو من صنف الحيوان والرحمة به، والشفقة عليه، وحمايته، ورعايته، وحتى لغير الأحياء من الكون وحماية البيئة، والحفاظ على مدخراتها وصلاحها، ومنع العبث بها وإفسادها، وتأتي القاعدة الشرعية

المقدسة، والمبدأ الخالد، والضابط المحدد في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧].

ولذلك يجب أن تكون العلوم الشرعية هي الرقيب على العلماء، والحارس للعلم، والضامن من الحياد للشر والضرر، مع حصر العلم بالباعث الشريف، والهدف المحمود، والغاية المقدسة.

ويأتي في قمة ذلك الخوف من الله، ورقابة الله تعالى في السر والعلن، والعمل على مرضاته بجلب النفع والخير للناس والبشرية عامة، وتجنب الشر والفساد الذاتي والمخطط له، وبعد ذلك تأتي الرقابة الحكومية، والسلطات والمؤسسات التي تشرف، وتتابع، وتراقب، وتجزي، وتعاقب، وتثيب، وتؤاخذ، كل بما جنت يداه، وعلى ضوء الأحكام الشرعية.

فلا خير في علم أدى إلى تدمير البشرية، وإبادة الجنس البشري، وإفساد البيئة، والعبث بمقدرات الأمم، حتى علم الاقتصاد الذي يوحي بتدمير المحاصيل للحفاظ على السعر المرتفع، مع وجود الملايين الذين يموتون جوعاً وفقراً ومجاعة.

وكذلك لا خير في اختراع، أو تقدم علمي يؤثر على كيان الإنسان وجبلته، ويعبث بفطرته وتركيبه الذي خلقه الله تعالى عليه في أحسن تقويم، وذلك كالاستنساخ والتهجين، والأغذية الكيماوية للحيوان والنبات، والأطعمة المعدلة وراثياً، وإطعام الحيوان من الفضلات المتبقية من جسد الذبائح والحيوانات الميتة، لتكون علفاً وغذاءً للحيوان نفسه، ثم يقدم للإنسان، مما يخالف الفطرة، وينتج عنه الأمراض الخطيرة التي لم تكن معروفة كجنون البقر، ومرض السارس للماشية والدواجن.

ويصل العبث العلمي، والتقدم إلى اختراع القنابل النووية، والأسلحة الكيماوية، وأسلحة الدمار الشامل مما تفتق عنه الإجرام العلمي، والوسوسة الشيطانية، والعقل المنحرف، والعقائد الباطلة، والأفكار الفاسدة، والخطط الاستعمارية، والاستعلاء والاستكبار، والعدوان...

ولا شك أن العلوم غير الشرعية ساهمت في الماضي، وطوال التاريخ بفوائد مهمة، ومنافع جمة، وانضمت إلى العلوم الشرعية لتساهم في مشعل النور والحضارة الإنسانية، وكونت أصالة ومرتكزاً وذخيرة ثمينة للعصر الحاضر، يبنى عليها، ويتابع تطوره وتقدمه بعد الاستفادة من معطياتها.

ويجدر التنبيه أن جانب الشر والضرر والفساد في العلوم غير الشرعية كان محدوداً وقليلاً في الماضي والتاريخ، بعكس ما نعيشه اليوم في العلوم غير الشرعية المعاصرة، فوصلت منافعها إلى القمة في نفع البشرية والإنسانية في المواصلات، ووسائل الإعلام، والصحة، والرفاهية، ولكنها اقترنت بمفاسد كثيرة، حتى اقترن الفساد والدمار اليوم بالتقدم العلمي، وأصبح بعض علماء العصر من أكابر مجرميه ومدبريه.

رابعاً: المطلوب من العلوم الشرعية في العصر الحاضر:

إن الحاضر مثقل بالماضي أو امتداد له، وإن الحاضر ركيزة للمستقبل وتنبؤ له، والمتأخر يأخذ من المتقدم، والعلوم والحضارة أشبه بالبناء الذي يأتي كل جيل أو أمة، ليضيف له لبنة أو طبقة.

ولكن لا يقبل أن يكون الحاضر صورة عن الماضي في كل شيء، حتى في العلوم الشرعية السابقة، ولابدَّ من التطور والرقي والاجتهاد والتغيير، وإلا سقطت الأمة في الجمود والخمول، ثم النفور منها.

وهذا لا يعني إلغاء السابق، أو التنكر له، أو الاستغناء عن أصوله ومقدماته ومعطياته، أو الخروج عن المسلمات الشرعية واللغوية والفكرية والعقلية، بحجة **التجديد والقراءة المعاصرة**، والخروج عن مألوفه، لنصل إلى مبدأ «**خالف تعرف**» بنية فاسدة، وغاية مشبوهة، وهو ما يفعله بعض الكتاب المعاصرين، مما يسمونه **بالفكر التنويري**، وهو في الحقيقة فكر للظلام، وليس للنور، وللهدم وليس للبناء، وسرعان ما تنكشف حقيقته، وتعرى سوأته، وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧] فالبقاء للصالح، والديمومة للمفيد الناجح، وليس للتخريب والهدم.

وهنا يظهر مبدأ **التوازن والاعتدال** في مبدأ الأصالة والمعاصرة.

خامساً: المعاصرة في العلوم الشرعية:

إن العلوم الشرعية جميعاً تخضع للتطوير والتغيير إما مضموناً في بعضها، وإما أسلوباً وشكلا وعرضاً في بعضها الآخر، وإما شكلا ومضموناً جزئياً في بعضها الثالث.

ونستعرض أمثلة وتطبيقاً لما سبق:

١- **التفسير وعلوم القرآن**: يجب أن يظهر فهم جديد، وتفسير متطور اليوم للقرآن الكريم وعلومه، لربطها بالحياة والمعاصرة، والاكتشافات العلمية، وما يظهره الإعجاز العلمي فيه، مع توفر الدقة البيانية واللفظ المعجز مهما تقدمت العلوم الكونية والحياتية.

ويجب أن يظهر تفسير جديد بأسلوب العرض الأدبي، والبيان اللغوي،

بما يقرب من تصور الأجيال الحاضرة عن الكون والحياة والعقيدة والإنسان، إذا لم نقل أيضاً بتصفية التفاسير السابقة من الإسرائيليات، والسقطات، ونقل بعض الشطحات والأخبار المكذوبة والمعلومات السطحية، والنظريات الوهمية التي أثبت العلم والتقدم خطأها، وقد نقلها بعض المفسرين بحسن نية، أو سذاجة، أو تقليد أعمى.

وهكذا ظهرت في العصر الحاضر مجموعة من التفاسير المعاصرة، وجيزة أو مطولة، أو متوسطة، حققت هذه الغاية كمحاسن التأويل للقاسمي، والتحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والتفسير المنير والتفسير الوسيط والتفسير الوجيز للشقيق الأكبر الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، ودرة التفاسير، وصفوة التفاسير، والتفسير الواضح الميسر للشيخ محمد على الصابوني، وتفسير الشيخ محمد متولي شعراوي، وغير ذلك مما أنتجه العلماء في القرن الرابع عشر الهجري، والربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري.

بينما ظهر في الطرف النقيض تفاسير للهدم باسم القراءة المعاصرة، والتفسير التنويري، ومنها على سبيل المثال «قراءة معاصرة في الكتاب والقرآن» للمهندس الدكتور محمد شحرور، ومثل ما ادعاه أحد المنورين باسم السيد «عبد الإله الجنيد» في مقابلة مع مندوب صحيفة الخليج في ملحقها «الدين والحياة» عدد ٩٠٨٤ يوم الجمعة ١٢ صفر ١٤٢٥هـ، ٢ أبريل ٢٠٠٤م حول علم المواريث في القرآن الكريم، ويدعي فيها فهماً جديداً في آيات المواريث مما لم يعرفه الأولون، ولا فطن له العارفون طول أربعة عشر قرناً، بل قرؤوه خطأ، وطبقوه ظلماً طوال التاريخ الإسلامي،

فهدم كل ما بنته الأمة، وتغافل، بل تنكر للسنة وما ورد من الأحاديث في الميراث، ليطلع بفهم جديد معاصر لآيات المواريث، ويدل كلامه على أنه -كما فعل الدكتور محمد شحرور- تبنى آراء بعض المستشرقين والحاقدين وأعداء الإسلام في ميراث المرأة، وأراد أن يفسر قوله في وجوب مساواة المرأة للرجل في جميع أحكام الميراث.

ويتمثل هذا الاتجاه التخريبي الهادم فيمن يسمون أنفسهم بالقرآنيين، أي الملتزمين بالقرآن وحده، وردّ السنة النبوية، وإلغاء جميع أسباب النزول، والعبث في دلالة وبنية الكلمة العربية، والتوهم بمنطلقات عقلية لا وجود لها، ولا يقبلها عقل، ليقطعوا صلة الأمة بماضيها وتراثها، ولغتها وتاريخها، وليحدثوا ديناً جديداً، وفكراً ممسوخاً، وولداً هجيناً أو مشوهاً أو معاقاً بدون عين تبصر، أو أذن تسمع، أو عقل يفكر، أو يد تعمل، أو أرجل تسعى، أو قلب يحس ويدرك.

وتتمثل المعاصرة في الاستفادة من التطور والتقنية المعاصرة، مثل طباعة القرآن بالملايين، وترجمة معانيه وطباعتها، واستخدام الوسائل الحديثة في سماعه وحفظه وتلاوته ونشره في المذياع والمسجلة، والتلفاز، والقنوات الفضائية، والتفنن في ترتيله وتجويده، وسماعه مع التفسير، ثم في استخدام الحاسب والأقراص المرنة في كيفية الرجوع إلى آياته، وإلى معانيه، وتفسيره.

٢- السنة وعلوم الحديث:

إن ما سبق من الأصالة والمعاصرة ينطبق تماماً على السنة وعلوم الحديث في نصه، وثبوته، وفهمه، ودراسته، وربطه بالحياة، والاستفادة من ثروته اللغوية، والبيانية، ومن أخباره الوصفية والغيبية والفقهية، وبيانه الخاص

المعجز، وأحكامه التي تفسر القرآن وتبينه، وتؤكده، وتزيد عليه أحياناً، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ويجب التركيز على أحاديث العقيدة والإيمان، وأحاديث الأخلاق والترغيب والترهيب، وأحاديث الغيب، والأحاديث التي تتضمن الإعجاز العلمي في السنة النبوية، وأحاديث الفتن، وأحاديث الأحكام.

وابتليت السنة بما ابتلي به القرآن بل أكثر، وتوجهت لها السهام المسمومة، بالإنكار، والتشكيك، والطعن، وسوء التأويل، وكانت محط أنظار الحاقدين، وكثير من المستشرقين وأعوانهم، ومنها «أضواء على السنة المحمدية» لمحمود أبو رية، التي وصفت بأنها ظلمات أبو رية، وحشد فيها ما اختزنه التاريخ من شبه وافتراء ولمز وطعن، مما انبرى له كبار العلماء والحفاظ والمحدثين لكشفه، وبيان الصحيح فيه.

ولكن السنة بقي حظها أقل من القرآن بالشروح المعاصرة، والدراسات الموضوعية المتنوعة التي حظي بها كتاب الله تعالى.

بينما تناولتها الأصالة بحظ وافر في التدوين والجمع، وطباعة أمهات كتب السنة من الصحاح والمسانيد الكبيرة والموسوعات الطويلة، كما استفادت من التقنية الحديثة لجمعها كاملة لأول مرة في التاريخ الإسلامي عن طريق الحاسوب والكمبيوتر الذي يتسع لخزن الآلاف المؤلفة من الأحاديث.

٣- علم الفقه:

يكاد أن يكون علم الفقه الإسلامي أكثر العلوم نتاجاً وثروة بين العلوم، لأنه يمثل الحياة الكاملة، ويغطي جميع ما يطرأ، ويبين حكم جميع المستجدات

في كل زمان ومكان، وظهر فيه الأئمة الكبار، ثم المذاهب الكلية، وتوفر لكل إمام مذهب، ولكل مذهب آلاف مؤلفة من العلماء والفقهاء والمجتهدين والقضاة، بحيث صار باستطاعة كل مذهب على حدة أن يغطي كامل شؤون الحياة، ويبين أحكام كل ما يجري في الكون، ومع الإنسان، فرداً وجماعة.

لكن أصابه الركود والجمود والتزمت والتحجر في القرون الأخيرة حتى عجز عن اللحاق بركب الحياة والمدنية والتطور، واكتفى علماؤه باجترار الأصيل القديم، وتطبيقه على الحاضر والطوارئ الجديدة، وإضافة لمسات خفيفة عليه.

فالأصالة في علم الفقه ظاهرة واضحة بارزة مشهود لها بالفضل والخيرية، ومع ذلك تحتاج لشيء من التجديد ولو شكلاً بالإخراج والطباعة والتحقيق وإعادة الصياغة وحسن العرض والترتيب، وتجلى هذا الجانب بشكل ظاهر في الموسوعة الفقهية التي أصدرتها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالكويت التي وصلت إلى أربعة وأربعين مجلداً، وستصل بمشيئة الله تعالى إلى خمسة وأربعين مجلداً، كما يتجلى بشكل آخر في الموسوعة الفقهية التي عملها الشقيق الأكبر الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي بعنوان «الفقه الإسلامي وأدلته» في ثمانية مجلدات، ثم صار تسعة، ثم صدرت في اثني عشر جزءاً.

كما يتجلى التجديد والمعاصرة بالاستفادة أولاً من التراث الفقهي السابق، والذخيرة الفقهية الواسعة، والثروة التشريعية في الأحكام، وذلك كخطوة أولى، دون الالتزام بها حرفياً؛ لأن الأحكام قسمان:

القسم الأول: ثابت في القرآن والسنة بأدلة قطعية، فلا يمكن المساس به، ولا تغييره ولا تبديله.

القسم الثاني: ثابت بالاجتهاد الذي يقوم على المصادر الفكرية والعقلية والمصلحية، ويعتمد على الأعراف السائدة زمن الأئمة والمجتهدين في كل عصر.

وهذا القسم الثاني يمكن التصرف فيه، والاختيار منه، وإبقاء ما هو صالح ومفيد منه للعصر الحاضر، مع وجوب الاجتهاد والبحث المعاصر في ضوء القرآن والسنة واللغة والعقل والمصلحة فيما سوى ذلك، ليكون صالحاً للعصر والزمن الحاضر، وهذا ما قرره علماؤنا وفقهاؤنا سابقاً بالقاعدة الفقهية «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان» وقاعدة وجوب تغير الفتوى حسب الأشخاص والأحوال والأزمان والأماكن، وهو ما بينه ابن القيم رحمه الله تعالى في «أعلام الموقعين» وبينه العلماء في «أدب الفتوى» الملحق بعلم أصول الفقه، أو في كتب خاصة.

ويضاف إلى ذلك أمر مهم جداً، وضروري جداً، وأساسي للشرع والتشريع، وهو فرض وواجب على العلماء والمجتهدين والمجددين اليوم، وهو حكم النوازل، أو معرفة حكم المستجدات، والقضايا الفقهية المعاصرة، لتتبع ما يطرأ في مختلف جوانب الحياة، والمخترعات والاكتشافات في جميع مجالات الحياة، لمعرفة حكم الله تعالى فيها، وهو عبء ثقيل، ومسؤولية جسيمة، ووظيفة خطيرة، وإلا كان العلماء مقصرين وآثمين في إظهار عجز الشريعة، وعدم صلاحها لكل زمان ومكان، ووضعوا الأمة الإسلامية خلف الركب، مع التخلف والرجعية، وأعطوا الحجة للحكام والمسؤولين وأصحاب القرار (الخاص، والعام) للتنكب عن الشريعة، واستمداد القوانين الأجنبية والتشريعات الغربية، واقتباس ما عند الغير، والسير في ركابه.

وحتى تتحقق المعاصرة في الفقه الإسلامي يجب التزام ما يلي في الأمور التالية:

١- **وجوب الدراسة المقارنة** بين المذاهب الفقهية، للاستفادة منها جميعاً وبآن واحد، ونبذ المذهبية المقيتة، وضيق الأفق، وذلك باختيار الأصلح من كل مذهب لما يناسب العصر والتطور والحياة، ولا شك أن كل رأي في أي مذهب له دليله وأهله والقائلون به.

٢- **الاجتهاد الجماعي**، وخاصة في الفتوى للمستجدات، وقضايا الأمة والدولة والمجتمع.

٣- **تشكيل اللجان الدائمة للتشريع، واللجان الدائمة للفتوى**، لتكون على رأس عملها لاستقبال الأسئلة، والشكاوى، والقضايا، والمسائل، وبيان المقترحات المناسبة أو الفتوى الواجبة التطبيق.

٤- **التحرر من التعصب المذهبي أولاً**، ومن التشدد بالأحكام ثانياً، ومن الإفراط والتفريط، والتقصير والمغالاة في القضايا الخاصة والعامة، والفردية والجماعية.

٥- **النظرة الكلية الشاملة للشريعة والدين وأحكام الفقه**، دون التجزؤ، والتقوقع، والتمزيق، والترقيع.

٦- **الدراسة التفصيلية لفروع الفقه المعاصرة** التي تمثل -في نظري- قمة الفقه في العصر الحاضر، وأنضر جوانبه، وهو أحق بالرعاية والعناية من غيره، وتنبه له كبار علماء العصر، والمجتهدين والمجددين، وعرض كثير منه -جزئياً- في المجامع الفقهية والمؤتمرات الدولية، والندوات الشرعية، ومنه:

-أحكام الاقتصاد الإسلامي.

-المعاملات المالية المعاصرة.

- المصارف الإسلامية، والمعاملات المصرفية المعاصرة.

- شركات التأمين التعاوني، وإعادة التأمين.

- الشركات التجارية المعاصرة.

- القضايا التجارية المعاصرة كالبورصة، والسوق المالية، والأسهم، والسندات.

- الشورى كبديل للديمقراطية.

- نظام الحكم، واختيار الحاكم، وتحديد وظيفته ومسؤوليته، وحقوق الإنسان.

- العلاقات الدولية المعاصرة، سواء كانت بين الدول مباشرة، أو مجتمعة كهيئة الأمم، والتجارة الدولية، والمنظمات العالمية، ومحكمة العدل الدولية، والسلم والحرب.

- السياسة الشرعية، ومنها العلاقات الدستورية بين الحاكم والمحكومين، أو الراعي والرعية، والعمل السياسي، وتشكيل الأحزاب بفكر إسلامي وتنظيم شرعي.

- القضاء والمحاكم وكتاب العدل والمحاماة والنيابة العامة ومجلس الدولة والمحكمة الدستورية العليا.

- الحسبة وهيئات الرقابة في مختلف جوانب الحياة، حتى الرقابة المالية، والرقابة على الوزارات، والمؤسسات.

٣- وجوب الاعتماد والاستفادة من **التقنيات المعاصرة** في الدراسة الفقهية الموضوعية والمنهجية كالحاسب الآلي (الكومبيوتر) والإميل (الإنترنت) والطباعة، والبرمجة، والإحصائيات، والأقراص المرنة.

٤- **وجوب تشجيع الدراسات العليا** في الفقه وأصوله والتشريع، وذلك لإعداد الباحثين والمؤهلين علمياً ومنهجيا وثقافيا وفكريا.

٥- وجوب التعاون والاستفادة من **العلوم الأخرى، والتخصصات المشاركة** المتعددة للوصول إلى الرأي السديد في القضايا المعقدة، ولمعرفة القول الصحيح فيها؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها.

-وفي هذا المجال يمكن الاستفادة من **رجال الأعمال والاقتصاد** والتجارة وأصحاب المهن والحرف.

-وفي مجال التشريع والأنظمة يجب الاستفادة والتعاون مع **رجال القانون وعلماء الحقوق، ورجال القضاء، والمحامين** فيما أحدثوه مما لا يخالف الشرع.

-وفي المصارف نستفيد ونتعاون مع **رجال المحاسبة والخبراء** وموظفي البنوك والصيرفة.

-وفي المجال الصحي نستفيد من الأطباء والمخبريين، والصيادلة، والفيزيائيين، والكيميائيين لمعرفة طبيعة الأشياء والحكم عليها.

-وفي مجال العمران وأحكام البناء نستفيد من المهندسين وغيرهم.

٦- **وأخيراً** -وليس آخراً- ومقابلاً لما سبق يجب أن تدخل العلوم الشرعية إلى سائر العلوم الأخرى، ليتم التمازج في ذلك، لأن الإسلام دين الحياة، فحيثما وجدت الحياة فيجب أن يكون للإسلام كلمة ورأي، وخاصة فكرة الحلال والحرام، فيجب على الطبيب والمهندس والمخبري والأديب والقاضي والمحامي، وكل عالم في فن أو علم، وكل مهني وعامل ورب عمل، أن يكون عنده إلمام بالأحكام الشرعية، وخاصة العلم الشرعي

الواجب وجوباً عينياً كما سبق في المقدمات، وأن تكون كل مهنة ملتزمة بالآداب الإسلامية والقيم الدينية، ولا يجوز، ولا يصح، ولا يقبل الادعاء أن العلم أو التقدم العلمي يتطلب تجاوز الحلال والحرام والأحكام الشرعية، ولا يجوز، ولا يصح، ولا يقبل الادعاء أن الدين شيء والحياة شيء آخر، وأن الدين محصور بالمسجد، أو هو مجرد علاقة بين الإنسان بربه، أو أكذوبة فصل الدين الإسلامي عن الدولة والمجتمع الإسلامي، فالغاية لا تبرر الوسيلة، ولا يقبل باسم العلم أن نتجاوز ثوابت الدين، أو المسلمات في الشريعة والعقيدة والأخلاق والحلال والحرام، إلا ما يستثنى لظرف طارئ أو حالة ضرورة مؤقتة، فهنا تأتي القاعدة الفقهية «الضرورات تبيح المحظورات» كالكشف عن العورة في سبيل التطبيب، أو لغاية مشروعة.

ولا يقبل باسم التطور عزل الدين والشرع والأحكام عن مجريات الحياة في سائر الأمور، فالدين أو الإسلام هو الحياة، وحيثما وجدت الحياة وجد الدِّين أو الإسلام.

وهذا ما كان، وما وقع، وما حصل في العصور الإسلامية الزاهرة التي أنتجت الحضارة الإسلامية الباسقة التي نعمت بها البشرية عدة قرون، ثم انتقلت إلى الغرب ليستفيد منها، ويبني عليها، ويتابع مسيرة الحضارة الإنسانية.

وهذه المعاصرة والتطور يشمل سائر العلوم الأخرى، ولا يقتصر على علم الفقه، وإن كان أكثرها صلة بالحياة والمعاصرة والتجديد شكلاً ومنهاجاً وموضوعاً.

◈ الخاتمـــة:

ليس هناك فاصل، ولا حاجز بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية، وليس هناك انقسام إلى علوم شرعية وإلى علوم عصرية، ليعمل كل منها في جانب

أو قسم من الحياة.

وهذا لا يعني عدم الاختصاص أو التخصص في الدراسات العليا، فالمهندس المسلم لا ينفصل عن إسلامه، كما لا يتجاهل صحته والعلوم الصحية، أو الصيدلية، أو الفيزيائية أو الكيميائية، والطبيب المسلم يعيش حياته الإسلامية كاملة، ويتخصص بالطب أو بنوع منه، ويمارس جميع أموره في ظل تطبيق الأحكام الفقهية الدينية ليجمع بين خيري الدنيا والآخرة، وليكون منسجماً بين شخصيته الفكرية والعقائدية والدينية والاجتماعية مع عمله الطبي.

ومن هنا فقد عمل الغزو الفكري المعاصر على فصل العلوم الشرعية عن العلوم الكونية، وحصر المدارس الشرعية بعدد من الطلاب، وجعلها خاصة، أو تابعة لوزارات الأوقاف، وأبعد الدِّين والإسلام والعلوم الشرعية عن جماهير الطلبة والمدارس الحكومية الرسمية.

ولذلك فلا بدَّ من المعاصرة في العلوم الشرعية بالعودة فيها إلى الأصالة في الدمج والجمع بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية بمناهج تربوية معاصرة، وتخطيط قويم، وتطبيق عملي، لتنتج الشخصية الإسلامية المتوازنة التي نعول إليها في النهضة القادمة، والصحوة الإسلامية القائمة، لتعود المياه إلى مجاريها، والعقول إلى رشدها، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويتحقق وعده على لسان رسوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء»[1].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم (٤/ ١٧٦) والترمذي (٧/٣٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٣١٩)، والدارمي (٢/٣١٢) وأحمد (١/ ١٨٤، ٣٩٨، ٢/٣٨٩، ٤/٧٣) عن أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود وأنس وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن سنة رضي الله عنهم.

ثالثاً: حقوق المرأة

◈ مقدمة

◈ أسباب تخصيص المرأة:

إن المتبادر للذهن، وهو الأصل، أن يتم الكلام عن الإنسان، كل إنسان، والمرأة إنسان فتدخل في حقوق الإنسان.

ولكن أفردت الحديث عن المرأة لعدة أسباب:

١- إن المرأة نصف المجتمع، وهي تربي النصف الثاني، كما أن المرأة هي المنبع الوحيد للرجال والنساء، فكأنها كل المجتمع، والكلام عنها يتناول المجتمع عامة، وإصلاحها يصلح المجتمع، وحقوقها حقوق للمجتمع.

٢- الاختلاف قديماً وحديثاً عن حقيقة المرأة، والتصور الخاطئ عنها، فقالوا عنها في القديم إنها شيطان، وقالوا: إنها ليست إنساناً، ثم قيل عنها إنها إنسان لكن بدون روح، ثم حمّلوها خطيئة البشرية ووزر الإنسانية بأنها السبب في إغواء آدم وإخراجه من الجنّة، ووصل الأمر إلى رجال الدين قديماً باعتبار المرأة لا تصلح لحمل الدِّين، وهو ما يزال حتى الآن في بعض الفرق والمذاهب المعاصرة، فلا يعطون المرأة دينها، كما منعها رجال الدين قديماً من قراءة الكتاب المقدس.

وهذه النظرة المتطرفة عن المرأة لا تقل سوءاً عن النظرة المعاصرة للمرأة، ولكن من زاوية أخرى، لتصبح المرأة -بحسن نية أو سوء طوية- كلَّ شيء في المجتمع، وتسيطر على السلطات والتفكير، وتستولي على زمام الأمور - سراً أو جهاراً، وتستحوذ على اهتمام كل الجهات، وتجذب اهتمام الجميع، ويتطلع إليها أصحاب القرار، وأصحاب الأموال للجنس والدعاية والتصوير

والإعلان في الصحف والمجلات والقنوات الفضائية، وفي التوظيف في الدوائر والمؤسسات والمكاتب التجارية والمهنية، لتكون وسيلة لجلب الرزق والزبائن والعملاء، واتخاذها سلعة تجارية لجذب المال، والمتعة والتسلية، حتى صدرت الأقوال اليوم بطلب مساواة الرجل بالمرأة، أو المطالبة بحقوق الرجال، فكان ذلك إفراطاً وتطرفاً في الماضي، فقابله تفريط وتطرف آخر في الحاضر.

٣- **السبب الثالث** هو الظلم الذي لحق بالمرأة في الحضارات السابقة، وحتى في جاهلية العرب قبل الإسلام، فتم وأد البنات خوف الفقر أو العار، وكانت المرأة محرومة من الميراث، بل كانت تعتبر سلعة في الميراث، وكانت المرأة مهمشة عند الأمم الأخرى، ولم يعترف المشرعون بأهليتها حتى القرن العشرين وبعد الثورة الفرنسية، وكانت المرأة ناقصة الأهلية في القانون المدني الفرنسي حتى عام ١٩٢٥م، وهي البلد الذي أعلن حقوق الإنسان، ثم جاء قانون نابليون فوصم المرأة بنقص الأهلية في الأموال وغيرها، وكان أرباب العمل وكبار التجار والرأسماليين يستغلون النساء ويعطونهن نصف أجر الرجال حتى في القرن العشرين، وكانت المرأة محرومة من التعليم، وأول امرأة حصلت على الثانوية وتقدمت لدخول الجامعة في فرنسا عام ١٨٦١م فرفض طلبها، حتى وصل الأمر إلى نابليون الثالث الذي تدخل شخصياً مع رئيس وزرائه رولان لدى الجامعة لقبول طلبها، وأول امرأة دخلت الجامعة في ألمانيا بجامعة زيوريخ عام ١٨٤٠م، بينما كانت الشيخة شهدة، الملقبة بفخر النساء تحاضر في القرن الخامس الهجري بجامع بغداد عاصمة الدنيا اقتداءً بأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة، وسائر الصحابيات، مثل أم طلحة، ونسيبة وغيرهن.

وتسرب هذا الظلم عملياً في التاريخ الإسلامي عند وقوع التخلف والانحطاط، وحرمت المرأة من التعليم، وظلمت في الميراث وغيره، وشاعت اصطلاحات شعبية تغض من مكانة المرأة، وتزدريها، وتردد الشك والاتهام لها، واستعانوا ببعض الآيات التي وضعت من كرامة النساء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨]، و لم يحفظوا من القرآن عن النساء غير ذلك، مع رفع الشعار المناهض لها «ناقصات عقل ودين»، ولا يزال أثر ذلك راسخاً في نفوس وعقول بعض المسلمين عامة، والرجال خاصة.

٤- **السبب الرابع**: إثارة الشبهات والأقاويل نحو **التعسف في الفوارق** الطبيعية الفيزيولوجية بين الرجل والمرأة، وما يترتب على ذلك من تخصيص الرجال بحقوق معينة دون النساء، ثم وصل الأمر للتعسف في استعمال هذه الحقوق، كحق القوامة، وحق الأبوة على البنات، أو الولاية في الزواج، والولاية على نفس الفتيات.

٥- **السبب الخامس: النوايا السيئة والتخطيط الماكر لإفساد المرأة، باسم تحريرها:**

لاستغلالها في بث السموم الدخيلة، وإفساد المجتمع، وزعزعة كيانه، وهدم الأجيال التي تربيها المرأة، للتوصل إلى الغزو الفكري ونشر الفكر المنحرف أو المستورد، ولذلك لا يتردد على الأذهان من المدافعين عن المرأة إلا أصحاب الفكر الهدام، أو المستغربين، مثل قاسم أمين، وهدى شعراوي، والدكتورة سعداوي، ويطمس أسماء الدعاة والمصلحين والعلماء الذين نادوا بإنصاف المرأة، ورفع الظلم عنها، فلا يذكر اسمهم في هذا المجال، من أمثال الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي، والدكتور مصطفى السباعي،

وعلماء الأزهر، وشيوخه، والدكتور البوطي، والدكتور العتر.

٦- **السبب السادس: العادات المتأصلة، والأعراف السائدة، والتقاليد المحلية،** أو التي تسربت من حضارات أخرى، فحافظ عليها الناس في بلدانهم، ثم ألحقوها بالدِّين، وكأنها جزء رئيسي من الإسلام، مثل زي المرأة في موريتانيا أو السودان أو السعودية أو اليمن أو إيران، أو في دوما وحرستا، ودمشق وحلب قبل خمسين سنة، ويعتقد أهل كل بلد أن زيه هو اللباس الإسلامي، وغيره حرام أو باطل، ومثل بعض التقاليد في الزواج والأعراس والمآتم، وخاصة عدة المرأة المتوفى عنها زوجها، وبعض التقاليد والأعراف الاجتماعية بين الرجل والمرأة، والزوج والزوجة، وفرض سيطرة الأخ الأكبر على الأخت، وغير ذلك مما لا صلة له بالدين والإسلام والعقل، بل قد يتنافى مع الأحكام الشرعية.

ومثل حق المرأة في قيادة السيارة في السعودية لعادات وتقاليد وظروف خاصة بها، ومثل حق المرأة في الانتخاب والترشيح في الكويت، لعدم تأهلها الاجتماعي لذلك ولظروف خاصة.

٧- **السبب السابع: الاختلاف الجسمي الفيزيولوجي الطبيعي الخلقي:** بين الرجل والمرأة، وهذا ما يعينه الأطباء والمخبريون في التكوين الجيني وبعض الغرائز والعواطف، وهذا يؤدي حتماً إلى الاختلاف في بعض الأحكام وفي الحقوق والواجبات، كأحكام الحمل والرضاع، والحيض والنفاس، والحضانة والأمومة للمرأة، واختصاص الرجل ببعض الأعمال والأحكام التي تتناسب مع فحولته ورجولته.

ولكن بعض الناس يستغل ذلك لتكريس التفريق، وإقامة الجدار العازل

بين الرجال والنساء، وكأن كل منهما من طبيعة خاصة، وإما لتفضيل أو سوء الظن.

ونضرب مثالاً بسيطاً جداً: الاختلاف الأكيد بـين التخصـصات في الشهادات الجامعية: طب، هندسة، شريعة، حقوق، آداب، صيدلة، فالجميع يعين بالشهادة الجامعية الأولى في مرتبة واحدة ودرجـة واحـدة، ثم يـأتي التفاوت والاختلاف في تعويض طبيعة العمـل، وفي العمـل نفـسه، وفي الواجبات الملقاة على صاحب كل شهادة، وتعويض الاغتـراب والمنـاطق النائية، ولا يقال إن ذلك تفضيل، أو عدم مساواة، أو تفاوت طبقي.

هذه الأسباب هي التي دفعتني لتخصيص البحث في حقوق المرأة وليس في حقوق الإنسان، وذلك لوضع النقاط على الحروف، وكشف الحقيقة، وتصحيح التصور، وإماطة اللثام شرعاً عن حقوق المرأة.

◈ نقاط البحث:

وهي سبعة نقاط رئيسية، وهي:

أولاً- إن تعداد الحقوق والتذكير بها لا يمكن عرضها كاملة في ساعة أو محاضرة أو بحث، ولا نريد المتاجرة بها، أو الدعاية، أو التنظير لحقوق المرأة، بل المطلوب الاقتناع أولاً، ثم التطبيق العملي والالتزام ثانياً، مع الحرص على كشف الحقائق، وتصحيح الواقع، والتطلع الصحيح للمستقبل، وجلاء الأخطاء التاريخية.

ثانياً- إن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، أي رب الرجال والنساء، الذي يعلم من خلق، ويريد الصلاح والإصلاح للناس، وتأمين مصالح الناس، وتعرض للمرأة كثيراً مع الرجال، وبشكل منفرد وخاص.

وضرب القرآن الكريم أروع الأمثلة للمرأة النموذجية والمثالية والعملية، وليس الخيالية والنظرية، منهم:

١- **بلقيس ملكة سبأ** التي تمثل الحاكم العاقل الحازم العبقري الذي يعرف طبيعة الحكام والقادة والجبابرة، و﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤]، وهذا ما تفعله أمريكا وبريطانيا ودول الاستكبار والقوة، واستشارت القادة عندما جاءها رسالة سليمان ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢]، وهذا شأن الحاكم العاقل الواثق بنفسه الذي لا يستبد برأيه، وكان القادة واثقين بها وبحكمتها وبعقلها وتدبيرها فأشاروا إلى قوتهم وبأسهم، ثم فوضوا الأمر إليها باتخاذ القرار، فقالوا ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣]، واتخذت فعلاً القرار باختبار هذا الملك حسب نظرها باستدراجه، وإغرائه بالمال، لتترك لنفسها وقومها المجال والوقت للإحاطة في الموضوعِ، وقالت: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥]، ولا أريد الاسهاب في تفصيل القصة، لأبين كيف أراد سليمان أن يختبر عقلها وذكاءها عندما نقل عرشها إليه، وسألها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾؟ فإن أجابت بالايجاب استنكر الناس قولها، لأن عرشها في بلدها الأصلي، وإن أجابت بالنفي، فإنها تنكر الواقع، فكان جوابها الحصيف الدقيق المتزن المحكم ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ [النمل: ٤٢]، فعرف سليمان فطنتها وذكائها، وطلبها للزواج، فكانت العاقلة التي

اهتدت للحق ولشرع الله ودينه، وندمت على ماضيها في الشرك والوثنية ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

٢- **امرأة عمران** التقنية النقية المؤمنة السخية التي نذرت لربها، ولبيته، ما في بطنها، ليكون في خدمة بيوت الله، وتوقعته أن يكون ذكراً، ليؤدي المهمة على أحسن وجه، ولكنها فوجئت بالمولود البنت، فجاءت لربها معتذرة، ولكنها مصرة على الوفاء بنذرها، لتكون ابنتها مثلاً للطهر والعفاف، وموطناً لمعجزة الله تعالى بإنزال الطعام لها من السماء ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧]، والعبر والدروس من ذلك كثيرة لا مجال لعرضها.

٣- **مريم البتول**: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وقصتها أعجوبة، ومكانتها في القلب، وهي من أفضل نساء الأرض، وهي مثل أعلى في جوانب عدة تحتاج إلى محاضرة خاصة.

٤- **آسية امرأة فرعون** التي وردت أخبارها في عدة سور، وخاصة سورة

يوسف، وضرب الله فيها مثلاً للذين آمنوا، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وأخيراً وليس آخراً، فإن القرآن الكريم خصص سورة كاملة باسم «سورة النساء» وسورة أخرى باسم «سورة مريم» وهي التي يترنم بها المسلمون والمسيحيون للوصف القرآني الإلهي لطهارة مريم وعفتها ومكانة ابنها، وليس كما يصفها اليهود ويتهمونها وابنها، مما لا مجال لعرضه.

ثالثاً- شخصية المرأة:

لقد قرر القرآن الكريم الشخصية الكاملة للمرأة كالرجل تماماً في الحقوق والواجبات، فمن ذلك:

١- **أهلية المرأة** في التملك، وحقها الكامل في التصرف بأموالها وأملاكها بالانتفاع والاستغلال والمبادلة وغيرها.

٢- **المحافظة على اسمها ونسبها وكيانها وشخصيتها** طوال حياتها، وحتى بعد الزواج، وليست تبعاً للزوج، كما هو في الغرب، والآن صحت المرأة في الغرب لهذه النقطة ورفضت هذه التبعية، فأبت إبقاء الزواج أصلاً، ورفضت التنازل عن اسمها، بينما يحاول، ويدعي، ويسعى بعض المستغربين للتمسك بهذه التبعية للزوجة وضم نسبها إلى نسبه، واسمها إلى اسمه، بعد أن بادر الغرب للتخلص من ذلك.

٣- **الذمة المالية الكاملة للمرأة في التملك**، وتحمل الواجبات، وتعهد الالتزامات، والمطالبة بالحقوق.

ولها حق التملك عن طريق جميع الأسباب المقبولة شرعاً وقانوناً بالكسب والمعاملة والميراث والتبادل.

٤- **حق المرأة الكامل في التعامل والتعاقد**، وتوقف جميع عقودها على رضاها، وخاصة في أهم شيء في حياتها، وهو الزواج، فيجب أخذ رأيها قطعاً وإلا كان العقد باطلاً، كما ثبت ذلك في السنّة النبوية عندما ردَّ رسول الله ﷺ نكاح فتاة زوّجها أبوها بدون رضاها، وقال رسول الله ﷺ: «لا تنكح الثيّب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن» قالوا: وكيف إذنها؟ قال: «صماتها».

٥- **المرأة مكلفة** كالرجل تماماً في جميع الأحكام الشرعية، ومسؤولة عن جميع أعمالها دينياً ودنيوياً.

فإنها مطالبة بالإيمان، وتستحق الثواب والأجر، قال تعالى: ﴿**أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ**﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا**﴾ [النساء: ١٢٤].

كما أن المرأة مكلفة بالأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة، والعبادات، وسائر الأحكام الشرعية والعقلية والقانونية.

مع مراعاة الفوارق الطبيعية بين الجنسين بالتخفيف عنها من بعض الأحكام كالقتال (وليس الجهاد، فهي تجاهد، وتشارك الرجال في الجهاد، وكان الصحابيات مع رسول الله في الجهاد والغزوات، ولكن قلما تمارس القتال) أو بتكليفها بالأحكام كاملة فيما يخصها كالحمل والرضاعة والحضانة وإجازة الأمومة.

رابعاً- تعليم المرأة:

ويظهر تعليم المرأة في حقها في طلب العلم، والوصول إلى أعلى الدرجات العلمية، ثم ممارستها للتعليم وتنشئة الأجيال، ونأخذ ذلك من الأمور التالية:

١- **النصوص الشرعية تصرح بحق المرأة في العلم والتعلم،** فآيات طلب العلم موجهة للذكور والإناث معاً، وإذا كانت بصيغة المذكر فإن ذلك للتغليب كما يبينه علماء اللغة، وأن لغة التذكير موجودة في جميع الأنظمة والقوانين المطبقة اليوم، ولا يدّعي أحد أنها خاصة بالرجال دون النساء. وفي السنة القولية أحاديث كثيرة كذلك تحث على طلب العلم دون التفريق بين الذكور والإناث، منها قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أي مسلم ومسلمة كما يبينه شراح الحديث، وفي السنة الفعلية خصص رسول الله ﷺ يوماً لتعليم النساء مع مشاركتهم للرجال في مجالسهم التعليمية من رسول الله ﷺ، وفي حضورهن المساجد وخطبة الجمعة للعلم والتعلم.

٢- **إن واقع السيرة النبوية** تؤكد حضور الصحابيات لمجلس العلم والتعلم والنشاط الإسلامي الكامل، فبالإضافة لتخصيص يوم للنساء، فقد كان رسول الله ﷺ يرعى النساء، ويستمع لهن، ويعلمهن أحكام الدين والدنيا، وكانت أمهات المؤمنين التلميذات النجيبات المتفرغات للتعلم من رسول الله ونقل ذلك لسائر الصحابيات في جميع شؤون الحياة، وخاصة الأمور الزوجية، والقضايا النسائية، وكانت أمهات المؤمنين صلة الوصل والواسطة لنقل أسئلة الصحابيات الخاصة النسائية لرسول الله

ليعلمن حكم الله فيما يستحين أن يصرحن به، بل جاءت صحابية إلى رسول الله ﷺ مباشرة وسألته صراحة قائلة: لا حياء في الدِّين، أي يجب ألا نستحي من السؤال عن أمورنا الدينية، وقالت: هل على النساء أن يغتسلن من الاحتلام؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم، إذا رأت الماء» وجاءت أخرى لتسأل عن علامات انتهاء الحيض وبدء الطهر، فبيَّن لها رسول الله ﷺ ذلك بالقصة البيضاء، فلم تدرك أبعاد هذا الأدب النبي والبلاغة والاستعارة اللغوية وتساءلت عن معنى ذلك، فاستحيى رسول الله أن يشرح ذلك، وكانت عائشة رضي الله عنها العلامة الفقهية الفطنة الذكية حاضرة وعرفت المقصود، وشرحته للصحابية بأن تضع قطنة بيضاء مكان الدم فإن بقيت بيضاء فذلك علامة الطهر، مما يوجب الاغتسال وممارسة الأحكام المطلوبة في حالة الطهر من الحيض.

وكان حضور المرأة في السيرة النبوية أكثر من ذلك بكثير فكانت تشارك في الجهاد، والسفر مع الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ وتأمين السقاية، ومداواة الجرحى، والمبايعة كالرجال تماماً.

٣- ويتأكد ذلك أكثر وأكثر بذكر **صور من التاريخ الإسلامي المشرق للمرأة المتعلمة والعالمة**، فكانت حافظة للقرآن، حافظة للسنة، محدثة، قارئة، فقيهة، مفتية، أديبة، شاعرة، مربية، معلّمة قائمة بواجباها الكاملة في إعداد الأولاد والأجيال لريادة الأمة والعالم.

٤- إن واقع الفتاة المؤمنة المسلمة المحجبة اليوم أكبر دليل على حق المرأة بالتعلم والتعليم، وأها تنافس الشباب في المدارس والجامعات، وتثبت جدارها، وتتفوق على الطلاب الذكور في معظم الكليات، ولا يقف

الحجاب حائلاً أمامها في أي كلية أو تخصص.

وهذا يقودنا للفقرة الأهم، وهي حق المرأة في العمل وممارسته.

خامساً: عمل المرأة:

إن عمل المرأة فرع عن مؤهلاتها، وتكوينها، وتعلمها، وحصولها على الشهادة، مع بيان مايلي:

١- **إن عمل المرأة الأساسي والرئيسي** الذي تفخر به، وهو عمل مقدس، ويحقق السعادة لها ولزوجها ولأولادها، ويقدم أعظم الثمرات للمجتمع، وهو **رعاية البيت،** وربة البيت، والتبعل لزوجها، وحفظه في ماله وعرضه وولده، وتربيتها للأولاد، والتكفل بالإشراف الكامل عليهم أطول فترة لمخلوق يحتاج للرعاية والكفالة والعناية بدءاً من الحمل، ثم الولادة، ثم الرضاعة والحضانة، ثم الإشراف على التربية والدراسة، والإعداد للمواطن المخلص، والإنسان الصالح، ومن هنا نستغرب ونستنكر وصف المرأة غير الموظفة بقولهم: بدون عمل، بل هي في أقدس عمل وهو ربة البيت.

٢- **لا ينكر أحد عمل أمهاتنا وأخواتنا** في البستان والمزرع، وفي البرية والبيدر، وحتى في مساعدة الزوج في بناء البيت والدار، ووراء المغزل وآلة الحياكة والخياطة وغير ذلك.

٣- المهم الآن أن نركز على **عمل المرأة المعاصرة التي تلتزم بدينها وحجابها،** وتعمل طبيبة ومهندسة، وصيدلانية، ومخبرية، وأديبة، وشاعرة، وداعية، ومحامية، وكاتبة، ومديرة، ومعلمة وغير ذلك.

ولا يمنعها حجابها أن تكون مذيعة في أشهر القنوات الفضائية في البلاد التي تتقبل الزي الإسلامي، وكذلك أن تكون الفتاة المسلمة المحجبة مراسلة لقناة فضائية في أصعب المراحل التي يمر في العراق مثلاً.

بينما تصرّ بعض الدول المتعسفة من ظهور المرأة المحجبة على التلفاز، وتمنع المحجبات، وتهددهن بالعزل والتنحية، أو التحويل إلى الإذاعة غير المرئية حتى لا يظهرن للناس بحجابهن، مع أن نصف نساء المجتمع على الأقل محجبات، وهذا يقتضي وجود نصف الموظفات محجبات رعاية لمشاعر الجماهير التي يتاجرون بها.

٤- يحق للمرأة أن تمارس -عند الحاجة وخارج البيت- **جميع الأعمال التي يمارسها الرجل** مع التزام للجنسين بالآداب، والقيم عامة، والخصوصيات للمرأة خاصة، ومن ذلك.

أ - الالتزام بالآداب الشرعية، وسائر الأحكام، كما يلتزم المختصون بالطب بلباس أبيض، معين، وعند الجراحة خاصة، وكما يلتزم أصحاب كل حرفة أو مهنة أو عمل بلباسها وآدابها.

ب- مراعاة طبيعة المرأة بإعفائها من بعض الأعمال الشاقة المرهقة، أو الأعمال والمناوبات الليلية، ولذلك أصدرت مصر قائمة تتضمن بضعة عشر عملاً تمنع فيها توظيف وعمل المرأة، ومعظمها أعمال شاقة لا تتناسب مع جسمها، وقوتها، وأنوثتها، ومهمتها في البيت، بينما تلزم حصراً -دون الرجال قطعاً- ببعض الأعمال كالحمل والولادة والرضاع والحضانة، ويتغلب جنس النساء في التمريض والتعليم والصيدلة مثلاً، ويضعف في الهندسة وغيرها.

ج- وجوب مراعاة القيم والأعراف، فأي عربي أو مسلم الآن يرضى

أن تعمل أمه أو أخته أو ابنته أو زوجته بكنس الشوارع، والنظافة العامة، وتسليك المجاري، مع أنها تعتبر قمة وأصلاً في تأمين نظافة البيت واللباس.

د- إن الاستثناء وارد في كل القوانين والأنظمة والأحكام والقواعد إيجاباً أو سلباً، وهذا السبب في منع المرأة في الإسلام من رئاسة الدولة باتفاق، وتولية الصلاة للرجال، ومن القضاء عند الجمهور.

وهذا يقودنا إلى النقطة السادسة في حقوق المرأة السياسية، وحقها في الانتخاب والترشيح، والمشاركة في النشاط السياسي والحزبي.

سادساً- العمل السياسي للمرأة:

وهذا مثار جدل ونقاش على مختلف الأصعدة، ويختلط فيه الحابل بالنابل، ولذلك نقرر الحقائق التالية:

١- يجب أن تشارك المرأة في العمل السياسي عن طريق الشورى وإبداء الرأي، ويجب حتماً أخذ رأيها فيما يخص النساء والمرأة في الشؤون السياسية الخاصة، وما يتعلق بما يخصهن، ويدخل ذلك تحت القاعدة العامة الآمرة بالشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وفي وصف المؤمنين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وجاء هذا الوصف مع وصف المؤمنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مما يدل على أهمية الشورى، وأنها بمكانة الصلاة والزكاة.

علماً بأن الشورى ليست خاصة في الأمور السياسية للمرأة وغيرها (مما يدخل في مدلول الديمقراطية) بل تطلب الشورى -شرعاً- في جميع أمور الحياة الزوجية والأسرية والعائلية والعلمية والإدارية ثم السياسة.

كما يدخل الأمر بالشورى ووجوب ممارستها للرجال والنساء في قوله تعالى: ﴿فَسَـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وأهل الذكر هم أهل الاختصاص والخبرة والعلم، كل في مجاله.

٢- ثبتت مشاركة المرأة في الأمور السياسية وشؤون الأمة منذ عهد النبي ﷺ فشاور أم سلمة في معضلة ومشكلة حصلت في صلح الحديبية، وكان يستشير زوجاته، ويستشير ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

ومن ينكر دور النساء في قصور الخلفاء، ومنهن زبيدة زوجة هارون الرشيد، وشجرة الدرّ، وغيرها في التاريخ الإسلامي.

كما كان عمر رضي الله عنه لا يتخذ قراراً يتعلق بالنساء حتى يستشيرهن، ومن ذلك ما يتعلق بخاصية المرأة الجنسية وعلاقتها بزوجها، وصبرها على غيابه، عندما سمع امرأة أحد المجاهدين تقول:

فوالله لولا الله وخوف عقابــه لحرك من هذا السرير جوانبــه

فسأل عمر بكل صراحة ابنته حفصة، ونساء الصحابة عن المدة التي تصبر فيها الزوجة على غياب زوجها، فقلن: تصبر شهراً، ثم تشتاق شهراً، ثم تتألم شهراً، وتفقد صبرها الشهر الرابع، فأصدر عمر رضي الله عنه قراره العسكري بوجوب عودة الجندي إلى زوجته كل أربعة أشهر، مهما ابتعد مكان رباطه.

وقصة عمر رضي الله عنه مع المرأة التي اعترضت عليه وهو على المنبر يخطب ويطالب بتحديد المهور للتخفيف من أعباء الزواج،حتى لا يكون المهر عائقاً للشاب عن الزواج المؤدي للعنوسة وغيرها من الأخطار، وقالت له: من أين لك ذلك ياعمر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ [النساء: ٢٠] فقال مقولته الخالدة: «أصابت امرأة

وأخطأ عمر» وتراجع عن اقتراحه.

٣- إن الشيء الوحيد الذي تحجب عنه المرأة سياسياً هو تولي رئاسة الدولة، وإن إثارة هذه النقطة مجرد زوبعة في فنجان، لأن حق المرأة كالرجل في معظم دول العالم، ومع ذلك فلم تتول امرأة رئاسة الدولة عملياً في أمريكا وروسيا وفرنسا والصين وغيرها، ولا في سورية ومصر وليبيا والجزائر وغيرها.

وإذا كنا عمليين وواقعيين ومنطقيين، وكان نظام الدولة رئاسياً، وليس شكلياً ولا صورياً، ولا ملكياً رمزياً، لأدراكنا حقيقة ضرورة وجود الرجل على رئاسة الدولة، للأعباء الجسيمة التي تقع على عاتقه حتى نسمع أن رؤساء الدول العظام لا ينامون إلا حوالي أربع ساعات في اليوم، مع الحاجة للقرارات الحازمة، وللحسم في الأمور الخطيرة السياسية والعسكرية والحربية والعلاقة مع سائر الدول، وقيادة الجيش، وتولي الدفاع والقتال ضد العدو.

وإن ظهور بعض النساء اللواتي توفرت فيهن هذه الصفات والمزايا، وبرزن على مسرح السياسة، مثل تاتشر (رئيسة وزراء بريطانيا) فهو نادر، ويقل تكراره، ويكاد أن يمثل واحد بالمليار من سكان العالم، ولا يقاس عليه، ويقول علماء الفقه والقانون العبرة للغالب الشائع، ولا عبرة للنادر.

٤- إن المرأة تملك شرعاً حق الانتخاب والترشيح للمناصب السياسية والبرلمانية وغيرها، وهو ما يتم عملياً في معظم البلاد العربية والإسلامية اليوم.

وإن منعها في ذلك في السعودية مثلاً، أو الكويت، فهو لأسباب محلية، وتقاليد عرفية، وظروف خاصة بهم، وليس لنص شرعي.

وعندما سمح للمرأة في البحرين مثلاً للترشيح والانتخاب في المجالس

البلدية والنيابية منذ سنتين، لم تنجح امرأة واحدة، لعدم ثقة المرأة بالمرأة من جهة، ولعدم ثقة الرجل بالمرأة، في تولي هذه المناصب، بحسب ظروفها وأهليتها وخبرتها، وليس لنص شرعي.

سابعاً– تعداد بعض حقوق المرأة[1]:

١– الحقوق الأساسية للرجل هي نفسها الحقوق الأساسية للمرأة مائة بالمائة شرعاً وعقلاً، وهي:

آ – **حق الحياة،** وما يتفرع عنه من حرمة القتل والانتهار، وعدم الإذن بالقتل، وإباحة المحظورات للرجل والمرأة للحفاظ على الحياة، مع الحرص على الكرامة الإنسانية، وحرمة إفناء النوع البشري، للرجل والمرأة، وحرمة الإنسان الميت ذكراً وأنثى.

ب– **حق المساواة** أمام الشرع والقانون، وما يتعلق بالوحدة الإنسانية، ومنع وتحريم ممارسة التفرقة العنصرية للرجل والمرأة على حد سواء.

ج– **حق الحرية** الثابت قطعاً للإنسان، رجلاً وامرأة.

د– **حق التدين،** والاعتقاد، والتسامح، وممارسة ذلك في بيوت العبادة، والمعاملة الإنسانية والردة، والدخول في الإسلام وغيره.

٢– الحقوق السياسية: وهي ثابتة للرجال والنساء على حدَّ سواء إلا ما ندر أو إلا ما استثني، مع أن هذا الاستثناء وارد شرعاً وعقلاً وقانوناً في جميع الأنظمة والشرائع والقوانين، وتشمل الحقوق السياسية تعداداً.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا «حقوق الإنسان في الإسلام» ص ١٨٣–٣٣٦، وهو مقرر في عدة كليات، ونال جائزة أفضل كتاب عن حقوق الإنسان في الإسلام.

أ- **حرية الرأي والتعبير،** وحرية الاجتهاد في الشرع والدين، والمشاركة في حق تقرير المصير، وهو مقرر للرجال والنساء على حد سواء.

ب- **حق الشورى،** وهو ثابت للمرأة، ومارسته عملياً منذ العهد النبوي والعهد الراشدي، وطوال التاريخ الإسلامي، والأمثلة أكثر من أن تحصى، علماً بأن الشورى في الإسلام -كما سبق- أعم وأشمل وأوسع من مثيلها في الديمقراطية، وأنه يجب استشارة المرأة والزوجة والبنت والأخت والموظفة والعاملة حيثما وجدت المرأة، ولا يجوز شرعاً أن تهمش وتهمل وتوضع على الجانب أو الخلف.

٣- حقوق الأسرة: والمرأة كالرجل بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ مع المساواة في التكليف والأهلية والحقوق والواجبات، وينفرد الرجل بحق القوامة بمعناها الشرعي الصحيح، وليس الشائع الباطل بين الناس، ولأسباب منطقية وعقلية وتربوية وواقعية، وهو الثابت في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وفسرت في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، ثم تنفرد المرأة بحقوق تتعلق بذاتها وطبيعتها وأنوثتها، كحق الأمومة، وحق الحضانة، وحق الرضاع وغيره.

٤- حق الشيخوخة: وهو ثابت للمرأة كالرجل تماماً إن لم نقل تمتاز المرأة شرعاً في شيخوختها عن الرجل باعتبار الأمومة.

٥- حق التعليم والتربية، وقد شرحناه سابقاً، وأن حق التعلم والتعليم ثابت للمرأة، بل تنفرد المرأة بخصوصيات زائدة في التربية والتعليم، سواء كان ذلك في البيت أو المدرسة أو المجتمع.

٦- **حق العمل**: وشرحناه سابقاً، وأن العمل المقدس المنتج السامي الفريد للمرأة هو في بيتها، وهو الأساس، ويحق لها العمل خارج البيت عند الحاجة، وحسب الظروف، دون مانع شرعي أو قانوني ضمن الآداب والأسس التي بيناها.

٧- **حق التملك**: وهو ثابت للمرأة كما ذكرنا ذلك في أهلية المرأة، وحقها في التصرف بملكيتها، والاستفادة منها، واستغلالها، كما تشاء بإرادتها المنفردة كالرجل.

٨- **حق المواطنة**: ويشمل حق التنقل في الوطن وخارجه، وحق اللجوء، وهذا ثابت للمرأة كالرجل.

وفي هذا المجال تبين السنة النبوية كيف منح الرسول ﷺ حق إعطاء الأمان للمرأة، وهو ما يساوي تأشيرة الدخول للبلاد مع الحماية الكاملة المضمونة بشكل كامل من الدولة وجميع الأفراد لمن تعطيه المرأة حق الأمان، وذلك في قصة أم هانئ رضي الله عنه، وقول الرسول ﷺ لها «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

◈الخاتمة:

١- إن الحقوق الأساسية وغيرها مكفولة للمرأة، وثابتة وأكيدة.

٢- إن اتساع الحقوق وشمولها للرجل والمرأة تخضع لقواعد ومبادئ وحسب الاحتياجات للرجال والنساء.

٣- إن ممارسة أي حق في الدنيا -شرعي أو قانوني- مقيد بحدود يجب الالتزام بها، ويجب عدم مجاوزتها، فالحقوق ليست مطلقة، وتنتهي حرية الشخص بممارسة حقه عندما تبدأ ممارسة حرية الآخرين، والحق المطلق

مفسدة مطلقة، وفي ذلك أمثلة:

أ - حق المرور مقيد في الدنيا والعالم بنظام وأحكام لا يمكن مخالفته.

ب- حق الزواج الثاني مقيد في الإسلام، وممنوع في أوربا للرجال والنساء مع فتح باب الزنا عندهم على مصراعيه دون السماح بالزوجة الثانية، وفي الشرع يختلف حق التعدد بين الرجال والنساء لأسباب منطقية وعقلية وشرعية.

ج- حق الطلاق مقيد في الإسلام، وكان ممنوعاً في أوربا ثم فتح بدون ضوابط ولا قيود حتى أصبح مهزلة، ومثيراً للضحك والسخرية.

د- حق تحويل النقود وحملها في الولايات المتحدة مقيد بعشرة آلاف، بينما هو مسموح به ومفتوح في السعودية ودول الخليج بدون قيد.

هـ- الحق في العمل مقيد بشروط وأهلية وكفاءة وشهادة وترخيص رسمي، فلا يسمح لأي إنسان أن يفتح عيادة، أو صيدلية، أو مختبراً، أو كلية، أو جامعة، أو محلاً تجارياً، وحتى الحرفة، ومكتب المحاماة والخبرة.

فلا غرو من وجود شروط تطلب من الرجل أو من المرأة، فمن توفرت فيه مارس العمل والمهنة والحرفة والحق، وإلا منع من ذلك.

وهذا لا يعتبر امتهاناً، أو نقصاً للكرامة، أو تفضيلاً لجنس على آخر، أو لفئة على أخرى، أو تمييزاً بين الناس.

٤- إن كل حق من حقوق المرأة يحتاج إلى محاضرة، وهذه مجرد خواطر، وأفكار، ومعالم، وأضواء عن الموضوع، لنترك التفاصيل لمناسبات أخرى، وعند المداخلات، والإجابة على بعض الأسئلة[١].

---

(١) قدم بعض الحاضرين والمستمعين مداخلات وأسئلة، منهم الأستاذ الدكتور خضر زكريا الذي اعتبر المعلومات قراءة مستنيرة وتقدمية، خلافاً للتشدد والتشنج من=

ﮋﮊ

=بعض العلماء، وسأل عن رأي الدكتور شحرور في منع تعدد الزوجات، ومنهم الأستاذ المهندس مصطفى حديد الذي آثار بعض الجوانب السلبية لبلقيس ملكة سبأ في القرآن، وتساؤل عن حق المرأة في رئاسة الدولة، وشروط تعدد الزوجات، ومنهم الأستاذ الكبير المربي الفاضل مصطفى الحاج إبراهيم الذي أشار إلى النظام الأبوي ودور الأم عند العرب قبل الإسلام، وأجور المرأة العاملة في الغرب، وفضح الخدعة الغربية عما سموه تحرير المرأة ومكانة المرأة، ثم المهندسة أسماء عبود في عمل المرأة كرهان في المجتمع، وعدم ربط عمل المرأة بالإنجاب زيادة ونقصاً مع التأكيد عن فعالية المرأة في المترل.

وأرسل عدد من الحاضرات أسئلة كثيرة عن لباس المرأة، وعن مكث المرأة الحائض في المسجد للعلم والتعلم، وعن تغير الأحكام الفقهية بتغير الأحوال، ومحاولة الخطيب منع خطيبته في المستقبل عن العمل، ثم أسئلة فرعية وجانبية، واستفسارات كثيرة عن المرأة وحقوقها.

الفصل التاسع عشر

حوارات في المجلات

أولاً: شخصية العدد[1]

أ.د. محمد الزحيلي

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة

* البطاقة الشخصية؟

** البطاقة الشخصية: محمد الزحيلي، ولد بدير عطية بريف دمشق سنة ١٩٤١م، متزوج وعندي ثلاثة أبناء وبنت.

* كيف بدأتم مسيرتكم في طلب العلم؟

** المسيرة العلمية: بدأت في البيت والأسرة، ثم في أحد الكتاتيب، فالمدرسة الابتدائية، والثانوية الشرعية، فكلية الشريعة وكلية الحقوق بجامعة دمشق، ثم جامعة الأزهر وجامعة القاهرة.

* من خلال مسيرتكم لطلب العلم ما هي الصعوبات التي واجهتكم؟

** الصعوبات كثيرة أشد الصعوبات هي الغربة، الظلام الدامس الذي كان يخيم على الأمة في الخمسينات والستينات، عدم توفر الكتب بشكل كاف.

* ما هي أهم الأمور التي يلتزم بها طالب العلم لكي يحقق ما يرنو إليه؟

** الأمور التي يلتزم بها طالب العلم: الإخلاص، الجد والاجتهاد والعمل والمثابرة والإلحاح في طلب العلم، متابعة العلماء، فمن طلب العلا سهر الليالي.

---

(١) عبق الجامعة- العدد ٢٠، صفر ١٤٢٥هـ- أبريل ٢٠٠٤م- ص١٠.

* ما هي العقبات التي تعيق طالب العلم؟

** عقبات طالب العلم: الناحية المادية، الشك في المستقبل، التثبيط من الأقارب والزملاء، الغربة.

* ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم وبخاصة طالب العلم الشرعي؟

** صفات طالب العلم الشرعي: التقوى، الورع، الالتزام، الحرص على طلب العلم، ممارسة العبادات، التمرين على المهام العلمية والعملية.

* هل تجد في دخول كثير من شباب الأمة إلى العلم الشرعي أمل في رجوعه إلى عهدها الأول؟

** الأمل كبير في الإقبال على العلم الشرعي لتخريج الأئمة والخطباء والدعاة والمدرسين والباحثين في مستوى رفيع ولائق ومناسب للعصر ومتفق مع الناحية الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية.

* كيف ترى أوضاع الأمة؟ وما هي الأمور التي تساعد على رجوع الأمة لدينها؟

** أوضاع الأمة: الأمة الإسلامية اليوم لها صورتان أو وجهان: الأول مشرق ويبشر بالخير، وينطلق من الصحوة الإسلامية في المعاهد الشرعية والكليات الدينية والجامعات الإسلامية والفكر السديد والمرأة المسلمة الملتزمة، والشباب المتدين، والوعي الإسلامي الرفيع، والإذاعات الدينية والفضائيات الملتزمة.

الوجه الثاني: مظلم، يدعو للألم، ويظهر في الأنظمة والحكومات والمؤسسات والقنوات الفضائية والغزو الفكري، والتآمر العالمي، والحقد الدفين من الأعداء، والتمزق والتفرق بين المسلمين، والدعوات والنعرات

الطائفية والإقليمية والمذهبية والإباحية.

* ما ردكم على من يقول إن الإسلام يدعو إلى الإرهاب؟

** الإسلام يدعو إلى الخير والهدى والصلاح والعزة والكرامة والحرية والاستقلال وحقوق الإنسان، فهو إنساني الترعة والهدف والغاية، واتهامه بالإرهاب مجرد هراء وكلام فارغ وشعار يقصد فيه تشويه الإسلام، والنيل منه، والتنفير من دعوته، والوقوف في وجه الآلاف الذين يرغبون بالدخول فيه.

* ما هي مؤلفاتكم؟

** المؤلفات كثيرة: خمسة أعداد من أعلام المسلمين، أربعة كتب محققة، عشر كتب جامعية، عدة كتب فكرية وثقافية، عدة كتب مراجع ومصادر، والمجموع ٣٦ كتاباً، منها:

حقوق الإنسان في الإسلام- وظيفة الدين في الحياة- وسائل الإثبات- الوجيز في أصول الفقه الإسلامي (جزءان)- علم أصول الفقه- المعتمد في الفقه الشافعي- تحقيق شرح الكوكب المنير بالاشتراك (٤ مجلدات)- أدب القضاء (تحقيق)- تحقيق المهذب في الفقه الشافعي (ست مجلدات)- أعلام المسلمين: الطبري، الجويني، ابن كثير، البيضاوي، العز عبد السلام- شخصيات إسلامية- دراسات إسلامية- الفرائض والمواريث والوصايا- الاعتدال في التدين- الإسلام والشباب- فقه القضاء وطرق الإثبات- القواعد الفقهية- التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي- تاريخ القضاء في الإسلام- ستون بحثاً علمياً- مئات المقالات الثقافية والفكرية.

* ما هي نصيحتكم للأسرة المسلمة في وسط الفتن التي في عصرنا؟

** الأسرة هي المحضن الطبيعي للإنسان، والأسرة المسلمة أحد حصون

الإسلام المنيعة، وجوب الالتزام بالتربية الإسلامية، الالتزام بالآداب والأحكام الشرعية، والمحافظة على العبادات وقراءة القرآن، الحرص على تربية الأولاد وإعطائهم حقوقهم، حسن العلاقة والمودة والسكن بين الزوجين، بر الوالدين، صلة الأرحام.

* كلمة توجيهية لطلبة العلم الشرعي والدراسات الإسلامية؟

** الاعتماد على الله تعالى، وحسن الظن به، والثقة الكاملة بدين الله وشرعه، والمستقبل للإسلام والمسلمين، وجوب العمل والسعي والكسب والجد، والحذر كل الحذر من مكائد الأعداء ومؤامراتهم، الاحتياط من الغزو، تجنب المعاصي وما يغضب الله، مردداً قول الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى تــرك المعاصــي
وأخبرني بــأن العلــم نــور ... ونور الله لا يهــدى لعاصــي

مع كثر الدعاء، والرجاء من الله تعالى.

ثانياً: الإسلام أباح للمرأة ذمة مالية مستقلة[1] ومطلق التصرف في مالها

ما زالت قضايا المرأة محور اهتمام الكثير من المتابعين والمعنيين بشأنها، بين مختصين شرعيين وقانونيين ومطالبين بحقوق الإنسان، وبين نظرة إلى واقع الأمر وبين ما تؤكده شريعة السماء، تقف المرأة حائرة تتمنى أن تنال حقوقها كاملة.

وزادت معاناة المرأة عندما قررت أن تنزل مواقع العمل إما اضطراراً أو طواعية، وتبذل من الجهد ما يبذله الرجل سواء بسواء، فظنت أن وضعها قد تغير ونظرة الرجل إليها قد اعتدلت لمشاركتها في تحمل أعباء وتكاليف الحياة واعترافاً بالجميل.

ولكنها رجعت بعد ذلك بخفي حنين فلا هي بقيت في بيتها، ولا نالت ما كانت تصبو إليه، ويفهم بعض الأزواج أن الزوجة وراتبها حق مكتسب لهم لا يجوز لها أن تنفقه إلا بعد أن يمر عليهم ليروا فيه رأيهم، ومن هنا ظهرت العديد من المشاكل التي وصلت إلى حد الطلاق، أو التعايش معاً على مضض.

حول هذا الموضوع الذي يبحثه مؤتمر مجمع الفقه في دورته السادسة عشرة في دبي نحاور الدكتور محمد الزحيلي عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة والمشارك في المؤتمر.

وهو أحد الوجوه البارزة التي طالما دافعت عن حقوق المرأة، وله في هذا المجال مؤلف مستقل يحمل (المرأة في الإسلام قضايا وفتاوى) وكتاب (حقوق الإنسان في الإسلام) كما أنه يشارك في هذه الدورة بورقة بحثية بعنوان (عمل المرأة واختلاف الزوج والزوجة الموظفة) والتي سنجعلها مدخلاً للحوار معه.

---

(١) الضياء- العدد ٩٤- أبريل ٢٠٠٥م/ ربيع الأول ١٤٢٦هـ.

* ما الأسباب الموضوعية التي دعت إلى تناول هذا الموضوع؟

** حقيقة هناك العديد من الأسباب التي دعت المشرفين على هذه الدورة من مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي لتتناول موضوع الخلافات الزوجية وما يترتب عليها من التزامات إذا عملت المرأة، وأصبح لها وظيفة تحصل منها على راتب شهري سواء أنفقت منه على البيت أو على نفسها أو ادخرته لما يستجد من أمور الحياة، ولقد تبين للمهتمين بالقضايا الأسرية والمتابعين لشأنها كثرة الخلافات الزوجية المترتبة على هذه القضية بسبب عدم وضوح القضية في ذهنها لكثير من الناس وما نجم عن ذلك من ازدياد نسبة الطلاق بخصوص هذا الأمر، إضافة إلى المشاكل التي تحدث بين الزوجين وأطراف أخرى من العائلتين قبل الوصول إلى المحطة الأخيرة المؤلمة وهي الطلاق، كما أنه سيناقش كذلك ما يترتب على الطلاق من أحكام فقهية، مثل مدى أحقية الرجل في منع زوجته عن العمل، وهل تسقط نفقتها عن الزوج إذا عملت الزوجة سواء في حالتي رضا الزوج من عدمه، وما علاقة ذلك كله بمفهوم قوامة الرجل على المرأة.

* ولكن ألا ترى أن مثل هذا التناول في ظل الدعوات المطالبة بحقوق المرأة يؤكد ما يشير إليه البعض من تعدد وجوه الظلم الواقعة على المرأة؟

** في الحقيقة هذه القضية مشكلة وتسبب كثيراً من التوتر ليس عندنا ولكن عند الآخرين، ولا بد هنا من التفصيل، فليس من شك أن للمرأة حقوقاً، وللرجل حقوق وللمجتمع حقوق، ولكل شيء في هذا الكون له حق علينا، ولكن هذه مفاهيم عامة بمعنى أنه تأخذ أبعاداً أخرى عندما تتعامل مع الواقع وترتبط بغيرها، فالمرأة مفهوم عام له كافة الحقوق التي للرجل على حد سواء لا اختلاف بينهما البتة وفي الحديث النبوي الشريف ما يؤكد هذا

صراحة دون أي لبس قال ﷺ: «النساء شقائق الرجال» إنها المساواة التامة والكاملة، وليس التشابه الذي يطالب به البعض مستغلاً هذه الموضوعات وما اعتراها من لبس في تمرير ما يريده سواء أكان صواباً أم خطأ.

ومن هنا لابد أن نميز بين المرأة كمفهوم عام كما أشرنا سابقاً وبين المرأة في حال كونها بنتاً أو زوجة أو أماً أو غيرها؛ إذ لكل حالة مما سبق أحكامها الخاصة بها، فما يباح لهذه لا يباح لتلك، وأؤكد أن هذا ليس قاصراً عليها بل على الرجل كذلك سواء بسواء، فالرجل في حال كونه زوجاً تختلف الأحكام المتعلقة به عنها قبل زواجه، وعلى ذلك قس.

* نفهم من هذا أن حق المرأة في العمل حق عام لا يحق لأحد أن يمنعها عنه؟

** بداية نشير إلى أن النصوص الشرعية من كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ التي تبيح عمل الرجل وتدعو إليه تبيح العمل للمرأة كذلك، كما أن الإسلام قرر لها ذمة مالية مستقلة عن الرجل سواء أكان أباً أو زوجاً أو ابناً، وأباح لها مطلق التصرف في مالها بيعاً وشراء، و لم يجعل ذلك متوقفاً على إذن أحد كائناً من كان إلا إذا اقتضت الضرورة المنع في التصرف كما هو مقرر في مظانه، وهذا يؤسس لمطلق حق المرأة في حرية العمل والتملك وغيره من الممارسات المالية، ولكن أضع بين قوسين (كمفهوم عام) في العمل.

ولا شك أن بعض من منع المرأة من الخروج إلى العمل استند في ذلك إلى أصل سد الذرائع وذلك لما رآه من المفاسد وما ترتب عليها من تضييع حقوق الزوج أو الأسرة وغيرها، وهو أصل لا يمنع الأمر من بابه ولكن يستند إليه في الحالات التي تقتضي ذلك.

* ولكن كيف يمكن التوفيق بين كل هذه الدعوات التي تموج بها الساحة الثقافية والفكرية وللخروج بصيغة لا نقول ترضي جميع الأطراف،

ولكن تقرب وجهات النظر؟

** إن الإسلام دين السماحة واليسر، ولم يجعل الله تعالى فيه أي مشقة أو عنت على أحد، والأصل المقرر أن الأمر كلما ضاق اتسع، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ومن خلال هذا المعيار لا بد أن ننظر إلى قضية عمل المرأة.

وهنا لا بد من التخصيص ورؤية كل حالة على انفرادها إذ التعميم يسقطنا في إشكاليات كبيرة، وقد قررنا من قبل أن عمل المرأة حق لها، ولكن كما أن لكل إنسان حق في وظيفة تخصه لا يتجاوزها، ودساتير العالم تبيح حرية العمل ولكنها من جهة أخرى تقيدها بطبيعة الوظيفة ومدى جدواها وأهميتها وإمكانيات الشخص فيها وغير ذلك من أسباب، فرغم أنها تبيح هذه الحرية عامة إلا أنها تقيدها وتؤطرها من جهة أخرى بحيث تحقق المصلحة العامة.

لذا لا بد عندما نتعاطى مع عمل المرأة وما يتعلق به أن ننظر إليه من زوايا عديدة بحيث لا نعتدي على حق من الحقوق من أجل تقرير حق من جهة أخرى، والنظر هنا في الأولويات والمقارنة بين المصالح والمفاسد، والأصل في ذلك كله أن درء المفاسد واجتنابها مقدم على جلب المصالح واكتسابها.

ومن هذا المنطلق علينا أن نراعي أن أولى وظائف المرأة وأهمها على الإطلاق هي رعايتها لبيتها وزوجها، وإن في منطوق الحديث النبوي الشريف أوضح الدلائل التي لا تحتاج إلى تفصيل، قال عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها...، ولنمعن النظر في قوله في بيت زوجها، ما أروع

اللفظ النبوي الشريف الذي أوتي جوامع الكلم، وليسمعه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وكل إنسان على نفسه بصيرة، ثم لها أن تختار العمل في المجال الأنسب لها مع التزامها بقواعد الشريعة وأحكامها وآدابها دون أن تحيف أو تعتدي على الأصل العام المذكور في الحديث.

* ألا ترى أن في هذا إلقاء لمسؤولية الأسرة على كاهل المرأة دون الرجل؟

** من قال ذلك، هذا قد يكون من سوء الفهم إذ عندما نتناول قضية من دون ذكر طرفها الآخر كأنا بذلك نلقي المسؤولية عليها وهذا ليس بواقع، وإن العلاقات الإنسانية ليست جامدة أو محددة بشكل مرسوم يمكن فصل بعضه عن بعض بل هي متداخلة قد تكون في تكامل أو تصارع أو غيره، فالمرأة في العموم لن تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل إلا إذا أدى الرجل وظيفته على أكمل وجه، والحديث الشريف يوضح مسؤولية الرجل عن أهله من زوجة وأولاد وآباء وغيرهم حسب ما ألزمه الشرع، فإن لم يؤد وظائفه كما ينبغي فالمرأة ستكون هي الأخرى الوجه الآخر من الصورة أو العملة.

* في ظل تنامي تناول قضايا المرأة المسلمة والتي أثبت لها العديد من الأحكام الشرعية والحقوق التي كانت غير متداولة إلا في أضيق الحدود سابقاً، هل يمكن القول إن وضعها القانوني أو الشرعي أو الاجتماعي قد تغير؟

** ليس الأمر بهذا العموم، ولكن كثيراً من الأعراف والمفاهيم والتقاليد والعادات قد تغيرت، إضافة إلى حقيقة لا بد أن نقررها، وهي أن ظلماً كثيراً وقع على المرأة في السابق بحرمانها من التعليم أو حقها في اختيار من سترتبط به، أو حتى رؤيته قبل ليلة الزفاف، وحرمانها من الميراث والحجر عليها في اختيار الزوج.

وكل ذلك يرجع إلى سوء فهم الشريعة وما يتعلق بها من أحكام، وسيطرة الأعراف والتقاليد في تفسيرها، فلم يعد شرع الله هو المهيمن والمسيطر على سلوكنا وتصرفاتنا بل صارت هذه الأعراف والتقاليد التي لا بد أن تخضع لمعيار الشرع وأحكامه فما كان من صواب يتفق معها قررناه وما خالفه تركناه، وألا نكون كمن قال إننا وجدنا آباءنا على أمة وإن على آثارهم لمقتدون.

وأؤكد أننا لو تعاملنا مع قضايا المرأة أو أي قضية أخرى من خلال الفهم السليم والسديد لشرع الله تعالى الحكيم الخبير لما وقعنا في مثل هذه الارتباكات الفكرية أو التناقض الحادث، الإسلام قد أعطى المرأة حقها كاملاً أماً وبنتاً وزوجة، ولكن المشكلة تنجم عن قياسنا بما نالته المرأة في الغرب من حقوق أراها شكلية بعد ظلم وحيف تعرضت له حتى في التصور الديني عنها عندهم فهي نجسة أو تمثل الشيطان أو هي التي أخرجت آدم من الجنة، وقد برأها الله في كتابه العزيز من كل هذا، وأشار القرآن إلى نماذج من النساء ليكن قدوة لنا في جميع المجالات، فمريم المرأة العابدة، وامرأة الفرعون التي جاهدت الظلم، وملكة سبأ التي قادت شعبها إلى ما فيه مصلحته، وبنت شعيب التي أحبت فعفت في طلبها حتى نالت ما تمنت، وغيرها من النماذج التي إن تدبرناها كانت دافعاً قوياً أن تصبح هي نصف المجتمع وتنجب نصفه الآخر وهي أهم أسباب نهضة أمتنا، فالمرأة هي أساس سعادة أي مجتمع ومنبع عزته وتقدمه، وصدق من قال:

الأم مدرســـــة إذا أعـــــددتها   أعددت شعباً طيب الأعـــراق

* في المرحلة الراهنة وفي ظل مختلف المعطيات الاقتصادية والاجتماعية كيف يمكن أن تحقق قوامة الرجل، لاسيما في ظل تساوي النفقات من الزوجين أو تكون المرأة هي المنفقة في البيت؟

** سؤالك هذا يطرح بشكل غير مباشر ما يمكن أن نسميه سوء الفهم لمفهوم القوامة ومعرفة أبعاده وأحكامه، لاسيما في ظل القراءة الجزئية للآية الشريفة أو قراءتها بعيداً عن مجمل النصوص والأحكام الشرعية على مبدأ من يقول: ويل للمصلين ويقف دون أن يكمل الآية ومن هنا يحدث اللبس.

والقوامة أولاً هي تكليف وليست تشريفاً، ومسؤولية وليست منصباً، وهي أن يقوم الرجل على أمر المرأة بالرعاية والتدبير وذلك كما أشارت الآية الكريمة بما فضل الله بعضهم على بعض من العقل والخبرة، إضافة إلى ما ألزم الله به الرجل من الإنفاق عليهن، ومن هنا يأت المفهوم الدقيق للقوامة، أما ما يتصوره البعض من مطلق السيطرة عليهن وفرض آرائه وما يريده فهذا ليس من القوامة في شيء إذ كما وهبه الله تعالى القوامة ومقتضاها، ألزمه من جهة أخرى بالتقوى والعدل والمعاملة بالمعروف، ومن هنا تظهر حقيقة القوامة جلية عمادها التفاهم ولحمتها إعزاز المرأة وتكريمها وحفظ كيانها فهي محط عرضه ومنجبة أولاده ومربية فلذات كبده وحافظة ماله.

كما نريد أن نؤكد أن قوامة الرجل لا تسقط بإنفاق المرأة على الزوج أو على البيت إذ هي تفعل ذلك طوعاً منها غير ملزمة به.

* ما مدى حدود الزوج في أن يمنع المرأة من العمل؟

** وفي المسألة تفصيلات، فأول ما يجب علمه، أن الرجل ملزم بتوفير كافة احتياجات المرأة حسب ما يسر الله تعالى له طالما أنه بذل كامل الجهد في الحصول على الرزق، فإن تزوج و لم تشترط عليه المرأة أن تعمل فمن حقه منعها عن العمل لاسيما إن تعارض ذلك مع مصلحة الأسرة، وأما إن اشترطت عليه قبل أو أثناء عقد الزواج بأن يكون لها حرية العمل، فهنا يجب عليه أن يلتزم بما شرط على نفسه، إذ الشرط شريعة المتعاقدين، وإن هذا شرط خاص، ومن هنا

نوصي النساء إذ أردن الزواج وكن محبات للعمل أن يشترطن ذلك في العقد، حتى يكون الزوج على بينة من أمره قبل أن يرتبط بها.

كما نوصي المرأة من جهة أخرى بأن الحياة الزوجية هي شراكة بين رجل وامرأة لتكون نواة صالحة في المجتمع، وهناك من الوظائف ما لا يمكن أن يؤديها عنك غيرك، فتربية الأولاد ليست تقليلاً من شأنها، أو تبخيساً لحقها، وعليه يجب عليها أن تنظر للأمرين وتزن بينهما بميزان الشرع الحنيف، وأن الأسرة إذا فقدت ماهيتها فقد المجتمع هويته، وقد رصد هذا الأمر رئيس الاتحاد السوفيتي سابقاً جورباتشوف في كتابه البرويساتيكا إن روسيا فقدت أعظم وأهم مقومات وجودها عندما خرجت المرأة للعمل، على ما نقله الأستاذ عبد الحليم أبو شقة في كتابه (تحرير المرأة في عصر الرسالة).

* في الأخير، ألا ترى أن في هذا التقاء مع دعاة تحرير المرأة؟

** إن منطلقنا في هذا الموضوع قد يتفق مع بعض جوانبه مع ما يدعو إليه دعاة تحرير المرأة ونختلف معهم في أشياء أساسية وجذرية، فحرية المرأة بالنسبة إلينا هي أن تعيش في ظلال الشريعة، وأن تتمتع بما أباحه الله تعالى لها، ولسنا نقارن بين وضعها في الغرب وبين المرأة في الإسلام، إذ لا بد أن ندرك حقيقة وضعها هناك من خلال سياق وجودها التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والقانوني، فقد حررت هناك لتستغل، أما حرية المرأة في الإسلام فتتمثل في تكريمها وإعطائها حقها غير منقوص، وإن الموضوعيات من الباحثات الغربيات ليطالبن الآن بأن تتساوى المرأة الغربية مع المرأة المسلمة في حقوقها المكتسبة.

ثالثاً: حوار حول المعاهد الشرعية والمجامع والموسوعات الفقهية[(1)]

في حوار تميز بالتوجيهات الحكيمة لطلاب العلم الشرعي، وبالرصد الميداني لمكانة العلم والعلماء في المجتمع، سلط الدكتور محمد الزحيلي- في الشق الأول من الحوار- الضوء على واقع المعاهد والكليات الشرعية في العالم الإسلامي، وحدد فيه دور طالب العلم تجاه نفسه ومجتمعه، وحمّل -بالمقابل- المؤسسات والموسرين من المسلمين مسؤولية كفالة طالب العلم وكفايته. أما في الجزء الثاني من الحوار فتحدث عن المجامع والموسوعات الفقهية.

أولاً: المعاهد الشرعية:

١- «منبر الداعيات»: من خلال خبرتكم الطويلة في عدد من المعاهد والكليات الشرعية، كيف تقوّمون المستوى العام.

* إن المعاهد والكليات الشرعية ضرورة وحتمية، وهي أحد روافد الفكر الإسلامي الخالد وتمثل اليوم -بعد تعددها وكثرتها في العالم الإسلامي- صورة من صور الصحوة الإسلامية، وعودة المسلمين إلى دينهم وشرعهم، وحرصهم على تعلُّمه ومعرفته، وبذلهم بعض ما يملكون في سبيله، فحرص المفكرون على فتح المعاهد الشرعية، وإنشاء كليات الشريعة، وتلقوا الدعم المادي والمعنوي من سائر المسلمين، على المستوى الفردي والرسمي.

وأن المستوى العام للمعاهد والكليات يمثل الحد الأدنى المطلوب، وهذا باعتبار الواقع أمر ممتاز إذا وضعنا بالاعتبار الظروف القاسية، والنكبات الشديدة، وتكاليف الإعداد، وتخلف المسلمين، كما أن هذا المستوى المتواضع

---

(١) منبر الداعيات- العدد ٦٠- ربيع الآخر ١٤٢١هـ- تموز ٢٠٠٠م.

يعتبر مرحلة أولية، ويمكن للدعاة والعلماء والمخلصين أن يرفعوه، ويسعوا إلى النهوض به، وهو الأمل المرتقب بمشيئة الله تعالى.

٢- «منبر الداعيات»: هل تفي المناهج التي تتبعها هذه المعاهد بحاجات طلاب العلم بحيث تعمل على تخريج علماء متفوقين قادرين على النهوض الحضاري والتحدي الثقافي والتجديد الفقهي؟

* إن المناهج تمثل أحد جوانب التربية والتعليم، ومهما كان مستوى المناهج -قوياً أو ضعيفاً- فإنه يتوقف على سائر الجوانب من الكتب المدرسية، وخاصة المدرّس الذي يُعتبر قطب الرحى في العملية التعليمية، ويمكنه أن يقوم المنهج، ويعدّله، ويرفع من مستواه، ويسد الخلل الذي فيه، ويبث الحياة في جنباته، وهذا لا ينحصر بالمدرس الخاص في المعهد أو الكلية، بل يمكن الاستعانة -بل يجب الاستعانة- بالرديف من العلماء والمفكرين والدعاة الآخرين، المنقطعين للتدريس المجاني في المساجد، والبيوتات العلمية، والندوات، والمؤتمرات، كما أن هذا يتوقف على الركن الثاني من أركان التعليم، وهو الطالب، فإن كان نجيباً، ذكياً، متفوقاً، نبيهاً، متمكّناً، مخلصاً، توفر لديه الإمكانات المادية والمعنوية، فإنه يستفيد من المناهج -مهما كان مستواها- ثم من الرديف لها، وقد يتجاوزها، ويكوّن نفسه علمياً وثقافياً، ويحصن نفسه بالذخيرة العلمية، والمستوى الرفيع ليكون عالم المستقبل، وهو ما نراه عملياً على الساحة من كبار العلماء والدعاة والمفكرين، وإن كانوا قلة، فنرجو الله أن يزيدهم عدداً وعدّة، وإلا فإن توقفنا عند المناهج والمدرسين المتوسطين والطلاب العاديين، أو ما دون المستوى، فإن ذلك يمد الساحة الإسلامية بالخطباء، والوعاظ، والمتكسبين فقط، وتبقى الأمة فقيرة بالعلماء المتفوقين المطلوبين لهذا العصر، وبالدعاة الذين يحملون عبء الرسالة

الثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وخاصة في الظروف التي تحيط بالمسلمين، ومع ذلك يبقى الأمل بالله تعالى، وبوعد رسول الله ﷺ أن يتوفر -ولو بالحد الأدنى- من الدعاة والعلماء، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأت أمر الله وهم ظاهرون» والواقع يشهد لهذه الحقيقة الإيمانية في كل عصر، وفي وقتنا الحاضر خاصة.

٣- «منبر الداعيات»: أيُّ الجنسين -بحسب ملاحظتكم- أكثر إقبالاً على طلب العلم الشرعي: الذكور أم الإناث؟ ولما برأيكم؟ وهل درجة التفوق محصورة بفئة دون أخرى؟

* لا نستطيع أن ننكر الحقيقة، والواقع أن الجنسين: الذكور والإناث يُقبلون على طلب العلم الشرعي، كما هو الأمر في العهد النبوي، والراشدي، ومن بعدهم، ولكن كانت المرأة مغيّبة في العقود الماضية في التعليم الشرعي وفي الدعوة، وكان يندر وجود معهد شرعي للإناث، وقد تحقق ذلك أخيراً، كما ظهرت الدعوة النسائية على الساحة الإسلامية بشكل طيب، وبدأت دروس النساء تأخذ دورها، وتعطي مفعولها، فتساوى الأمر -في رأيي- بين الذكور والإناث، وإن كان التفاوت فردياً أحياناً، فنجد بعض الذكور في قمة الحماس، والإقبال، والأخذ، والجلوس بين يدي العلماء، ونجد بعض الإناث يتمتعن بهذا المستوى الرفيع، مع العاطفة الجياشة، والإخلاص الاندفاعي، ولكن عددهن أقل، كما أن الظروف التي تحيط بهن أثناء الطلب، أو الانشغال بأمور الزواج والأسرة، وتربية الأولاد، يحدُّ أحياناً من عملهن ونشاطهن، ولا يعدمه.

٤- «منبر الداعيات»: ما هي واجبات طالب العلم الشرعي، تجاه العلم الذي يطلبه؟ وتجاه نفسه ومجتمعه؟ وكيف يتمثل دوره في الدعوة إلى الله؟

* طالب العلم الشرعي كالمجاهد في سبيل الله، أجره عظيم، وفضله عند الله كبير «يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوله..» وهو من ورثة الأنبياء، وعليه واجبات كثيرة، منها واجبه تجاه العلم بأن يخلص له، وينكبَّ عليه، وينهل من معينه أقصى قدر ممكن، ويحرص على احترامه والتزود منه بدون حد، ويبذل له كل طاقاته وإمكاناته، فالعلم بحر لا ساحل له، وإن أعطاه الإنسان كله أعطاه بعضه، وإن حصيلة الطالب العلمية هي رأس ماله في الدنيا والآخرة، وفي الدعوة والعمل، وبمقدار إتقانه يرتقي في الدنيا والآخرة، ويرتفع شأنه، وتعلو مكانته، ويزداد عطاؤه، ويرتاح في مستقبل أيامه، وهذا نفسه واجبه نحو نفسه.

وواجبه نحو مجتمعه أن يكون طالب العلم ملتزماً ومطبقاً للعلم الشرعي، ليكون داعية بقوله وفعله، وليكون متميزاً بهذا العلم ذاته، وليس بشيء سواه، وأن يبذله لمجتمعه ويمارس هذه الدعوة أثناء طلب العلم، ليتمرن على ذلك فيما بعد، ويكون آخذاً ومعطياً، ولأن العلم الذي يبذله لغيره يرسخ في نفسه ويفيد غيره، وكل شيء ينقص بالعطاء إلا العلم فإنه يزيد به.

كما يجب أن يمارس الدعوة بنفسه، وبحسب إمكاناته، وأن يكون دائماً مع الدعاة والعلماء والمفكرين ليزيد سوادهم، ويقتبس منهم، ويتمرن على أيديهم، ويشارك بأعمال الدعوة حسب مستواه في السن والدراسة، وهكذا يرتقي شيئاً فشيئاً، ليبلغ القمة، ومن طلب العلى سهر الليالي، ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر، ويجب أن يتحسس أمور الأمة والمجتمع، ويتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه رب العالمين، في حمل الأمانة، وأداء الرسالة.

٥- «منبر الداعيات»: هناك فكرة اجتماعية راسخة في عقول الكثيرين، وهي أن شهادة العلوم الشرعية (لا تطعم جائعاً) وأن طالب العلم عالة على

المجتمع، والحق أن بعض الطلاب، والمتزوجين منهم خاصة، يكرسون هذه النظرة لما يظهر منهم من تقصير تجاه أسرهم: كيف نُزيل هذه الفكرة من عقول الناس؟ وما هو دور المؤسسات الإسلامية في تأمين كفاية طالب العلم الشرعي وحفظه من ذل السؤال؟ وما هي النصائح التي تقدمها لطالب العلم في هذا المجال؟

* إن هذا واقع للأسف الشديد، سواء كان بحسن نية، أو خبث طوية، وإن واقع كثير من الدول والحكومات تعطي الموظف الشرعي راتباً زهيداً وأجراً رمزياً، وهذا لا نحسن الظن به، وهو من التآمر الداخلي والخارجي على العاملين بالمجال الديني، وإن الحصار يُفرض عليهم في الدوائر والمؤسسات، وهنا يظهر أيضاً تقصير الأغنياء والمؤسسات الإسلامية في هذا المجال، لأنها نائمة، أو تفترض في العالم الديني الفقر والزهد، وكأنه يأكل من السماء، في الوقت الذي تنهال فيه المليارات على رجال الدين في الأديان الأخرى، وترصد لهم الميزانيات التي تتسامى عن ميزانية الدولة.

ولكن يجب أن يعلم طالب العلم الشرعي، والناس جميعاً، أن رزق هذا الإنسان مقدّر ومحدود من الله تعالى قبل أن يولد، وهو في رحم أمه «فيأتي إليه الملك، ويؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد» وأن رزقه هذا المحدد لا يتغير سواء اشتغل بالعلم الديني أو بالطب أو بالهندسة أو بالتجارة، فالأطباء بعضهم أثرياء، وبعضهم وسط، وبعضهم دون الوسط، وكذلك المهندسون والتجار.. بل وكذلك علماء الشرع فبعضهم أثرياء، وبعضهم وسط وبعضهم فقراء، وهذه سنة الله في خلقه، كما يعتمد التوسع بالرزق على العمل والعطاء، والمستوى العلمي، والإنتاج، مع الإقرار أن كثيراً من المسلمين لا يقصرون تجاه العلماء والخطباء والوعاظ، ولكن مقابل

عملهم، وليس من أجل الادعاء والتظاهر بالمظاهر والشكل.

وإن الإسلام لا يقبل من عامة المسلمين بالخمول والكسل والذل، بل أوجب العلم، وربط الرزق بالكسب، ويمكن للعاملين في المجال الديني أن يمارسوا أعمالاً إضافية مع الإمامة والخطابة والوعظ، سواء كان عملاً علمياً كالمشاركة في كتابة المقالات والمجلات، والتأليف، والتحقيق، والتدريس في المدارس والمعاهد، والدروس الخصوصية حتى في تعليم القرآن، والتلاوة والدروس الدينية فقد أجاز العلماء أخذ الأجر على ذلك، أو كان العمل غير علمي كالمهن في التجارة وغيرها، فقد كان كثير من سلفنا الصالح من كبار العلماء، وبعضهم حداداً، أو بزازاً (يبيع البز وهو القماش) أي التجارة، وبعضهم يعمل الأقفال كالقفّال الشاشي الكبير، والقفال الصغير وغير ذلك، كالساعاتي قديماً وحديثاً، كما يجب على الأغنياء والموسرين والمؤسسات الدينية أن تدعم كل من يعمل في الدعوة، سواء كان طالباً أم موظفاً أم داعية، ويجوز أن يُخصص لهم سهم من الزكاة، وهو سهم في سبيل الله، وهو للدعوة والجهاد، وإذا علمنا أن بعض الأثرياء يعمل الحفلات الخاصة والعامة التي تكلف المبالغ المرقومة، فعليه أن يخصص مثل ذلك في سبيل دينه، والداعي له، وكذلك يتبرع كثير من الأغنياء لجهات متعددة، فيجب أن يحسب حساب الدعوة والدعاة.

ثانياً: المجامع والموسوعات الفقهية:

١- «منبر الداعيات»: متى نشأت فكرة تأسيس المجامع الفقهية؟ ومن له الدور الأبرز في تأسيسها؟

* هناك مجامع فقهية (وإن اختلفت التسمية والكيفية) في التاريخ الإسلامي، ولكنها برزت من جديد في العصر الحاضر، لتحاكي مجامع اللغة

العربية وغيرها، وأظن -فيما أعلم- أن أول المجامع الفقهية المعاصرة هو مجمع البحوث الإسلامية بجمهورية مصر العربية في القاهرة، وتأسس في الستينيات من القرن العشرين الميلادي، وكان بمبادرة من الجامع الأزهر الشريف، وجامعة الأزهر، بالتعاون مع وزارة الأوقاف، والجهات الرسمية، ثم انتشرت فكرة المجامع، ومن أقدمها: هيئة كبار العلماء في السعودية، ثم مجمع الفقه الإسلامي الدولي، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، والمجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة، والمجمع الملكي الأردني-. آل البيت، بعمان الأردن، ومجمع الفقه الإسلامي في الهند، وأخيراً -وليس آخراً- مجمع الفقه الإسلامي بالولايات المتحدة، وكان الدور الأبرز لتأسيسها هو لكبار العلماء والدعاة والمفكرين الذين يطرحون الفكرة على الجهات الرسمية، فتعمل على تنفيذها.

٢- «منبر الداعيات»: هل تواكب هذه المجامع متطلبات العصر الحديث، وحاجات أهله، مع عدم الإخلال بالحكم الشرعي وعدم الترقيع به وتطويعه ليتناسب مع أهواء الناس، أو ضغوطات الحكام؟

* إن المجامع الفقهية في أول الطريق، وهي حديثة النشأة، ولذلك فإن دورها لا يزال محدوداً وقاصراً وهي في طريق النمو والكمال، وهي في صورتها الراهنة لا تفي بحاجات العصر وأهله، والسبب الرئيسي في ذلك هو عدم تفرغ العلماء فيها للعمل المتواصل، وخاصة أن مستجدات العصر تتدفق بالآلاف وتحتاج لجهد كبير، وتفرّغ كامل لملاحقتها وبيان الحكم الشرعي فيها، ولذلك فهي تواكب جزئياً بعض متطلبات العصر، وخاصة في مجال المعاملات المصرفية والاقتصادية والمصارف الإسلامية.

وإن قرارات المجامع -في الأغلب- موافقة للحكم الشرعي، وتندر فيها الأهواء، ورغم ممارسة الضغوط الرسمية أحياناً فإنها تلتزم بالأقوال التي تتفق مع

أصول المذاهب الإسلامية، مثل موضوع التأمين والربا وتحديد النسل الذي عُرض في الستينيات، وصدرت القرارات مخالفة للتوجه الرسمي، وممارسة الضغوط للحياد عن الحق، وهذا لا ينفي أحياناً السكوت، أو المجاملة، أو التأثر بضغوطات الحكام.

٣- «منبر الداعيات»: أين تكمن أهمية الموسوعات الفقهية؟ وما هي مدى أهمية النتائج الفقهية التي يتوصل إليها الباحث بالرجوع إليها سواء في المسائل القديمة أو المستجدات الفقهية؟

* إن الموسوعات الفقهية ذات أهداف متعددة، وقد يختلف منهج بعضها عن بعض، ولكن تكمن أهميتها -بشكل عام- بحسن صياغة الفقه الإسلامي الزاخر بأسلوب معاصر وحديث أولاً، وبالمقارنة بعرض أقوال المذاهب الفقهية ثانياً، وبحُسن الترتيب والإخراج والطباعة ثالثاً، وبتلخيص الكتب الفقهية، والآراء المذهبية رابعاً، وببيان الدليل للحكم والتعليل خامساً.

وأما النتيجة التي يتحصل عليها الباحث بالرجوع إليها، فهذا يختلف أمره بالنسبة للمسائل القديمة، والمستجدات المعاصرة، أما بالنسبة للقسم الأول فإن الموسوعة تعطي الباحث المفتاح فقط بتلخيص الأفكار والآراء والأقوال والأدلة، ثم بتحديد مناطق البحث ومراجعه ومصادره، ليقوم بعد ذلك بالرجوع مباشرة إلى المصادر الأصلية في كل مذهب، والكتب المعتمدة فيه، واستخراج سائر الأدلة، والتوسع في الموضوع، والتفنن في العرض والخطة والمنهج حسب هدفه وغايته من البحث، مع الاستفادة من حسن الترتيب في الموسوعة والاستئناس بمنهجها في العرض.

أما بالنسبة للمستجدات المعاصرة فإن الموسوعة تعتبر المصدر الأساسي

لذلك، لأن الباحث لم ولن يجد مسائل هذه المستجدات في الكتب القديمة، وقد يتعذر عليه معرفة الكتب والدراسات التي يتناولها، وهنا يستفيد بشكل مباشر من الدراسة الجادة والمعمقة لهذه المستجدات، وإن كان عرضاً مختصراً موجزاً فيمكنه الاسترشاد من مراجع الموسوعة للتوسع والإسهاب حسب خطته ومنهجه.

٤- «منبر الداعيات»: ما هي أشهر الموسوعات الفقهية التي صدرت في هذا العصر وما هي أحسنها برأيكم؟

* إن أهم الموسوعات الفقهية هي موسوعة الفقه الإسلامي التي تصدر في القاهرة، والموسوعة الفقهية التي تصدر في الكويت، وهناك موسوعات في الدراسات الإسلامية، وموسوعات فردية صدرت من أشخاص، وأحسن الموسوعات -في رأيي- الموسوعة الفقهية التي تصدر في الكويت، وصدر منها حتى الآن ٣٩ مجلداً، واكتمل العمل بكتابة المادة العلمية، وتعمل وزارة الأوقاف بالكويت، على إكمال الإخراج لتصل إلى ٤٢ أو ٤٣ مجلداً، وتعقد العزم على البدء بالموسوعة الأصولية.

والسبب في اعتبار الموسوعة الفقهية أحسن من غيرها عدة أمور: أهمها يتعلق بالمنهج في عرض الآراء المذهبية دفعة واحدة مع بيان المتفق عليه والمختلف فيه مع التدليل والتعليل، مع حُسن الترتيب، وحُسن الخطة في كل مادة فقهية، وحسن الإخراج، والسير الحثيث في العمل، وقرب الانتهاء، مما يجعلها في متناول أفراد الأمة والمؤسسات.

وختاماً نسدي أجزل الشكر لفضيلة الدكتور محمد الزحيلي على ما منحنا من وقت وجهد، سائلين الله أن ينفع به ويوفقه لكل خير.

رابعاً: حوار عن قضايا فقهية معاصرة مع الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الزحيلي[1]

١- البطاقة الشخصية:

ولدت بمدينة دير عطية (وهي منتصف الطريق بين دمشق وحمص بسورية سنة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م، وأنا متزوج، وعندي ثلاثة أبناء (أيمن وأنس وبراء) وبنت واحدة (فاطمة)، وأصبحت جداً، وعندي حفيد وحفيدة، وسبطان وثلاث سبطات.

أحمل الثانوية الشرعية، والثانوية العامة، وإجازة في الشريعة، وإجازة في الحقوق، ودبلوم الأحوال الشخصية، ودبلوم الشريعة، ودبلوم القانون العام، وماجستير الفقه المقارن، ودكتوراه في الفقه المقارن.

عينت مدرساً بكلية الشريعة بجامعة دمشق، ثم وكيلاً للشؤن العلمية، ثم عميداً في كلية الشريعة بجامعة الشارقة، ودرّست في مكة المكرمة والأردن والكويت والإمارات، وأستاذاً زائراً في عدة جامعات، والآن أشغل منصب أستاذاً للفقه المقارن والدراسات العليا بجامعة الشارقة، وعضواً في مجمع علماء الشريعة بأمريكا، وخبيراً في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، وعضواً في هيئة رقابة شرعية، وفي هيئة الإفتاء الشرعي.

٢- أسرة الزحيلي:

إن أسرة آل الزحيلي منحدرة من قبيلة عربية في البقاع الشمالي من لبنان بالقرب من زحلة، وتشمل منطقة القلمون ابتداء من جنوب شرقي طرابلس بلبنان، وفيه منطقة القلمون الغربي، ثم إلى شمال دمشق بسورية، وفيها القلمون

---

(١) مجلة الرباط، الموصل، السنة ٨، العدد ٤٣، محرم ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص١٨.

الشمالي ومركزه النبك، والقلمون الجنوبي ومركزه القطيفة، وانتقل الجد الأعلى منذ مئات السنين من البقاع إلى دير عطية وأطلق عليه «الزحيلي» وكانت العائلة مرموقة، ولها وجاهة بالبلد، ومكانة اجتماعية رفيعة.

ولكن مترلة العائلة في العصر الحاضر بين الأوساط العلمية تعود إلى شهرة الشقيق الأكبر الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، الذي تولى مناصب علمية رفيعة، وصنف عشرات الكتب التي عمت البلاد العربية والإسلامية، وذاع صيته في البلاد، ثم جاءت مؤلفاتي وكتبي التي بلغت الأربعين، وخاصة الكتب الفكرية والتربوية والقانونية والجامعية، وعلى الأخص ما كتبته في المذهب الشافعي «المعتمد في الفقه الشافعي» و«تحقيق المهذب» مما شاع وانتشر خاصة في جنوب شرقي آسيا التي تتبنى المذهب الشافعي غالبيتها، ومنها كتاب «حقوق الإنسان في الإسلام» الذي نال جائزة أحسن كتاب، وكتاب «الاعتدال في التدين» الذي ترجم إلى ثلاث لغات.

٣- طلب العلم:

كيف كان طلبكم للعلم؟

درست المرحلة الابتدائية في دير عطية، وكان الوالد رحمه الله تعالى حافظاً للقرآن الكريم، وشغوفاً بالعلوم الشرعية، فأخذ قسطاً منها على يد عالم البلد الشيخ الجليل عبد القادر القصاب، الذي درس في الأزهر، ولم تتح الظروف للوالد للتفرغ للعلم واستكمال طلبه، فكان متطلعاً لتدريس أولاده في الأزهر الشريف، فوجه الشقيق وهبة لدراسة الشريعة، ثم ألحقني بالثانوية الشرعية بدمشق، ثم كلية الشريعة بجامعة دمشق، وكان حريصاً على توفير جميع متطلبات الدراسة حتى لا أنشغل عن تحصيل العلم، وردد أمامي عبارة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «لو طلب مني بصلة ما تعلمت مسألة» وكرر

استعداده لبذل كل ما يملك في سبيل طلبنا للعلم، فكان لذلك الأثر الأول والكبير في تكوين مستقبلي الدراسي، ثم كان الشقيق وهبة مثلاً أعلى في الطموح والشغف العلمي للحصول على أعلى الشهادات والرتب، فكان الوالد رحمه الله تعالى يردد: «من شابه أخاه فما ظلم» «سنشد عضدك بأخيك» فكان للشقيق الأثر الثاني في التكوين والتحصيل العلمي والتوجيه السديد.

وكنت متفرغاً لطلب العلم، وخاصة في الدراسات العليا، وأجمع بين الدراسة الشرعية والعامة، وكلية الشريعة وكلية الحقوق في جامعة دمشق، وجامعة الأزهر، وجامعة القاهرة، حتى حصلت على الدكتوراه في الفقه المقارن، وبدأت التدريس مع التأليف بجهد كبير، وتنظيم دقيق للوقت، مع أداء الواجبات الدينية والاجتماعية والعائلية، فكنت الأول على سورية في الثانوية الشرعية، وبمعدل جيد جداً في الثانوية العامة، وامتياز في إجازة الشريعة، ودبلوم الأحوال الشخصية، وماجستير الفقه المقارن، وحصلت على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، مع تقدير جيد جداً في الحقوق، وماجستير الحقوق (دبلوم الشريعة ودبلوم القانون العام).

٤- أبرز الكتب:

ما هي الكتب التي تنصحون طالب العلم بقراءتها؟

أول الكتب وأهمها كتاب الله تعالى «القرآن الكريم» مع تفسيره الموجز، فالمختصر، فالمتوسط، فالموسع، وأنصح بشدة على حفظه كاملاً، أو ما أمكن، ثم كتب السنة الشريفة، مع شرحها، ابتداءً من الأربعين النووية، فرياض الصالحين للإمام النووي، فالترغيب والترهيب للمنذري، ثم كتب الأدب الإسلامي حسب مستوى القارئ، ابتداء من كتب الأطفال، فالشباب، فالمثقفون، مع الحرص على كتب السيرة النبوية حسب المستويات المختلفة.

وأنصح بكتب الشيخ علي الطنطاوي، والمنفلوطي، والرافعي، ومصطفى السباعي، ونجيب الكيلاني، وسيد قطب، وأبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن الندوي، وحجة الإسلام الغزالي، والشيخ محمد الغزالي، والقرضاوي، وخالد محمد خالد، وسعيد رمضان البوطي، ومحمود شيت خطاب، وعماد الدين خليل، وتوفيق عابد الهاشمي، وعبد الرحمن الحبنكة، وعبد الرحمن الباشا، والحارث المحاسبي، وابن عطاء الإسكندري، وكتب الأخلاق الإسلامية، والشعر الإسلامي، وغير ذلك كثير، وقد توفرت في العصر الحاضر، وأصبح الكتاب الإسلامي منتشراً وسائداً حسب مختلف المستويات، والحمد لله.

٥- المجمع الفقه الإسلامي العالمي:

ما مدى إمكانية إقامة مجمع فقهي للعالم الإسلامي؟

توفر في العصر الحاضر -بفضل الله ومنته- عدد من مجامع الفقه الإسلامي في القاهرة، ومكة المكرمة، وجدة، والخرطوم، ونيودلهي، مع مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، والمجلس الإسلامي الأوروبي، وتقوم هذه المجامع بعمل مبارك، ويتمتع مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة بالعالمية، وكذلك بقية المجامع غالباً، فإنها تضم في أعضائها العلماء من مختلف الدول، مما يعطيها الصفة الدولية والعالمية، وهي في أول الطريق، ونأمل تطويرها، وخاصة في ضرورة تفرغ العلماء فيها لاستيعاب متطلبات العصر، ودراسة القضايا المستجدة، وبيان أحكامها.

وأناشد بإنشاء اتحاد عام للمجامع الفقهية للتنسيق بينها، ولا أرى -نهائياً- إلغاءها أو ضمها، فيجب إبقاؤها وتعددها لفوائدها الجمة، وآثارها المحلية والإقليمية، والدولية، على أن تشكل لها إدارة عليا ومكتب تنسيق، فالعالم الإسلامي متفرق سياسياً حتى العظم وهذا لا يلائم وجود مجمع واحد دولي، ولا يتناسب مع الواقع.

٦- المستجدات الفقهية:

ما هي المساحة الفقهية لتحديد مشروعية المستجدات المعاصرة أو عدم مشروعيتها؟

تتحدد المستجدات الفقهية بأمرين رئيسين، الأول: القضايا الجديدة حسب تطور الحياة والتقدم العلمي، والتقنيات المتنوعة، وما يجدّ في المجتمع والعلاقات الدولية، وكل ما يجري في الحياة، يجب البحث عنها، ومعرفة حقيقتها، والاجتهاد لمعرفة الحكم الشرعي له، مهما كثرت وتنوعت وتعددت، والثاني: دراسة المسائل الفقهية التي بحثها الفقهاء سابقاً وذكروا أحكامها حسب زمانهم، وعُرفهم، والمعطيات التي أتيحت لهم، ولكنها تحتاج اليوم إلى تعديل، وإعادة اختيار، وترجيح بما يتناسب مع العصر، والعلم، ومصالح المسلمين (أفراداً وجماعات) ومقاصد الشريعة.

٧- فقه الموازنات:

ما المقصود بفقه الموازنات؟ وما علاقته بواقع المسلمين اليوم؟

المقصود به: معرفة الأحكام الشرعية أولاً، ثم الموازنة بينها، ثم تقديم الأهم فالمهم، والبدء بالقضايا الكبرى، فالكبيرة، فالمتوسطة، فالصغيرة.

وهذا متصل اتصالاً جوهرياً بحياة الناس، وخاصة مع غياب الشريعة اليوم عن التطبيق والحياة، فيجب على العلماء أولاً، وسائر الناس ثانياً، البدء بالأحكام العامة للجميع، دون الانشغال مبدئياً بالأمور الجزئية والفردية، وهذا منهج الدعوة الإسلامية كما أراده الله سبحانه وتعالى في مكة، ثم المدينة، وهو المنهج الذي رسمه رسول الله ﷺ في حياته ومع أصحابه، فالإيمان وتصحيح العقيدة أولاً، ثم العبادات الخمس ثانياً، ثم التركيز على مشاكل الأمة الإسلامية في الفقر والجهل والبطالة والمرض والتخلف والتمزق والتفرق والأنانية والإقليمية التي

تصل أحياناً إلى العنصرية بين الأقطار الإسلامية، وللعودة إلى الدين عامة، والشخصية الإسلامية، ومعرفة الأعداء، والغزو الفكري، وهجرة العقول المسلمة ورؤوس الأموال إلى الخارج، وتحقيق مقاصد الشريعة الرئيسة، بل عدم الاهتمام بالنوافل والجزئيات والفروع والتعصب الذي يؤدي إلى التفرق والاختلاف، بل والعداوة والاقتتال على أمور بسيطة، بينما العدو يتربص بنا الدوائر، ويخطط لتدمير الأمة، مع تسليط الأضواء الكاشفة على الاحتلال الأجنبي لبعض البلاد الإسلامية، والاستعمار شبه الكامل في التعليم والاقتصاد والسياسية والعلاقات الدولية حتى بين البلاد الإسلامية، وقابلية الاستعمار السائدة بالتبعة، وعدم الاستقلال بالقرارات المصيرية للأمة.

٨- التجديد في الفقه:

مصطلح معاصر، هل يعم جميع مجالات الفقه؟ وهل يؤثر هذا المصطلح على حيثيات الحكم الشرعي؟

يشمل مصطلح التجديد مجالات عدة، أولها: نشر التراث الفقهي، وثانيها: عرض الفقه بأسلوب معاصر، وثالثها: ربط الفقه بالواقع والحياة والتطور والعلوم المعاصرة والتقنيات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والدولية، والتخلي عن الأمثلة التاريخية، بل والخيالية مما لا وجود له، ورابعها: بيان الأحكام الشرعية للمستجدات كما سبق، وخامسها: دراسة العبادات على ما ورد في الكتاب والسنة، وكما قررها المذاهب الفقهية والاقتصار فيها على الجهد الذي بذله سلفنا الصالح، ولا حاجة لإثارها من جديد، ومحاولة الاجتهاد فيها، وهو ما يخرج عن التجديد في الفقه قطعاً، ولا طائل لفتح الباب في إعادة الدراسة فيها.

٩- المسائل الفقهية الجزئية:

تصرف المسلمين عن قضايا فقهية مهمة للأمة، فما السبيل إلى إعادة

التوازن إلى الفكر الفقهي في الأمة؟

إن هذه المسائل تشغل كثيراً من المسلمين عن القضايا الفقهية المهمة، والسبيل إلى إعادة التوازن فيها هو ما سبق بيانه في فقه الموازنات والأولويات، للتركيز على تأمين مصالح الناس في الحياة، وما يحل مشاكل الأمة، وقضاياها المصيرية.

١٠- الاختلاف في الفتوى:

ما منشأ هذا الاختلاف؟ وهل يمكن معالجته؟

إن الاختلاف في الفتوى يرجع لأسباب عديدة، منها اختلاف الفقهاء، ومنها تعدد المذاهب، ومنها اختلاف التكوين العلمي للمفتي، وهي أسباب حميدة، ولا ضرر فيها ما دامت في الجزئيات والفروع، ويضاف لهذه الأسباب الأهواء السياسية، والانقسامات الإقليمية، والتيارات الوافدة، واختلاف المشارب.

أما المسائل الكبيرة، فيفضل توحيد الفتوى فيها كالمصارف الإسلامية، والتأمين التعاوني، والتورق المنظم، وحمل السلاح، والعمليات الاستشهادية مع الأعداء والكفار والمحتلين حصراً، وتجنبه بين المواطنين والعزل والأطفال والشيوخ وداخل البلاد والمدن والأحياء والمساكن.

والعمل على معالجة الخلاف في الفتوى في الأمور المهمة هو حصرها بالمجامع الفقهية -غير المسيّسة أو الموجهة- ليبدي العلماء مجتمعين رأيهم السديد فيها، لاعتمادها والالتزام بها، أما الاختلاف في الفتوى في الفروع والجزئيات فلا مانع منه، لأن الفتوى -في الأصل- تكون حسب حال المستفتي وظروفه، وهي مختلفة غالباً بين الناس.

١١- تطوير المناهج العلمية والخطاب الديني المعاصر:

هذا ما يطالبه البعض، ما رأيكم بذلك؟

إن هذا التطور أمر ضروري، وحتمي، ويفرضه الواقع والتطور والتقنية والاختراعات، لتكون المناهج متفقة على الواقع والعصر والعلم، وأن يتم الخطاب الديني المعاصر حسب العصر، مع استخدام جمع التقنيات الحديثة حتى في المساجد، وألا يتم الإصرار على الجمود والتقليد الأعمى في الأساليب.

ولكن هذا التطوير يجب أن ينبع من المسلمين، دون أن يطلب منهم، أو يفرض عليهم، أو يوحى به من الشرق والغرب، ليكون حسب متطلبات الشرع ومصالح المسلمين وحاجاتهم، ومقاصد الشريعة، وعلى ضوء القرآن والسنة، وليس تطبيقاً وتنفيذاً للغزو الفكري والاستعمار الثقافي والتربوي والاقتصادي.

١٢- مسائل فقهية:

يسأل البعض عن مدى مشروعيتها:

إن كل مسألة من هذه المسائل تحتاج إلى فتوى خاصة مما يصعب عرضها معاً، وكلها أصدرت فيه فتاوى في هيئات شرعية أو لجان فتوى، أو في المجلات، والصحف، ووسائل الإعلام.

- فالعقد بالهاتف والإنترنت صحيح إذا توفرت شروطه، وتأكد الطرفان من بعضهما، مع الثقة بينهما، إلا عقد الزواج فلا بد من حضور الزوج والولي والشاهدين في مجلس واحد.

- زواج المسيار صحيح، ولكن ضرره أكثر من نفعه، وكذا الزواج بنية الطلاق صحيح، ولكن له مفاسد كثيرة، والزواج العرفي الذي تتوفر أركانه وشروطه صحيح، ويستحق فاعله العقوبة لعدم تسجيله رسمياً.

- التجميل جائز لكلا الجنسين إن اقتضته الحاجة والضرورة، كالتشويه وحوادث السيارات والحروق وغيرها، أما إن كان لتغيير خلق الله فهو حرام.

- المسافر في الطائرة يفطر حسب المكان الذي يحلق فوقه، وغالباً ما يتفق غروب الشمس عن المكان مع غياب الشمس عن الطائرة، مع فارق بسيط، فإن تأخر الغياب فيجب الاحتياط والفطر بعد غياب الشمس عن الطائرة، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٨٧] وهو غروب الشمس، إلا إذا كان البلد يفطر حسب أقرب المناطق إليه (كالقطب الشمالي) فيفطر الراكب حسب البلد الذي تحلق فوقه الطائرة.

١٣- الفتاوى الشاذة:

كيف يمكن معالجتها؟ وإزالة آثارها من المجتمع الإسلامي؟

إن معالجة الفتاوى الشاذة تعد جزءاً من معالجة مشاكل القضايا الإسلامية المعاصرة، فيندر وجود دولة إسلامية، وملتزمة بالشرع والدين، لتحدد صفات ومؤهلات المختصين للفتوى، وتمنع الجهال والمتطفلين وأنصاف العلماء وأدعياء العلم، بل قد تكون هذه الفتاوى الشاذة مقصودة من كثير من الحكام والمسؤولين لإثارة البلبلة بين الناس، وتمرير الأهداف والأحكام المحرمة التي يريدونها، مع وجوب التنبيه لعامة المسلمين بالاحتياط والحذر من ذلك، والتوجيه لأخذ الأحكام الشرعية من أهل الاختصاص بالشريعة حصراً، لأن ذلك دينٌ يجب الاحتياط فيه للقول المأثور: «إن هذا العلم دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم» وقياساً على الالتزام بأهل الاختصاص في كل علم وفن.

١٤- الأزمة الاقتصادية والزكاة:

يوجد أزمة اقتصادية حادة، فما مدى تأثير الزكاة في علاج الركود الاقتصادي في العالم الإسلامي؟ وتحصينه من تلك الأزمات؟

إن الأزمة الاقتصادية المعاصرة هي نتيجة حتمية عن تنكب الشرع الحنيف، والإعراض عن تطبيق حكم الله تعالى، واتباع شياطين الإنس والجن

وأعداء الله، والمخربين والمتآمرين لتدمير البشرية، وحلها ينحصر بالعودة للتطبيق الكامل للشريعة والالتزام بأحكامها في الحلال والحرام.

والزكاة دواء ناجع قديماً وحديثاً ومستقبلاً لحل كل الأزمات، ومشكلات المجتمع والدول والأفراد، ولكن الزكاة اليوم فريضة مغيبة في العالم الإسلامي، وتخلت عنها معظم دول العالم الإسلامي، وتطبق فردياً وجزئياً، لذلك فإن ثمارها محدودة، ونتائجها قليلة فلا يمكن طرحها بديلاً للنظام الفاسد، ولا لحل المشكلات إلا بالعودة الكاملة للإسلام، والتطبيق الصحيح والسديد للزكاة، ومع ذلك فإنها تساهم مساهمة فعالة في الحل الجزئي لمشاكل الناس، وتعطي صورة حميدة عن الإسلام والتكافل الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، وحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وتساهم في حل مشكلة الفقر والبطالة والجشع المادي، وتزكية النفوس، وكسب الثواب والأجر، وتنظيم دورة المال، ومساعدة طلبة العلم، وقضايا الزواج والسكن.

نسأل الله تعالى أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، ويصلح الحكام والعلماء الذين يتوقف عليهم صلاح الأمة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

سادساً: لقاء وحوار عن المصارف الإسلامية[1]

أجرى اللقاء: عبد الله بدران

اعتبر الدكتور محمد الزحيلي، أستاذ الفقه المقارن في جامعة الكويت، تجربة البنوك الإسلامية أعظم تجربة ناجحة ومعاصرة لتطبيق الإسلام والاقتصاد الإسلامي موضحاً أنها تسهم إسهاماً فاعلاً في تنمية المجتمع وتطوره.

وقال في حديث إلى مجلة «النور»: إن المال في الإسلام وسيلة وليس غاية، وله وظيفة اجتماعية. مضيفاً أن الاقتصاد الإسلامي يقوم على بناء الإنسان الصالح وتحقيق رفاهيته وتأمين حاجاته ويرتبط بسائر فعاليات الأفراد والأمة.

وأوضح أن الثروة الفقهية الإسلامية أعظم ثروة تشريعية في العالم، ولا يوجد لها مثيل في الشرائع القديمة والحديثة وأنها قامت بدورها الكامل في التاريخ الإسلامي في بيان جميع الأحكام التي يحتاج إليها الناس في حياتهم العامة والخاصة، وطُبّقت عملياً؛ معترفاً في الوقت نفسه بوجود جانب من القصور في الفقه الإسلامي حالياً بسبب قلة العلماء والفقهاء والباحثين المختصين، وعدم تطبيق الشريعة والأحكام الفقهية في معظم البلاد الإسلامية.

ورأى أن جباية الضرائب لا تغني عن أداء الزكاة باتفاق العلماء، وأن الزكاة تسهم إسهاماً أساسياً في تنمية المجتمعات الإسلامية وبث الحياة فيها وتحقيق الحياة الرغيدة والسعيدة لأفرادها.

◈ هل تخلف الفقه الإسلامي؟

النور: على الرغم من الثروة الفقهية الهائلة، هناك من يدعي بقصور

---

(١) النور– العدد ١٦٢– جمادى الأولى ١٤١٩/ أغسطس ١٩٩٨ ص١٠.

الفقه عن مجاراة حوادث العصر الحديث، ما قولكم في ذلك؟

الزحيلي: إن الثروة الفقهية الإسلامية أعظم ثروة تشريعية في العالم، ولا يوجد لها مثيل في الشرائع القديمة والحديثة، وإنها قامت بدورها الكامل في التاريخ الإسلامي في بيان جميع الأحكام التي يحتاجها الناس في حياتهم العامة والخاصة، وطبّقت عملياً، وغطت جميع مجالات الحياة في أوسع رقعة من الأرض من الأندلس حتى الصين، ولمدة ثلاثة عشر قرن كاملة.

ولكن لابد من الاعتراف، ولو كان مرّاً، أن الفقه الإسلامي في العصر الحاضر فيه جانب كبير من القصور، نظراً للتطورات العظيمة والمتلاحقة في شؤون الحياة، وأن التغيير والتطور الذي كان يحتاج لمئة سنة في الماضي، يتم اليوم في سنة واحدة، ويحتاج إلى ملاحقة واجتهاد لبيان الأحكام الشرعية له.

وقد تخلف الفقه الإسلامي في العصر الحاضر عن بيان متطلبات الحياة، ومجاراة حوادث العصر، ولذلك أسباب عدة، أهمها أمران:

١- قلة العلماء والفقهاء والباحثين المتخصصين في العلوم الإسلامية عامة، والفقه الإسلامي خاصة، في العصر الحاضر، ويظهر ذلك جلياً بالمقارنة بين عدد الطلاب والمتخرجين من كليات الحقوق وعددهم من كليات الشريعة، حتى أصبح أساتذة الشريعة أندر من الكبريت الأحمر، وتتنافس عليهم الأقطار والجامعات والكليات والمراكز الإسلامية والمجامع الفقهية وأجهزة الإعلام.

ولذلك لم يستطع العلماء اليوم مع قلتهم من مجاراة التطور وبيان الأحكام الشرعية لجميع مستجدات العصر والتطورات المتلاحقة.

٢- الأمر الثاني وهو الأهم: عدم تطبيق الشريعة والأحكام الفقهية في الحياة

في معظم البلاد الإسلامية، ولم يبق منها في التطبيق العملي إلا العبادات وأحكام الأسرة في الزواج والطلاق والميراث، وغابت بقية الجوانب، ووضع مكانها قوانين أجنبية مستوردة ومترجمة، وهذا أدى إلى وضع اجتهادات العلماء المعاصرين في المعاملات في الحيز النظري والتاريخي، فأثار عدم تطبيق المعاملات الشرعية وسائر أحكام الفقه الإسلامي الإحباط في النفوس، وفتور عزيمة العلماء، والوقوف على الثروة الفقهية التي أصبحت مجرد تراث، مع تغيير المصطلحات الشائعة في الحياة العملية، وأضحت المصطلحات الشرعية والفقهية غريبة عن الأذهان، فلا يوجد أحد يسمع بالشفعة مثلاً، أو إحياء الموات، أو الإمامة، أو الحسبة، أو الشورى، أو قضاء المظالم، أو المقايضة، أو القراض والمضاربة وشركة الوجوه والأبدان، كما غابت عن الساحة أسماء الفقهاء والعلماء القدامى، ونسيت تماماً أسماء كتبهم بين عامة الناس، وحل محلها أسماء واضعي القوانين الأجنبية، وشراح القوانين والمستشارين.

◈ تجربة فقهية ناجحة:

وفي الوقت الذي نرى فيه آلاف الأشخاص، بل الملايين، يسألون يومياً، ويلاحقون المحامين والقضاة لمعرفة الأحكام القانونية التي تحكم معاملاتهم، وتضبط تصرفاتهم، وتنظم شركاتهم ومؤسساتهم، لا نجد إلا قلة قليلة تطلب الفتوى ومعرفة الأحكام الشرعية في العبادات خاصة، ثم في الأحوال الشخصية، وبشكل نادر في المعاملات وسائر أحكام الحياة للالتزام بها شخصياً وديانياً في الآخرة، مع عدم الاعتراف بها رسمياً وقانونياً.

ولكن لا بد من إنصاف العلماء والفقهاء المعاصرين، وأنهم يبذلون

جهوداً جبارة، ويعملون على جبهات متعددة، ويشغلون أوقاتهم في الأعمال المتعددة والحوادث المتلاحقة، ويلبون كل نداء، ويستجيبون لكل مطلب، ويفتون بكل ما يطلب منهم، حتى في وضع الأنظمة الشرعية، والقوانين الإسلامية التي يكون مصيرها في الغالب أن توضع على الرفوف، ويدير الحكام والمسؤولون ظهورهم لها، ويضعونها في غرف التبريد والتجميد، وقد وضع العلماء في عدة بلاد إسلامية مشاريع أنظمة وقوانين، بمبادرات فردية أو بطلب رسمي، ثم بقيت حبراً على ورق تنتظر الحاكم المسلم، المخلص لدينه وربه وشرعه، ليرعاها ويطبقها، ويبث فيها الحياة.

ونذكر في هذا الخصوص تجربة فقهية ناجحة نجاحاً منقطع النظير في معظم البلاد الإسلامية، وهو وضع قانون الأحوال الشخصية من مختلف المذاهب الفقهية، وبما يحقق حاجة المجتمع والأمة والأفراد، ويساير تطور الحياة ومستجدات العصر، ويجب أن تعم التجربة قانون المعاملات المدنية، أو القانون المدني، والقانون الجنائي، والقانون الدستوري، والقانون الإداري، والقانون التجاري، والقانون الدولي الإسلامي.

كما نشيد في هذا الخصوص بإنشاء مجامع الفقه الإسلامي في عدة بلدان إسلامية، يتم البحث والتشاور والاجتهاد الجماعي بين كبار العلماء، لبيان الأحكام الشرعية الدقيقة فيما يعرض عليها، وما يوجه إليها من فتاوى ومسائل في قضايا كبيرة ومهمة وحساسة.

◈ لماذا لا نستفيد من تجارب الأمم؟

النور: هل يمكن للاقتصاد الإسلامي أن يكون له دور في عصر الاقتصاد المتطور حالياً، أم يبقى إرثاً تاريخياً فقط؟

الزحيلي: إن كلمة الاقتصاد عامة، والاقتصاد الإسلامي خاصة، اصطلاح جديد، ولذلك يظن بعضهم أن الإسلام والشريعة والفقه والدولة الإسلامية لا تعرفه، ويغفل هؤلاء، أو يتغافلون، عن قيام الخلافة الإسلامية والدول الإسلامية في مختلف أرجاء العالم لمدة أربعة عشر قرناً، وأن للخلافة الإسلامية أنظمتها الكاملة في شؤون الحكم والمال والاقتصاد والموارد والنفقات والمالية العامة، وإقامة الجيوش وتسليحها وإمدادها وتزيدها بالطاقات المادية والبشرية.

ولا ننكر تطور الاقتصاد في العصر الحاضر، وتوسع نشاط الدولة فيه، ولكن ذلك لا يخرج عن المبادئ العامة الإسلامية، والقواعد الرئيسة، والأسس التي أرساها القرآن والسنة والفقه الإسلامي.

وقد بدأ الاقتصاد الإسلامي بالتطور والتكامل في العصر الحاضر، وأنشئت كليات الاقتصاد الإسلامي، وأقيمت مراكز الاقتصاد الإسلامي، وصنفت فيه كتب عديدة، وأخذت معظم مبادئ الاقتصاد الإسلامي طريقها للتطبيق في بعض البلاد الإسلامية، كالمصارف الإسلامية التي حققت نجاحاً منقطع النظير، مع ما تواجهه من تحد ومحاربة، ومعاداة وهجوم وتشكيك، وكذلك ظهرت نظريات الاقتصاد الإسلامي التي تقوم على أسس إسلامية، وأحكام فقهية، ونصوص شرعية، وتقوم عملياً دول إسلامية معاصرة، وهي في مرحلة متقدمة ومتطورة نسبياً، على أساس الاقتصاد الإسلامي، وما على بقية الدول والبلاد إلا أن تتبنى تطبيق الاقتصاد الإسلامي، وتلحق بالركب المبارك، مع التوعية الكاملة له، ليثبت جدارته الكاملة، ويحقق النفع والسعادة، ويؤمن المصالح للأفراد والمجتمعات والدول، مع مراعاة الظروف الدولية

الحاضرة، والمستجدات الكثيرة، والتطورات المتلاحقة.

وأحب أن أذكر هنا أنه لا مانع شرعاً من الاستفادة من كل تجارب الأمم والشعوب الأخرى في هذا المضمار، لأن الحكمة ضالة المؤمن، ولأن النتاج البشري ليس حكراً على شعب أو أمة، بل هو لمجموع البشرية، ضمن إطار المبادئ الإسلامية، ومقاصد الشريعة، وبما لا يصادم نصاً شرعياً أو إجماعاً سابقاً.

◈ هل هناك أزمة فتوى؟

النور: هل هناك أزمة فتوى تجاه القضايا الاقتصادية المعاصرة التي تشهد تطوراً مطرداً؟

الزحيلي: لا يوجد أزمة فتوى بمعنى (الأزمة)، ولكن الاختلاف في الاجتهاد أمر طبيعي، وواقعي، ومحمود، والاختلاف في جميع العلوم، وفي جميع الأمم، وفي مختلف الأزمنة والأمكنة، أمر ثابت ومقرر، وهذا الاختلاف يعطي أحكاماً متنوعة ليأخذ أحدها طريقه للتطبيق والعمل عندما تتبناه الدولة، وتصدره تشريعاً، أو تعمل به مؤسسة أو شركة، وعندما تأخذ هذه الاجتهادات طريقها للتطبيق يظهر النافع منها والصالح وما يثبت جدواه فيستقر ويتطور، ويتنحى ما يثبت خطؤه أو ضرره أو فساده، وهذا ما يجري في مختلف دول العالم بالأمس واليوم والمستقبل.

ومع غياب التطبيق العملي للاقتصاد الإسلامي تبقى ظاهرة الاختلاف في الفتوى، وكأنها أزمة، ولكنها في الواقع ظاهرة صحية، وتدل على تفتح الفكر، وحرية الرأي، وفتح باب الاجتهاد لمن تتوفر فيه شروطه، وفيما لا نص فيه، وتدل على بث الحياة في الشرايين، وقيام الفقهاء المتخصصين

بواجبهم، مع وجوب التحرز من الفتاوى الباطلة التي تخالف النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والتحرز من الأقاويل الباطلة الصادرة من غير المختصين، الذين يفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون، ويظهر عدد منهم اليوم، ليصطادوا في الماء العكر، مع بلبلة الأفكار، وغياب المرجعية الشرعية في معظم البلاد الإسلامية، وفقدان التطبيق العلمي لأحكام الإسلام عامة، وللاقتصاد الإسلامي خاصة.

◈ أهم وسيلة للتكافل:

النور: شاركتم في ندوات ومؤتمرات عدة عن الزكاة، فما الدور الذي يمكن أن تؤديه الزكاة في تنمية المجتمعات الإسلامية؟ وهل جبي الضرائب يغني عن أداء الزكاة؟

الزحيلي: أبدأ بالشطر الأخير من السؤال، لأقول فوراً، وجزماً: إن جباية الضرائب لا تغني عن أداء الزكاة مطلقاً باتفاق العلماء، لأن جباية الضرائب لتأمين المصالح العامة للأمة والمجتمع، وتأمين الموارد للدولة والخزانة العامة، وهي مشروعة من حيث المبدأ في الدولة الإسلامية ضمن قيود وشروط بيّنها العلماء للحكام والسلاطين حتى لا تتخذ الضرائب وسيلة للظلم وابتزاز الأموال وإملاء الجيوب الخاصة، وإرهاق الأفراد بها، أما الزكاة فلها أهدافها الخاصة، ووظيفتها المحددة، ومصارفها المعينة والمنصوص عليها حصراً في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التوبة: ٦٠]، فوظيفة الزكاة الأساسية إنسانية بحتة لرعاية المتطلبات الأساسية للإنسان في الطعام والشراب، والغذاء والدواء، والملبس

والمسكن، وتحقيق الكرامة الإنسانية في العمل والكسب، كما أنها ذات وظيفة اجتماعية أساسية في التكافل والتضامن والتعاون، مما ينتج عنه بعد ذلك آثار اقتصادية كثيرة لا مجال لذكرها.

وقد شرفني الله تعالى بالمشاركة في عدة ندوات ومؤتمرات عن الزكاة، منها ندوات قضايا الزكاة المعاصرة، وندوة إحياء فريضة الزكاة، وقد أوقفني العنوان الأخير الذي يُشعر أن الزكاة ميتة أو منسية ويجب إحياؤها.

والزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي فريضة شرعية، وتمتاز الزكاة عن بقية أركان الإسلام بأنها قابلة للاجتهاد والتوسع والتطور والتأقلم حسب العصور والأزمان، والأماكن والبلدان، لأن الأموال تختلف من بلد إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، ومستوى الفقر والغنى يتفاوت، والحاجات الأساسية ومتطلبات الحياة تتطور، والزكاة جزء من النظام الإسلامي المالي العام، وهي أحد موارد بيت المال وخزينة الدولة، ولها أهداف عقدية، وروحية، ونفسية، واجتماعية، واقتصادية، وتربوية، وصحية لا مجال لعرضها، وهي تسهم مساهمة بناءة في حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والمالية للناس والدول، وهي أهم وسيلة للتكافل اجتماعي في الحياة، وأذكّر هنا بندوات الزكاة المعاصرة التي يقيمها بيت الزكاة في الكويت، وما صدر عنها من فتاوى قيمة، وتوصيات رشيدة، تؤكد التطور الكبير لأعمال الزكاة في العصر الحاضر، وتبين الاجتهاد الواسع في مجال الزكاة والاستفادة منها.

والزكاة تسهم مساهمة أساسية في تنمية المجتمعات الإسلامية، فتؤمن أولاً وقبل كل شيء القوت والغذاء والحاجات المعيشة لجميع المحتاجين في المجتمع لينطلقوا بعد ذلك لأداء وظائفهم وواجباتهم، ولذلك فإن المجتمعات الإسلامية

-حتى في عصرنا الحاضر مع التخلف وعدم التطبيق الكامل لفريضة الزكاة- لا تعرف ما يسمى بالموت جوعاً، لأن الزكاة تقضي على مشكلة الفقر التي تعجز عنها أغنى الدول اليوم، كما تسهم الزكاة في حل مشكلة البطالة، فتساعد الفقراء على تأمين رأسمال لهم ليعملوا به، ويكسبوا قوتهم منه، ويفيدوا أنفسهم ومجتمعهم ودولتهم، كما تُوجد الزكاة فرص عمل كثيرة للفقراء والمساكين والعاملين عليها، وتسد ديون الغارمين، وتجبر خاطر الغرباء المقطوعين من أبناء السبيل، وتحرك الزكاة الأموال من الأغنياء إلى الفقراء، ومن الاكتناز والاختزان إلى الإنفاق والصرف، فتتحرك التجارة والمعاملات، ويكثر الطلب على الحاجيات، دون أن تبقى الأموال محصورة بأيدي قلة من الأغنياء، وهذا ما أراد القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]، وكل ذلك يؤدي إلى تنمية المجتمعات وبث الحياة فيها وزيادة الإنتاج وتحقيق الحياة الرغيدة والسعيدة لأفراد المجتمع.

سابعاً: لقاء وحوار عن التأمين التعاوني والاقتصاد الإسلامي[1]

أجرى اللقاء: عبد الله بدران

اعتبر الدكتور محمد الزحيلي، أستاذ الفقه المقارن في جامعة الكويت، تجربة البنوك الإسلامية أعظم تجربة ناجحة ومعاصرة لتطبيق الإسلام، والاقتصاد الإسلامي موضحاً أنه تسهم إسهاماً فاعلاً في تنمية المجتمع وتطوره.

النور: ظهرت في النصف الثاني من القرن الحالي مؤسسات وبنوك إسلامية عدة، كيف تقيمون تجربتها؟

الزحيلي: نشأت فكرة البنوك الإسلامية في خضم الحياة المادية، والتشريعات الوضعية، والقوانين الأجنبية المستوردة، والبنوك الربوية الشائعة في العالم الإسلامي قاطبة، مما أثار حفيظة العلماء والدعاة والمخلصين لدينهم، وبدأت فكرة البنوك الإسلامية لأول مرة سنة ١٩٦٣م بتجربة ميت غمر بمصر، ورعاية الأستاذ الدكتور أحمد النجار، وأجهضت التجربة قبل قطف الثمار، حتى جاء عام ١٩٧٥م، وظهر أول بنك إسلامي، وهو بنك دبي الإسلامي، ثم بيت التمويل الكويتي، وانتشرت البنوك الإسلامية حتى جاوزت المائتين خلال عشرين سنة، ونظراً للإقبال الجماهيري والشعبي، والنجاح الباهر، للبنوك الإسلامية، فقد اضطرت البنوك التجارية الربوية لفتح شعب أو فروع خاصة للمعاملات المصرفية الإسلامية، وأقبل كثير من النصارى في مصر على التعامل مع البنوك الإسلامية، هرباً وتجنباً للربا المحرم في جميع الأديان السماوية، وأحس الغرب بعظمة البنوك الإسلامية ونتائجها المالية ففتحت البنوك الربوية فروعاً في مصارفها، وأنشأت بنوكاً ومؤسسات

(١) النور- العدد (١٦٣) جمادى الآخرة ١٤١٩/ سبتمبر ١٩٩٨ ص١٠.

وشركات تلتزم التعامل الإسلامي.

وتعتبر البنوك الإسلامية أعظم تجربة ناجحة ومعاصرة لتطبيق الإسلام، والاقتصاد الإسلامي، ووجوب تطبيق الشريعة، ليتم التعانق واللقاء بين العقيدة والشريعة، والإيمان والأحكام، والدين والدنيا في حياة المسلم، على الرغم مما تواجهه البنوك الإسلامية من مضايقات وعداوة، ومحاربة، وتتعرض لمحاولات التشويه والدس والافتراء من جهات متعددة، وما تجابهه من منافسة شديدة، وما تعانيه من أزمات في مجتمع ربوي واقتصاد دولة غير إسلامي، وقوانين وأنظمة تفرض قيودها، وتطلب مثلاً إيداع رصيد محدد لها في البنوك المركزية احتياطياً بمقابل ربوي، فتضطر البنوك الإسلامية لوضع المبالغ المطلوبة في المصارف المركزية بدون مقابل، وتتخلى عن الفوائد الربوية، فتعتبر تلك المبالغ مجمدة، بينما تستفيد بقية البنوك الربوية منها.

وإننا نناشد كل مسلم، وكل عاقل، أن يترك التعامل مع البنوك الربوية، ويتجنب الفوائد الربوية التي تعتبر من الكبائر في الإسلام، ولعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله، وأعلن القرآن الحرب عليهم، ولأن الربا سبب الكوارث الاقتصادية والأزمات المالية في العالم كما بين ذلك كاتب ألماني، وصنف كتاباً باسم (كارثة الربا) وترجمه الدكتور أحمد النجار.

كما نناشد الحكومات في البلاد الإسلامية بفتح الأبواب أمام المصارف الإسلامية، وأن تضع لها الأنظمة المنصفة، ليتعامل معها جماهير المسلمين بما يتفق مع عقيدتهم ودينهم.

وتقول القاعدة: إن العبرة في المبادئ والنظريات بالتطبيق والنتائج، وقد أثبتت البنوك الإسلامية نتائج ممتازة، ويظهر ذلك في ارتفاع نسبة الأرباح التي

تجنيها وتوزعها على المتعاملين معها، وبما تقدمه من خدمات اجتماعية جلى في المجالات العمرانية، والسكنية، والاجتماعية، والتعليمية، والتنموية، وما جمعته من أموال كانت مخزنة ومعطلة لإعراض أصحابها عن وضعها في البنوك الربوية.

النور: ما الدور الذي تؤديه البنوك الإسلامية على صعيد التنمية في الدول الإسلامية؟

الزحيلي: إن هذا السؤال يذكرني ببحث خاص، ودراسة معمقة لي عن المصارف الإسلامية، وبينت فيها أن المصارف تقوم بأعمال متعددة ومتنوعة حالياً، وتمارس أنشطتها غالباً في نطاق محلي وإقليمي ضمن الدولة والقطر الذي أنشئت فيه غالباً لعدة عوامل، وفي هذه الحالة تساهم مساهمة بناءة ومؤثرة وفعالة في تنمية القطاع الخاص وتطوره في البناء والمدارس والتجارة والمهن الصناعية، والحرف المهنية وفي مجال المواصلات العامة، والزراعة كما في السودان، وتساهم أيضاً في المعاملات التجارية الدولية خارج البلاد لتقدم المساعدات والضمانات لصالح عملائها وأبناء وطنها. ثم تمتد أعمال المصارف الإسلامية إلى الخارج، وتمارس نشاطها على مستوى البلاد العربية أولاً، ثم بالتعاون مع البلاد الإسلامية والمصارف الإسلامية الأخرى ثانياً، ثم تقدم الخدمات والنشاط في المجال الدولي ومع سائر البنوك العالمية ثالثاً، ولذلك ظهرت الدعوة بين المصارف الإسلامية لإقامة التعاون فيما بينها بإنشاء (الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية) عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م بمكة المكرمة.

ولم يكن الهدف من المصارف الإسلامية تقديم خدمات مصرفية بدون ربا فحسب، بل كان الهدف أيضاً الإسهام في قضية التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تهم المصلحين ورجال الأمة، ويؤرقهم البحث عن طريق

فعال لتحقيقها في البلاد الإسلامية.

وكان دور البنك الإسلامي للتنمية بجدة أكثر المصارف الإسلامية أثراً في نطاق تنمية التبادل التجاري العربي والإسلامي.

وتلعب بنوك فيصل الإسلامية، ومجموعة البركة، وبنك دبي الإسلامي، وبيت التمويل الكويتي، وغيرها، دوراً أساسياً في تنمية التبادل التجاري العربي والدولي، ودعم المشاريع التنموية في البلاد المختلفة، لوجود فروع لهذه المصارف في مختلف البلاد العربية والإسلامية، وتقوم بدعم المشاريع القائمة، وإقامة المشاريع الجديدة، وتمارس نشاطها بطرق إسلامية فقهية متنوعة كالشركة، والمضاربة، والأوراق التجارية، والمرابحة للآمر بالشراء، والوكالة بالشراء بأجر، والبيع الإيجاري، والمشاركة المنتهية بالتمليك، كما تقوم بالتمويل المباشر وغير المباشر، والاستثمار بالوسائل الفقهية العديدة، وتستعين المصارف الإسلامية بكبار العلماء والفقهاء، وتعين لجنة الرقابة الشرعية لمتابعة الأعمال.

وأذكر مثالاً لذلك أنه تم توقيع عقدين بين بيت التمويل الكويتي والبنك الإسلامي للتنمية بجدة، لتمويل اعتمادات خطة واردة بمبلغ ٢٥ مليون دولار سنوياً، لتمويل القطاعين العام والخاص لمدة ٢٤ شهراً، أو ١٢ شهراً حسب البلاد، ويقوم البنك الإسلامي للتنمية بموجب العقد بتمويل واردات الكويت المطلوبة لعمليات التنمية، مع التركيز على السلع ذات الطابع الإنمائي، مثل: الأسمدة، والإسمنت، وزيت الوقود، والمنتجات النفطية المكررة، والموارد الأولية اللازمة للصناعة، ووافق البنك الإسلامي للتنمية في خطته لعام ١٩٩٦ على تمويل وقروض بقيمة ١٩٣,٥ مليون دولار، ووافق على تمويل عشر عمليات للتجارة الخارجية في سبع دول أعضاء بقيمة ١٠٤ ملايين دولار،

وعشر مشاريع إنمائية في ثمان دول بمبلغ ٨٩,٥ مليون دولار لكل من الأردن والجزائر وسوريا وتركيا والجابون وباكستان وإيران وبنغلادش وإندونيسيا وتونس والمغرب وموزامبيق والسلطة الفلسطينية.

وقامت المصارف الإسلامية في السودان مجتمعة بالتكفل بتمويل الموسم الزراعي في السودان في موسمي ٩٤/٩٣، ٩٥/٩٤، وموّلت المزارعين عن طريق عقد السلم الشرعي، بينما كان القطاع المصرفي العادي لا يمول الزارعة إلا بمقدار ٢٪، ونتيجة لتمويل المصارف الإسلامية فاض الإنتاج الزراعي في السودان، وغطى جميع حاجات الدولة، وبدأت بتصدير القمح وغيره، وتمشياً مع هذه السياسة المصرفية رفع البنك المركزي السوداني نصيب الزراعة إلى ٥٠٪ من السقوف التمويلية للقطاع المصرفي.

وقامت كذلك مجموعة دلة البركة بمشروعات زراعية في البلاد العربية والإسلامية، وغطت تسع دول، وبلغ حجم تمويلها أكثر من ١٩٤ مليون دولار في الزراعة والإنتاج الحيواني والخدمات الزراعية، ثم قامت مجموعة البركة بتشييد مخطط الأمير فواز السكني بجدة، وهو ما سمي بمشروع القرن العشرين بتطهير بحيرة تونس، وإقامة منشآت سكنية وسياسية، وكذلك أقام بنك دبي الإسلامي عدة مشاريع سكنية، وأقام البنك الأردني الإسلامي ضاحية سكنية في عمّان، وموّل البنك الإسلامي الأردني قطاع الصناعة والتعدين بمبلغ ٣٥٠ مليون دينار، مما يشكل ٣١٪ من استثماراته، وبلغت استثمارات بنك فيصل الإسلامي المصرفي في الصناعة ١٦٪ من إجمالي استثماراته في الثمانينات، وفي بنك فيصل السوداني بلغت ١٣٪، وأنشأت مجموعة البركة عشرة مصانع داخل المملكة العربية السعودية، وساهمت في

أكبر المنشآت الصناعية التي تعتبر عماد القطاع الصناعي السعودي، وقامت بإنشاء عدة صناعات شملت الحديد والصلب والكوابل والأسلاك والمواد الكيماوية في مصر والأردن وتونس.

وقامت المصارف الإسلامية أيضاً بالمساهمة في مشروعات حيوية في مجال السياحة والتعليم والصحة والإعلان وإيجاد قنوات فضائية، إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره.

النور: ما التوجهات العامة للاقتصاد الإسلامي، وهل يمكن القول بوجود نظرية اقتصادية إسلامية؟

الزحيلي: يقوم الاقتصاد الإسلامي على تأمين متطلبات الأفراد والمجتمع والدولة، ويرعى الناحية الإنسانية أولاً، فالمال في الإسلام وسيلة وليس غاية، وله وظيفة اجتماعية، والمحور الرئيس للاقتصاد الإسلامي يقوم على بناء الإنسان الصالح أولاً، وتحقيق رفاهيته، وتأمين حاجاته، ويرتبط الاقتصاد الإسلامي بسائر فعاليات الأفراد والأمة، مع توثيق الصلة الكاملة بالعقيدة والإيمان والأخلاق، فالعقيدة والأخلاق دعامتان أساسيتان للاقتصاد الإسلامي خلافاً للاقتصاد الوضعي القائم على المادة والمال أولاً، وتفضيلها على الإنسان ثانياً.

ولا شك بوجود نظرية اقتصادية إسلامية، وأما أركانها وتوجيهاتها ومبادئها فتحتاج إلى كتب ومجلدات، وهي تدرس في مقررات خاصة في الكليات والجامعات باسم الاقتصاد الإسلامي، وأقيمت كليات مستقلة، وأقسام خاصة للاقتصاد الإسلامي في عدة دول، وظهرت فيه المؤلفات العديدة، وفتحت لها مجلات متخصصة كمجلة (الاقتصاد الإسلامي) في دبي ومجلة (الاقتصاد الإسلامي) بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ومجلة (الاتحاد

الدولي للبنوك الإسلامية) مع ما تصدره البنوك الإسلامية من كتب ونشرات علمية وعملية.

النور: على الرغم من تحريم الربا، هناك فتاوى متناقضة ظهرت عن ذلك، فما رأيكم في ذلك؟

الزحيلي: إن الربا محرم باتفاق المسلمين، وإجماع العلماء والفقهاء وأولي الأمر من سلف هذه الأمة وخلفها، وقد ورد تحريمه بالنص الصريح في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. ووردت أحاديث عديدة في تحريم الربا والتنفير منه والتحذير من مضاره وأخطاره، منه قوله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه» حتى خصص علماء الحديث والسنن باباً خاصاً بتحريم الربا، وفعل مثلهم الفقهاء في كتب الفقه، ولا مجال للاجتهاد في مورد النص.

وإن فتاوى العلماء قاطبة، ومجامع الفقه، والندوات الإسلامية، والمؤتمرات الفقهية أكدت تحريم الربا بجميع أنواعه، وحذرت المسلمين منه، ونادت بوجوب تطبيق المعاملات المصرفية الإسلامية، واعتماد البنوك الإسلامية للتعامل.

وما ظهر خلاف ذلك فهو مجرد آراء شاذة، وفتاوى باطلة في العصر الحاضر، وهي من ثلة محددة ومعينة أعلنت إباحة الربا أو إباحة بعض أنواعه دون بعض، ولا تؤثر هذه الآراء الشاذة على التحريم القطعي الثابت بالنص، وإجماع العلماء على التحريم، وينطبق على هؤلاء الحديث الشريف «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار» ولذلك فهي لا تساوي ولا تعادل شيئاً أمام

الفتاوى العديدة والإجماع الفقهي وآراء جماهير العلماء.

وإذا محّصنا قليلاً في هذه الفتاوى الباطلة نجدها تصدر حصراً من صنفين من الناس، الأول درس في الغرب أو تخرج من كليات الحقوق والقانون والاقتصاد الوضعي، وتأثر بآراء الكفار والمستشرقين وأعداء الإسلام، وأراد الظهور والشهرة في المجتمع، على مبدأ (خالف تعرف) فتاجر بدينه ليكسب الدنيا والجاه والنفاق ومرضاة الأسياد، والثاني: من بعض العلماء الموسومين بعلماء الحكام والسلطة، القابعين على الكراسي الرسمية، فيتلقون الوحي من شياطينهم ورؤسائهم، لشق الصف الإسلامي، وخرق الإجماع الفقهي، وبلبلة الآراء والأفكار، وبث السمّ في الدسم، والترويج للبنوك التجارية الربوية الشائعة والمنتشرة في الوطن العربي والإسلامي، وتسويغ التعامل معها، وأكبر دليل على صحة هذا القول أن هؤلاء العلماء القائمين على المناصب كانوا ينطقون ويصرحون ويعلنون سابقاً تحريم الربا بإطلاق، فباعوا أنفسهم للحكام، وأحلوا ما حرم الله تعالى لكسب رضى أسيادهم، وللحفاظ على مناصبهم وكراسيهم ومكاسبهم، وللطمع بالترقية إلى المناصب الأعلى في الدنياو هو ما يحدث فعلاً بعد تنفيذ الأوامر الصادرة لهم، فيرتقوا في الأسباب والدرجات، ونسأل الله تعالى لهم الهداية، والرجوع إلى الحق، والالتزام بالصواب، وإعلان التوبة قبل فوات الأوان.

النور: ما رأي الشريعة الإسلامية في التأمين؟ وهل هناك تأمين مباح وآخر محرم؟

الزحيلي: التأمين نظام غربي مستورد، ومستحدث، وقائم على الغرر المحرم والمخاطرة، والربا المحرم، وقد نقل إلى البلاد الإسلامية مع غياب الوعي

الإسلامي، وعند إلغاء الشريعة الإسلامية، وعدم تطبيق أحكام الله تعالى.

وشاع التأمين وانتشر في البلاد الإسلامية حتى تبنته الدول القائمة، وفرضته على الأمة والشعب بالقوة فيما يعرف بالتأمين الرسمي، والإجباري على السيارات وغيرها، وتفتح هذه الحكومات صدرها الرحب لإعلانات التأمين الربوي، وتشجعه تشجيعاً لا مثيل له، وتروج الدعاية له في جميع وسائل الإعلان الرسمية والحكومية، لما تحقق من ورائه من ضرائب كثيرة، واختزان الأموال السائلة، لسحب النقد من الأيدي والتعامل.

وأكبر دليل على ذلك ما تجنيه شركات التأمين من أرباح طائلة، ومبالغ عظيمة، وما تشيد به من الأبنية الفارهة التي لا تحلم بها كثير من وزارات الدولة ومؤسساتها. واضطر المسلمون جبراً وكرهاً للتعامل مع التأمين الربوي في جميع الأقطار الإسلامية.

ولما ظهرت الصحوة الإسلامية، ونما الاقتصاد الإسلامي، ونهض العلماء والدعاة للدعوة إليه، وبيان تحريم التأمين الربوي، ظهر البديل المناسب، وهو التأمين التعاوني الإسلامي، وهو جائز وحلال، ويقوم على أساس الشريعة والمعاملات الإسلامية، ويعتمد على مبدأ التعاون والتناصر والتكافل والتبرع، الذي دعا إليه الإسلام بأوسع الأبواب، وحض عليه، وشجع القائمين به، وظهر للوجود التأمين الإسلامي المباح الذي يحقق الأغراض والأهداف المادية للتأمين عامة، مع الحفاظ على العقيدة والشريعة، مع ما يلاقيه التأمين التعاوني الإسلامي -كالبنوك الإسلامية- من محاربة وتضييق وتشويه وافتراء وتشكيك، بل تصل الحكومات في معظم البلاد العربية والإسلامية إلى منعه أو التضيق عليه لحصر التعامل مع التأمين الربوي الرسمي أو التجاري، يريدون

ليطفئوا نور الله بأوفواههم والله متم نوره، ولو كره الكافرون.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، ونسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يرزقنا العمل بكتابه وسنة رسوله، ويمنحنا رضاه، والحمد لله رب العالمين.

الفصل العشرون

مقالات في مناسبات[1]

أولاً: استقبال رمضان[2]

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل القرآن الحكيم في شهر رمضان ليكون هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والقائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، وهو إمام المتقين، والقائل: «والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم، ولكني أصوم وأفطر... فمن رغب عن سنتي ليس مني!» ورضي الله عن آل بيته الطيبين الطاهرين، وعن الصحابة أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كان رسول الله ﷺ يستقبل رمضان فيخطب الناس في آخر جمعة من شعبان، ويقول: «اللهم بارك لنا في شعبان، وبلغنا رمضان». ولذلك يغتنم المسلمون شهر رمضان لفضائله العديدة التي سنذكرها.

---

(١) للمزيد من ذلك انظر مقالات أخرى في فصول سابقة:
- التربية المستمرة في الصيام = فصل ٨ العبادات.
- الهجرة النبوية دروس وعبر = فصل ١٤ السيرة.

(٢) ألقي في المحاضرة العامة التي نظمتها اللجنة الثقافية بجامعة الشارقة، يوم الاثنين الواقع في ٢٦ شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ١١/١٠/٢٠٠٤م في جامعة الشارقة، المدرج ٢ W.

والمسلمون يبتهجون لاستقبال رمضان، ويستعدون لاستقبال هذا الضيف العزيز، وذلك أسوة واقتداء برسول الله ﷺ، واتباعاً لصحبه الكرام، والسلف الصالح.

ولذلك تجد العزيمة الصادقة، والفرحة العامرة لقدوم رمضان عند المسلمين والمؤمنين، والعبّاد المتقين، وأحباء الله الصالحين.

◈ الفرحة الإيمانية والروحية والنفسية لاستقبال رمضان:

إن المسلم يدرك فضل رمضان، وثواب الأعمال فيه، وأنه شهر خير وبر وعبادة، وأنه شهر القرآن، وشهر القيام، وشهر الصيام، وشهر ليلة القدر، وأن العشر الأخير منه أفضل أيام العام...، وغير ذلك فتبتهج روحه، ويتطلع إلى الاستفادة من هذه الإلهية، يتزود بالتقوى التي تعتبر أهم أغراض الصيام، قال الله تعالى في أول آيات الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقال تعالى في آخر آيات الصيام: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال تعالى في أصل مشروعية العبادة لله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، فجاء الهدف والغاية في الآيات الثلاثة بالتقوى، فالعبادة عامة، والصيام في رمضان خاصة أهم الوسائل الموصلة للتقوى، أي للفوز برضاء الله تعالى ورضوانه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦، ١٢٣]، ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ

وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥]، ولذلك تبتهج النفوس، وتنتشي الأرواح، وتتهيأ نفسياً وروحياً لهذا الشهر ومعرفة أحكامه، وأسراره، وفضائله، وخصائصه. وبما أن الإسلام يجمع بين المادة والروح، والأحكام العملية الفقهية والأحكام النفسية التربوية الروحية فإننا نقسم الكلام على هذين المحورين.

أولاً: استقبال رمضان من الناحية المادية:

١- البقاء على قيد الحياة حتى رمضان الحاضر.

٢- استطلاع شهر رمضان.

٣- حرمة صيام يوم الشك.

٤- إدخار الأغذية والأطعمة.

ولذلك يبتهج المسلمون باستقبال رمضان، وقدومه ضيفاً عزيزاً، ومنحة إلهية، وفرصة طيبة، ونقدم بعض الجوانب والنقاط بمناسبة استقبال رمضان، وأهمها:

١- نعمة الحياة:

فإن المسلم يستقبل رمضان، ويحس ويشعر بفضل الله تعالى عليه ونعمته في مد عمره، وبقائه إلى هذا الشهر المبارك ليربح فيه على الله، ويتفيأ بظلاله، ويستفيد من أفضاله الكثيرة.

ويظهر ذلك بالمقارنة مع إخوة لنا وأحبة وأقارب كانوا معنا في رمضان الماضي، ثم انقضى أجلهم، ولحقوا بربهم، وانتقلوا إلى رحمته، بينما أفاء الله علينا نعمة الحياة لنعيش إلى رمضان القادم، ونقتنص من درره ولؤلؤه وجواهره.

٢- استقبال الهلال:

ومن أحكام استقبال رمضان أن يتسارع، ويتسابق المسلمون إلى استطلاع هلال رمضان في يوم التاسع والعشرين من شعبان، ويصعدوا الأماكن المرتفعة، والمناطق المفتوحة، ليتراءوا الهلال، إن رأوه هللوا وكبروا وشكروا الله تعالى، ودعوه قائلين: «اللهم أهله علينا بالخير واليمن والبركة، هلال خير ورشد ويمن، ربنا وربك الله..» ثم عادوا إلى بيوتهم ليحيوا أول ليالي رمضان بالتراويح، وينووا صيام اليوم القادم.

٣- تحريم صيام يوم الشك:

إذا لم ير الهلال يوم التاسع والعشرين من شعبان، فيكون اليوم التالي هو الثلاثين من شعبان قطعاً. ومن الناس من يدفعه الورع غير المقبول شرعاً لصيام يوم الثلاثين من شعبان احتياطاً من أن يكون أول يوم من رمضان، وهذا شك ووهم وورع مرفوض شرعاً وغير مقبول، ويكون صومه حراماً، لأنه قد يؤدي -يوماً ما- أن يعده الناس من رمضان، ويزيدون في رمضان، وقد يأتي رمضان ثلاثين يوماً، فيكون الصائم الشاك قد صام واحداً وثلاثين يوماً، وهو زيادة مرفوضة وباطلة في العبادة الصحيحة، فالله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ...﴾، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ...﴾ أي كتب الصيام في شهر رمضان، ورمضان يبدأ مع ظهو هلاله، وينتهي مع هلال شوال، ولذلك قال رسول الله ﷺ مؤكداً ومبيناً «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، وإذا قلنا بصوم يوم الشك احتياطاً قد يدفع الورع الزائف لصيام يوم آخر قبله، وثالث، وهكذا يصبح الدين ألعوبة في أيدي الناس، والله تعالى تكفل بحفظ دينه.

٤- شبهة الاستعداد للتموين:

نرى كثيراً من الناس يستعدون لاستقبال رمضان بالتوجه إلى الأسواق والجمعيات الاستهلاكية لشراء الحاجيات، والتزود بالتموين باللحوم والمأكولات والمواد الغذائية، وكأنهم يستعدون لسفر، أو لحفلة، أو مجاعة. بل إن الدول ووزارات التموين والتجارة الداخلية تستعد لاستقبال رمضان مسبقاً، فتستورد المواشي والأنعام والمواد الغذائية، لتكديسها في المخازن وتسويقها في الدكاكين والجمعيات، وتوزعها على الأقاليم والمناطق.

وهنا تثور الشبهة في التعارض والتناقض بين كون رمضان شهراً للصوم وتخفيف الطعام، وتقليل الوجبات، وبين هذا الاستعداد بالتمويل وكأن الهدف من الصيام انقلب رأساً على عقب، وصار شهر الصيام مناسبة لزيادة الأطعمة الدسمة، والمعجنات، والحلويات، وغيرها.

وينشغل ضعاف الإيمان، وأعداء الإسلام بهذه الصورة، لإلصاق التهمة بالمسلمين أولاً، وبالإسلام ثانياً، ويكررها كثير من المسلمين بحسن نية؟

والوقع أن هذه التهمة والشبهة فيها شيء قليل من الصحة، فكثير من الناس يطبقونها ويكثرون من الأطباق والأنواع والمقبلات والحلويات عند الإفطار، ويأكلون حتى التخمة ولا يستطيع الانحناء لارتفاع البطون على المستوى المعقول.

ولكن أرى أن معظم ذلك فرية وتهمة باطلة، وأن الحقيقة أن هذه صورة مشرقة للمجتمع الإسلامي، وتنبعث من الإيمان، ويدفعها الحرص على زيادة الأجر والثواب، وذلك بإطعام الفقراء والمحتاجين والمساكين والعمال والخدم، وتقديم الوجبات الشهية لهم، ولذلك توضع الموائد في المساجد، وعلى قاعة

الطريق، وفي الحدائق والفلل والبيوت، ويقصدها المعوزون المحرومون من الغذاء الكافي طوال العام، فينالون حظهم في رمضان بصورة تبهج النفوس وتسعد القلوب، وتدخل السرور، وتلبي رغبة الرسول ﷺ أن من فطر صائماً كان له مثل أجره دون أن ينقص من أجر الصائم شيء، ومن فطر صائماً غفرت ذنوبه ومن سقى فيه صائماً سقاه الله من الحوض، فلا يظمأ أبداً.

ثانياً: الاستعداد النفسي والروحي لاستقبال رمضان:

ويتجلى ذلك بأمور كثيرة تقتصر على تعداد فضائل رمضان للتهيؤ لها، وللتعرض لنفحاتها، وإن رمضان له فضائل عديدة تكاد أن لا تحصى، وأهمها:

١- أفضل الشهور عند الله تعالى.

٢- شهر القرآن، بدأ نزوله به، وهو شهر التلاوة من الرسول ﷺ مع جبريل، ومن الناس عامة.

٣- فيه ليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، وسن قيامها خاصة دون غيرها.

٤- شهر الرحمة من الله بعباده، ورحمة الناس بعضهم بعض، فالراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، والحديث «أوله رحمة، ووسطه مغفرة، وآخره عتق من النار».

٥- شهر العبادة والصيام وغيره، ومنها الاعتكاف في العشر الأخير منه، بل حتى التفرغ الكامل للعبادة، كما كان يفعل السلف الصالح.

٦- شهر الدعاء، فقال تعالى في أوسط آيات الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٧- شهر الجهاد في سبيل الله.

٨- استجابة دعوة الصائم عند فطره، فلا ترد دعوته إذا أفطر، لحديث «للصائم عند فطره دعوة لا ترد».

٩- فيه فاكهة خاصة، وهي صلاة التراويح وقيام الليل، «وسننت لكم قيامه».

١٠- شهر العتق من النار.

١١- شهر الانتصارات الإسلامية في بدر وغيرها.

١٢- شهر الطاعة وتجديد العهد مع الله، ولذلك يكثر المصلون، وتكثر الجماعات.

١٣- شهر الإنابة والتوبة من الذنوب.

١٤- الثواب فيه بسبعين ضعفاً فيما عداه، والفريضة كسبعين فريضة فيما سواه، وثواب المندوب فيه كالفريضة في غيره.

١٥- شهر الجود والكرم والسخاء والعطاء.

١٦- رمضان يعِّود على النظام عامة، وتنظيم الوقت خاصة.

١٧- شهر الصبر، وشهر المواساة للفقراء والمحتاجين، والضعفاء والمرضى والمساكين.

١٨- الصيام في رمضان له ثواب عظيم، لأنه سر بين العبد وربه، لما جاء في الحديث القدسي «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، وإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إن صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه». ولذلك خصص

الله تعالى للصائمين باباً في الجنة اسمه (باب الريان) لا يدخل منه أحد إلا الصائمين إذا دخلوا أغلق وراءهم.

١٩- تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار، وتصفد الشياطين.

٢٠- شهر الوحدة الإسلامية وتوحد الشعوب الإسلامية بنظام واحد في السحور، والفطور، والتراويح، والعيد، ويحس المسلم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب بشعور أخيه المسلم في صومه وإفطاره ودعائه.

٢١- شهر المغفرة من الذنوب للحديث عن رمضان «أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار» ولحديث «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

٢٢- شهر الصحة والعافية، لقوله ﷺ: «صوموا تصحوا».

◈ آداب الصيام:

١- تأخير السحور.

٢- تعجيل الفطور.

٣- الدعاء عند الإفطار.

٤- غض البصر، وحفظ اللسان، وإن شاتمك إنسان فقل إني صائم.

٥- الزيادة في أعمال الخير.

٦- إفطار الصائم، وسد عوز المحتاجين، والإكثار من الصدقات والمبرات وصلة الرحم.

◈ الخاتمة:

- ❖ اللهم بارك لنا في شعبان، وبلغنا رمضان.
- ❖ اللهم بارك لنا في رمضان، وكما أريتنا أوله فأرنا آخره.
- ❖ اللهم أعنا فيه على الصيام والقيام، وغض البصر وحفظ اللسان.
- ❖ اللهم اجعلنا من عتقاء شهر رمضان، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا من النار.
- ❖ اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً.
- ❖ اللهم أنصر الإسلام، وانصر المجاهدين في كل مكان.
- ❖ اللهم أرحم أمواتنا، وأموات المسلمين، وأرحم الشهداء أجمعين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: رمضان شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار

ورد في فضائل رمضان آيات كريمة، وأحاديث كثيرة، نعرض منها حديثاً واحداً قصيراً ومختصراً، وفيه جوامع الكلم، وهو: قال رسول الله ﷺ عن شهر رمضان: «أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار».

(١) فهذا هو شهر الرحمة من الله تعالى، وهو الرحمن بعباده، الرحيم بعبّاده.

- الرحمة التي يحتاجها الناس بشدة لضعفهم، ولذلك ننادي ونناجي الله بقولنا «يا أرحم الراحمين».

- إنها رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ...﴾ [الأعراف: ١٥٦].

- وهذه الرحمة تتضاعف للمؤمنين المتقين المحسنين قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

- لأن هؤلاء يرحمون غيرهم، فتكون رحمة الله قريبة منهم.

- ولذلك دعانا الله تعالى أن يرحم بعضنا بعضاً، قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

- وحذر رسول الله ﷺ من ترك الرحمة، وأن من فعل ذلك يخسر رحمة الله تعالى، ويحرم منها، فقال عليه الصلاة والسلام: «من لا يَرحم لا يُرحم».

- ثم نادانا الله تعالى بعدم القنوط من رحمة الله فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٣٥].

وهذا ينقلنا إلى الشطر الثاني.

(٢) ورمضان شهر المغفرة من الذنوب:

- لأن الإنسان يخطئ كثيراً ويحتاج لمحو الخطأ وغفرانه «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» والصيام باب من أبواب التوبة، وفي رمضان يأمر الله الملائكة أن تستغفر للصائمن، في كل يوم وليلة.

- إن أعمال رمضان كلها عبادة مستمرة ومتنوعة، وكل ذلك سبيل لمغفرة الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «واتبع السيئة الحسنة تمحوها، وخالق الناس بخلق حسن»، وقال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

- والله سبحانه غفار الذنوب كما جاء بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

- وإن الدعاء أحد الوسائل المتعددة لمغفرة الذنوب، ويدعو الصائم وهو مستجاب الدعاء «اللهم اغفر لي يا غفور»، ويختم الصائمون شهرهم مغفوراً لهم، ويستلمون يوم العيد جوائزهم بذلك.

(٣) ورمضان شهر العتق من النار، وذلك نتيجة لما سبق، ولذلك تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار، وتصفد الشياطين.

اللهم تقبل منا الصيام والقيام، واجعلنا من عتقاء شهر رمضان مع والدينا والمسلمين.

ثالثاً: العشر الأواخر من رمضان

رمضان شهر الله تعالى، وهو أفضل الشهور على الإطلاق، وهو شهر الطاعة والعبادة، وشهر الورع والزهد والتقوى، وشهر القرآن الكريم، وشهر التقاء السماء بالأرض.

رمضان شهر الرحمة والمغفرة، وشهر الخير والبركة، وشهر التوبة وتكفير الذنوب والسيئات، وهو الموسم العظيم لدخول الجنة والعتق من النار.

رمضان شهر الصبر، وشهر التربية للإرادة والعزيمة، وشهر الإعداد الروحي والتدريب الجسمي، والسمو النفسي، والأخلاق الفاضلة.

رمضان شهر الجهاد في سبيل الله تعالى: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين، وجهاد المارقين عن دين الله وشرعه.

هذه بعض الصفات التي يحملها المسلم عن رمضان، ويأمل في رعاياتها وتحقيقها من الصيام في هذا الشهر المبارك، وكان رسول الله ﷺ يستقبل بها رمضان، فيقول عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس: قد أظلكم شهر عظيم مبارك، فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثواه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يُزاد في رزق المؤمن فيه، من فطّر صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار...»[1].

---

(١) هذا طرف من حديث رواه ابن خزيمة في صحيحه، ورواه ابن حبان في الثواب، عن سلمان.

وهذه الصفات تتبلور في العشر الأخير من رمضان، لأن الأمور بخواتيمها، ولذا كان العشر الأخير هو قمة ما في هذا الشهر من المعاني والقيم، والوسائل والأهداف، وفيه يقطف الصائم ثمار الشهر كاملة، وهو الزهرة المتفتحة، والكوكبة المتقدة، والذروة الشامخة، تتكثف فيه الطاعات والعبادات، وفيه أفضل ليلة في العام، وكان رسول الله ﷺ خصّ رمضان كله بأحكام معينة، ثم يخصُّ العشر الأخير منه بهدي مأثورٍ، وسلوك محدد، وطاعات خاصة، ويهتم به اهتماماً زائداً، فيتفرغ فيه عن الدنيا وأعمالها وشؤونها.

ويعلم المسلمين ذلك، ويصحب أهله فيها، ويأخذ أصحابه عليها، ليصلوا إلى الهدف الأسمى من الصيام في تحقيق التقوى، والتعلق بالخالق، والتطلع إلى الجنة، والترفع عن أدران المادة، وتطهر القلب من شوائب الحياة ومغرياتها ومفاتنها، وهذا ما دفعنا إلى الحديث عن صفات العشر الأخير وخصائصه وبعض أسراره.

أولاً: قيام الليل:

شرع الله قيام الليل على المسلمين لمناجاة ربهم سبحانه وتعالى تعبداً وخشوعاً، وذكراً لله وتقرباً، وتهذيباً للنفس وإعداداً، ويتأكد قيام الليل وفضله في رمضان عامة بصلاة

التراويح جماعة في المساجد، ويزداد نضارة وجمالاً وبهاءً في العَشْر الأواخر من رمضان خاصة بالتراويح والتهجد في البيت والمسجد، ومع الأهل والولد، وكان رسول الله ﷺ ينشط في العشر الأخير من رمضان، فيحيي لياليه بالصلاة والتلاوة والذكر والشكر، ويوقظ أهله ليشاركوه في الخير والدعاء والإحياء، فيربيهم على مرضاة الله تعالى، فقد روت السيدة عائشة

رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيى الليل، وأيقظ أهله، وجدَّ وشد المئزر»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام عن رمضان: «إن الله فرض لكم صيامه، وسننت لكم قيامه»[3].

والقصد من قيام مضان أن يتم الانسجام الكامل في حياة المؤمن، ويكون ليله متكاملاً مع نهاره، في رياضة روحية كاملة، يصوم النهار ويقوم الليل فيغفر الله ذنوبه كاملة.

ثانياً: الاعتكاف:

وهو الانقطاع للعبادة ولزوم المسجد بنية الطاعة قولاً وفعلاً، ليزداد قرباً إلى الله تعالى، وتفرغاً لشؤون الآخرة، وتزكية للنفس، وتطهيراً للقلب، وغذاء للروح، ويتأكد الاعتكاف في العشر الأخير من رمضان الذي يعتبر أنسب الأوقات للاعتكاف والتفرغ للعبادة في الليل والنهار، وفي الزمان والمكان، فالمؤمن صائم بالنهار، قائم بالليل، مقيم في المسجد، منقطع عن الحياة والأهل والمال والولد، متجه بقلبه ولسانه وجسمه إلى ربه، يشغل لسانه بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، ودراسة العلم، ويوجه قلبه إلى مراقبة الله تعالى، والتفكر في آلائه، والشكر على نعمائه، والاستعدد إلى لقائه، ويكثر من الدعاء والاستغفار، والذكر والتسبيح، والصلاة على رسول الله.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وكان رسول الله ﷺ يمكث في المسجد في العشر الأخير من رمضان، ولا يخرج منه إلا لحاجة ضرورية، ويكثر من الصلاة حتى تتورم قدماه الشريفتان، ولا يفتر عن ذكر الله وعبادته، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان»(١)، وتصف ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه بعده»(٢)، وقالت أيضاً: «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً»(٣)، وذلك استعداداً لقاء ربه، وحثَّ رسول الله ﷺ على الاعتكاف في رمضان، ورغب فيه، وشجع على القيام به، فقال عليه الصلاة والسلام: «من اعتكف عشراً من رمضان كان كحجتين وعمرتين»(٤)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ، فقال: سمعت صاحب هذا القبر، والعهدُ به قريب، فدمعت عيناه، وهو يقول: «... من اعتكف يوماً ابتغاء مرضاة الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق، أبعد مما بين الخافقين»(٥).

وبيّن رسول اله ﷺ ثمرة تلاوة القرآن، وآثار مدارسته في المسجد، وفضل الذكر في الاعتكاف فقال عليه الصلاة والسلام: «... ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البيهقي عن الحسين.

(٥) رواه الحاكم وصححه والبيهقي والطبراني في الأوسط.

السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...»[1]، وكان رسول الله ﷺ يأمر بخباءٍ فيضرب له في المسجد يخلو فيه بربه عز وجل.

يقول العلامة ابن القيم مبيناً الحكمة من الاعتكاف: «وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، وبحيث يصير ذكره وحبُّه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بَدَلها، ويصير الهمّ كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه، وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً من أنسه بالخلق، فيعِّدُه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم»[2].

ثالثاً: ليلة القدر:

إن من الثابت شرعاً أن لله نفحات ومناسبات يفتحها لعباده رحمة بهم، وشفقة عليهم، ثم يحثهم على التعرض لها والاجتهاد فيها، لتشملهم الرحمة والرعاية والعناية الإلهية، وإن الله تعالى فضل بعض الأماكن على بعض كالحرمين الشريفين وبيت المقدس والمساجد، وفضل بعض الأوقات على بعض كالعيدين والعشر الأوائل من ذي الحجة، ومن الأوقات المفضلة عند رب العالمين شهر رمضان المبارك عامة، والعشر الأخير منه بشكل خاص، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي العشر الأخير من

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ١/٣٢١.

رمضان ليلة القدر التي اختص الله تعالى بها هذه الأمة، وأنزل الله فيها القرآن الكريم، وورد في شأنها ومكانتها وفضلها الشيء الكثير، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر: ١-٥].

فليلة القدر خير من ألف شهر، تتنزل فيها الملائكة بإذن ربهم، وهي سلام وعدل، وسعادة ورحمة حتى مطلع الفجر، ورغب رسول الله ﷺ بتحري ليلة القدر، وحث أصحابه والمسلمين على ذلك في الليالي المفردة منه، قال عليه الصلاة والسلام: «تحرُّوا ليلة القدر في الوَتْر من العَشْر الأواخر من رمضان»[(١)].

ويُسنُّ في هذه الليلة خاصة الإحياء والقيام والاعتكاف وأداء الأعمال الصالحة والدعاء لأن العمل الصالح فيها خير من عمل ألف شهر، وأن النبي ﷺ «كان يجاورُ في العشر الأواخر من رمضان، ويقول تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»[(٢)]، فيحث أصحابه والمسلمين على تحري هذه الليلة في الليالي المفردة منه، وقد تكون في الغالب ليلة السابع والعشرين من رمضان، وقد تنتقل من ليلة إلى أخرى، ويكمن إبهامها ليعمل المسلم في سبيلها طوال العشر الأخير من رمضان، ويقوم الليل ويكثر من الدعاء رجاء موافقة ليلة القدر، وقد ثبت في شأنها عن رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1]، ويستحب فيها الدعاء المأثور: «اللهم إنك عفوٌ، تحبُ العفو فاعفُ عني يا كريم»[2].

وهكذا نلاحظ أن المسلم يصل إلى قمة السعادة والنشوة في ليلة القدر، ولذلك طلب منه أن يكون صائماً في النهار، وقائماً في الليل، ومعتكفاً في المسجد، ليتهيأ لبركة هذه الليلة العظمية، وليحظى بأجرها العميم، وثوابها الجزيل، وفضلها الكبير.

رابعاً: الفوز بالجنة والعتق من النار:

ويتصف العشر الأواخر من رمضان أنه شهر الفوز بالجنة، والحصول على مرضاة الله تعالى، لمن صام مخلصاً لله، مراقباً له، ملتزماً بآدابه، محققاً لأهداف الصيام التي حددها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالتقوى هدف القيام وغايته، ومتى تحققت التقوى لصاحبها نال الأجر العظيم، وحصل على الجائزة الكبرى، وهي العتق من النار، ليدخل الجنة بصفاء وطمأنينة، لما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال عن رمضان: «أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار»[3]، ويجمع الصائم في آخر رمضان بين الرحمة من ربه، والغفران لذنوبه، والرضوان عند خالقه، ولذلك ترفع الملائكة في رمضان رايات الخير، وتنادي في السماء: «يا باغي الخير

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي عن عائشة، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) هذا جزء من الحديث الأول عن سلمان.

أقبل، ويا باغي الشر أقصر»[1]، وأن «الصيام جُنَّة»[2] أي وقاية وستر وحجاب من الذنوب والمعاصي، ومانع من الرفث والآثام، وحاجز من النار، ويصبح الصيام عملاً خالصاً لله تعالى، ليجزل لصاحبه العطاء، لما ثبت في الحديث القدسي الصحيح: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجز به»[3]، وأن الله تعالى أعدَّ للصائمين باباً في الجنة يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحدٌ غيرهم، فإذا أغلق فلا يدخل منه أحد[4].

خامساً: صدقة الفطر:

شرع الإسلام الصدقة والزكاة لإقامة التكافل، وتأمين حاجة الفقراء والمساكين ويحس المؤمن بأخيه لتطهير النفوس من التعلق بالمادة والدنيا وزينتها ومفاتنها، وتزكيتها من الذنوب والسيئات، وتأمين حاجة الفقراء والمساكين، وإقامة التكافل الاجتماعي، وليحسَّ المؤمن بأخيه، ومن ذلك صدقة الفطر التي تجب في آخر يوم من رمضان، وأجاز الفقهاء تعجيل دفعها خلال شهر رمضان.

وبيّن رسول الله ﷺ حكمها وحكمتها، فجاء في الحديث الشريف «أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين»[5]، فهي طهرة للصائم مما قد يقع منه من اللغو وفلتات اللسان

---

(١) رواه الترمذي والنسائي والحاكم.

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم.

وصغائر الذنوب، وهي عون للفقراء والمعوزين، ولذلك تجب على كل مسلم، يملك ما يزيد عن حاجته، ويلزم البالغ العاقل أن يخرجها عن نفسه وعمن تلزمه نفقته، ليشيع الخير بين المسلمين في شهر الخير، وتتم المواساة من الأغنياء للفقراء، ويتحقق التعاطف والمودة والإخاء بينهم.

والحكمة من مشروعية صدقة الفطر في نهاية رمضان أن الصيام للإعداد والتربية والتهذيب، والترفع عن المادة، والاستعداد ليوم القيامة، فطلب من الصائم زكاة الفطر لتكون برهاناً ذاتياً لصحة الصيام، واختباراً لنفس الصائم في نجاح التربية، وتهذيب الروح، وصدق الإيمان، ومحك التجربة للتخلص من سلطان المال وهيمنة المادة مع الثقة الكاملة بما عند الله، ولذلك كان رمضان شهر البر والجود والإحسان والخير، وكان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، فكان أجود من الريح المرسلة.

نسأل الله تعالى أن يقبل منا صيامنا وقيامنا، وصلاتنا وطاعتنا، وأن يجعلنا ممن يصوم رمضان، ويقوم ليله إيماناً واحتساباً. والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: الصيام[1]

يعلّم تنظيم العمل ويدّرب عليه

الصيام ركن من أركان الإسلام الخمس، قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج»[2].

والصيام واجب وفرض في شهر رمضان المبارك، مرة في السنة، ليكون دورة تدريبية، ومناسبة تأصيلية، وتوثيقاً للصلة بالدين والعقيدة، واستمراراً للعبودية، وتمريناً على السلوك القويم، وتجديداً للإيمان، وزيادة في الطاعة، والتزاماً للعبادة، وإتماماً لحسن السلوك والأخلاق، ونشوة روحية، ونفحة ملائكية.

والصيام عبادة من العبادات الإسلامية، وله أحكامه وآدابه، وخصائصه وميزاته، وعاداته وقيمه العليا، وتقاليده الاجتماعية، وطرازه الفريد، طوال شهر رمضان المبارك، وفي مختلف البلدان، وعلى الصعيد العربي والإسلامي، والمحلي والعالمي.

وهذا الصيام له أهدافه الكثيرة: العقدية، والروحية، والنفسية، والاجتماعية، والصحية، والتربوية، ونخصص هذا المقال للجانب التربوي في تنظيم الأعمال للمسلم في الحياة عن طريق الصيام.

إن النظام أمر أساسي وضروري وحيوي في الحياة، وإن التنظيم هو

---

(١) النور- العدد (١٦٦) رمضان ١٤١٩/ ديسمبر ١٩٩٨ ص١٦.

(٢) رواه البخاري (١٢/١ كتاب الإيمان، باب الإيمان وبني الإسلام على خمس)، ومسلم (١٧٧/١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الأساس في نجاح الأعمال، وهو الجوهر في كمال الأداء، في مختلف الجوانب: الدينية، والعلمية، والسياسية، والإدارية، والتعليمية، والمشاريع الاقتصادية والتنموية والعمرانية، وحتى في الشؤون الخاصة والأعمال المترلية، لذلك كان النظام أو التنظيم هو السر في نجاح جميع الأعمال، حتى قيل: (إن كل مشروع، أو مخطط، أو عمل، ليس له نظام زمني محدد فهو مشروع فاشل).

ودعا الإسلام العظيم إلى النظام والتنظيم، وطلب من المسلم تنظيم شؤون حياته، وحرص على تسديد خطاه وإرشاده إلى الطريق الأقوم، وشرع له من الأحكام العديدة التي تدربه على النظام، وتساعده على تنظيم الأعمال، وترشده إلى المنهج السديد في إدارة الأعمال، وتنفيذ المشاريع، وإتقان العمل.

وتأتي العبادات كإحدى الوسائل المهمة الرئيسية التي ترشد إلى حسن التنظيم، ودقة النظام، فجاءت الصلوات منظمة في أوقاتها، وأدائها، وحركاتها، وأحكامها، وجاءت الزكاة منظمة للأموال، وضبط رأس المال، ومعرفة الناتج، وحصر الأرباح لاستخراج النسبة المفروضة شرعاً، والجزء المقدر المحدد لها، ويأتي الحج في قمة النظام الفردي والجماعي ليسير الناس وفق نظام مرسوم، ويؤدوا مناسك الحج والعمرة بنظام محدد، وتنظيم جماعي فريد دقيق، لا يصح الحياد عن جزء منه، ولا الانفراد عن الجماعة في حكم من أحكامه.

وفي إطار هذا المنهج الإسلامي شرع الله تعالى الصيام، وجعله أحد الوسائل المهمة والحساسة في تربية المسلم، وتعويده على النظام، ودعوته إلى حسن التنظيم والتخطيط، ليقبل الله منه العبادة والعمل، وليستفيد الصائم من صيامه، ولتتحقق الأهداف المتنوعة من الصيام، وليكون التنفيذ صحيحاً، والأداء كاملاً.

ويظهر أثر الصيام في تنفيذ الأعمال في عدة جوانب، منها:

١- بدء الصيام وانتهاؤه:

يبدأ الصيام الواجب وفق نظام إلهي، وتنظيم رباني للكون في مسيرة الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فشرع الله الصيام مقترناً بأول يوم من شهر رمضان المبارك من كل عام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ...﴾، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥].

أي كتب عليكم الصيام أياماً معدودات في شهر رمضان، وبيّن ذلك رسول الله ﷺ بياناً شافياً، قال عليه الصلاة والسلام: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فأكملوا العدة، ولا تستقبلوا الشهر استقبالاً»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٧٤) طبع دار القلم، ومسلم (٧/١٨٨، ١٩٧ مع شرح النووي)، ورواه الترمذي وقال حسن صحيح (٣/٣٩٦ مع تحفة الأحوذي)، والنسائي بإسناد صحيح (٤/١١٠ طبع البابي الحلبي) عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما رضي الله عنهم.

وربطُ الصيام بأول رمضان، وانتهاؤه بآخره، دعوة مُلحّة ومُلزمة للمسلمين لتنظيم الأوقات، وتتبع أوائل الشهور برؤية الهلال، فيجب الصيام لرؤية هلال أول يوم من شهر رمضان، ويجب الإفطار لرؤية هلال أول يوم من شهر شوال، حيث ينتهي رمضان، ويمتنع الصيام، وتجب المشاركة في الاحتفال بيوم العيد، ويحرم الصيام فيه، وذلك للدقة في التنظيم، فلا يجوز لمسلم أن يزيد صيام يوم على شهر رمضان، ولا ينقص منه يوماً، للتعويد على النظام السنوي في إدارة الأعمال، وللإيحاء أن سنة كاملة من عمر الإنسان قد انقضت، واقترب سيره إلى نهاية المطاف وآخر العمر، ليستعد للقاء ربه، ويتخذ من الدنيا مزرعة للآخرة، وليحاسب نفسه قبل أن يحاسب، وهذا التنظيم السنوي للعبادة هو الأساس الإسلامي الذي سبق العالم في اعتبار السنة محوراً للأعمال، سواء بالنسبة للأفراد، أم للجماعات، أم للدول.

ولمزيد من الدقة المتناهية حرّم الإسلام صيام يوم الشك الذي يسبق شهر رمضان، لما روى أبو داود والترمذي عن عمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صام يوم الشك الذي يُشكّ فيه فقد عصا أبا القاسم»[1]، حتى لو صام المسلم يوم الشك عن رمضان لم يصح، لقوله ﷺ: «لا تستقبلوا الشهر استقبالاً»[2]، ولو صام الشخص في يوم الشك عن فرض عليه كُره وأجزأه، وإن صام عن تطوع، دون أن يصله بما قبله، ولا وافق عادة له، لم يصح، لأن

(١) رواه أبو داود (١/٥٤٥ طبع الحلبي)، والترمذي وقال حديث حسن صحيح (٣/٣٦٦).

(٢) هذا حديث صحيح، رواه النسائي من رواية ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح (٤/١١٠).

التطوع مجرد قربة، فلا يحصل بفعل معصية، وإن وافق عادة له جاز، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تقدَّموا الشهر بيوم ولا بيومين إلا أن يوافق صوماً كان يصومه أحدكم»[1]، وهو تدريب على الطاعة والنظام كأن الصائمين جند يتدربون، وطلاباً يتعلمون.

وهذا منتهى الدقة في النظام والتنظيم الذي يجب على المسلم التزامه والتعود عليه، واتخاذه منهجاً في الحياة، وبرنامجاً للأعمال، وهو نظام واحد للمسلمين جميعاً مهما اختلفت الأزمان والأماكن في كل قطر، وفي كل عصر، وعلى كل فرد أو شعب.

٢- النظام في الإمساك عن المفطرات:

إن الصيام هو الامتناع عن الطعام والشراب والقرب من النساء ابتداء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولولا الصيام لما امتنع الإنسان عن ذلك، مهما كان نظامياً، لأن الإنسان كثيراً ما يخرق نظام حياته في الطعام والشراب والجماع، فيزيد وينقص، ويخلط ويبدد، ويُفرط ويُفرّط، وقد يأكل كثيراً، وعدة مرات حتى يصاب بالتخمة والأمراض، ويرهق جهاز الهضم، ويتعب المعدة، وتتكدس في جسمه الشحوم، وقد يفتقر آخرون إلى ما يسد جوعهم، ويقوّت جسدهم، ويقوي نموهم، فيأتي الصيام منظماً لتناول الطعام، وتحديد الأوقات، وضبط المواعيد، وتعيين المقدار، والسعي إلى العدل والاعتدال في صرف الغذاء الزائد إلى الفقراء والمساكين والجائعين، لسد جوعهم، وإدخال الفرحة إلى نفوسم وأولادهم، وتغذية أطفالهم وأجسادهم،

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦/٢)، ومسلم (١٩٤/٧)، وأبو داود (٥٤٥/١) والترمذي (٣٦٣/٣)، والنسائي (١٢٢/٤).

وهذا ما يلمسه المسلم في شهر رمضان في معظم البلدان والأقطار الإسلامية، حتى يكوّن مظهراً اجتماعياً فريداً، لا وجود له في المجتمعات غير الإسلامية، والبلاد الأخرى، وتوضع الموائد والمناسف ومختلف الأطعمة في الشوارع أمام البيوت، وفي صحون المساجد، وردهات المناطق العامة، وتبادل الأطباق، تنفيذاً للتوجيه النبوي الرائع: «من فطر صائماً فله مثل أجره، ولا ينقص من أجر الصائم شيء»[1].

وقال تعالى في محكم التنزيل، محدداً هذا النظام الفريد: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ ...﴾، ﴿...وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ ...﴾ [البقرة: ١٨٧]، فنظم الصوم العلاقة بين الزوجين، وضبط السلوك الغريزي بينهم، دون إفراط أو تفريط، أو عبث أو كبت.

وبهذه الطريقة الربانية تنظم أعمال المعدة، ويدخل الطعام سائغاً، هنيئاً، مريئاً على العصارة المعدية، وخاصة إذا التزم المسلم بآداب الصيام الشرعية الواردة في السنة النبوية بالإفطار على تمرات، أو تناول الماء، ثم أداء صلاة المغرب، ثم تناول وجبة الطعام المعتدلة، دون إسراف، ولا تبذير، ولا تنويع متعب مادياً ومعنوياً وجسدياً، مع ترك الإصرار على تناول المأكولات الدسمة، والحلويات المعقدة والمتعبة في تركيبها، مع تطبيق السنة النبوية في

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (٥٣٣/٣)، وابن ماجه (٥٥٥/١ طبع عيسى البابي الحلبي)، والنسائي وغيره عن زيد بن خالد الجهني ﷺ.

تناول السحور، لأن في السحور بركة (وهو وقت السحر)، وفي الطعام والشراب عون للصائم على تحمل أعباء الجوع والعطش طوال نهار رمضان، ويكون السحور خفيفاً، ولو لقيمات، أو بشرب الماء والعصير.

فإن نظّم الصائم طعامه وشرابه طوال شهر رمضان تمتع بصحة جيدة، لقوله ﷺ: «صوموا تصحوا»[1]، وزالت الترسبات في جهاز الهضم، وتحللت الشحوم المتكدسة في البدن وسائر الجسم، وشعر الصائم بالراحة والنشاط والحيوية، وتعوّد على الطاعة أولاً حتى عن تناول الأطعمة الحلال في نهار رمضان، وبالأولى أن يمتنع عن تناول المحرمات والمضار والمفاسد في شهر رمضان، وفي طوال العام، فينجو بنفسه عن المعاصي، والسموم، ومسببات الأمراض، والوهن، ليكون صحيح الجسم، صحيح العقل، صحيح التفكير، صحيح الروح والدين.

٣- التنظيم الجماعي العام في الصيام:

هذا النظام في الطعام والشراب والجماع ليس تنظيماً فردياً فحسب، أو مقصوراً على ذات الشخص فقط، أو مع عائلته، بل هو تنظيم عام لجميع أفراد المجتمع والأمة، فيأكلون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد، ويمسكون في وقت واحد، ويستعدون للطعام في وقت واحد، وتجد هذه الظاهرة الفريدة، الغريبة، الرائعة، في كل مساء من أيام رمضان، فيقف الملايين عند الغروب، والماء في أيديهم، والطعام أمام أبصارهم، ينتظرون لحظة الأذن والإفطار، أو ما

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة ﵁ (٢/٣٨٠)، والطبراني، وأبو نعيم في الطب وغيرهم، بلفظ «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا» وبألفاظ أخرى (كشف الخفاء ١/٥٣٩ طبع حلب).

يسمى ضرب المدفع، أو إعلان المؤذن ذلك في المنارة والمآذن، والمذياع والتلفاز، ليفطروا معاً في آن واحد، وقريب من ذلك موقفهم في السحور، وقبيل الفجر، ثم الإمساك، فلا ترى بعده طاعماً ولا راوياً.

وفي ذلك تعويد للمسلمين على النظام العام، والتنظيم الجماعي، والوقوف معاً يداً واحدة، وصفاً واحداً في جميع شؤون الحياة في الراحة والعمل، والنوم واليقظة، والطعام والإمساك، والسرّاء والضرّاء، وسائر التصرفات، فلا تختلط بهم المشارب، ولا تفرقهم المنازعات، ولا تدمرهم الخلافات، ولا تشتت شملهم الأغراض الخاصة والنزوات، أو الأهداف القصيرة، والمصالح الذاتية، والمطامع الدنيئة، ليكونوا معتصمين بحبل الله المتين، ونوره المستبين، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وبذلك يكون المسلمون كمثل الجسد الواحد.

وإذا أصبح المسلمون صفاً واحداً في الطاعة والعبادة، والأعمال والتصرفات في الداخل، فأولى أن ينظموا أمورهم، ويكونوا أشد تماسكاً أمام الأعداء والطامعين بهم، والأمم المتربصة لاقتناصهم.

٤- النظام والتنظيم في صلاحة التراويح:

عندما يفطر الصائمون بعيد الغروب من كل يوم، وتبتل العروق، وتشبع البطون، وتنتعش الأرواح في الأجساد، ويسعد الأهل مع الأولاد والأحبة والأقارب والزملاء وذوو الأرحام والجيران والضيوف، ثم يرتاحون ساعة من الزمان، يتجه الجميع زرافات ووحداناً إلى بيوت الله، يؤمّون المساجد، وخاصة المساجد الثلاث المقدسة الكبرى، والمساجد الجامعة، ليقفوا صفوفاً

متراصّة لأداء صلاة فريضة العشاء أولاً، ثم يرتقون نفسياً وجسدياً، ويتصعّدون روحياً في صلاة فريدة، هي صلاة التراويح جماعة، التي تعتبر فاكهة خاصة لرمضان، ولا توجد في غيره، وتشبه صلاة الجمعة في التجمع والجماعات، وتضارع أعداد المصلين فيها أعداد المصلين في الجُمُعات، مع ما فيها من روحانية خاصة، وسماع لتلاوة القرآن من الإمام، وهو أفضل أنواع التلاوة، مع الركوع والسجود والقيام المتوالي والمتواصل، وكأنهم (سيمفونية) ملائكية، لأن الملائكة تحفهم، وتبارك صلاتهم وجماعتهم.

وهذه الصلاة تأكيد آخر على روح التنظيم الجماعي للمسلمين، وضبطهم في صفوف وحركات، ومناسك، وعبادة، وأعمال، لتكون رائداً لهم من العبادة إلى سائر شؤون الحياة.

٥- التنظيم في قراءة القرآن في رمضان:

إن شهر رمضان شهر القرآن، فيه بدأ نزوله، وكان جبريل عليه السلام يعرض القرآن كاملاً على رسول الله في شهر رمضان، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لذلك يحرص الصائمون على تخصيص أوقات خاصة لتلاوة القرآن، ويحرصون على ختمه مرة ومرات خلال هذا الشهر الفضيل، لأن من أدى فيه فريضة فكأنما أدى سبعين فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه نافلة (سنة ومندوباً وتطوعاً وقربة) فكأنما أدى فريضة فيما سواه، والفرائض أفضل تقرّب لله تعالى، كما ثبت في الحديث القدسي عند البخاري، ولذلك تجد المسلم العادي ينظم أوقات تلاوة القرآن، ويقرأ كل يوم جزءاً، ليختم القرآن مع أيام

رمضان، وكثيراً ما يزيد في التلاوة، وخاصة في ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان.

كما يقوم الأئمة بتنظيم التلاوة في الصلاة الجهرية في شهر رمضان، وخاصة صلاة التراويح ليقرؤوا ما تيسر من القرآن في كل ركعة، ويُنصت المصلون لقراءته، وتغرد قلوبهم لألفاظه، وتحلق أرواحهم بمواعظه وتوجيهاته.

ولا يقتصر تنظيم المسلمين في قراءة القرآن في شهر رمضان على مجرد التلاوة والسماع، بل ينظمون الجلسات والحلقات لتدبر القرآن وفهمه، وحضور دروس القرآن وتعلّمه، وتزداد البرامج الدينية، وتكتظ المساجد في دروس التعرف على أحكام القرآن، يتلمّسون الفضائل التي بيّنها رسول الله ﷺ بقوله: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

٦- الصيام لتنظيم الوقت والعمل:

الوقت هو الحياة، وهو رأس المال الحقيقي للإنسان، ورغّب رسول الله ﷺ في اغتنام الوقت في أحاديث كثيرة، لا مجال لذكرها هنا، والعاقل هو الذي ينظم أوقاته ليستفيد منها، وينجز أكبر قدر ممكن من أعماله، حتى أصبح تنظيم الوقت في عصرنا الحاضر علماً وفناً مستقلاً، ويعين كبار المسؤولين، والموظفين، ورجال الأعمال، موظفاً ومديراً لأعمالهم، وسكرتيراً لتنظيم الأوقات، لإمكان إنجاز أكبر قدر من الأعمال فيها.

---

(١) رواه مسلم (٢٢/١٧) جزءاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه أبو داود مستقلاً، وهذا أوله عنده (٣٣٦/١)، وكذا عند ابن ماجه (٨٢/١).

والصيام أحد العوامل الشرعية التي تساعد على تنظيم الوقت، والاستفادة منه بشكل كامل، ومفيد، ومُجد، ليكيّف الصائم ظروفه، ويبرمج أعماله، ويحقق الإنجازات الكثيرة والمتنوعة، المادية والمعنوية، في سائر مجالات العمل الروحي، والثقافي، والنفسي، والعلمي، والجسدي، والتجاري، والصناعي، وفي الوظيفة، والمتجر، وفي المصنع، والحقل، والبستان، وفي المدرسة والمعهد والجامعة.

إن الصيام في شهر رمضان يساعد على تنظيم العمل، ويحدد ساعات الإنتاج بمقدار أكثر من غيره، لأن الصائم يوفر وقت الطعام للعمل والعبادة، وينشط الجسم تلبية له، ولذلك كان عطاء الصحابة في رمضان عظيماً، وتحققت في شهر رمضان أعظم الانتصارات في الجهاد الإسلامي والفتوحات في التاريخ.

وإن تحديد أوقات الطعام والشراب -قبل أربعة عشر قرناً- دعوة صريحة وربانية لوجوب تنظيم سائر شؤون الحياة، وتحديد أوقات العمل، وأوقات الراحة، وأوقات الدوام، كما أنها دعوة للتنظيم الجماعي بين الناس في أعمالهم، وعباداتهم، وزياراتهم، وإنتاجهم.

وعند التطبيق الصحيح لأحكام الصيام وآدابه يزداد الإنتاج والعطاء، خلافاً لما يشيع عند بعض الصائمين من الكسل والخمول، وقلة الإنتاج والعطاء، مع كثرة النوم، وتعطيل العمل، فيكون المردود عكس المطلوب شرعاً، ويفتح الباب أمام أعداء الله والدين للطعن في الصيام والتشكيك فيه.

ومن ثمار الصيام في تنظيم الوقت والعمل، ومن آثاره المباشرة الملموسة، اليوم وخلال التاريخ الإسلامي، أن جماهير المسلمين الصائمين ينظمون زكاتهم،

ويرصدون أموالهم، ويحصون أرباحهم وتجارتهم في شهر رمضان المبارك، لإخراج فريضة الزكاة في هذا الشهر المبارك، طمعاً بفضله وزيادة الثواب فيه على الأعمال الصالحة، وأداء الفرائض، والنوافل فيه، تقرباً لله تعالى.

وهذا الهدف من الصيام في تنظيم الأعمال يتحقق بشكل كامل في الصيام المفروض الواجب في شهر رمضان، ويتحقق جزئياً ونسبياً في صيام القضاء والنذر والكفارة خارج شهر رمضان، كما يتحقق بشكل طيب في صيام النفل والتطوع الذي رغّب فيه رسول الله ﷺ في يومي الاثنين والخميس، أو صيام ثلاثة أيام البيض من منتصف كل شهر عربي، وهذا من فضل الله تعالى الذي يستدعي الاعتراف بالفضل، وكثرة النعم، وإتمام الدين، والهداية للإيمان والإسلام، ومن ثم يستوجب الشكر لله تعالى، والالتزام على منهجه ودينه وهديه.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهم دينه، ومعرفة مقاصده، وإدراك الأهداف والغايات التي شرعت العبادات من أجلها، وأن نستفيد من رمضان والصيام في تنظيم الأعمال، وجني الثمرات، وزيادة العطاء والإنتاج، وأن يتقبل منا الصيام، ويجعلنا من عتقاء شهر رمضان، لنكون ممن يصوم نهاره، ويقوم ليله، ويقدم الخير فيه لنفسه ودينه وأمته. والحمد لله رب العالمين.

خامساً: رمضان ظاهرة فريدة

مع النفحات الرمضانية

الحمد لله رب العالمين، الذي أعزَّ عباده بالتعبّد له، وفتح لهم أبواب الطاعات والخيرات والمبرات، ليربحوا عليه.

والصلاة والسلام على رسول الله إمام المتقين، وسيّد العبّاد، وقدوة الصالحين والمتقربين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبعد:

فإنّ **رمضان** شهر الخيرات والنفحات الإلهية، شهر البر والتقوى، شهر العبادة والتقرب، شهر العطاء والبذل والسخاء، شهر القرآن، شهر القيام والطاعة والزلفى إلى الله تعالى.

رمضان فضل إلهي، وعطاء رباني، ومنحة سماوية لأهل الأرض، هو أفضل الشهور عند الله تعالى، ميّزه على سائر الشهور بميزات كثيرة، وخصائص فريدة، وصفات خاصة.

ولذلك يعجز البيان عن وصفه، وإعطائه حقه، ويقصر الخطباء عن الإحاطة به، ويخرس اللسان أمام الواقع الذي يعيشه الناس عملياً في رمضان، فهو عملياً أبلغ من كل بيان.

إنه عالم خاص، ولون مستقل، له رائحته الزكية، وطعمه الشهي، ومذاقه الحلو العذب الزلال الجذاب الذي يعرفه من ذاقه، وينتشي فيه من عاشه.

يهلُّ هلال رمضان، ويحلّ الشهر المبارك، فيفرض نفسه، فلا يلحق به كلام أو بيان، أو مقال أو خطبة، أو ترغيب أو ترهيب، لأنه -بذاته وواقعه-

أقوى من ذلك وأبلغ، وأعمّ وأشمل، وأفصح من كل حديث، وأكثر تأثيراً من كل توجيه، وردت فيه آيات الذكر الحكيم، وفصّلت فيه أحاديث نبوية تنطق بجوامع الكلم، ومع ذلك فإنه يفرض نفسه بنفسه دون توجيه أو إرشاد.

لذلك كان رمضان ظاهرة فريدة من عدة جوانب:

➢**فرمضان ظاهرة اجتماعية** يعيشها أفراد المجتمع، الكبير والصغير، الغني والفقير، المحسن والمقتر، الرجل والمرأة، الصائم وغير الصائم، وتجتمع الأسرة الصغيرة على السحور والفطور، كما يجتمع الأقارب والأهل على الموائد، وتلتقي الجماهير في المساجد، ثم تتوسع اللقاءات في صلاة العيد، وينصهر المجتمع في يوم العيد، فيكون المجتمع واحداً في مظاهره وأعماله الدينية والدنيوية. ومن ثمَّ تتحقق وحدة الأمة بالشعائر من أقصاها إلى أقصاها.

➢**ورمضان ظاهرة دينية،** تسمو فيه شعائر الدِّين، فتأخذ بالألباب، ويقبل فيه العصاة إلى ربهم، ويتسامى الصّوام إلى بارئهم، ويعشق المتقون لقاء ربهم، ويخلو المعتكفون بالملائكة، ويلتزم الجماهير بالتديّن ظاهراً وباطناً، بمراقبة ذاتية إلهية ربانية، وتفتح لهم أبواب الجنان، وتصفّد الشياطين، ويخنس الأشرار، وتصفو الحياة من الشرور، وتجتمع فيه معظم أركان الإسلام من الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والعمرة.

➢**رمضان ظاهرة روحية،** فتعود الروح إلى بارئها بالمناجاه، والدعاء في الشهر الذي توسطت آياته بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهنا تأنس الروح بملائكة الرحمة، وتتجه إلى المساجد بالاعتكاف، وقيام الليل، والتسبيح والتذكير، والخوف، والرجاء، والطمع بجنات النعيم، وتبلغ الروح أسمى مناها في العشر الأخير، ثم في ليلة القدر، لتحيا روحياً

وكأنها بدون أجساد، وترقى في العشق الإلهي، والحياة الروحية المحضة، مع غفران الذنوب، وتنقية الصحف من الكدر، وصفاء القلب من الران، وكأنهم ولدوا من جديد، وتعتق رقابهم من النار، ويستعدون لرياض الجنة.

➢**رمضان ظاهرة اقتصادية** تلفت نظر التجار، ورجال الأعمال، والقائمين على التموين والمشرفين على عمليات البيع والشراء، فتنفق فيه الأموال، وتدخر له السلع الغذائية لتبسط على موائد الإفطار، وتستورد من أنحاء المعمورة، وتتحرك الأسعار، وتتضاعف الأرباح، فالتاجر ربحه مادي دنيوي، فإن قصد وجه الله فله نصيب وسهم في الآخرة أيضاً، والموسر الغني المعطاء ربحه أضعاف مضاعفة بالتجارة مع الله تعالى، وهل هناك أفضل من إطعام الطعام، وتأمين القوت للفقراء والمحتاجين، والمساكين والعمال والكادحين الذين يطوون الجوع طوال العام لتمتلئ بطونهم، وتتغذى أجسادهم في رمضان بأطايب الطعام والشراب، والفواكه واللحوم؟ فيكون الاقتصاد في قمة تحركاته.

➢**رمضان ظاهرة فكرية** بنشر الثقافة الإسلامية، وتوسع الصحف الدينية، والصفحات الإضافية بالفتاوى، والتوجيه والإرشاد، والوعظ، والبحث، والتغذية العلمية، وتتضاعف المجلات الدينية، وتتبختر بمواضيعها ومقالاتها، وتتفنن بعطائها وصورها واستطلاعاتها، وتكثر الدروس الدينية والرمضانية خاصة في المساجد والأندية وفي الإذاعات، والقنوات الأرضية والفضائية.

➢**رمضان ظاهرة قرآنية**، ففيه نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وفيه بدأ نزوله على قلب سيدنا محمد ﷺ، وفيه تدارس جبريل عليه السلام القرآن مع الحبيب المصطفى، وفيه تختم التلاوة من معظم الناس، وفيه تكثر القراءة في الصلوات والتراويح والتهجد، ليكون القرآن أقرب

ما يكون عملياً إلى الناس، وتفتح المصاحف في البيوت والمساجد، وتعمل أشرطة القرآن الكريم ليل نهار، وتمتلأ صفحات القنوات الفضائية به.

➢**رمضان ظاهرة صحية،** فترتاح معدة الأغنياء والموسرين، وتتجدد الخلايا، ويأخذ الجهاز الهضمي إجازته السنوية، فيطرد الشحوم، وتنشط الأعضاء المساعدة في الجسم، تأكيداً لقوله ﷺ «صوموا تصحوا» وعودة إلى تطبيق المبدأ القرآني الخالد: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

بينما يتغذى الفقراء والمحرومون، ويأخذون حظهم المقّدر الذي افتقدوه، أو حرموه طوال العام، وتوضع لهم الموائد العامرة فيلتفون حولها بنهم وإقبال وشوق وسعادة، حتى يشاركهم كثير من غير المسلمين، وهكذا تتجدد خلايا الجسم، ويصبح في أحسن أحواله صحياً.

➢**رمضان شهر الأفراح والمسرات،** وذلك بفرحة المسلم برضاء الله، وتوفيقه للصيام والطاعة والعبادة، وفرحة الصائم حين يفطر، وفرحته بقبول صيامه ودخوله الجنة من باب الّريان الذي خصصه الله تعالى للصائمين، وفرحة التاجر بربحه مع ربه، وفرحة الفقير بغذائه وشبعه وثوابه، وفرحة الأقارب باجتماعهم، وعودة المسافرين والضاربين في الأرض إلى أوطانهم وأهلهم، ثم تأتي الفرحة الكبرى عندما تستقبل الملائكة القادمين إلى صلاة العيد، لاستلام جوائزهم، ثم تتم المصافحة، والتقبيل، والعناق، والدعاء، والبهجة، والضيافات طوال يوم العيد.

➢**رمضان ظاهرة أخلاقية وتربوية ونفسية،** فالصيام تهذيب للنفس، وتسام للأخلاق، وسمو للقيم، وارتقاء للفضائل، وكبح للهوى، وتربية اجتماعية وفردية، وصفاء للنفس من الأدران، فإن ساب الصائم أحدٌ قال بكل أدب وضبط للعواطف، وكبح للغرائز والشهوات، وترفع حتى عن

المعاملة بالمثل، قال جهراً: «إني صائم، إني صائم» فيكون كاظماً للغيظ، عافياً على الناس، مذكراً غيره بالفضائل والقيم والسلوك الرشيد.

➢**رمضان ظاهرة جهادية،** تبدأ من جهاد النفس، إلى جهاد الشيطان، إلى جهاد العلماء بالعلم، إلى جهاد الأغنياء بالأموال، إلى جهاد الشباب والمخلصين بقتال الأعداء، ومن ثَمَّ إلى تحقيق الانتصارات، فكان رمضان شهر النصّر، وهذا ما سجله التاريخ الإسلامي، وما تحقق فيه من انتصارات باهرة وحاسمة في شهر رمضان، بدءاً من معركة بدر الكبرى، إلى فتح مكة، إلى معركة حطين، وعين جالوت، وغيرها من أهم الانتصارات التاريخية، لأن المؤمنين يبيعون أموالهم وأنفسهم لله تعالى القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، ثم ينالون أعلى درجات الجنة بالشهادة ليكونوا مع الأنبياء والمرسلين، فلهم إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة والجنة.

نسأل الله العلي القدير أن يبلغنا رمضان، وأن يبارك لنا فيه، وأن يعيننا على الصيام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان، وأن يجعلنا من عتقاء شهر رمضان.

كما نسأل الله تعالى أن يردنا –والمسلمين- إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يردنا إلى القرآن في شهر القرآن لتلاوته وتدبره وفهمه وتطبيقه والعمل به، لتتحقق لنا السعادة في الدنيا، ونسير على طريق النصر على الأعداء، وتحرير المقدسات.

كما نسأل الله تعالى أن يتقبل منا الصلاة والصيام والقيام وتلاوة القرآن،

وأن يرزقنا تذوق طعم رمضان، وتنسم عبيره، لنكون إن شاء تعالى من المرشحين لباب الرّيان في جنات النعيم، إنه سميع قريب مجيب.

كما نسأل الله تعالى أن يرزقنا الأنس الكامل بالقرآن، وتحقيق معناه عملياً، لنقيم المجتمع الإسلامي في الأرض، وننعم بالسعادة في الدنيا التي هي مزرعة للآخرة، فنكون عندئذ مسلمين حقاً، وصائمين صدقاً.

هذه المعاني السامية، والمشاعر الدينية والدنيوية دفعت الأخ الفاضل الأستاذ الشيخ **مروان وحيد شعبان التفتازاني**، إمام وخطيب مسجد جامعة الشارقة، إلى كتابة هذه النفحات الرمضانية، لتكون تصويراً للواقع، وتجسيداً للأفكار، وتذكيراً لعباد الله تعالى، ملتزماً بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ومنفذاً للحديث النبوي «الدِّين النصَّيحة» قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وقد عرفنا الشيخ مروان طالباً في الجامعة، وباحثاً في الدراسات العليا، وخطيباً مفوَّهاً، وإماماً تقياً صالحاً في الصلاة، ونحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً، وما نقول إلا ما نعلم، مع حرصه على طلب العلم، والزيادة فيه، والانكباب على البحث، ومواصلة التعليم، والاندفاع لدين الله، والإخلاص لشرعه، والاستقامة في الحياة والعمل، والجرأة في قول الحق، والالتزام بالواجبات، وأداء الأعمال، والوفاء بالوعد، والحرص على الاستفادة والإفادة، ومتابعة العلماء ومجالستهم ومزاحمتهم، ومشاركتهم، مع تتبعه للانحراف، والغضب لله تعالى، والتذكير في كل مناسبة، مع حفظه للقرآن الكريم بشكل كامل ومتقن.

وقد استفاد الشيخ مروان من شيوخه وأساتذته في الجامعة، واستفاد من بحوثه التي شارك بها في بعض الندوات والمؤتمرات بكلية الشريعة والدراسات

الإسلامية بجامعة الشارقة، كما استفاد من بحوثه في الدراسات العليا، وتقديم بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية، واستفاد أكثر من كل ذلك من ممارسته للدعوة والإمامة والخطابة بمسجد الجامعة المتميز بحضوره وجمهوره من أعضاء هيئة التدريس والباحثين والطلاب، ومن يؤم المسجد من خارج الجامعة، استفاد من كل ذلك خبرة في الناس والمجتمع والدعوة والتوجيه والوعظ والإرشاد والكتابة، والربط بين القرآن والسنة والأحكام الشرعية والآداب الإسلامية وحاجة المجتمع والأفراد للتذكير والتوجيه والوعظ والإرشاد، وهذا ما دفعه لتتويج أعماله بكتابة هذه النفحات الرمضانية.

عرض الشيخ مروان هذه النفحات الرمضانية لتكون درساً لكل مسلم عامة، وعوناً للطالب، وتذكيراً للصائم والملتزم بأحكام دينه، وإرشاداً للباحثين، وتسجيلاً للمناسبات الرمضانية، ودعوة للغافلين عن الله، والسادرين في مشاغل الحياة، وكأن الدنيا هي غاية آمالهم، ومنتهى طموحهم.

ولذلك سار في ترتيب هذه النفحات مع أيام شهر رمضان ولياليه، ابتداء من استقباله، ثم بأسراره، وبيان أعظم الأحداث فيه بنزول القرآن والانتصار بغزوة بدر، وتحبيباً بليلة القدر.

ومروراً بالتجليات الإلهية على الصائمين الذاكرين، المتعلمين، العابدين، القائمين، المعتكفين، مع الدروس المستفادة من أيام رمضان ولياليه في استغلال الوقت والدعاء، والبذل والعطاء، والعفو والتسامح، والتكافل الاجتماعي، ومد يد العون لليتامى والمنكوبين، والإصلاح بين الناس، والتوبة والاستغفار، لتحقيق التقوى والاستقامة في رمضان، والتزود منه لسائر العام، إلى أن يصل إلى المشاعر الرقيقة -السعيدة والحزينة معاً- لوداع رمضان، وختم النفحات بفرحة العيد السعيد، وبهجته التي تعم الأرجاء، ويقبض فيها الصائمون

جوائزهم، ثم يتابعون سيرة العمر وسنة الحياة على هدى القرآن والسنة والتربية الإسلامية ليفوزوا برضوان الله تعالى وسعادته في الدنيا، وبالنعيم والجنة في الآخرة إن شاء الله تعالى، إلا من نكص على عقبيه وعاد القهقرى، وودَّع رمضان مع نفحاته وبركاته وأعماله ودروسه، ثم انغمس في ملذاته وشهواته وانحرافاته الفكرية والسلوكية، ليكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً وهدمت ما بنت، وأضاعت ما جنت، فأصبحت صفر اليدين، خاوية الوفاض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإلا فئة أخرى أسوأ من تلك وهي التي لم تحس ولم تشعر بقدوم رمضان وانتهائه، ولم يلامس رمضان حياتها، فأفطرت في رمضان، وجاهر بعضهم بكل وقاحة بالفطر والهزء من الصيام، فكان مثلها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] ولا نملك لهؤلاء وأولئك إلا الدعاء بالهداية والثبات على الإيمان، والعودة إلى حظيرة الدِّين، ونردد قول الحبيب المصطفى «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

وقد سيطر الأسلوب الخطابي على الموضوع، مع تحريك العواطف، وإثارة الأشجان، والترغيب بالخيرات الحسان، والتحذير والترهيب من التقصير والإعراض عن موائد الله تعالى في رمضان، مع طول الفقرات والإسهاب في العرض، وبعض التكرار، ونقص العناوين الجانبية التي تعين القرآن على التركيز، وتأخذ بيده للمتابعة.

وتمتاز هذه النفحات بأسلوب بديع، وتحسينات لفظية، وبلاغية، وغزارة الألفاظ المنتقاة، والثروة اللغوية، والصور البيانية، فيستفيد منها القارئ لغة وأدباً وبياناً، مع التمتع بالناحية الفكرية والروحية والنفسية، والربط بالواقع والحياة أحياناً، والتحليق في الخيال والسماء والأفق أحياناً أخرى.

واستشهد الشيخ مروان بالآيات الكريمة وذكر وردها في القرآن والسورة ورقم الآية، ثم أردفها بالأحاديث النبوية الشريفة، وعزاها إلى كتب السنة، وذكر بعض الآثار عن الصحابة والتابعين، ونقل نصوصاً وأقوالاً للأئمة وعلماء السلف من الحِكم والنصوص الجذابة. وشغف الأسماع: ببعض الأشعار والنظم الموزون، والأقوال المأثورة، واستعان ببعض الدراسات المعاصرة في الأمور الطبية، والأغذية، والإعجاز العلمي المعاصر، مع تقديم النصائح المتنوعة، والإرشادات المفيدة، والتنبيه للآداب الدينية، والأحكام الشرعية، والعادات الاجتماعية، والقيم والأخلاق، ثم حذَّر من بعض الأمراض الفردية والجماعية والسلوكية كالغيبة والنميمة وضياع الوقت، التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية والأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية، وقيم رمضان وآدابه.

ونسأل الله تعالى أن ينتفع الناس بهذه النفحات الرمضانية، وأن تكون لهم تذكرة وذكرى، ودعوة ونصيحة، ليتخذوا من معانيها نبراساً في الحياة.

كما ندعو الله تعالى أن يحفظ الشيخ مروان، وأن ينفع بعلمه، وأن يبارك في إنتاجه، وأن يديم عليه نعم الله تعالى ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

كما نرجو الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

سادساً: عيد الأضحى عبرة وحكمة[1]

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للأنام. وبعد:

فإن عيد الأضحى المبارك فيه عبر كثيرة، وحكم بالغة للمسلمين عامة، وللحجاج والعمار خاصة، ونشير بإيجاز إلى بعضها.

إن عيد الأضحى يمثل أحد محاور الإسلام الكبرى، وتنتظم فيه أحكام الشرع الرئيسية، وتتحقق فيه مقاصد التشريع في تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة.

لأن الإسلام ليس ديناً كهنوتياً، أو يهتم بالغيب والميتافيزيك، بل جاء لينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بمجتمعه، وعلاقة الإنسان بنفسه.

وكل حكم في الإسلام يتعلق بالعقيدة، أو العبادة، أو الأخلاق، أو التشريع، يراعي هذه الجوانب الثلاثة، ويؤكد مضمونها، ويحرص على تغذيتها.

وعيد الأضحى أحد عيدين مقررين في الإسلام، بعد أن ألغى أعياد الجاهلية ومفاسدها، وأبدل المسلمين بها خيراً، لتكون المنظومة الإسلامية متكاملة، وتلبي الفطرة الإنسانية.

وتتجلى العبر والحكمة من عيد الأضحى بأن يتعلق بالجوانب الثلاثة السابقة في العقيدة، والعبادة والتشريع، والأخلاق والسلوك، ويربط بينها بالتطبيق العملي ليحقق سعادة الإنسان.

ففي مجال العقيدة يتجلى عيد الأضحى بمساهمات عدة، منها:

---

(١) المنبر الجامعي، العدد ١٢، مارس ٢٠٠٢م، س٤.

١- يتعلق عيد الأضحى بالإيمان بالرسل والأنبياء، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعيد الأضحى يرتبط ويذكر بأبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وذلك في بناء الكعبة المشرفة التي يتجه إليها المصلي في كل صلاة، ويقصدها الحجاج والمعتمرون من أرجاء المعمورة، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ثم قال الله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وحقق الله تعالى مقصود إبراهيم، واستجاب دعاءه، وكلفه النداء لأداء الحج، وزيارة البيت المحرم، وتكفل الله تعالى بتبليغ النداء إلى كل مكان وزمان، وهذا الواقع اليوم أكبر دليل، وأعظم برهان عملي، لهذه الجوانب الغيبية التي تعتبر من المعجزات الإلهية.

ويتصل بذلك قصة إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، إذ ابتلى الله إبراهيم وأمره بذبح ولده، فبلغ إبراهيم إسماعيل بذلك، واستجابا لأمر الله تعالى، وأسلما لحكمه، وشرعا في التنفيذ، فأنزل الله فداءه من السماء بكبش كبير، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ... وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧] ومن هنا

شرعت التضحية والأضحية وسمي عيد الأضحى.

ويرتبط عيد الأضحى عقدياً بقصة أم إسماعيل وابنها الصغير الوليد، عندما أصابه العطش، وبدأت تبحث عن الماء، وترقب الأطراف البعيدة، وتصعد على الصفا والمروة، فأفاض الله عليها النعمة الجلى بنبع زمزم الذي يمتاز بمائه العذب، والشافي من كل داء، ولذلك شرع السعي بين الصفا والمروة للحجاج والمعتمرين، واستحب الشرب من ماء زمزم بعد السعي.

٢- يمتاز عيد الأضحى بالتكبير في جميع أنحاء الأرض، وهو على القول الراجح من صبح يوم عرفة إلى عصر ثالث أيام التشريق، بعد الصلوات المفروضة، كما يسن التكبير في كل وقت من هذه الأيام، وهو تعظيم الله تعالى، وإعلاء لوحدانيته، وتبرؤ من الشرك، وترديد لشعار الإسلام الأول، ونطق بأول ركن وأهم ركن من أركان الإسلام، وهو الشهادة، مع قصر العبودية الكاملة لله رب العالمين.

٣- ويختص الحجاج والمعتمرون بالتلبية التي تتفرع عن الشهادة، وتعلن الاستجابة لله وحده، والاعتراف الكامل بنعم الله وفضله، وتعتبر التلبية شعار المحرمين خاصة، والتكبير شعار المسلمين عامة في عيد الأضحى.

وفي مجال الفقه والعبادة ترتبط بعيد الأضحى عبر كثيرة، وأحكام عدة، منها:

١- يرتبط عيد الأضحى بأحد أركان الإسلام الخمس، وهو الحج، لقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» فلا يذكر عيد الأضحى إلا مقروناً بالحج الذي يعتبر أكبر تجمع عالمي اختياري،

وفيه أكبر اجتماع للمسلمين سنوياً لأداء مناسك الحج والعمرة، وليشهدوا منافع لهم، مما يحمل في طياتها الإيمان والعقيدة، والعبادة والتقرب والطاعة، والتنظيم وتفقد أحوال المسلمين في العالم، ويمارس الحجاج دورة تدريبية في الأخلاق، بتهذيب النفس، وضبط السلوك، قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى عن أيام الحج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

وفي سبيل الحج يتم البذل في سبيل الله، والإنفاق من فضله، وتعظيم شعائر الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

٢- وفي عيد الأضحى تقدم الأضاحي في مكة خاصة، وفي أرجاء العالم عامة، والأضحية قربة لله تعالى، واقتداء بإبراهيم أبي الأنبياء، وهي واجبة عند بعض الفقهاء، وسنة مؤكدة عند آخرين، وذلك بذبح شاة، أو بقرة، أو بعير لإدخال الفرحة والسرور على أهل البيت والأقارب والجيران والفقراء والمساكين.

٣- وفي عيد الأضحى يتم تقديم الهدي للحرم وأهله من الحجاج والمعتمرين، وكان يستفيد منه فقراء الحرم حصراً في الماضي، والآن عم نفعه ليوزع الهدي مع الأضاحي في مكة على معظم أقطار العالم الإسلامي، وخاصة

أصحاب الحوائج والنكبات واللاجئين والمهجرين.

وفي مجال الأخلاق تظهر العبر الباهرة، والحكم النافعة في عيد الأضحى، ويتم ربط الفرد بالمجتمع، وانصهار المسلم مع إخوته، مع حسن التنظيم، وشفافية اللقاء والتعاون، ولذلك شرع الإسلام في هذا العيد خاصة التزاور بين الأهل والأحباب والأصحاب، وتتأكد صلة الرحم بين الأقارب، ويتم إدخال السرور والمحبة والتسامح بين الناس، ويقدمون التهاني بهذا العيد، ويدعون لبعضهم بقبول الطاعة والعبادة، ويسألون الله تعالى أن يجعلهم من عوداه، وتعقد الزيارات العائلية، ومجالس التشاور، وتعمر الدواوين، وتلتقي القلوب مع لقاء الأجساد، ويترك الناس التخاصم والشقاق، وينبذون الشحناء، وتفيض قلوبهم بالبشر، ووجوههم بالفرحة والسرور، وألسنتهم بطيب الكلام، فتقوى الصلات الاجتماعية، ويصبح الناس إخوة متحابين، وينتشون بأفراح العيد، وينسون متاعب العمل، ويتجدد نشاطهم ليعودوا إلى وظائفهم بعد العيد بهمة وجد وإخلاص وتفان، لتعود الحياة من جديد إلى مجراها.

نسأل الله تعالى أن يبارك للمسلمين أعيادهم، وأن يعيدها عليهم بالخير واليمن والبركة، وأن يحقق لهم النصر، والعودة إلى المقدسات، والالتزام بشرع الله ولدينه ليحظوا بخيري الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

سابعاً: أعيادنا وأعيادهم

العيد لغة من المعاودة، وهو الموسم المعين، سمي بذلك لأنه يعود أي يرجع على الناس مرة بعد أخرى، ويعود بعضهم بعضاً بالزيارة واللقاء والاجتماع.

العيد مناسبة للأفراد العامة والخاصة، وتتخذها الأمم والجماعات والدول سنوياً لأهداف معينة، وذكريات خاصة، وغايات مرسومة، حتى أصبحت الأعياد من طبائع الأمم، وعادات الشعوب، ودخلت في عقائد الناس واحتفالاتهم.

والأعياد كثيرة ومتنوعة، وتختلف مناسباتها من أمة إلى أخرى، ومن وطن إلى غيره، ومن عقيدة إلى ثانية، ولكنها لا تخلو منها جماعة في العادة، وتتخذ اتجاهاً واحداً في توقف الأعمال، والتخلي عن التكاليف للاستراحة من أعباء الحياة، وهموم الدنيا، وتجديد القوة، واستعادة الهمة والنشاط، وتقوية العزيمة، وترويح النفس، والمشاركة الجماعية، وتوثيق الصلات العامة.

وتمارس الأمم والشعوب والأفراد في الأعياد تصرفات خاصة، وأفعالاً كثيرة، وتتخذ تقاليد معروفة، وعادات شائعة، وتؤدي مظاهرة مألوفة، وأن تطور البشرية اليوم، وسهولة الاتصال بين الشعوب، وسرعة المواصلات، واختراع أجهزة البث والإذاعة والتلفاز، وتعدد وسائل الإعلام والنشر، ساعد على نقل الصور المتنوعة من أعياد الشعوب، وسهل في الاطلاع عليها، ودفع كثيراً من الناس إلى المشاركة في أعياد غيرهم، أو على الأقل دفعهم إلى تقليدهم بالمظاهر، ومحاكاتهم في الأشكال، وبذلك تطورت الأعياد من إطار قومي أو ديني أو وطني إلى مجال عالمي.

ويتكرر الاحتفال بالأعياد سنوياً، وتقترب مناسبات الأعياد المختلفة من بعضها، لتكون أحياناً في زمن واحد باليوم أو الأسبوع أو الشهر، ومع ذلك تتفاوت الحقيقة، وتختلف الأهداف والغايات، وتتباعد الوسائل والأعمال والتصرفات، وتتمايز النتائج.

ومن أشهر الأعياد في العالم العربي والإسلامي عيد الأضحى وعيد الفطر، وعيد ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام وعيد رأس السنة الميلادية، وعيد المولد النبوي الشريف، ومنذ عدة سنوات يتزامن الاحتفال بعيد الميلاد ورأس السنة الميلادية مع الاحتفال بمولد الرسول ﷺ طوال شهر ربيع الأول، ومع أن الاحتفال بهذه المناسبات متقارب في الزمن، ومتفق في الأصل والمنشأ، ولكن الغاية تختلف، والوسيلة أو الأسلوب يتباين ويتباعد تباعد المشرق عن المغرب، مما يدعونا للمقارنة والموازنة بين مفهوم العيد في الإسلام، وأهدافه ووسائله، وبين الواقع الملموس، والمناظر المشاهدة في الحياة.

العيد في الإسلام فرع عن التصور الكامل للإنسان والكون والحياة، والعيد عند المسلمين مرتبط بالعقيدة والأخلاق، والعبادة والمعاملات، وهو فرع عن الإيمان والتشريع، كما أن العيد وسيلة لتحقيق مقاصد الشريعة العامة، وتأكيد الفروع والأحكام التفصيلية.

فالأعياد الإسلامية طريق لتنظيم علاقة الإنسان مع ربه، بإعلان العبودية لله تعالى، والثناء عليه بالتكبير والتهليل، والتقديس والتعظيم، لذلك شرع في العيد التكبير الذي يردده المسلم عند استقبال العيد، ويتخذه أنشودة يكررها في كل تصرف وحركة، «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، والله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله العظيم،

وبحمده بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، ولا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»، ويرفع المسلمون أصواتهم بالتكبير طوال ليلة عيد الفطر، وخلال بضعة أيام في عيد الأضحى، ويعلنون ذلك في طريقهم إلى المسجد، وعقب الصلوات، بل يدخل التكبير في صلاة العيدين، وفي كل ركعة منها، ويدخل في خطبة العيدين أيضاً.

وفي العيد إظهار للشكر والثناء والحمد لله تعالى على نعمه وأفضاله، وعلى توفيقه لأداء الطاعة والعبادة، والعيد هو يوم الجائزة للصائمين في رمضان، ويوم الذكرى الخالدة في عيد الأضحى الذي أتمّ الله به الإسلام، وأنزل على رسوله الفرقان، وأعلن أنه رضي لعباده الإسلام ديناً، وأكمله للخلق عقيدة وشريعة.

وفي العيد يؤدي المسلم العبادة لله تعالى في صلاة العيد، كما يسن فيه قيام الليل في الطاعة لله، والتقرب إلى الله، وتلاوة القرآن، وذكر الرحمن، والتضرع إليه بالدعاء، والتذلل له بالخشوع، والأنس بقربه، والطمع بما عنده، والخوف من عقابه.

والعيد في الإسلام –مع كل ما فيه من بهجة وفرح وأنس وسعادة وراحة دنيوية– فهو يوم المغفرة للذنوب، ويوم البشارة بالفوز بجنات الخلود، فقد روى الطبراني في الكبير أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا: اغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم، يمنّ بالخير، ثم يثيب عليه الجزيل، لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم، وأمرتم بصيام النهار فصمتم، وأطعتم ربكم، فاقبضوا جوائزكم، فإذا صلّوا نادى

مناد: ألا أن ربكم قد غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى رحالكم، فهو يوم الجائزة، ويسمى ذلك اليوم في السماء يوم الجائزة» أي يوم البراءة من الذنوب، والطهارة من العيوب، والنقاء من الأدناس والكروب، وفي عيد الأضحى يتقرب المسلمون إلى ربهم بالأضاحي التي يقدمونها لأنفسهم يوم القيامة، وفي عيد الفطر يؤدون صدقة الفطر.

والأعياد الإسلامية وسيلة لتنظيم علاقة المسلم على نفسه، فيمنحها الراحة، ويعفيها من العمل، ويستريح من مشاغل الحياة، ويدخل على نفسه البهجة والسرور، والمسرة والحبور، ويلتقط المسلم أنفاسه من وعثاء التعب والسفر والعمل، ليسجل مرور سنة ماضية من عمره، وأنه يقترب من أجله، ليستعد إلى لقاء ربه، وينفض عن كواهله التعلق بالمادة والحياة والمال، فلا يلهث وراءها، ولا يطمع بالخلود فيها، وجمع الثروة والثراء منها، ليكون فيها حسب وصية نبيه ﷺ فيما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»، فكيف به وقد حال عليه الحول، وعاد عليه العيد، كما يسعد المسلم نفسه بصلته مع الله كما سبق، وصلته مع المجتمع كما سيأتي، وهكذا يغير المسلم من نمط حياته وسلوكه، ويبدل في نظام عمله، ويأخذ العطلة السنوية، ليتوقف قليلاً، ويعطي نفسه حقها، «إن لنفسك عليك حقاً».

والأعياد الإسلامية سبيل لتنظيم علاقة المسلم بأخيه المسلم، وتوطيد الروابط معه، مادياً ومعنوياً، فمن الناحية المادية يقدم الصدقات، ويذبح

الأضاحي، ويخرج صدقة الفطر، ويواسي الفقراء والمساكين بالإعانات المالية، ويمد يد المساعدة للمحتاجين، ويتفقد أحوال أهله وعشيرته، وظروف جيرانه وأقاربه، ومعيشية أهل بلده ووطنه، ويطلع عن قرب على مجتمعه، ليكون نافعاً للجميع مع مرضاة الله تعالى الذي أخبره على لسان نبيه ﷺ -فيما رواه أبو يعلى والبزار والطبراني مرفوعاً: «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»، ومن الناحية المعنوية يصل المسلم في العيد أرحامه، ويزور الأقارب، ويدخل على جيرانه، ويواسي المحزونين والأرامل واليتامى والمقطوعين، ويعود المرضى، ويقابل الناس بالصفاء والمحبة، والبشر والمسرة، والمودة والأخوة، وكثيراً ما يتصالح المتخاصمون، ويعفو المحسن عن المسيء، ويلتقي الأقارب والأحبة الذين فرقت بينهم أمور الحياة والمعيشة، وكثيراً ما يعود المسافر إلى وطنه وأهله، وتمتد الأيدي بالمصافحة، «كل عام وأنتم بخير» «أعاده الله عليكم بالخير واليمن والبركة»، «عيد سعيد»، ويبش المسلم في وجه أخيه، ويأنس بلقائه وزيارته، وتبتسم الثغور ليحل الفرح والحبور في النفوس والقلوب، وفي البيوت والطرقات.

وفوق كل ذلك ففي الأعياد يتجمل الناس بأفخر الثياب، ويأكلون أطيب الطعام، وينفق المرء على أهله بسعة وجود، لذلك حرم الإسلام الصيام في يومي العيد، لأنهما وقت أكل وطعام ولهو، ويلعب الأطفال، ويلهو الكبار في اللهو المباح الذي لا يعود على أنفسهم ومجتمعهم وأمتهم بالضرر والفساد والإيذاء، ولا بأس من استعمال الدف والغناء والمباح لما روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علينا أبو بكر يوم عيد، وعندنا جاريتان (وهما الطفلتان الصغيرتان قبل البلوغ) تذكران يوم بعاث (أي تغنيان،

وتنشدان الأشعار والذكريات عن ذكرى تلك الحروب) يوم قتل فيه صناديد الأوس والخزرج، فقال أبو بكر: عباد الله، أمزمور الشيطان؟ (قالها ثلاثاً)، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وإن اليوم عيدنا»، وبذلك يصح الغناء المباح في العيد بما لا يخرج عن الآداب الإسلامية.

أما الاحتفال بمولد النبي ﷺ فإنه يتضمن تلاوة القرآن الكريم الذي أنزله الله هدى للعالمين، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1]، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ويقول أيضاً: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وفي الاحتفال بالمولد ذكر لله تعالى، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]، وفي الاحتفال بالمولد صلاة على النبي ﷺ، أي دعاء له، وقد أمرنا الله تعالى بهذا الأمر العميم، وبدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكة عرشه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، كما ورد تكرار الصلاة

---

(١) هذا جزء من حديث صحيح رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً.

والسلام عليه في أحاديث كثيرة وصحيحة، ويتلو ذلك، أو يتخلل الاحتفال، أناشيد دينية، وقصائد مدح للنبي ﷺ، وقد ثبت في السنة والسيرة أن شعراء الرسول ﷺ: حسان بن ثابت وعبد لله بن رواحة وكعب بن زهير كانوا ينشدون الشعر والمدائح، وكان رسول الله ﷺ يقرهم على ذلك، ويدعو لهم بالثبات، وأن روح القدس معهم، وفي أثناء الاحتفال تذكر نبذة من سيرة المصطفى ﷺ، وبعض شمائله وخصائله، وجانب من أخلاقه وهديه، ليتأسى بها المسلم، ويقتدى بها المؤمن، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقد يتم في الاحتفال إطعام الطعام للأقارب والجيران، والأحبة والمساكين.

هذه أعياد المسلمين واحتفالاتهم في أصلها ومشروعيتها، وفي أهدافها وغاياتها، وفي وسائلها وكيفيتها، وينقسم المسلمون أمامها إلى ثلاثة أقسام، قسم يلتزم بذلك فلا يزيد عليه ولا ينقص، وقسم يفرّط في كثير من جوانبها، ويهمل القيام بأكثر أحكامها وآدابها، ويزيد عليها شيئاً من البدع والتقاليد الخارجية، والعادات الشعبية، والتصرفات الفردية، والقسم الثالث يقصر في أعمال العيد وأفعاله، ويترك تعاليمه وأحكامه.

أما أعياد غير المسلمين، سواء في الشرق أو الغرب، وسواء في بلادنا أم في البلاد الأجنبية فإنه تقع على نقيض الأعياد الإسلامية، وتتخذ مراسيم غريبة، وأشكالاً عجيبة، وتقاليد منفرة، وأفعالاً ضارة ومؤذية، وفوق كل ذلك، بل وأهم من كل ذلك، فإن الاحتفال بعيد الميلاد ورأس السنة يعتبر تظاهرة على الله تعالى، وإعلاناً للمعاصي والمنكرات، وخروجاً على العقيدة والإيمان، وتحللاً من الأديان والشرائع السماوية كلها، وانتهاكاً لحرمات الله

تعالى، واعتداء على حدوده، وتجاوزاً لأحكامه، وتحدياً بعصيانه ومجاهرة بالفواحش، وتقترن هذه الاحتفالات باللقاءات المشبوهة، والاجتماعات الخليعة، وإطلاق الرصاص في منتصف الليالي، وإطفاء الأنوار في كل مكان، ويشارك الجميع في احتساء الخمور والمشروبات حتى الثمالة، وبدون عقل ولا وعي ولا إدراك، وبدون حساب لعواقب الأمور، ثم يشاركون في الحفلات الماجنة، والرقصات المشتركة، والثياب المتبذلة، والمناظر المفكرة، وتطلق الشهوات على مصراعيها، وكأنها خرجت من القم، ويختلط الرجال البالغون، والكهول المترهلون، والشباب الطائشون، والنساء المتبذلات، والفتيات شبه العاريات، في أفعال صبيانية، وتحركات طائشة، ورقصات مختلطة، ويخرجون إلى الشوارع والحدائق العامة بأشكال حيوانية، وكأن الكرة الأرضية قد تحولت من خلافة الإنسان إلى عبث الأبالسة والشياطين، ويضحك الشيطان بملء فيه، ويسعد في تلك الأيام والليالي، ويملأ قلبه طرباً وسعادة لانتشار جنوده، وسعة سلطانه، وقوة شكيمته، وانتصاره على العقول والألباب، وسيطرته على النفوس والأفئدة.

وفي هذه المناسبات تهدر الأموال الطائلة، وتدنس الأعراض، وتداس الأخلاق، ويخرج الناس على كل مألوف ومعروف، بحجة استقبال السنة الجديدة، ويسخرون بجميع القيم الدينية والاجتماعية والإنسانية، ويشيعون الهلع والخوف في كل مكان، ويلقون الأذى والضرر بالفقراء والمساكين والبائسين، ويزعجون المرضى والمحزونين، ولا يرعون لهم حرمة، ولا يخففون عنهم شيئاً، بل يزيدونهم ويلاً وأسى، وبينما ينفقون المال الكثير في المظاهر البراقة، والثياب الفاخرة، والأشكال التافهة، والزينات الفارهة، والأطعمة

المتنوعة، ويدخرون الأموال لهذه المناسبات من شهور سالفة، ثم يرهقون أنفسهم بالإسراف والبذخ، وبعد ذلك يصيحون بالقلة والحرمان، ويتصرفون بالشح والبخل، ويدعون النقص في الأرزاق، والضائقة في الإنفاق، على أنفسهم وأهلهم وأولادهم وأسرهم، و﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] بل ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

وإذا كان هذا احتفال النصارى والغربيين بأعيادهم، وأنها تقاليدهم وعاداتهم، ولهم حريتهم فيها، فلنتوجه في الكلام إلى المسلمين الذين يشاركون في هذه المناسبات والأعياد، ويسيرون في ركب غيرهم بالتقاليد والمحاكاة، لنرى فيهم تميع الشخصية، واضمحلال الذات، والتقليد الأعمى، والاشتراك في المظاهر البراقة، والأعمال الشائنة، والتصرفات البلهاء، وتصدر عنهم وبين ظهراني المسلمين تحركات ينفث فيها الشيطان، وينادي بالعويل في أفواههم، والترديد لصداها، والتزمير ببوقها، ويتبعهم من قلّ عقله، ورق دينه، واختلط فكره، وتشتت وعيه، ونام ضميره، وغفل قلبه عن الله تعالى، وعمي بصره عن النور، وضاع قلبه عن الحق، وكأن هؤلاء قد انسلخوا عن الدين، وتجردوا عن الإسلام، فتجد أحدهم في ميوع وتحلل، وتخنث وطيش، وضياع وتيه، لا يعرف المرء له أصلاً ولا معتقداً، ولا اتجاهاً، بل هو ضائع كالورقة في الهواء، والغبار في مهب الرياح، والخشبة في البحر الهائج، ولا يثبت لها قرار، ولا يستقر لها مكان، وهو كالنبتة في الفضاء، تميل مع كل اتجاه، ومتى قضى أحدهم إربه، وبلغ مأربه، وتخبطه الشيطان من المس، واجتاله إبليس، رفع رأسه وكأنه مستيقظ من ثبات عميق، وقد أخذ عليه النوم كل مأخذ، ويسأل عن نفسه، ويتفقد من حوله، ويبحث عن أهله وأولاده، ويفتش عن

قوامه، فلا يجد شيئاً، لأنه فقد كل شيء في الليالي الحمراء، وخسر كل ما جمع، وحبط جميع ما قدم، ليصدق على هؤلاء ما رواه البخاري ومسلم وأحمد والحاكم وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، أو ذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».

وإن كثيراً من هذه المظاهر الغريبة في أعياد غير المسلمين، والإسراف في الملاهي والزينات، والتبذير في الأموال ترجع في أصلها إلى الوثنيات القديمة عند الإغريق واليونان، وإلى الجاهلية العربية قبل الإسلام، فجاء الإسلام وحرر الأعياد من الصور الوثنية، والعادات الجاهلية، والطقوس الزائفة، والمراسم الآثمة، والمناظر الفاحشة، ليتجه الناس في أعيادهم إلى الله تعالى، وإلى أنفسهم وأهليهم، وإلى أمتهم ومجتمعهم.

ونختم الكلام عن أعياد المسلمين وأعياد غيرهم بالمثل العربي الشائع: «كل إناء بالذي فيه ينضح» ونكرر قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وقول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثامناً: يوم عاشوراء

دروس وعبر

لقد أنزل الله تعالى كلامه عن طريق الوحي، الذي يتضمن الأحكام والهدى نظرياً، وكانت سيرة المصطفى محمد ﷺ تحدد المنهج العملي لهذا الشرع بطريق مستقيم، وأسلوب قويم وبيان حكيم، يحدد فيه الإطار الإلهي للشرع، والتطبيق العملي للأحكام، والكيفية الصحيحة للسلوك، والنموذج المثالي للعبادة، فكانت حياة الرسول ﷺ ترجمة عملية للقرآن والدين، وكانت سيرته صورة حية ومتحركة للإسلام والشريعة، وهذا جانب من المنهج الإلهي في التربية، وأحد العوامل المهمة في نجاح رسول الله ﷺ في الدعوة والإصلاح والجهاد، وهو أحد الدعائم الرئيسية في التربية الإسلامية على مر التاريخ عامة، وأصول التدريس والتوجيه في عصرنا الحاضر خاصة.

وكان رسول الله ﷺ يغتنم الفرص، ويستفيد من الظروف والأحوال ويستغل المناسبات البارزة لتقرير مبادئ الدين العملية، وترجمتها إلى التطبيق والواقع ومن أمثلة ذلك الخبر القصير والطريف الذي ورد في كتب السيرة النبوية ومدونات السنة الشريفة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوماً، يعني عاشوراء، فقالوا: هذا يوم عظيم، وهو يوم نجى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون فصام موسى شكراً لله تعالى، فقال: أنا أولى بموسى منهم، فصامه وأمر بصيامه»، وهذا لفظ البخاري، وفي رواية أحمد عن ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، فوجد يهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا يوم عظيم، يوم نجى الله موسى، وأغرق آل فرعون، قال: فصامه موسى شكراً، قال النبي ﷺ: فإني

أولى بموسى وأحق بصيامه، فصامه، وأمر بصيامه»[1].

فهذا الحديث الشريف، والخبر الطريف من السيرة وكتب السنة يحمل معاني كثيرة، وأحكاماً عظيمة، ودلالات شرعية تتعلق بالعقيدة والسلوك، والعبادة والمعاملات، نذكر جانباً منها:

الأول: فضائل يوم عاشوراء:

إن يوم عاشوراء يوم عظيم في تاريخ البشرية والحضارة الإنسانية، لأنه انتصار للحق على الباطل، وإعلاء لكلمة الله على دعوة الشياطين، وإعزاز للأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الطواغيت والكفار، وهو عيد جليل، لذكرى عطرة، يوم نجى الله تعالى نبيه موسى وأتباعه المؤمنين الصادقين، وأغرق فرعون وآله وجيشه، وخلص الله تعالى الناس من ظلمه وطغيانه وجبروته، ليكون لغيره عبرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦]، ثم ألقى الله جسده على الشاطئ ليكون آية بينة على قدرة الله وعظمته، وعلى الوفاء بعهده ووعده لأنبيائه وأصفيائه وأحبابه بالنصر، وليكون ذلك دلالة على كذب ألوهيته وادعائه الربوبية، قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

وهكذا يكون عيد الأنبياء والمؤمنين، يحتفلون به بالشكر لله تعالى، وإعلان الخضوع له، وزيادة التقرب إليه، وأن الفضل منه وإليه «وبالشكر

---

(١) هذا لفظ البخاري ١٥٩/٢ ط العثمانية +١/٢٣٤، ٢٣٣، صحيح مسلم مع النووي عن عائشة ٤/٥، صحيح مسلم مع النووي عن ابن عباس ٩/٥، رقم ١١٢٥ في الصيام باب صوم ست من شوال، مسند أحمد ٣٣٦/١، ولفظ أحمد أنسب وأوضح وأصرح، ابن ماجه ٥٥٢/١، وانظر: زاد المعاد ٦٦/٢ وما بعدها.

تدوم النعم»، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]، وليس العيد احتفالاً بالمعاصي والمحرمات، وارتكاب الآثام، واقتراف الذنوب، والإعراض عن الله، والوقوع في شباك الشيطان.

وتزداد فضيلة يوم عاشوراء أنه في الشهر الحرام، شهر الله المحرم، وأحد الأشهر الحرم التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهذه الأشهر هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

قال علماء التفسير: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في كل الشهور، ثم خصَّ أربعة أشهر، فجعلهن حُرُماً، وعظّم حرماتها، وجعل الذنب فيهن أعظم، كما جعل العمل الصالح والأجر له أعظم، وإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزر من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة، تتضاعف فيها الطاعات، ويحرم فيها القتال إلا للدفاع عن النفس ورد العدوان، وطلب الله تعالى من عباده ألا يظلموا ولا يتظالموا في الأشهر المحرمة بهتك حرمتها، وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام، وأن يجعلوا حلالها حراماً، وحرامها حلالاً، كما فعل أهل الشرك[1].

---

(١) انظر: صفوة التفاسير ٥٣٤/١، مختصر ابن كثير ١٤١/٢، القاسمي ٣١٤٣/٨، الطبري: ١٢٦/١٠.

قال قتادة: «إن الله اصطفى صفايا من خلقه: اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم، وأهل العقل»[1].

وفي هذه المناسبة لابدَّ من الانتباه إلى حقيقة دينية مقررة، ومبدأ إلهي واضح، وهو أن الله تعالى نصر موسى وقومه على فرعون الطاغية وجنده، لأن موسى عليه السلام كان مع الله، ويحمل شرع الله ودينه، وكان فرعون ظالماً، ومتكبراً ومتألهاً، يسوم الناس صنوف الهوان، ويذيقهم ألوان العذاب، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، حتى قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وهدد من يخرج عن عبادته وطاعته، فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

أما اليوم فقد قلبت الآية، وأصبح بنو إسرائيل واليهود الذين يدَّعون الانتساب إلى موسى على عكس ذلك، فحرفوا دين الله وبدلوه، وكذبوا على الله، وافتروا على أنبيائه، وزوروا كتاب الله تعالى، ثم حملوا لواء فرعون في الظلم، والطغيان واحتلال الأراضي، وتشريد المسلمين من فلسطين الغالية، ولا بدَّ أن تكون عاقبتهم كفرعون وجنوده، ولا بدَّ أن يكون النصر حليف المظلومين من المسلمين المؤمنين لتحرير القدس، وإنقاذ المقدسات بشرط واحد، وهو أن يعود المسلمون إلى دينهم وقرآنهم، وأن يرفع لواء الشرعية، وأن يصروا الله أولاً ليكتب لهم النصر فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) مختصر ابن كثير ٢/١٤١، الطبري ١٠/١٢٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ويقول أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وسوف يخوض المسلمون معارض الشرف والنصر بإذن الله، والمعركة تلو المعركة، وسوف يقدم الجنود الشهداء في سبيل دينهم ووطنهم وأمتهم وعزهم وكرامتهم، وهم يعلنون المبدأ الخالد «أنهم يحبون الموت، كما يحب اليهود الحياة» وهذا ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

ثانياً: وحدة النبوة والأنبياء:

وهذا ما ناحية العقيدة، فقد بين رسول الله ﷺ في الحديث أنه «أحق وأولى بموسى» من اليهود، فصام هذا اليوم اتباعاً لموسى، ومشاركة له في العيد والفرح، وشكر الله تعالى على نجاة أحد أنبيائه مع أصفيائه المؤمنين، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بصيامه، ليحقق المبدأ الإسلامي الذي جاء في القرآن الكريم بالإيمان بجميع الرسل والأنبياء، وأن المسلم لا يفرق بينهم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فالمسلم يؤمن بجميع الأنبياء والرسل، وأنهم صادقون في دعوتهم، مرسلون من عند الله تعالى، ولا يفرق بينهم بالإيمان ببعض، والكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب، وهو ما حذر منه القرآن وندد بهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ

وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]، وأكد رسول الله ﷺ هذا المبدأ، فيما رواه مسلم في «صحيحه»: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي، ولا نصراني، ثم يموت، و لم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار»[١]، وروى البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من عِلات، وأمهاهم شتى، ودينهم واحد»[٢].

والأنبياء صفوة البشر، اختارهم الله عز وجل من خلقه، وجملهم بأحكام الصفات، وأرقى الأوصاف، ورباهم على الخير والبر والتقوى، والعفاف والطهر، وأدهم بآداب الكمال والفضيلة، وجعلهم نماذج للإنسان الكامل، وعنواناً للفضائل والمكارم، ورعاة للمثل والقيم، وحملة لمشاعل النور والضياء، وأئمة مرشدين، وشرفهم بالنبوة والرسالة، وسدد خطاهم بالوحي والشرع، وآتاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي بمحض فضله واختياره وحكمته، وليس بمجرد الصدفة، أو الرياضة النفسية، أو المعاني الذاتية لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهؤلاء الرسل اختارهم الله ليكونوا هداة للبشرية، وسفراء من الله لعباده، ومصلحين للمجتمع، وبيَّن تعالى ذلك بإيجاز واختصار في القرآن الكريم، فقال تعالى:

---

(١) مختصر صحيح مسلم ١٣/١، النبوة والأنبياء، الصابوني ١٨.

(٢) هذا لفظ أحمد في مسنده (٣١٩/٢)، وانظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٣٠٨/٤.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وإن وظيفة الأنبياء واحدة، وعملهم محدداً، ومنهجهم متفقاً، وطريقهم مستقيماً، لا يفرقهم إلا اختلاف الزمان، واتساع المكان، ولا خلاف بينهم في الدعوة والهداية، وقاموا بالدعوة إلى دين الله وشرعه، وإلى توحيده وعبادته، وإلى إعلان القيم والأخلاق، وكانوا يتجهون إلى قولهم، ويلاقون نفس الجواب والنتيجة، يؤمن من يؤمن، ويكفر من يكفر، يصدقهم فريق، ويكذبهم آخر، يتبعهم جماعة، ويعرض عنهم آخرون، ويلاقون الأذى والسوء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦].

وكانت النتيجة الأولى أن يبدأ الجدل والمناظرة بين الفريقين، ثم الصدام والإيذاء والمبارزة والقتال، ويرتفع الصراع بين الحق والباطل، وبين جند الرحمن وجند الشيطان، وبين النور والظلام، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين العقل والشهوات، وبين الإصلاح والإفساد، بين الزهاد في الدنيا الذين يعرفون حقيقتها ويعرضون عنها، وبين الدهريين الذين يحصرون كل آمالهم وأمانيهم في الدنيا ليغبوا منها، ويجمعوا كل ما يستطيعون من متاعبها، وفي جميع الحالات يبدأ أعداء الله بالتهديد واستخدام القوة والتعذيب ومحاولة الاغتيال والقتل والتنكيل بالأنبياء وأتباعهم، بسبب إفلاس الكافر والملحد فكرياً وعقلياً، وعدم إمكانه الوقوف أمام المنطق والعقل، والحجة والبرهان، فيلجأ إلى العنف والمحاصرة لإخراج المؤمنين من بيوتهم وأرضهم ووطنهم وأهلهم لسبب بسيط، وهو قولهم: «ربنا الله» و«لا إله إلا الله» وتكون

النتيجة الثانية الحتمية هي انتصار الحق، وتأييد الرسل، ونشر الرسالة، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وصور القرآن الكريم هذا المشهد العام بين الرسل وأتباعهم على مر التاريخ من جهة، وبين الفريق الثاني من جهة أخرى، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

فالعلاقة بين الأنبياء قوية وقريبة، وأنها كالعلاقة بين الإخوة، وأن فرحة الأنبياء السابقين هي فرحة للرسول وللمسلمين، وهم في الواقع تجمعهم الأفراح والأحزان والآمال والآلام، وقد صام موسى هذا اليوم شكراً لله، وصامه قومه المؤمنين حقاً به، وصامه رسول الله ﷺ شكراً لله تعالى على نجاة موسى وهلاك فرعون، وأكد رسول الله ﷺ هذه العلاقة بين الأنبياء، مع وحدة العمل والوظيفة، فقال عليه الصلاة والسلام -فيما رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي-: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[1].

---

(١) مختصر صحيح مسلم ١٦٣/٢، الفتح الكبير ١٣٤/٣. حم ت عن أبي، حم ق ت عن جابر، حم ق عن أبي هريرة، حم م عن أبي سعيد. كبرى اليقينيات ٢١١. وانظر أهم وظائف الأنبياء في كتاب النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٣.

ثالثاً: صيام يوم عاشوراء:

جاء في الحديث السابق أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء، وأخبر ﷺ أنه أحق بموسى وأولى من اليهود، وأن موسى صامه شكراً لله تعالى، فتبعه رسول الله ﷺ بذلك، وأمر المسلمين بصيامه، لأنهم أحق من اليهود باتباع موسى والاقتداء به ومشاركته الفرحة بالنجاة، وتقديم الشكر لله على نجاة موسى.

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بصوم عاشوراء، يوم العاشر»(١)، ورغب رسول الله ﷺ بصيام يوم عاشوراء، فقال عليه الصلاة والسلام، فيما رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عدد من الصحابة في الحث عليه، قال: «صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»(٢).

وذهب أهل العلم إلى أن صيام يوم عاشوراء كان فرضاً على المسلمين قبل فرض رمضان، لأن رسول الله ﷺ كان يتحرى صومه على سائر الأيام، وصامه، وأمر بصيامه، وروى البخاري والترمذي وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فرض رمضان: كان من شاء صام ومن شاء أفطر» وفي رواية: «فمن شاء صامه، ومن شاء تركه»(٣)، وروى البخاري عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يقول يوم عاشوراء عام حج على المنبر: «يا أهل المدينة، أين علماؤكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: هذا يوم عاشوراء، ولم يكتب عليكم صيامه، وأنا صائم، فمن

---

(١) سنن الترمذي مع تحفة الأحوذي ٣/٤٥٩.

(٢) هذا لفظ الترمذي، والروايات الأخرى من تحفة الأحوذي ٣/٤٥٦، ابن ماجه ١/٥٥٣، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ٨/١٠-١١.

(٣) البخاري ١/٢٣٣، والترمذي ٣/٤٥٧، زاد المعاد ٢/٦٦.

شاء فليصم، ومن شاء فليفطر»[1].

وهكذا أصبح صيام يوم عاشوراء سنة وتطوعاً، وأن صيامه فيه أجر كبير، وثواب عظيم، يقول الترمذي: «والعمل على هذا عند أهل العلم، على حديث عائشة، وهو حديث صحيح، لا يرون صيام عاشوراء واجباً إلا من رغب في صيامه، لما ذكر فيه من الفضل»[2].

ويضاف إلى ذلك أنه من السنة والأفضل صيام يومٍ قبله أو يوم بعده، كصيام اليوم التاسع، وذلك لمخالفة اليهود في ذلك، وعدم مشاركتهم في أعيادهم لما ابتدعوه في الدين، وافتروه على الأنبياء، وما حرفوا به الدين، وكذبوا الرسل ومنهم رسول الله ﷺ، والدليل على ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حين صام يوم عاشوراء، وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ»، وفي رواية أخرى لمسلم «إن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع» فلم يأت العام القابل حتى توفي رسول الله ﷺ[3].

وهذا تنبيه من الرسول للمسلمين بعدم اتباع اليهود والنصارى، ومخالفتهم في الشعائر والسلوك، ليكون المسلم متميزاً بشخصيته، ولا يكون إمعة لغيره.

نسأل الله تعالى أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٣٣-٢٣٤.

(٢) الترمذي ٣/٤٥٦.

(٣) صحيح مسلم رقم ١١٣٤، زاد المعاد ٢/٩٨، ابن ماجه ١/٥٥٢-٥٥٣، صحيح مسلم مع النووي ٨/١٢.



...عاً: ذكرى المو...

الحمد ... العالمين القائل: ﴿لَ...

أَنفُسِكُمْ ... عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَ...

رَّحِيمٌ﴾ ...]، القائل

ذكر الحبيب لم يصل عليه.

ومع ذلك **نغتنم الفرص** لزيادة الصلاة على رسول الله وللتقرب منه، ونرى أن هذه الفرصة هي مجال لتطبيق آية في كتاب الله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]، فكيف يتم **الاتباع** إن لم نعرف سيرة رسول الله ﷺ ونتعرف على هديه، وشمائله، وصفاته وأفعاله، لنتبعها؟

لذلك ذكر الله تعالى **-في معرض القدح والذم-** من يجهل سيرة رسوله، ولم يعرفها، ليصل إلى النكران والتنكر، ثم الإعراض والمخالفة، قال تعالى: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٩].

ومن هنا يقيم المسلمون **دروس السيرة** في المساجد والمدارس والجامعات ثم في البيوت، وأجهزة الإعلام، لتبقى الصلة وثيقة بهدي رسول الله ﷺ، وللتعرف على أحواله وأخلاقه، ليزداد المؤمن محبة له، واقتداء به واتباعاً لما جاء به، ليكون ذلك ذخيرة المسلم إلى آخرته، لذلك سمى العلامة ابن قيم كتابه في السيرة النبوية بعنوان «زاد المعاد في هدي خير العباد».

إن **دراسة السيرة النبوية**، ومعرفة أخبارها وأحوالها **مبعث فخار للمسلم**، ووسيلة لزيادة الإيمان، وطريق للمحبة، وباعث للاتباع والاقتداء، وبالتالي لزيادة الأجر والثواب أولآ، ثم لمرافقة الحبيب المصطفى في الفردوس الأعلى ثانياً، وهو القائل عليه الصلاة والسلام: «المرء مع من أحب»، وفي رواية: «يحشر المرء مع من أحب»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٥ / ٢٢٨٣ رقم ٥٨١٦، ومسلم ١٦ / ١٨٨ رقم ٢٦٤٠ وعنون به.

وهذا هو الفوز العظيم بالحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

يقول المثل العربي، والحكمة الباهرة «الإنسان عدو ما يجهل»، وهذاهو **مبعث الإساءة لرسول الله** ﷺ قديماً وحديثاً، وهو المرض القاتل لدى بعض الغربيين لينالوا من رسول الله ويصوروه على غير الحقيقة والواقع.

أما من قرأ السيرة النبوية -ولو لم يكن مسلماً- **فقد اعترف بالحق والحقيقة**، وأثنى على رسول الله ﷺ ببعض مايستحق، ووصفه ببعض الصفات من وجهة نظره، أما نحن فلا نرى أفضل من وصفه بأنه «**رسول الله**» وهذه بعض نصوصهم:

١- وضع مايكل هارت في كتابه «مائة رجل من التاريخ» عنواناً «**أعظم رجال التاريخ**»، وقال: «إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي».

٢- وصف القائد العظيم مونتجومري وات في كتابه «محمد في مكة ص ٥٢» أن محمداً «**رمز العدالة والنزاهة**» وقال: «إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيداً وقائداً لهم، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل ذلك يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه. فافتراض أن محمداً مدع افتراض يثير مشاكل أكثر ولا يحلها، بل إنه لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين لم تنل التقدير اللائق بها مثل ما فعل بمحمد».

٣- وقال المستشرق الشهير لامارتين في كتابه «تاريخ تركيا ٢٧٦/٢»: «وهل هناك من هو أعظم من النبي محمد ﷺ» ثم قال: «إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سُمُو الغاية والنتائج المذهلة لذلك رغم قلة الوسيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أياً من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد ﷺ في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة وسنوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجاداً بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانيهم».

لكن هذا الرجل -محمداً ﷺ- لم يُقد الجيوش ويُسن التشريعات ويُقم الإمبراطوريات ويحكم الشعوب ويروّض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس فيما كان يُعد ثلث العالم حينئذٍ.

هذا هو محمد الفيلسوف، الخطيب، النبي، المشرع، المحارب، قاهر الأهواء، مؤسس المذاهب الفكرية التي تدعو إلى عبادة حقة، بلا أنصاب ولا أزلام، هذا هو محمد ﷺ.

بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أود أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد ﷺ؟».

٤- وقال المؤلفان إدوارد جيبون وسيمون أوكلي في كتابهما «تاريخ إمبراطورية الشرق ص ٥٤» تحت عنوان «**روعة محمد**» قالا: «ليس انتشار الدعوة الإسلامية هو مايستحق الانبهار، وإنما استمراريتها وثباتها على مر العصور فما زال الانطباع الرائع الذي حفره محمد في مكة والمدينة له نفس الروعة والقوة في نفوس الهنود والأفارقة والأتراك حديثي العهد بالقرآن، رغم مرور اثني عشر قرناً من الزمان».

٥- وقال راما كريشنا في كتابه «محمد النبي» تحت عنوان «**كل هذه الأدوار تؤهله لأن يكون بطلاً**» قال: «لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها، ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه هو نبذة عن حياته، فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلاً.

٦- ووصف القائد الفيلسوف مهاتما غاندي في حديثه لجريدة «يونك إنديا» أن رسول الله ﷺ «**يملك قلوب الملايين**» وقال: «أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر، لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول ﷺ مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته، مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته، هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف».

أما **تداعيات الرسوم المسيئة** التي نشرت، والتي أثارت من حولها ضجة كبيرة وواسعة، فقد حققت عكس مقصودهم وأرادوا بها الباطل فظهر الحق، وكانت مناسبة لدفع الناس للتعرف على سيرة رسول الله ﷺ، مما يؤدي إما إلى الاعتراف بالحق، أو معرفة الحقيقة، أو مراجعة النفس، أو الوقوف على الحياد، أو نبذ العصبية والتعصب ضد الإسلام، أو إثارة الذهن والعقل للبحث عن الحقيقة، وكل ذلك لمصلحة الإسلام.

كما أدى ذلك إلى **إيقاظ بعض المسلمين من غفلتهم القاتلة**، وصحوة بعض العيون النائمة، وتذكير بعضهم بالعدو المتربص، والأهداف الاستعمارية، والأحقاد التاريخية، والنظرة العدائية.

ونذكر نماذج مما حدث، فقد ذكرت إحدى المجلات الإسلامية أن جريدة «كوييرا ديلاسيرا» أشهر الصحف الإيطالية نشرت الحلقة الثانية من السيرة النبوية على صفحاتها، وذلك يوم الأربعاء في ٢٠٠٦/١/١١ م الموافق لثاني أيام عيد الأضحى المبارك ١٤٢٧هـ، تحت عنوان «**شخصيات التاريخ**» وأدى ذلك الإصدار إلى ارتفاع ثمن الجريدة لتصل إلى أكثر من ٧ يورو للنسخة الواحدة بسبب الإقبال الكبير عليها من جانب المسلمين وغيرهم في إيطاليا، ثم خصصت صفحة كاملة للسيرة النبوية في الملحق الثقافي، وأكدت الصحيفة في موقعها على شبكة الانترنت أن هناك اهتماماً متزايداً بالإسلام في مختلف أنحاء العالم لاسيما في ايطاليا مما دعاهم إلى نشر السيرة النبوية لجموع المسلمين.

كما أن أحد المبشرين قرأ السيرة النبوية لمحاربة النبي ﷺ، فأحبها واعتنق الإسلام، وذلك عقب مانشرت الصحف الدانماركية الصور المسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام، فبدأ هذا المنصر الدانماركي (كريستي ٢٨ عاماً) يقرأ في سيرة النبي ﷺ لينطلق في دعوته التنصيرية من هذا المنطلق، ويلعب بورقة الإساءة للرسول ﷺ، ويقدمه باعتباره رجلاً أساء للبشرية، ولكن المنصر أعجب بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ومكث يقرأ فيها حتى اعتقد أن ماجاء به محمد ﷺ هو الحق، فتقدم إلى مكتب الجالية الإسلامية في «كوبنهاجن» وطلب إشهار إسلامه ونطق بالشهادتين على مرأى ومسمع

من الدانماركيين أنفسهم.

وأعلن مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية «كير» في بيان له عن تلقيه أكثر من ١٦٠٠ رسالة من أمريكيين وكنديين يطلبون فيها الحصول على مواد ومراجع ومصادر تعرف بالنبي ﷺ خلال ٤٨ ساعة منذ إطلاق المجلس حملة «أعرف حياة محمد» يوم ٢٠٠٦/٢/١٤م، المعنية بتوفير مواد تعريفية بالرسول ﷺ مجاناً للأمريكيين والكنديين الراغبين بذلك.

وكل ذلك -لأن محمداً ﷺ- رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، والرؤوف الرحيم، وذو الخلق العظيم، أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وماعلينا إلا أن نتعرف، ونعرف بسيرة النبي الكريم ليكون ذلك دعوة وذكرى للدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

﴿﴾

عاشراً: يوم بدر يوم الفرقان

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهم يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم إنا لانحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأنت القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وأشهد أن لا إله إلا الله، الملك الحق المبين، ناصر الحق بالحق، والمؤيد لرسله وعباده المؤمنين، القائل لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، اصطفاه واجتباه، وأيده بالنصر المبين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين الذين اتبعوه على الصراط المستقيم، وكانوا له الجند المنتصرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أما بعد:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقد شاءت الإرادة الإلهية **أن يتم الصراع بين الخير والشر** منذ وجد آدم وحتى تقوم الساعة.

وكانت السنة الإلهية أن يتم **النصر في الأخير للحق**، فإن للباطل جولة، وللحق جولات، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

واستمرت هذة السنة الكونية عند بعثة محمد رسول الله ﷺ الذي جاء بالهدى والنور انطلاقاً من **الدعوة لتوحيد** الله تعالى، وطلب من قومه أن يقولوا لا إله إلا الله لتكون لهم العزة في الدنيا والآخرة.

ولكن **قوى الشر تحركت**، ووقفت في وجه النبي ﷺ، وتمادت بالإيذاء والإضطهاد، والتعذيب والتآمر ثلاث عشرة سنة، والمسلمون ينتظرون الفرج من الله تعالى.

حتى أذن الله تعالى لرسوله وللمسلمين **بالهجرة** إلى المدينة المنورة لإعلاء كلمة الله تعالى، ونشر مبادىء العدل والأمن، **وأذن الله للمسلمين بالجهاد** والقتال لرد العدوان، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وبين القرآن الكريم **الهدف من القتال** بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

وبدأ رسول الله ﷺ الاستعداد للقتال، وتدريب الصحابة على ذلك، فأرسل السرايا والغزوات في السنة الأولى للهجرة والسنة الثانية حتى جاء رمضان.

أيها المؤمنون: لقد **هيأ الله الأسباب لمعركة بدر الكبرى** فخرج رسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه **لاعتراض قافلة قريش** المحملة بالتجارة عائدة من الشام، لعلهم يستردون بعض ما فقدوه من أموالهم وديارهم في مكة بسبب هجرتم إلى المدينة، ولم يفكروا بقتال أو مواجهة.

ولما عرفت قريش بذلك **جهزت جيشها** للقضاء على الإسلام والمسلمين في عقر دارهم، والتقى الصفان عند ماء بدر قرب المدينة المنورة، فبدأ الرسول ﷺ **بالاستشارة** فأشار الصحابة بالمضي لملاقاة قريش، وقالوا له: «لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون، بل إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والله لو خضت بنا البحر لخضناه معك».

وبدأ القائد رسول الله ﷺ بالاستعداد **وتهيئة الجيش الذي كان أقل عدداً وعدة** من جيش المشركين، ولكن الله أيدهم، فقال عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

واتجه رسول الله ﷺ إلى الله تعالى بالدعاء **والتضرع والاستعانة، قائلاً**: «اللهم أنجز لي ماوعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذة العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض» وما زال يدعو حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فقال له الصديق أبو بكر: «هون عليك إن الله سينجز وعده» وأنزل

الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وبدأت المعركة، ثم انتهت **بالنصر المؤزر** للمسلمين، وقد قتل صناديد قريش وزعماؤهم، وأسر سبعون منهم، وولوا الباقي الأدبار هرباً.

أيها المسلمون: إن معركة بدر صغيرة في حجمها، كبيرة في معانيها وآثارها، ولقد تجلت دروس كثيرة وعبر من خلالها، منها:

١- كانت معركة بدر في **١٧ رمضان**، وانتصر المسلمون فيها نصراً مؤزراً، وهذا يؤكد على فضل رمضان، وأنه شهر العمل والجد والانتصارات.

٢- كان المسلمون **أقل عدداً وعدة**، ثم انتصروا لتأكيد مبدأ مهم أنه لاعبرة للعدد ولا للعدة، ولكن العبرة للإيمان الذي تجلى من الرسول وصحبه، فنصروا الله تعالى بإقامة شرعه، وطاعته، والتزام دينه، وهذا هو المقرر في القرآن حتى تقوم الساعة: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

٣- ظهرت المبادىء السديدة **في القيادة الحكيمة** بمشاركة القائد نفسه في المعركة والقتال، فالجنود دائما من وراء قائدهم في الثبات والعزيمة، فكان يوجه المعركة، ويديرها ويشرف عليها، وليس من البيت أو القصر أو من وراء الإذاعات والمكبرات.

٤- وقعت قبل المعركة وأثناءها وبعدها توجيهات نبوية رشيدة في **الشورى والاستشارة** وقبل **نصيحة أهل الخبرة** كما فعل الخباب بن المنذر في تحديد المكان المناسب للجيش والمعركة، وأن جو المعركة لم يؤثر على إقامة الحق والعدل والإنصاف، كما فعل رسول الله ﷺ مع سواد.

٥- **الاستعانة بالدعاء**، والتوجه إلى الله تعالى، وهذا يقتضي أولاً طاعته والعمل على مرضاته، ليكون الدعاء مقبولاً ومستجاباً.

٦- إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين حتى تقوم الساعة، ويجب على المسلم أن يعتقد ذلك، ويعمل له.

٧- أصبحت بدر **خالدة في التاريخ، وذكرى غالية** للمؤمنين، وأصبح أهل بدر أفضل الصحابة، وأكرمهم عند الله وقال لهم: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

٨- كانت نتيجة المعركة قتل سبعين من المشركين، فأشرف الرسول على حفر القليب لهم لدفنهم حتى لاتنهشهم الطيور والكلاب، مراعاة لإنسانيتهم، وأسر سبعون من المشركين، فكانت معاملتهم رفيعة وسامية حتى أسلم معظمهم فيما بعد.

- أوصيكم بتقوى الله تعالى، فإنه خير عميم للعالمين، وفوز في الدنيا والآخرة، والعاقبة للمتقين.

- واعلموا أن الله صلى على نبيه قديماً، وصلت عليه الملائكة، ثم أمرنا بالصلاة عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. فقد أمركم بأمر عظيم بدأ به بنفسه، وثنى بملائكة قدسه بالصلاة على رسول الله، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد.

- التذكير بفعل الخير، وتقديم الأموال في الوقف الخيري، والزكاة، والصدقات، والتعاون مع الهيئات الخيرية، فالثواب في رمضان يتضاعف.

- وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعلى المبشرين بالجنة، وسائر الصحابة أجمعين.

- اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

- اللهم أصلح لنا ديننا الذي هم عصمة أمرنا.

- اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته.

- اللهم وفق ولاة المسلمين لما تحبه وترضاه، للعمل بكتابك وسنة نبيك، وتحقيق عزة الإسلام والمسلمين.

- اللهم اجعلنا من عتقاء شهر رمضان، واعتق رقاب آبائنا وأمهاتنا من النار وأعنا على الصيام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان، وبارك لنا فيما بقي من رمضان.

حادي عشر: الإسراء وانتفاضة الأقصى

يطل علينا هذا العام شهر رجب الحرام، وفيه ذكرى الإسراء والمعراج، التي تمثل معلماً في عقيدة المسلم وحياته، وتحمل المشاعر الكثيرة والدروس والعبر، ومنها الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في التقديس، والعبادة، والعواطف والآمال والأحكام، وفي هذا الوقت يرزح المسجد الأقصى تحت أيدي الاحتلال الصهيوني المعتدي الآثم، وينكل بالأهل والإخوة، ويكيد للمسجد الأقصى بالحفريات، والاعتداءات، والعبث بالمقدسات، وانتهاك حرمة المسجد، ودخول رموز الكفر والشرك والقتل والإرهاب إلى ساحاته، مما أدى للانتفاضة المباركة ضد العدو الغاصب المحتل، ومضى عليه سنوات وقدمت مئات الشهداء، وأكثر من عشرة آلاف جريح، مع هدم البيوت، وتشريد السكان والنساء والأطفال، وآلاف الأسرى.

وهذه الانتفاضة من الأعمال الجليلة الخالدة في هذا القرن، لأن حق الشعب بالمقدسات والتحرير لا يمكن التخلي عنه، أو السكوت عليه، بل تبذل في سبيله الدماء، كما قال الشاعر:

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يُدق

وحققت الانتفاضة إنجازات عظيمة، منها وحدة الشعب الفلسطيني، وتحريك مشاعر المسلمين في العالم، واستعدادهم للوقوف مع فلسطين والانتفاضة، وحماسهم للمشاركة والانضمام للجهاد لتحرير المقدسات، وإن دم الشهيد يطهر الأرض، وباب الشهادة مفتوح أمام المجاهدين، وأبواب الجنان تستعد لاستقبالهم، وخاصة العمليات الاستشهادية التي نص الفقهاء عليه بعبارتهم الخالدة إن المخاطرة بالنفس في القتال والجهاد أمر مشروع، وأما المشككون في

ذلك، ووصف الشهداء بالانتحاريين، فإنهم يجانبون الصواب، وحجتهم واهية، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وهذه الآية حجة عليهم، لأنه لا يجوز الاحتجاج بنصف آية، وقطعها عما سبقها أو لحقها، كمن يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، فإن الآيات السابقة لهذه الآية تأمر بالقتال والجهاد، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [البقرة: ١٩٠] وهذا جهاد بالنفس، ويتوقف على الجهاد بالمال والتبرع، فقال تعالى بعدها: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ثم قال تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي إن ترك القتال والجهاد والبخل بالمال يؤدي إلى الهلاك.

والجهاد فرض، وهو ذروة سنام الإسلام، وأعظم الأعمال عند الله تعالى، وذكره رسول الله ﷺ بعد الإيمان بالله، عندما سئل عن أفضل الأعمال فقال: «الإيمان بالله تعالى، ثم الجهاد في سبيله»، وقال أيضاً: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة»، وإن الأمم الحية لا ترضخ لاستعمار ولا استعباد.

وهنا يجدر التذكير بدور المسلمين في العالم تجاه الانتفاضة، لنؤكد أن الجهاد ثلاثة أنواع، ويبدأ بالعلم والكلمة والتوجيه والدعوة والدعاء، وهذا واجب كل مسلم عامة، والعلماء خاصة، ثم يأتي المال والإعداد، وهذا واجب الأغنياء وكل مستطيع ولو بالقليل، ثم يأتي الاشتراك في القتال والتضحية بالنفس، ويجب على كل مسلم أن يشارك في أحد الأنواع ولو بالكلمة والتضامن وشد الأزر والدعاء لتحقيق النصر للمجاهدين، ثم دعم الانتفاضة بالمال المتاح، وهو كثير وكثير في أيدي المسلمين، ويبقى النوع الثالث الذي

تكفل به الشعب الفلسطيني الشقيق في فلسطين الجريحة.

وإن قضية فلسطين قضية وطنية، وعربية، وقومية، ودينية، وإسلامية، وإنسانية، وكل حر شريف، وعاقل متزن يجب أن يساهم في دعم فلسطين، لتحريرها، وطرد العدو الغاصب منها، ويعيد الربط من جديد بين قدسية الإسراء ومعانيه، وشرف الانتفاضة واستمرارها، حتى يتحقق النصر بإذن الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين.

୨୦୧୧

الفصل الحادي والعشرون

مقالات في المساجد والأماكن[1]

أولاً: المساجد في الإسلام

أولاً: التعريف:

المساجد جمع مسجد، وهو الموضع الذي يسجد فيه، والسجود هو الخضوع والخشوع والانقياد، ويكون بوضع الجبهة على الأرض، ويسمى الفاعل ساجداً، قال الزجاج: كل موضع يتعبّد فيه فهو مسجد، لما ورد في الحديث الشريف: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» أخرجه البخاري ومسلم، أي موضعاً طاهراً للسجود، ومصدراً للطهارة، فالأرض كلها مسجد، وترابها طاهر مطهر.

وكان المسجد في الأمم السابقة وصفاً مشتقاً لمكان السجود والعبادة، وله أسماء متعددة في الأديان، ثم أصبح في الإسلام علماً على الموضع الذي يحاط بالجدران، وتؤدي فيه الجماعةُ المسلمةُ الصلواتِ الخمس كل يوم، وتمارس فيه رسالة المسجد، وسمي بذلك لما في الصلاة من سجود.

ثانياً: أهمية المساجد:

المساجد أهم المباني الدينية الإسلامية، لأنها مكان العبادة لثاني ركن من أركان الإسلام، وهي الصلاة التي تعتبر عماد الدين، ويجتمع المسلمون في

---

(١) ينظر في ذلك مقال: أندونيسيا جنة الله في الأرض، في كتابنا «محاضرات ثقافية وفقهية وفكرية» ص٢٥٥.

المساجد خمس مرات في اليوم، ولها وظائف كثيرة، ورسالة عظيمة، سترد بعد قليل.

وتعتبر المساجد وقفاً لله تعالى، فلا يملكها إنسان، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، فهي أهم الأوقاف الإسلامية، وأول الأوقاف على الإطلاق منذ بني المسجد الحرام.

والمساجد أحب البقاع إلى الله تعالى، لقوله ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها» رواه مسلم.

ثالثاً: أنواع المساجد:

المسجد في الأصل كل مكان للسجود، ثم أصبح يطلق على مكان البناء المخصص للعبادة وأداء الرسالة الخاصة به، وهو مصلى الجماعة، وقد تنوعت أسماء المساجد، وأهمها:

١- **المساجد الثلاثة**، وهي أفضل المساجد، وأشهرها، ولها أحكامها الخاصة، وهي المسجد الحرام بمكة المكرمة، والمسجد الأقصى بالقدس، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، ولا يقصد مسجد لذاته، ولا يجوز السفر وشدّ الرحال، إلا لهذه المساجد الثلاثة، لقوله ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وعدّدها، أخرجه البخاري.

٢- **المسجد الجامع**، وهو المسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجماعة والجمعة والصلوات الجماعية الكبيرة كصلاة الخسوف والكسوف، وصلاة الاستسقاء، وصلاة العيدين أحياناً، وتتفاوت مساحة المسجد الجامع حسب المدن، والمناطق، والقرى، وغالباً ما يطلق عليه لفظ «الجامع» ونعت بذلك لأنه علامة الاجتماع ومكانه، ويحذف الموصوف

«المسجد»، وقد يقال لأكبر مسجد في المدينة الجامع الكبير.

٣- **المصلى**، وهو نوعان:

أ - مصلى العيد، وهو المكان الشاسع في الفضاء العام الذي تقام فيه صلاة العيدين، ويكون غالباً خارج الأبنية ليتسع لأكبر عدد ممكن من أهل البلاد الذين يضيق بهم المسجد الجامع، وغالباً ما يكون غير محاط بجدران، أو يحاط بجدران ولكنه غير مسقوف.

ب- مصلى الحي، وهو المسجد الصغير الذي يصلي فيه جماعة قليلة في جانب من البلد، أو المدينة، لقربه من بيوتهم، ولتأمين صلاة الجماعة لهم بسهولة ويسر، ورفع صوت الآذان والشهادتين والتوحيد فيه، وينطبق ذلك على المصلى الذي يخصص في مؤسسة، أو بناء، أو عمارة، أو شركة، أو مدرسة أو جامعة، أو أماكن العمل، وله أحكام خاصة تختلف قليلاً عن المسجد، فيجوز نقله مثلاً، ولا يكون وقفاً.

ويمتاز المسجد الحرام أنه يضم الكعبة المشرفة التي يتجه إليها المسلمون للصلاة من أرجاء العالم قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ويطلق المسجد الحرام في الشرع على الكعبة، وعلى المسجد المحيط بها، وعلى حرم مكة.

رابعاً: تاريخ المساجد:

إن أول مسجد وضع في الأرض للعبادة هو المسجد الحرام بمكة المكرمة الذي بناه آدم، وفي قول بنته الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، وتعرض للهدم والكوارث، حتى رفعه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وإذا أطلق لفظ «البيت» فهو المراد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ويسمى أيضاً الكعبة، لأنه يحيط بها، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وإليه يحج المسلمون كل عام، وهو أفضل المساجد على الإطلاق، لما ثبت في الحديث الشريف: «صلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما عداه» رواه البخاري ومسلم، ثم تجدد بناؤه وتوسعته عدة مرات.

وثاني المساجد في الأرض هو المسجد الأقصى بمدينة القدس، وبني بعد المسجد الحرام بأربعين سنة، ثم جدد بناؤه عدة مرات، والصلاة فيه أفضل بخمسمائة صلاة فيما عداه، وكان أول قبلة للمسلمين يتجهون إليه في صلاتهم، ثم تحولت القبلة إلى المسجد الحرام، وإليه أسرى الله بالرسول ﷺ، ومنه عرج إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، ويشمل المسجد العتيق والمسجد الأقصى وحائط المبكى وسائر الساحات والمرافق التابعة.

وثالث المساجد هو المسجد النبوي بالمدينة المنورة الذي يشمل القبة الخضراء التي يرقد تحتها سيدنا محمد ﷺ، والصلاة فيه بألف صلاة فيما عداه،

وقد تم توسعته والزيادة فيه عدة مرات. وفي هذه المساجد جاء الحديث الشريف «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» رواه البخاري ومسلم.

وأول مسجد أسس في الإسلام مسجد قباء قرب المدينة المنورة الذي بناه رسول الله ﷺ في أثناء هجرته، وقبل وصوله للمدينة المنورة، ثم بنى المسجد النبوي فيها.

ثم انتشرت المساجد في البلاد الإسلامية، كما انتشرت في أرجاء العالم لإقامة الصلاة للمسلمين فيها والدعوة والتربية والتعليم والمناسبات الدينية والاجتماعية، وكان قادة الفتح والدعاة يبدؤون بإقامة المسجد في كل بلد دخلوا إليه.

خامساً: وظائف المساجد:

إن المساجد بيوت الله تعالى، وليست مبنية للعبادة والصلاة فحسب، بل لها وظائف متنوعة، وهي مراكز الهداية والتوجيه والتعليم وسائر النشاطات المفيدة النافعة للناس بدون تفريق ولا تمييز.

وإن رسالة المسجد في الإسلام عظيمة، لأنه أهم المرافق على الإطلاق، ولأنه يمثل محور الحياة الإسلامية الكاملة، ومركز النشاط والحيوية والإشعاع، ومنطلق الدعوة وسائر الأعمال التي تهم المجتمع والدولة والأمة، وأهم وظائف المسجد هي:

١- **وظيفة روحية:** فالمسجد مكان العبادة لفريضة الصلاة التي حث رسول الله ﷺ على أدائها في المسجد في جماعة، وطلب المحافظة عليها، وبين فضلها فقال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين

درجة» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ومالك، لما تحقق صلاة الجماعة في المسجد من التقرب لله تعالى، والاطمئنان النفسي، والراحة الداخلية، والرضا القلبي، والصفاء الروحي، كما يستحب في المسجد الذكر وقراءة القرآن وسائر أنواع العبادات التي تغذي الروح، وتمحو الذنوب، وترفع الدرجات عند الله تعالى، ويقام في المسجد صلاة الجمعة وهي أفضل الصلوات في الدِّين.

٢- **وظيفة اجتماعية:** لأن المسلمين يلتقون في المسجد كل يوم خمس مرات، فتقوى الروابط الاجتماعية فيما بينهم عن طريق العبادة والتعليم، وعقد النكاح، والتعارف، والمحبة، وتآلف القلوب، وتتحقق فيهم المبادئ الإسلامية، وتتمثل القيم الأخلاقية متجسدة بشكل عملي حقيقي، كالمساواة، والتحابب، والتعاطف، والتكافل، والسؤال عن المرضى والمحتاجين، والغرباء وأبناء السبيل، فينصهر الناس في بوتقة واحدة، ويشكلون وحدة متجانسة، وكان النبي ﷺ يجمع الصدقات والأموال العامة في المسجد ويوزعها على الفقراء والمستحقين، وخصص في المسجد النبوي مكان لإيواء الفقراء والغرباء الذين عرفوا بأهل الصفة، ويتفرغون للعلم والعبادة والجهاد.

٣- **وظيفة عسكرية:** كان التدريب العسكري يتم في المساجد التي كانت كالثكنة التي يتدرب فيها الفرسان، ويتصارع فيها الشجعان، ويتبارز فيها الأبطال والفتيان، وتعقد فيها ألوية القادة، وتجهز فيها الجيوش، وتقسم فيها إلى فرق، وتنطلق منها كتائب الجهاد، ثم تتوجه إلى غايتها في الدعوة والقتال، فإن عادت استقبلت في المساجد من جديد.

٤- **وظيفة تعليمية**: المسجد هو المكان الأول للتعليم في الإسلام، فتعقد فيه الدروس وحلقات العلم، ويتم فيه النشاط العلمي، ويرتاده الناس من كل فج لحضور مجالس العلماء مجاناً، وفي مختلف الفنون، بدءاً من تلاوة القرآن إلى رواية الحديث فعلوم اللغة والتاريخ وسائر العلوم، وبقي المكان الرئيسي للتعليم حتى فتحت الكتاتيب، ثم المدارس النظامية، وبقيت المساجد هي الموئل الأساسي للتعليم الذي تطور في بعض البلاد لتصبح المساجد جامعات، كجامعة الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القيروان بالمغرب، وجامع المنصور في بغداد، مع المسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي بالمدينة، وفتحت بقية المساجد أبوابها للعلم كالمسجد الأموي وغيره بدمشق وغيرها، وبنيت الأروقة والدواوين حول المسجد ليتم فيها التدريس وإقامة الطلبة والمدرسين، وانطلقت العلوم والمعارف والحضارة الإسلامية والكتب والمصنفات من المساجد التي كانت تضم أعظم المكتبات للمصادر والمراجع، وتخرج من المساجد أعلام الأمة طوال التاريخ الإسلامي، وكانت المساجد مقصد الرحالة وطلاب العلم من أنحاء المعمورة.

٥- **وظيفة قضائية**: كان المسجد في العهود الأولى مكاناً لفصل الخصومات، وكان القضاء غالباً في المساجد، ثم عين الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بناء مستقلاً للقضاء، ولكن بقيت المساجد في معظم المدن والبلاد، وحتى أيام العباسيين، مجلساً للقضاء لرحابته، وسهولة الوصول إليه، والاستفادة من هيبته ورهبته لإحقاق الحق وإقامة العدل.

٦- **وظيفة سياسية**: كان المسجد مركز الدولة، ومقر السلطان، ومجامع الأمة

للتشاور، وإلقاء البيان السياسي عند بيعة الخليفة، وفيه تصدر القرارات الحاسمة، لأن الخليفة هو الذي يتولى خطبة الجمعة في حاضرة الدولة الإسلامية، وكان الرسول الله ﷺ يستقبل الوفود في المسجد النبوي، وتتم فيه المفاوضات، وتمارس فيه البيعة للإمام، والشورى، والتفاهم بين الحاكم وجماعة المسلمين، والتشاور في شؤون الأمة والمجتمع والدولة.

وأخيراً انحسرت وظيفة المساجد، واقتصرت على العبادة غالباً، والتعليم والدعوة أحياناً، وغابت بقية الوظائف، وتقلصت رسالة المسجد حديثاً.

سادساً: آداب المساجد وأحكامها:

المسجد بيت الله تعالى، ولذلك وضع العلماء له بعض الآداب والأحكام، وأهمها:

١- ملك المسجد لله تعالى، ولا يجوز بيعه، أو التصرف فيه، إلا لضرورة قصوى.

٢- تجب المحافظة على المساجد ورعايتها، لأنها بيوت الله تعالى، وبيوت العبادة، ولذلك كان بناء المساجد من أفضل الأعمال والقربات لله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، ثم تنافس الحكام والأغنياء وسائر الناس على المشاركة في بناء المساجد، لكنه يكره بناء مسجد بين القبور، أو على القبر.

٣- يحرم على السكران والجنب (وهو غير المتطهر من الجنابة أي إنزال المني) دخول المسجد لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ (أي موضع الصلاة وهو المسجد) وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ

تَغۡتَسِلُواْۚ ﴾ [النساء: ٤٣]، فيجوز مجرد المرور وهو العبور من طرف إلى آخر.

٤- يحرم على المرأة الحائض والنفساء دخول المسجد والمكث فيه، قياساً على الجنب، ولقوله ﷺ «لا أحل المسجد لجنب ولا لحائض» أخرجه أبو داود وابن ماجه، كما تصان المساجد من الصبيان الصغار والمجانين.

٥- يكره، ويحرم، الكلام المباح في المسجد لئلا يؤدي للتشويش على المصلين ومجالس العلم والذكر وقراءة القرآن، وإن الكلام المباح في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

٦- إن مجرد المكث (أي الجلوس) في المسجد عبادة يثاب فاعلها، سواء كان يذكر الله تعالى، أو ينتظر الصلاة، أو يستمع لدرس علمي، أو يشاور أو يتشاور في شؤون المجتمع والأمة والدين، وكذلك فإن الذهاب إلى المساجد والعودة منها عبادة، لقوله ﷺ «بشر المشائين إلى المساجد في الظُلَم بالنور التام يوم القيامة» رواه أبو داود والترمذي، وقوله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح» أخرجه البخاري ومسلم، وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» رواه الترمذي وحسنه.

٧- الصلاة في المساجد أفضل من سائر الأماكن، والصلاة في المساجد الثلاثة أفضل من الصلاة في غيرها.

٨- يستحب لمن دخل المسجد أن يصلي ركعتين لله تعالى تحية للمسجد، إلا المسجد الحرام فإن تحيته هي الطواف سبع مرات حول الكعبة المشرفة، لقوله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين» أخرجه البخاري ومسلم.

٩- المساجد هي الأماكن المحددة للاعتكاف، وهو التفرغ للعبادة لمدد محددة بأحكام خاصة.

١٠- يجب تجنب الأمور الدنيوية والشخصية في المساجد، فلا يجوز اتخاذه سكناً إلا لمسافر أو مشرد، ولا اتخاذه مستودعاً لعروض التجارة، ولا مكاناً للبيع والشراء والبحث عن اللقطة والضوال، كما يمنع إقامة العقوبات البدنية في المسجد.

١١- يحرم دخول غير المسلم للمسجد الحرام والحرم المكي كله، وكذلك المسجد النبوي وحرم المدينة.

١٢- يستحب التزين باللباس الجديد والرائحة الطيبة والعطور لدخول المساجد لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، ويكره الذهاب إلى المسجد بثياب المهنة و العمل إلا لضرورة، ويكره الدخول للمسجد لمن أكل ثوماً أو بصلاً أو حمل رائحة كريهة حتى لا يتأذى منه الناس والملائكة، ويجب صيانة المساجد من كل وسخ أو قذر أو عمل مخل بالأخلاق والمروءة.

١٣- بني مع المساجد المآذن، وأصبح ذلك شعاراً لوجود المسلمين، ويؤذن فيها للصلاة، لدعوة الناس لإقامتها، وكسب الثواب فيها.

١٤- يجب بناء مسجد على الأقل في كل قرية أو مدينة، وتتعدد بحسب الحاجة وكثرة العدد، وتنزه عن الزخرفة بالذهب أو الفضة أو الصور، ويكون للمسجد عادة حريم من الساحات والمرافق العامة كالموضأ، وغرفة للمؤذن، وسكن للإمام.

◈ المصادر والمراجع:

١- إبراهيم بن علي، أبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ)، المهذب في الفقه الشافعي، دار القلم- دمشق- ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢- سميرة الزايد، الجامع في السيرة النبوية، مكتبة السلام- دمشق- ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٣- محمد أحمد صالح الصالح، المسجد جامع وجامعة، بلا دار نشر- الرياض- ١٤٢١هـ.

٤- محمد بن بهادر، بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ) إعلام الساجد بأحكام المساجد- دار السلام- القاهرة- ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٥- يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) رياض الصالحين، دار الأفق- بيروت- ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

ثانياً: إعمار المساجد[1]

المساجد رايات للإسلام، وشعار للمسلمين، وزينة للمدن، ومفخرة للبلاد، وهي من شعائر الله تعالى، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وهي من مقدسات الدين، وتعظيمها من أفعال المتقين لله، الخاشعين بقلوبهم.

وتحتل المساجد في الشرع، وعند الناس، مكانة عالية نظرياً وعملياً، لأنها تمثل محور العمل والنشاط الإسلامي، ويكفيها منقبة أن تسمى: بيوت الله.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وإعمار المساجد المقصود في الآية الكريمة يشمل أمرين: الأول إعمارها بالبناء والتشييد والإصلاح والتنوير بالمصابيح والتنظيف، والأمر الثاني: إعمارها بالعبادة وأداء وظيفتها، وتحقيق رسالتها التي شرعت من أجلها وبنيت بسببها.

◈ فضل المساجد:

إن المساجد هي بيوت الله تعالى في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ويصفها ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ

(١) الوعي الإسلامي، العدد ٣٨٩، محرم ١٤١٩هـ/ مايو ١٩٩٨م.

وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وقال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن الله تعالى: «إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زواري عُمّارها» رواه الطبراني وغيره وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «المساجد بيوت الله تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض». وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ البلاد إلى الله المساجد» وفي حديث مسلم المشهور «سبعة يظلهم الله في ظله... يوم لا ظل إلا ظله...، ورجل قلبه معلق بالمساجد» قال النووي رحمه الله تعالى: أي شديد الحب لها.

◈ فضل بناء المساجد:

ولهذه المعاني السابقة في فضل المساجد جاء البيان في فضل بناء المساجد لإقامتها في الأرض، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر ببناء المساجد، ولم يقتصر الهدي النبوي على الأمر بالبناء، بل كان القدوة الأولى والأسوة الحسنة، والرائد الصادق في ذلك، وكان المثل الذي يحتذى في جميع الأزمان والأماكن في ذلك، فكان أول عمل قام به عند هجرته من مكة المكرمة أن أقام مسجد قباء على مشارف المدينة المنورة، وقبل دخوله إليه، كما كان أول عمل ينظمه ويخطط له بمجرد وصوله إلى المدينة اختيار مكان المسجد، والشروع في تشييد المسجد النبوي الشريف ليكون مصدر الهدى والنور والإشعاع للعالم حتى تقوم الساعة، وتصدر منه الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية، والتبليغ الإلهي.

ولذلك حث رسول الله ﷺ على بناء المساجد، ورغّب في تشييدها ورعايتها فروى البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى، بنى الله له بيتاً في الجنة» قال النووي رحمه الله تعالى: «أي فضل بيته في الجنة على ما سواه كفضل المسجد على غيره» وقال القرطبي: هذه المثلية ليست على ظاهرها، ولكن المعنى أنه يبني له بثوابه بناء أشرف، وأعظم، وأرفع، وروى ابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً، ولو كَمفْحَصِ قطاة، بنى الله له بيتاً في الجنة» قال العلماء: وخصّ القطاة بالذكر لأن العرب يضربون بها المثل في الصدق».

وأثنى الله تعالى على بناة المساجد ومعمريها بصفات الإيمان والعبادة والتقوى فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة وقال فيما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه: إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان».

◈ البناء المادي والمعنوي للمساجد:

هذا في فضل بناء المساجد، وهو الشطر الأول، والآية الكريمة السابقة قالت: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ ...﴾ ولم تقل: «إنما يبني..» والرسول ﷺ لم يقتصر على البناء والإشادة والتجهيز، وإنما تابع، وبين، وثابر على توضيح وظيفة المسجد ورسالته وأن البناء ينتهي عادة بشهر أو سنة أو خمس سنوات مثلاً، ولكن وظيفة المسجد ورسالته دائمة وخالدة وباقية ما بقى المسجد موجوداً، وحتى

لو تعطل المسجد، أو هدم، أو بلي، فإن رسالة المسجد ووظيفته لا تنقطع، ولا تنتهي، بل تواصل عملها في مسجد آخر، وحتى في أي مكان، أو بناء أو أرض، أو زاوية، وأن بناء المسجد يمكن أن يقوم به شخص، أو أفراد، أو عدد محصور مهما كبر، ولكنه محدد بوقت ومقدار، ويستحيل أن يكون عاماً شاملاً للمسلمين، أما وظيفة المسجد ورسالته فعامة، وشاملة لكل الناس مهما اختلفت طبقاتهم وأعمارهم وأجناسهم، وأفكارهم، وميولهم، وانتماءاتهم، ليحظوا بفضلها، ويشاركوا في أدائها.

لذلك كان إعمار المسجد المعنوي أهم بكثير من إعماره المادي بالبناء، ومن هنا توسعت وظائف المسجد، وتتنوع النشاط فيه بالمنظور الإسلامي الصحيح.

◈ وظائف المسجد:

إن وظائف المسجد في الإسلام متعددة، وتحقق إنجازات مختلفة، وهذا ما أداه فعلاً في التاريخ الإسلامي، وفي ظل الحياة الإسلامية الصحيحة، ولذلك نذكر بها، ونبينها، لتعود الحياة إلى المسجد فيؤدي دوره وينجز وظائفه، وأهمها:

١- إعمار المسجد بالتوحيد:

أي بتوحيد الله تعالى، وإعلان الأذان الإسلامي والشهادتين وبخاصة على الملأ مما يطرب الآذان، ويشنف الأسماع ويبهج القلوب، ويسعد النفوس وهو ما يتردد عملياً، قديماً وحديثاً، في معظم أرجاء المعمورة، وبخاصة البلاد الإسلامية ولا يدرك المرء أهمية الآذان، وإعلان التوحيد بالشهادتين، إلا إذا حرم منه في البلاد غير الإسلامية، وكذلك الأحياء المقفرة، والمدن والقرى شبه الميتة في بلاد المسلمين.

٢- إعمار المسجد بالعبادة:

وذلك بإقامة الصلوات الدائمة، من صلاة الجمعة والجماعة، والنوافل، لذلك صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» وقال جمهور الفقهاء: تصح صلاة المرء في بيته، وحملوا الحديث على مجرد الكراهة، ونقص الكمال، ولكنهم يقرّرون فضل الصلاة في المسجد ويدعون إليها، لما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيما رواه البخاري ومسلم: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة» وفي رواية «بخمس وعشرين درجة» وقال عليه الصلاة والسلام، فيما رواه البخاري ومسلم أيضاً «لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة» وروى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: بشروا المشّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» وأخرج البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح» وأخرج الإمام مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه» وفي رواية لمسلم أيضاً «من سره أن يلقي الله تعالى غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات، حيث ينادى بهن..» الحديث. وهمّ رسول الله ﷺ أن يحرّق على قوم بيوتهم، لتخلفهم عن صلاة الجماعة، كما أخرجه البخاري ومسلم.

٣- الوظيفة الاجتماعية للمساجد:

أن الصلاة صلة بين الله وعبده، وتصح في كل مكان في المعمورة «وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» ويجوز للمسلم أن يصلي في المعمل

والدائرة والمحل والمصنع، والحقل والجبل، ولكن تأكدت الصلاة وغيرها في المساجد لتحقيق الأهداف الاجتماعية، للتعارف بين الناس، والتآلف بينهم، وتصافح الأيدي، وتعانق القلوب، وتفقد الأحوال، ومعرفة المرضى والفقراء والمساكين والغرباء، وأبناء السبيل والعجزة، لتقديم العون المستطاع، والكلمة الطيبة والزيارة المأجورة من الله تعالى.

ولذلك فلا يقبل أن تكون المساجد لمجرد الصلاة، كبقية المعابد، تفتح عند الأذان وتغلق بعد أداء الصلاة، بل يجب أن تبقى فيها الحركة دائمة، وتدب بها الحياة باستمرار.

٤- الإعمار الروحي للمساجد:

وذلك بالذكر الدائم، وتلاوة القرآن، من الكبار والصغار، لتكون معاهد دائمة لتحفيظ القرآن، وارتياد الأطفال، والشباب، والفتيات إليه، في أوقات متناوبة، وقد حافظت كثير من المساجد على هذه الوظيفة المقدسة، ولتبث الدعم والتأييد على المستويين الرسمي والشعبي، وكان الإقبال طيباً، والرعاية سخية من أهل الخير والبر والإحسان في تشجيع الطلاب والطالبات وتقديم العون المادي وفي الكتب والهدايا والمكافآت، والاحتفاء بالقراء وتلاميذهم، والاحتفال بهم، وإقامة الحفلات المشهودة للحفاظ والمتخرجين، وهذا ما يجب ذكره، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، كما يجب التذكير به، والدعوة إليه، وتشجيعه، والإكثار منه، وتعميمه على مساجد المدن كلها، والقرى، والأمصار، ليعم النفع، وتنتشر الفائدة.

والآيات في ذلك كثيرة، والأحاديث عديدة، منها ما رواه البخاري عن عثمان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه» وما

رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأت يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» وما رواه الترمذي عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً في كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» وروى الترمذي قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب».

٥- إعمار المساجد بالعلم:

إن المسجد للعلم والتعلّم والتعليم، وأنه مدرسة وجامعة، وهو المدرسة الأولى في الإسلام، وهو الجامعة الكبرى في التاريخ الإسلامي، وأن المسجد الحقيقي في نظر الإسلام هو الذي يغصّ بالعلماء والطلاب في مختلف العلوم الشرعية والدنيوية، وكانت المساجد الحيوية والأساسية والمشهورة في بلاد الإسلام تدرّس القرآن والسنة، والفقه والأصول، والعقيدة والأخلاق، والسيرة والتربية، والفرائض والمصطلح، والطب، والهندسة، والكيمياء والفيزياء، والفلك والرياضيات، والأدب والنحو، والفلسفة والمنطق، والبلاغة والشعر، والتاريخ والجغرافيا، وسائر العلوم النافعة للإنسان والبشرية في الدنيا والآخرة، وقد تخرّج في المساجد سلفنا العلماء من الأئمة والمجتهدين والفقهاء والقرّاء والمحدّثين، والخطباء والأدباء والبلغاء والشعراء، والأطباء والمهندسين، والفلاسفة والحكماء وغيرهم.

إن المساجد معاهد للإصلاح، ومناهل للعرفان، وجامعات للعلم، وكانت المساجد مقترنة، بالمدارس، ويندر انفصالهما، فما عرفت مدرسة في الإسلام إلا ومعها المسجد، وما عرف مسجد إلا وفيه التعليم والتدريس، بدءاً من خطبة

الجمعة، إلى دروس المواعظ والإرشاد، والتنوير والتثقيف، والتخصص في العلم حسب المستويات المتعددة، وأزمان النهضة والوعي والنور.

ولذلك يشعر الإنسان ويدرك ويحسّ بالفرق الكبير بين الدرس والتدريس، والإصغاء والتعليم في المسجد، وبين المدرسة والجامعة خارج المسجد.

٦- الوظيفة العسكرية للمسجد:

كانت المساجد في الإسلام المركز لانطلاق الدعوة والجهاد في سبيل الله، وكانت محطّاً لتربية الجنود والمقاتلين، وتنشئة الأبطال، ورفع الروح المعنوية، والاستبسال، والتذكير بالشهادة في سبيل الله، وبيان فضل الجهاد والمجاهدين وكانت تعقد فيها الرايات، وتخرج الألوية، وتنطلق جحافل الجيوش.

وإن حركات التحرير من الاستعمار، وملاقاة جيوش المحتلين كانت تقدح شرارتها في المسجد، وتتحرك باسم الله، وكان المقاتلون يتدربون على الأسلحة في المساجد تحت رعاية الإمام والخليفة والأمير والوالي، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ عندما كان يتجه إلى الغزوات، ويرسل السرايا، وهو ما سجله التاريخ في البلاد الإسلامية حتى في العصور الحاضرة، وقد تخرج في المساجد -على مدار التاريخ الإسلامي- القادة والأبطال، والولاة والأمراء، الذين حققوا النصر والعزة لدينهم وأمتهم وأذاقوا الأعداء الهزائم المرة، والدروس البليغة.

٧- الوظيفة الرياضية للمسجد:

إن المساجد نواد رياضية للفتوة وبناء الأجسام، وقد كان الأحباش يتصارعون ويتدربون في المسجد، وقام رسول الله ﷺ بنفسه بالنظر إليهم، ومن ورائه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٨- الأفراح في المساجد:

كان عقد الزواج يتم في المسجد، لاجتماع الناس وإشهادهم عليه، وإعلانه أمامهم، تنفيذاً لما رواه الترمذي والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أعلنوا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف» وقد بدأت هذه السنة الحميدة تعود اليوم إلى المسجد ليعقد فيه عقد القران والزفاف. ويشهد الناس بناء أسرة مسلمة، ويجتمعون في بيت الله، يتلون كتاب الله، ويذكرون الله تعالى ويحظون بالتذكير والموعظة الحسنة.

٩- الوظيفة السياسية للمسجد:

إن المسجد ملتقى الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم، والمسؤول مع سائر الناس، وفيه تعلن سياسية الدولة والأمة، وتوجيهات القيادة وكانت البيعة للخليفة تعقد في المسجد، وتتم فيه الشورى والمشاورة، وكان رسول الله ﷺ يستقبل الوفود في مسجده الشريف، وفي خطب الجمعة والمناسبات تطرح مشاكل الناس، وما يهمهم في دينهم ودنياهم، حيث يتم التوجيه السديد، والإرشاد القويم.

١٠- الوظيفة القضائية للمسجد:

كانت المساجد لحل الخلافات والمشاكل بين الناس ولفض المنازعات وفصل الخصومات، ثم كره الإمام والشافعي القضاء في المسجد خشية اللغط، وارتفاع الأصوات بالمشاحنة، ولوجود أماكن خاصة للقضاء، ودور العدل، ولكن جمهور الفقهاء قال بجواز اتخاذ المسجد مجلساً للقضاء وعدم كراهة ذلك، اقتداء برسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، ولأن في القضاء وفصل الخصومات ورد الحقوق إلى أصحابها، وإنصاف المظلومين، والأخذ على يد

الطغاة والبغاة والظالمين مصلحة مهمة وأساسية للمسلمين، والعدل أساسي في الحياة.

هذه أهم وظائف المسجد التي حقق بها رسالته ولا يقتصر المسجد عليها، بل يضم كل ناشط نافع، وكل عمل خيّر، لأن المسجد -باختصار- هو مركز الحياة الإسلامية بكل مناحيها، وكأنه قطعة من الجنة أو مزرعة لها، كما أخبر الصادق المصدوق بقوله: «تكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة».

وأن السر في جمع المسجد لهذه الوظائف أن الإسلام دين ودنيا، ولا يفصل بينهما، ولا ينظر للدنيا نظرة منفصلة عن الدين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

فالدنيا خاضعة لحكم الدين، والدين جاء لتحقيق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، كما أن الدنيا مطية للآخرة، ومزرعة للجنة.

وإذا انتقلت بعض وظائف المسجد -قديماً وحديثاً- إلى أماكن أخرى كالمدارس، ودور العدل، والثكنات العسكرية، والأندية الرياضية، وصالات الأفراح، والأماكن المخصصة للشورى والسياسة، فلا أقل من أن تشارك المساجد في ذلك، وتكون رديفاً في مختلف أنشطة الحياة، وتدريباً على الممارسة الإسلامية الممزوجة بالروحانية، والطهر، والتقوى، والصفاء، والتربية، وحب الخير والفضيلة التي يعتمدها المسجد.

وإن تم ذلك تحقق إعمار المساجد الوارد في الآية الأولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] فتحقق لهم الهداية، وينتشر النور، ويعم الخير، ويسعد الناس في الدنيا والآخرة برضوان الله تعالى، وتحصل لهم الحياة الإسلامية الرغيدة التي يدعو إليها الدين، ويرغّب فيها الشرع، ويحرص عليها الإسلام.

والشيء الوحيد الذي يجب تتريه المساجد عنه، وإبعاده عنها هو الاشتغال بالأمور المالية البحتة، ولذلك لا يجوز فيها البيع والشراء، والتجارة ونشدان الضالة، وكذلك الكلام المباح العادي، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، لأنه يشغل الناس عن الله، ويلهيهم عن ذكره، ولذلك وصف الله تعالى روّاد أحد المساجد بقوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧] ومن فضول القول أن نقول يجب تجنيب المساجد من كل فساد وإفساد وتآمر أو تدمير، وتخريب أو مضار، لتبقى خالصة للنفع والخير، والصلاح والإصلاح، ولا تكون مأوى للعجزة والمتكاسلين والمتواكلين، ولا وكراً للكيد على الدعاة المصلحين، وسائر المسلمين.

ثالثاً: المساجد وصلاة الجماعة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على رسول الله، صفوة خلقه، المبعوث رحمةً للعالمين، وبعد:

فإن المساجد رايات الإسلام، وشعار المسلمين، وزينة المدن والقرى، ومفخرة البلاد، وآباد التاريخ، وشواهد المدنية والحضارة الإسلامية.

والمساجد من شعائر الله تعالى، التي يقول تعالى فيها: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ولذلك كان تعظيمها من أفعال المتقين، الخاشعين بقلوبهم، العاملين برضا الله تعالى في خيري الدنيا والآخرة.

والمساجد من مقدسات الدين، وتحتل في الشرع، وعند الناس، مكانة عالية، وقدسية رفيعة، نظرياً وعلمياً، لأنها تمثل محور العمل والنشاط الإسلامي، وهي موئل العباد والزهاد، والعلماء، والأئمة، ومصنع الأبطال، ومشعل النور، ويكفيها منقبة أن تسمى: بيوت الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وإعمار المساجد المقصود في الآية الكريمة يشمل أمرين: الأول: إعمارها بالبناء والتشييد، والإصلاح والتنوير بالمصابيح والتنظيف، والثاني: إعمارها بالعبادة والذكر، وسائر وظائفها، لتحقيق رسالتها التي شرعت من أجلها، وبنيت بسببها.

وإن وظائف المساجد في الإسلام متعددة، وتحقق إنجازات مختلفة، وهذا ما أدته فعلاً في التاريخ الإسلامي، وفي ظل الخلافة الإسلامية، ومن خلال

الحياة الدينية الصحيحة، ومن هذه الوظائف الجليلة التي لم تنقطع طوال عهود المسلمين، وفي مختلف أنحاء العالم، وتكاد أن تحتل المركز الأول شرعاً، ويقتصر عليها معظم الناس اليوم هو صلاة الجماعة في المساجد، التي تمثل شريان الحياة للمساجد، وتفتح العيون والأبصار والآمال للمسلمين للحاضر والمستقبل، ويؤم المسلمون يوميا -خمس مرات- المساجد لأداء أفضل العبادات البدنية في الشرع وهو الصلاة، وعماد الدين، وثاني أركان الإسلام، وأحد الفرائض الخمس.

والمراد من صلاة الجماعة أداء الصلوات المكتوبات، والسنن التي تشرع فيها الجماعة، أداؤها بشكل جماعي، بدلا من قيام المصلي بذلك منفردا بنفسه، وأقل جماعة في الصلاة اثنان: إمام ومأموم، لما روى مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ أنا وصاحبٌ لي، فلما أردنا الإقفال من عنده، قال لنا: «إذا حضرت الصلاة، فأذنا، ثم أقيما وليؤمكما أكبركما»، وصلاة الجماعة تصح في البيت، والدائرة، والمعمل، والصحراء، والبستان، وفي السفينة والطائرة، ولكن تبلغ ذروتها في المساجد، وتحقق شعارها في بيوت الله التي أقيمت لذلك، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]، حتى تكاد أن تقرن صلاة الجماعة غالباً في المسجد، وهي أول ما يتبادر إلى الذهن عندما نقول: صلاة الجماعة، وعندما نقول: المساجد، وهذا ما خصصنا هذا البحث له.

ودعا الإسلام إلى صلاة الجماعة، ورغّب فيها، وأمر بها رسول الله ﷺ، وأجمع المسلمون عليها، والأصل في مشروعيتها قبل الإجماع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ [النساء: ١٠٢]،

وهذا الأمر في إقامة الصلاة جماعة مع رسول الله ﷺ في الخوف والحرب، فكانت الجماعة في الأمن و السلم أولى، وكانت في المساجد أكثر إلحاحاً وتطبيقاً.

وثبتت الجماعة بالسنة الفعلية بمواظبة رسول الله ﷺ عليها طوال حياته في الحضر والسفر، والسلم والحرب، والبيت والمسجد، وكان أول عمل قام به في الهجرة وقبل دخوله المدينة المنورة بناء مسجد قباء، كما كان أول عمل عزم عليه عند وصوله إلى المدينة المنورة تشييد المسجد النبوي لإقامة صلاة الجماعة فيه، وليكون مركز الدولة، وإشعاع النور والهداية.

وبين رسول الله ﷺ فضل صلاة الجماعة في السنة القولية، فروى ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاةُ الجماعةِ تفضلُ صلاةَ الفَذّ (الفَرْد) بسَبْع وعشرين درجة»، وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة».

وحذّر رسول الله ﷺ من ترك صلاة الجماعة، فروى أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من ثلاثة في قَرْية أو بَدْوٍ، لا تقامُ فيهم الجماعة، إلا استحوذَ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعةِ، فإنما يأكل الذئبُ القاصيةَ من الغنم».

ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه، بمكة ثلاث عشرة سنة يصلون منفردين، وبغير جماعة، لأن الصحابة كانوا مقهورين، ويخافون على أنفسهم من بطش المشركين الذين كانت لهم السيادة في مكة، ويحاربون الإسلام والمسلمين، وينزلون العقاب الشديد على من يظهر الدين الجديد، لذلك كان المسلمون يصلون فرادى في بيوتهم، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام الصلاة جماعة، وواظب عليها، وبنى المسجد، وجمع فيه المهاجرين والأنصار، وانعقد الإجماع على ذلك.

وشرعت صلاة الجماعة لتحقيق أهداف كثيرة في تثبيت الإيمان والعقيدة بإقامة الصلاة بشكل جماعي، وهي إحدى شعائر الإسلام الخاصة، ولرفع راية الحق عالياً، كما تهدف إلى إعمار المساجد بالعبادة، كما سبق، وهي وسيلة عملية لإقامة المجتمع الإسلامي الفاضل الذي يقوم على التعاضد، لأن الإنسان مدني واجتماعي بطبعه، فكانت صلاة الجماعة توثق عرا المحبة والتعاون والتآخي بين أفراد المسلمين، وتساهم -مع وسائل الإسلام الأخرى- في تحقيق التكافل الاجتماعي بالتعارف، وتفقد أحوال الناس بعضهم لبعض في المساجد خمس مرات، وتقيم المساواة الفعلية بين المصلين، فيقف الغني بجانب الفقير، والكبير بجانب الصغير، والعربي بجانب العجمي، والأمير بجانب الرعية، والحاكم والمسؤول بجانب المواطنين، كما تزيل صلاة الجماعة، وما تنتج من ثمرات طيبة، تزيل من قلوب المصلين العداوة والبغضاء، والشحناء والأحقاد، وإن التطبيق العملي الصحيح لصلاة الجماعة، وخاصة في المسجد، أكبر شاهد على أسرار صلاة الجماعة، وحكمتها الجليلة، وفضلها العميم.

وصلاة الجماعة في الجمعة فرض عين، فلا تنعقد صلاة الجمعة بانفراد، ولا تصح قطعاً، أما سائر الصلوات، فالجماعة فرض كفاية للرجال المقيمين في أداء الفرائض المكتوبة، بحيث يظهر بها شعار الجماعة في بلد، أو محل ما، سواء في ذلك المدينة والقرية، الصغيرة والكبيرة، ولا تسقط فرضيتها عن أهل البلد إلا بإظهارها أيضاً، فلو أطبقوا على إقامة صلاة الجماعة في البيوت، ولم يظهر بها الشعار على الملأ، لم يسقط الفرض، وإن امتنع أهل بلد جميعاً عن إقامتها جهاراً قاتلهم الإمام أو نائبه، دون آحاد الناس لحديث أبي الدرداء السابق.

وتشرع صلاة الجماعة للنساء، ولكنها لا تتأكد عليهن تأكدها للرجال،

فتشرع لهن الصلاة جماعة في المسجد، والبيت، ولكن الجماعة لهن في البيت أفضل، للأحاديث التي سنذكرها، ولا تفرض صلاة الجماعة على المسافرين، وتسقط عن آخرين لعذر، كخوف ومرض، ومطر وبرد شديدين وغير ذلك.

وصلاة الجماعة ليست فرض عين، لأن الصلاة تصح من المنفرد، وتسقط عنه، وتبرأ ذمته، لما روى أبيٌّ بن كعب ﵁ أن النبي ﷺ قال: «صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاة الرجل مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تعالى»، ولحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- السابق «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»، ففي الحديثين مقارنة بين صلاة الفرد وصلاة الجماعة مما يدل على صحة صلاة المنفرد، ولكن الجماعة أفضل وأولى.

وأما ما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ «همَّ بتحريق بيوت قوم لا يشهدون الصلاة» فقد ورد في قوم منافقين يتخلفون عن الجماعة، ولا يصلون، بدليل السياق، كما أنه ﷺ لم يحرق بيوتهم، وإنما كان مجردَ همّ، أو لعله همَّ بالاحتهاد ثم نزل الوحي بالمنع، أو تغير الاجتهاد.

وإن إقامة صلاة الجماعة في المسجد فرض كفاية، لإقامة شعيرة الإسلام، فإذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين الذين يجوز لهم إقامة صلاة الجماعة في البيت وغيره، لما ورد من الأحاديث في فضل المشي إلى المسجد، ولأن المسجد مشتمل على الشرف والفضيلة والطهارة، وفيه إظهار شعار الجماعة، ولما روى زيد بن ثابت ﵁ أن النبي ﷺ قال: «صلوا -أيها الناس- في بيوتكم، فإن أفضلَ الصلاةِ صلاةُ المرءِ في بيته إلا المكتوبة»، أي أن المكتوبة المفروضة في المسجد أفضل من البيت.

وكلما كان المسجد أكثر جماعة فهو أفضل مما قلَّ جمعه، لأن الصلاة في الجماعة الكثيرة أفضل من الصلاة في الجماعة القليلة، لما سبق في حديث أبيّ ﷺ، وفيه «وما كان أكثرَ جمعاً فهو أحبُّ إلى الله تعالى».

لكن يستثنى مما سبق ثلاثة أمور:

١- إن صلاة الجماعة القليلة في المسجد أفضل من الكثيرة في البيت، لأن أصل صلاة الجماعة وجد في الموضعين، وامتازت جماعة المسجد بفضيلة المسجد.

ويتأكد ذلك في الصلاة في المساجد الثلاثة (المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى)، فالصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة، والصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة، لثبوت ذلك في الأحاديث الشريفة، منها ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام»، وروى جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه»، وإن صلاة المنفرد فيها أفضل من الجماعة في غيرها، وأفضل من صلاة المنفرد في غيرها، لعموم النص في الأحاديث الشريفة.

٢- صلاة الجماعة في مسجد الجوار، والمسجد القريب، إن لم يحضر المصلي لاختلت الجماعة فيه، أفضل من الصلاة في المسجد البعيد الذي يكثر فيه الناس، خشية أن تتعطل الجماعة في المسجد القريب.

وكذا الحال إذا كان المسجد البعيد ذو الكثرة له إمام مبتدع، أو فاسق،

أو لا يعتقد بعض أركان الصلاة، فالصلاة في المسجد القريب مع قلة جماعته أفضل من صلاة الجماعة في المسجد البعيد وإن كثرت جماعته.

٣- إن جماعة النساء في البيوت أفضل من جماعتهن في المسجد، أو من حضورهن جماعة الرجال في المسجد، لما روى ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن»، ولخوف الفتنة، والاختلاط، وغيره.

وصلاة المرأة فيما كان في بيتها أستر وأفضل لها، لما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صلاةُ المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتُها في مَخْدعها أفضل من صلاتها في بيتها».

ويسن الجماعة للنساء، ولكن لا تتأكد في حقهن كتأكدها في حق الرجال، وإمامة الرجل بالنساء أفضل من إمامة امرأة، لأنه أعرف بالصلاة، ويجهر بالقراءة في كل حال، ولأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمع الناس في صلاة التراويح في رمضان، فجمع الرجال على أبيّ بن كعب، وجمع النساء على سليمان بن أبي حَثَمة، وفعل مثل ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجعل للرجال إماماً، وللنساء إماماً، وكان عُرْفجةُ الثقفي إمام النساء، لكن لا يجوز أن يخلو رجل بامرأة إن لم يكن مَحرماً، سواء في صلاة الجماعة أم في غيرها، لقوله ﷺ: «لا يَخْلُونَّ رجلٌ بامرأةٍ، فإنَّ ثالثهما الشيطان».

ويكره للمرأة الشابة أو الكبيرة التي تشتهى حضور المسجد للصلاة، ويكره لوليها وزوجها تمكينها منه، فإن كانت عجوزاً لا تشتهى لم يكره، وهذا التفصيل مأخوذ من عدة أحاديث، منها ما رواه ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «إذا استأذنت أحدَكم امرأته إلى المسجد فلا

يمنعها»، وعنه أيضاً «إذا استأذنكم نِساؤُكم بالليل إلى المسْجِد فأذنوا لهن»، وروى ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدثَ النساءُ، لمنعهن المسجدَ، كما مُنعت نساء بني إسرائيل».

ويشترط في الإمام أن تكون صلاته صحيحة بتوفر الأركان والشروط، وأن لا يكون مقتدياً بغيره، وأن لا يكون أمياً لا يتقن قراءة الفاتحة بحيث يُخل بحرف ظاهر منها، أو يفوت شدة من تشديداتها، إلا إذا صلى بأمي مثله، ويقدم للإمامة الأفقه والأقرأ لكتاب الله تعالى والأسن، لما روى أبو مسعود البَدْري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يؤمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى، وأكثرهم قراءةً، فإن كانوا في القراءة سواء، فأقدمهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواءً، فأكبركم سناً»، وسبق حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه وفيه «وليؤمكم أكبرُكم»، ويقدم صاحب البيت، المالك، ومستحق المنفعة كالمستأجر، لما روى أبو مسعود البدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يؤم الرجل في أهله، ولا في سلطانه، ولا يُجْلَس على تكرمته في بيته إلا بإذنه»، لكن يقدم مالك العين المعير على المستعير، لأن المعير يستطيع الرجوع في العارية في كل وقت.

ويقدم الوالي والحاكم على الأفقه لعموم ولايته، كما يقدم الإمام الراتب المعين بأجر على غيره، لأنه يعتبر نائباً عن السلطان، حتى تكره إقامة الصلاة بغير إذن الإمام الراتب في المسجد خوف الفتنة، إلا إن غاب، أو كان المسجد مطروقاً بكثرة فلا يكره إقامتها فيه، ويكره أن يصلي الرجل بقوم، وأكثرهم له كارهون لمعنى مذموم شرعاً، كظالم، أو متغلِّب على الإمامة ولا يستحقها، أو يتعاطى المذموم، أو يعاشر الفسقة، لما روى ابن عباس -رضي الله عنهما-

أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يرفع الله صلاتَهم فوق رؤوسهم: رجلٌ أمَّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارعان».

ويشترط في صلاة الجماعة أن يتقدم الإمام على المأموم في الموقف، ومكان القعود، ولا يصح تقدم المأموم على الإمام، لأن المقتدين بالنبي ﷺ وبالخلفاء الراشدين لم ينقل عن أحد منهم ذلك، ولما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما جُعِل الإمام ليؤتم به»، والائتمام هو الاتباع، والمتقدم غير تابع.

لكنَّ المسجد الحرام له ميزة خاصة في صلاة الجماعة، فتستدير الجماعة حول الكعبة لاستقبال الجميع لها، ويندب أن يقف الإمام خلف مقام إبراهيم، ولا يضر كون المأموم أقرب إلى الكعبة في غير جهة الإمام، أما من جهته فيكون الناس خلفه، وتجوز الصلاة داخل الكعبة جماعة وأفراداً.

ويسن أن يقف الرجل الواحد عن يمين الإمام، لما روى ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «بتُّ عند خالتي ميمونة، فقامَ رسول الله ﷺ يصلي، فقمتُ عن يساره، فجعلني عن يمينه»، وإذا جاء آخر أحرمَ عن يسار الإمام، ثم يتقدم الإمام، أو يتأخر المأمومان، لما روى جابر رضي الله عنه قال: «قمت عن يسار رسول الله ﷺ فأخذ بيدي، وأدارني حتى أقامني عن يمينه، ثم جاء جَبَّار بن صَخْر حتى قام عن يسار رسول الله ﷺ فأخذ بأيدينا جميعاً، فدفعنا حتى أقامنا خلفه».

وإذا حضر مع الإمام رجلان فأكثر، أو صبيان، أو رجل وصبي، اصطفا خلفه، لحديث جابر السابق، ولما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ وصففت أنا واليتيم وراءَه، والعَجُوزُ من ورائنا، فصلَّى بنا ركعتين».

وإذا حضر رجال وصبيان يقدم الرجال، ثم الصبيان، لما روى عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليَليني منكم أولو الأحلام والنُّهى،

ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

أما المرأة، ولو كانت مَحْرماً، أو زوجة أو نسوة، فيقمن خلف الإمام لحديث أنس السابق، أو خلف الرجال والصبيان، وإذا صلت امرأة إماماً في النساء وقفت وسْطهن، لثبوت ذلك عن عائشة وأم سلمة -رضي الله عنهما- أنهما «أمَّتا نساء فقامتا وَسْطهن».

ويكره أن يقف الرجل المأموم فرداً وراء الإمام، لما روى أبو بكرة ﷺ أنه دخل والنبي ﷺ راكع، فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك له ﷺ فقال: «زادَك اللهُ حِرْصاً ولا تَعُدْ» وفي رواية: «فركع دون الصف ثم مشى إلى الصف، ولم يأمره بالإعادة»، فصحت صلاته مع أنه أتى ببعض الصلاة منفرداً خلف الصف، ويُسنّ لمن وجد سعة في الصف أن يدخل فيه، لما ورد من الأحاديث الصحيحة في الأمر بتسوية الصفوف، وإتمام الصف الأول فالأول، فإن لم يجد سعة يندب له أن يحرم بالصلاة أولا، ثم يجر شخصاً من الصف إليه، ويندب للمجرور أن يساعده على ذلك، لينال فضل المعاونة على البر، ولو صلى منفرداً خلف الصف مع تمكنه من الصف كره ذلك، وصحت صلاته.

ويشترط في الاقتداء أن يُعَدَّ الإمام والمأمومين مجتمعين، ليظهر شعار الجماعة، وتتحقق أهدافها في التوادد والتعاضد والتعارف والاجتماع، وفي ذلك تفصيل بين وجودهما في المسجد، أو في فضاء، أو في بناءين.

ويشترط لصحة صلاة الجماعة أن ينوي المأموم بقلبه ذلك مع تكبيرة الإحرام، بأن ينوي الاقتداء أو ينوي الائتمام، أو ينوي الجماعة، أو يقول: مأموماً، أو مؤتماً، لأن التبعية للإمام عمل من أعمال صلاة الجماعة فافتقرت إلى نية، لأنه ليس للإنسان إلا ما نوى، وهو ما ثبت في الحديث المشهور عن

عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، ولا تشترط نية الإمامة من الإمام، فتصح بدونها، ولكن تستحب له النية ليحوز فضيلة الجماعة بنيته، فإن لم ينو لم تحصل له، لأنه ليس للمرء من عمله إلا ما نوى.

ويشترط لصحة الاقتداء موافقة المأموم للإمام في أفعال الصلاة، ومتابعته له، لما ثبت في الحديث السابق «إنما جعل الإمام إماماً ليُؤتم به» وتتمته «فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا ركع فاركعوا ولا تختلفوا عليه...، وإذا سجد فاسجدوا، ولا ترفعوا قبله»، ولذلك يشترط أن يتابع المأموم الإمام في أفعال الصلاة.

وهناك آداب وأحكام تفصيلية، وسنن لصلاة الجماعة وردت في الأحاديث الشريفة، وبينها الفقهاء، وتحتاج إلى بحث آخر، ونسأل الله تعالى أن يعيننا على الالتزام بصلاة الجماعة، وأن يقبل منا، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: الاعتكاف في المساجد[1]

الحمد لله رب العالمين الذي يستحق العبادة، والصلاة والسلام على رسول الله، إمام المتقين والعُبَّاد، وبعد:

فإن الاعتكاف من العبادات المميزة في الإسلام، والمسجد ركن من أركان الاعتكاف، لذلك أردت عرض هذا الموضوع لأهميته وبيانه والترغيب فيه والحث عليه.

◈ **تعريف:**

الاعتكاف لغة: اللبث والحبس والملازمة، وعكف يعكف، ويعكُف: أقام على الشيء ولازمه، وسمي الاعتكاف الشرعي اعتكافاً لملازمة المسجد واللبث فيه.

والاعتكاف شرعاً: هو اللبث في المسجد من شخص مخصوص بنية مخصوصة[2].

مشروعيته: أجمع المسلمون على مشروعية الاعتكاف، والأصل فيه قبل الإجماع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وروت عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[3].

---

(١) مجلة المسجد- العدد ٨- جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ- أكتوبر ١٩٩٩م.

(٢) المنهاج ومغني المحتاج ١/٤٤٩، المجموع ٦/٥٠٠، الحاوي للماوردي ٣/٣٥١، الفقه الحنبلي الميسر ٢/٣٥.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ٢/٧١٣ ومسلم ٨/٦٨ وأبو داود ١/٥٧٣ وثبت في الصحيحين من رواية ابن عمر وآخرين من الصحابة رضي الله عنهم، وثبت عن أبي بن كعب ﵁ في سنن أبي داود ١/٥٧٣ وسنن ابن ماجة ١/٥٦٢.

والاعتكاف معروف في الشرائع القديمة السابقة للإسلام، لقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

➢ **حكمته**: الإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، والروح تتغذى بالطاعة والعبادة في مختلف أنواعها، ولذلك شرع الاعتكاف ليتفرغ الإنسان مدة معينة للعبادة والانصراف إلى ربه، وشؤون الدين، وأمور الآخرة، وينقطع حيناً عن مشاغل الدنيا، وشهوات النفس، ومغريات الحياة، فتصفو روحه، ويجدد الصلة القوية بربه، ويتخلص من شوائب الماضي، ويروض نفسه على التزام الجادة القويمة في المستقبل، فيتزود أثناء الاعتكاف بطاقة روحية، تجدد حياته، وتنير الطريق أمامه، وكأن الاعتكاف محطة مؤقتة لمحاسبة الذات، ومراجعة الله تعالى، فإن وجد خير حمد الله تعالى، وازداد شكراً، وثابر عليه، وإن وجد غير ذلك أقلع عنه، وندم عليه، وعزم على عدم العودة إليه، وعاهد الله تعالى على العمل في مرضاته في خيري الدنيا والآخرة.

➢ **حكم الاعتكاف**: الاعتكاف الشرعي له حكمان:

١- الاستحباب: فالاعتكاف سنة حسنة ثابتة، وهو مستحب في كل وقت من السنة، وهو أشد استحباباً في رمضان، لأنه أفضل الشهور، ويجتمع فيه الصيام والاعتكاف، ويتأكد استحباب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، اقتداء برسول الله ﷺ، ولطلب ليلة القدر التي هي أفضل من ألف شهر، لقيامها والتعرض لها.

قال النووي رحمه الله: «ومن أراد الاقتداء بالنبي ﷺ في اعتكاف العشر الأواخر من رمضان فينبغي أن يدخل المسجد قبل غروب الشمس ليلة الحادي

والعشرين منه، لئلا يفوته شيء منه، ويخرج بعد غروب الشمس ليلة العيد، سواء تم الشهر أو نقص، والأفضل أن يمكث ليلة العيد في المسجد حتى يصلي فيه صلاة العيد، أو يخرج منه إلى المصلى لصلاة العيد إن صلوها في المصلى»[1].

٢- الوجوب: يجب الاعتكاف بالنذر، فمن نذر على نفسه الاعتكاف أصبح واجباً عليه، لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[2]، فأمر الرسول ﷺ من نذر طاعة أن يلتزم بها، والأمر للوجوب.

◈ أركان الاعتكاف وشروطه:

أركان الاعتكاف أربعة، وهي: المعتكف، والمسجد، والنية، واللبث، ولكل ركن شروطه الخاصة، وهي:

١- **شروط المعتكف**: يشترط في المعتكف ثلاثة شروط: الإسلام، والعقل، والنقاء عن الحدث الأكبر، وهو الجنابة والحيض والنفاس، فلا يصح اعتكاف كافر أصلي، ولا مرتد، لأن الاعتكاف من فروع الإيمان فلا يصح من الكافر كالصلاة والصوم، ولا يصح اعتكاف زائل العقل بجنون أو مرض أو سكر، ولا يصح اعتكاف صبي غير مميز، لأنه لا نية لهؤلاء، والنية ركن الاعتكاف، ولأن هؤلاء ليسوا من أهل العبادات، ولا يصح اعتكاف جنب، ولا حائض ولا نفساء، لأن مكثهم في المسجد معصية، فإن طرأ الحيض أو النفاس أو الردة أو الجنابة أثناء الاعتكاف فله تفصيل سيأتي.

ويصح اعتكاف الصبي المميز، والمرأة المتزوجة وغيرها، لكن يشترط إذن

---

(١) المجموع ٥٠١/٦.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ٢٤٦٣/٦.

الزوج، ويحرم عليها الاعتكاف بغير إذنه، فإن خالفت صح مع التحريم، ويحق له إخراجها من الاعتكاف، سواء كان تطوعاً أم نذراً، فإن أذن بالاعتكاف، وفي الشروع فيه، فلا يحق له إخراجها.

٢- **المسجد**: لا يصح الاعتكاف إلا في المسجد، سواء للرجل وللمرأة، ولا يصح للمرأة أن تعتكف في مسجد بيتها، ولا للرجل في مسجد بيته، وهو المكان المعتزل المهيأ للصلاة، لجواز تغييره، ومكث الجنب فيه، ولأن نساء النبي ﷺ كن يعتكفن في المسجد، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وللاتباع والإجماع، فالمسجد شرط لصحة الاعتكاف في الآية، وليس شرطاً لمنع المباشرة، لأن المعتكف ممنوع من المباشرة داخل المسجد وخارجه.

ويصح الاعتكاف في كل مسجد، ولكن المسجد الجامع الذي تقام فيه الجمعة أولى وأفضل، لأن رسول الله ﷺ اعتكف في المسجد الجامع، ولأن الجماعة في صلاته أكثر، وللخروج من خلاف من أوجب الاعتكاف في المسجد الجامع، وللاستغناء عن الخروج للجمعة.

ويصح الاعتكاف في سطح المسجد، وفي سدته، وفي رحبته، وعلى جدرانه، لأنها منه، ولا يصح الاعتكاف فيما وقف جزؤه شائعاً مسجداً، ولا فيما أرضه مستأجرة ووقف بناؤه مسجداً.

وإذا نذر الاعتكاف في مسجد بعينه، غير المساجد الثلاثة، فلا يتعين الاعتكاف فيه، كما لا يتعين للصلاة لو نذرها فيه، لأنه لم يجب في الشرع موضع بعينه، فلا يتعين ذلك المسجد، ويجوز أن يعتكف في غيره، لأنه لا مزية لبعضها على بعض، إلا أنه يستحب الاعتكاف فيما عينه.

أما إن نذر الاعتكاف في المسجد الحرام فإنه يتعين، ويلزمه أن يعتكف فيه، لأنه أفضل من سائر المساجد، لما روى أبو هريرة ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: صلاة في مسجدي هذا تعدل ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي»[1]، ولا يسقط نذر الاعتكاف في المسجد الحرام بما دونه، لما روى عمر ﷺ قالت: قلت لرسول الله ﷺ: إني نذرت أن اعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال النبي ﷺ: «أوف بنذرك»[2]، وكذا إن نذر أن يعتكف في مسجد المدينة أو المسجد الأقصى فيلزمه أن يعتكف فيه، لأنه مسجد ورد الشرع بشد الرحال إليه فتعين بالنذر كالمسجد الحرام، لما روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[3].

وإن عين المسجد الحرام فلا يقوم غيره مقامه، وإن عين مسجد المدينة لم يقم مقامه إلا المسجد الحرام، لأنه أفضل منه، ولا يلحق بهما غيرهما في الفضيلة، وإن عين المسجد الأقصى تعين، ولا يقوم مقامه إلا المسجد الحرام، أو مسجد المدينة، لأنهما أفضل منه، وأجزاء المسجد كلها متساوية في أداء المنذور، ولا يتعين بالنذر جزء منه، وإن كان أفضل من بقية الأجزاء.

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٣٩٨/١ ومسلم ١٦٣/٩ والبيهقي ٢٤٦/٥ ورواه ابن عمر وميمونة وجابر وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم بألفاظ قريبة، صحيح مسلم ١٦٥/٩، ١٦٧، مسند أحمد ٥/٤، سنن ابن ماجة ٤٥٠/١.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ٧١٤/٢، ٧١٨، ومسلم ١٢٤/١١، وأحمد ١٠/٢، والترمذي ١٤١/٥.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ٣٩٨/١، ومسلم ١٦٧/٩.

وعند الإطلاق، أو تعيين غير المساجد الثلاث، لا يتعين المسجد، لكن إن شرع الاعتكاف في مسجد فلا يجوز الخروج منه لينتقل إلى مسجد آخر، والصلاة كالاعتكاف في تعيين المسجد وعدمه.

ويجب أن يكون المسجد جامعاً إذا نذر مدة متتابعة فيها يوم جمعة، وكان ممن تلزمه الجمعة، ولم يشترط الخروج لها، لأن الخروج لها يقطع التتابع لتقصيره بعدم اعتكافه في المسجد الجامع، فإن لم يشترط التتابع، أو اشترط التتابع واستثنى الخروج لصلاة الجمعة، فلا يشترط الجامع، بل يصح في سائر المساجد لمساواتها، وإن كان قد عين غير الجامع فالمعين أولى إذا لم يحتج للخروج إلى الجمعة.

٣- **النية**: تجب النية في ابتداء الاعتكاف، بأن ينوي بقلبه المكث في المسجد مدة معينة للتعبد، لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[(١)]، ولأن الاعتكاف عبادة محضة، فلا يصح من غير نية، كالصلاة والصوم، فإن دخل المسجد، ولم ينو الاعتكاف، فلا يعتبر لبثه في المسجد اعتكافاً.

وتجب النية في الاعتكاف سواء كان تطوعاً ومستحباً، أم منذوراً واجباً، وإذا كان الاعتكاف منذوراً فتجب نية الفرض ليتميز عن التطوع، ولا يشترط أن يعين سبب وجوبه، بخلاف الصلاة والصوم، لأن وجوب الاعتكاف ليس له إلا سبب واحد وهو النذر، بخلاف الصلاة والصوم فيتعين سبب وجوبهما.

---

(١) هذا الحديث مشهور من رواية عمر رضي الله عنه، وأخرجه البخاري ٣/١ ومسلم ٥٣/١٣ وأصحاب الصحاح والسنن.

ويكفي نية واحدة وإن طال المكث شهوراً أو سنة، لكن إن خرج من المسجد، ثم عاد احتاج إلى استئناف النية من جديد، سواء خرج لقضاء الحاجة أم لغيره، لأن ما مضى عبادة مستقلة تامة، ولم تتناول النية السابقة غيرها، فتجب النية للدخول الثاني، لأنه عبادة أخرى، إلا إذا عزم عند خروجه أن يعود، فتكون هذه العزيمة قائمة مقام النية، وصار كأنه نوى المدتين بنية واحدة، كما لو نوى ركعتين نفلاً، ثم نوى قبل السلام زيادة ركعتين أو أكثر، فتصح صلاته أربعاً، كما لو نوى الأربع في أول صلاته.

ولو نوى اعتكاف مدة وعينها كيوم أو شهر، تطوعاً أو نذراً، ولم يشترط التتابع فيه، فإن خرج لقضاء الحاجة أو الأكل لم يجب تجديد النية، لأن هذا الخروج لا بد منه، فلا يلزمه استئناف النية، حتى وإن طال زمن الحاجة، فهو كالمستثنى عند النية، وإن خرج من المسجد لغير ذلك فيلزمه استئناف النية لصحة الاعتكاف إن أراده بعد العودة، وإن لم يطل الزمن، قطعه الأول بالخروج لغير قضاء الحاجة، فإن كان الاعتكاف نفلاً فلا يلزمه العود لجواز الخروج منه.

ولو نذر التتابع، وكانت أيام النذر متتابعة، فخرج لعذر لا يقطع التتابع كقضاء الحاجة وغسل الجنابة فلا يجب استئناف النية عند العود، لشمول النية السابقة جميع المدة، لكن تجب المبادرة إلى العود عند زوال العذر، فإن أخر ذاكراً عالماً مختاراً انقطع التتابع، وتعذر البناء، ويجب الاستئناف.

وإن شرط في اعتكافه خروجه لشغل، فخرج لذلك ثم عاد، وجب تجديد النية، وإن دخل في الاعتكاف، ثم نوى بقلبه الخروج منه، ولم يخرج، فلا يبطل الاعتكاف.

٤- **اللبث في المسجد:** فلا يصح الاعتكاف إلا إذا لبث المعتكف في المسجد قدراً من الزمن يسمى في العرف عكوفاً، أي إقامة، بحيث يكون زمنه فوق زمن الطمأنينة في الركوع والسجود، فلا يكفي قدرها، ولا يجب السكون عن الحركة في المسجد، بل يكفي التردد، ولا يكفي المرور بلا مكث بأن دخل من باب، وخرج من آخر، ولا يشترط أن يكون الاعتكاف يوماً كاملاً، فلو نذر اعتكاف ساعة صح نذره، ولو نذر اعتكافاً مطلقاً تحقق بأن يعتكف لحظات مع الطمأنينة.

لكن يستحب أن يبلغ الاعتكاف يوماً، لأن بعض الأئمة والعلماء اشترطوا أن يكون أقل اللبث في المسجد يوماً كاملاً، كما يستحب للإنسان كلما دخل المسجد أن ينوي الاعتكاف فيه.

◈ الصوم والاعتكاف:

يجوز الاعتكاف بغير صوم، لأن الصيام ليس شرطاً لصحة الاعتكاف، ولذلك يجوز الاعتكاف في الأيام التي يحرم فيها الصوم، وهي أيام العيدين والتشريق، ويجوز الاعتكاف بالليل، لما روى عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله، إني نذرت أن اعتكف ليلة في الجاهلية، فقال له النبي ﷺ: «أوف بنذرك» وفي رواية أخرى للبخاري: «أوف بنذرك اعتكف ليلة»[1]، ولو كان الصوم شرطاً في الاعتكاف لم يجزه الليل وحده، وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ «اعتكف العشر الأول من شوال»[2]، وهذا يتناول

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٧١٤/٢، ٧١٨، ومسلم ١٢٤/١١، وأحمد ٣٧/١، ١٠/٢، والترمذي ١٤١/٥، والبيهقي ٣١٨/٤، ٧٦/١٠، والدارقطني ١٩٩/٢ وسبق.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد ٨٤/٦.

اعتكاف يوم العيد، ويلزم من صحته أن الصوم ليس بشرط وروى أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس على المعتكف صيام إلا أن يجعله على نفسه» وفي رواية ابن عباس ﷺ: «إلا أن يوجبه على نفسه»[١].

ولكن الأفضل أن يعتكف بصوم، أي يستحب الصوم في الاعتكاف، لأن النبي ﷺ «كان يعتكف في رمضان»[٢] فيسن الصوم للاتباع، وللخروج من خلاف من أوجب الصيام في الاعتكاف.

وإن نذر أن يعتكف وهو صائم، أو يعتكف أياماً هو فيها صائم، فيلزمه الاعتكاف بصوم، وليس له أن يفرد الصوم عن الاعتكاف، ولا عكسه، ولو اعتكف هذا الناذر في رمضان أجزأه، لأنه لم يلتزم بهذا النذر صوماً، وإنما الاعتكاف بصفة، وقد وجدت، وكذا إذا اعتكف في غير رمضان صائماً عن قضاء أو نذر أو عن كفارة، أجزأه لوجود الصفة.

وإن نذر أن يعتكف صائماً، أو يعتكف بصوم، فإنه يلزمه الاعتكاف والصوم معاً، ويلزمه الجمع بينهما، لأن الصوم هنا صفة مقصودة في هذا الاعتكاف فلزمه بالنذر، كالتتابع، ولو شرع بالاعتكاف صائماً ثم أفطر لزمه أن يستأنف الصوم والاعتكاف، ولو نذر اعتكاف أيام وليال متتابعة صائماً، فجامع ليلاً، فيلزمه استئنافهما، ولو اعتكف في هذه الصورة في رمضان فلا يجزئه، ويلزمه استئنافهما.

---

(١) هذا الحديث رواه الحاكم، وصححه على شرط مسلم ٤٣٩/١، والدارقطني ١٩٩/٢.

(٢) هذا ثابت في صحيح البخاري ٧١٣/٢ ومسلم ٦٦/٨، من رواية ابن عمر وعائشة وأبي سعيد الخدري وصفية أم المؤمنين وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

◈ وقت الاعتكاف:

يصح الاعتكاف في جميع الأوقات من الليل والنهار، وأوقات كراهة الصلاة، وفي يوم العيدين والتشريق.

ويكفي اشتراط اللبث في المسجد، ويجوز الكثير منه والقليل حتى ساعة أو لحظات، ويصح في يوم، وشهر، كما يجوز أن يتصدق بما شاء من قليل وكثير، ولكن الأفضل ألا ينقص اعتكافه عن يوم، لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ اعتكاف دون يوم، وللخروج من خلاف من اشترط يوماً فأكثر للاعتكاف، وكلما كثر كان أفضل، ولا حد لأكثره.

وأفضل الاعتكاف ما كان بصوم، وأفضله شهر رمضان، وأفضله العشر الأواخر منه، لما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ «كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان»[1].

ولو كان يدخل ساعة، ويخرج ساعة، وكلما دخل نوى الاعتكاف صح، ولو نوى مدة معلومة استحب له الوفاء بها بكمالها، فإن خرج قبل إكمالها جاز، لأن التطوع لا يلزم بالشروع، ولو أطلق النية، ولم يقدر شيئاً دام اعتكافه ما دام في المسجد.

◈ الاعتكاف المنذور:

هو أن يوجب على نفسه الاعتكاف، فيصبح واجباً عليه، ويجب أداؤه، ويأثم بتركه، ويجب الالتزام بما نذر من قوت أو صفة.

فلو نذر اعتكافاً مطلقاً، كفاه عن نذره اعتكاف لحظات، كما يجزئه في نذر الصوم والصدقة ما يقع عليه الاسم، ولو نذر اعتكاف ساعة صح نذره،

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٧١٣/٢، ومسلم ٦٨/٨، وأبو داود ٥٧٣/١.

ولزمه اعتكاف ساعة، والأفضل في الحالين أن يعتكف يوماً ليخرج من الخلاف.

وإن نذر اعتكاف العشر الأواخر دخل فيه ليلة الحادي والعشرين قبل غروب الشمس، كما سبق، ليستوفي الغرض بيقين، كما لو غسل جزءاً من رأسه في الوضوء ليستوفي غسل الوجه بيقين، ويخرج منه بهلال الشهر الثاني، تاماً كان الشهر الأول أم ناقصاً، لأن العشر عبارة عما نذر بين العشرين إلى آخر الشهر.

ولو نذر اعتكاف عشرة أيام من آخر الشهر، وكان الشهر ناقصاً اعتكف بعد الشهر يوماً آخر بليلته، لتمام العشرة، لأن العشرة عبارة عن عشرة آحاد بخلاف العشر، ويستحب في هذه الحالة أن يعتكف يوم قبل العشر، لاحتمال نقص الشهر.

وإن عين زمن الاعتكاف في نذره كيوم معين، أو أسبوع معين، أو شهر معين، فإنه يتعين، ولا يجوز التقديم عليه، ولا التأخير، فإن قدمه لم يجز، وإن أخره أثم، وأجزأه، وكان قضاء.

وإذا نذر اعتكاف شهر بعينه، وأطلق، لزمه اعتكافه ليلاً ونهاراً، تاماً كان الشهر أم ناقصاً، ويجزئه الناقص، لأن الشهر عبارة عما بين الهلالين تم أو نقص، فإن فاته الشهر، ولم يعتكف فيه، لزمه قضاؤه، ويجوز أن يقضيه متتابعاً ومتفرقاً، لأن التتابع في أدائه بحكم الوقت لذلك الشهر، فإذا فات سقط، كالتتابع في شهر رمضان، وعدمه في قضائه.

وإن نذر اعتكاف نهار الشهر لزمه بالنهار دون الليل، لأنه خص النهار فلا يلزمه الليل، وإن قال: أيام الشهر، فلا يلزمه الليالي، وإن قال الليالي فلا تلزمه الأيام.

وإن نذر اعتكاف شهر معين من سنة معينة، وكان الشهر قد مضى، لم يلزمه، لأن الاعتكاف في شهر مضى محال، ويفسد نذره، ولو عين زماناً للاعتكاف أو الصوم تعين، ويقضي إن فات، بخلاف الصلاة.

وإن نذر اعتكاف شهر غير معين فيكفيه شهر بالهلال، سواء تم الشهر أم نقص، لأن الشهر اسم لما بين الهلالين، ويحل هذا إذا دخل فيه قبل غروب الشمس ليلة الهلال، فإن دخل بعد الغروب فلقد صار شهره عددياً فيلزمه ثلاثون يوماً بلياليها، وإن نذر اعتكاف شهر بالعدد لزمه ثلاثون يوماً بالعدد، لأن الشهر بالعدد ثلاثون يوماً.

وإذا نذر اعتكاف شهر بعينه، أو عشرة أيام بعينها، وشرط التتابع، لزمه التتابع إن صرح به لفظاً، لأن التابع وصف مقصود، وإن فات الشهر تعين فيلزمه قضاؤه متتابعاً لتصريحه، ولو نذر اعتكاف عشرة أيام متفرقة لم يلزمه التتابع ولا التفريق، ولكن يستحب التتابع.

وإن نذر أن يعتكف يوماً لم يلزمه معه ليلة، ولكن يلزمه أن يدخل في الاعتكاف قبل طلوع الفجر، ويخرج بعد غروب الشمس، لأن حقيقة اليوم ما بين الفجر وغروب الشمس، ويستوفي الفرض بيقين، ولا يجوز أن يفرقه في ساعات من أيام.

وإن نذر اعتكاف يومين يلزمه اعتكافهما، فإن شرط التتابع فيلزمه اعتكاف الليلة التي بينهما، وإن لم يشرط التتابع لم يلزمه اعتكافها، وكذلك إن نوى اعتكاف ليلتين لزمه اعتكافهما، وإن شرط التتابع لزمه اعتكاف النهار الذي بينهما، وإن لم يشرط التتابع فلا يلزمه اعتكاف النهار بينهما، وكذلك الأمر لو نذر ثلاثة أيام، أو عشرة، أو ثلاثين، إلا إذا نذر اعتكاف العشر الأواخر من رمضان فيدخل في نذره الليالي والأيام.

ولا يجب التتابع في الاعتكاف إلا إذا شرطه لفظاً، لكن يسن التتابع، وإذا شرط الناذر التتابع، وشرط لنفسه الخروج لعارض مباح مقصود وغير مناف للاعتكاف صح الشرط، وإن شرط الخروج لغرض خاص كعيادة مريض خرج له دون غيره، وإن شرط الخروج لعذر عام خرج لكل أمر مهم ديني كالجمعة والجماعة، أو دنيوي كلقاء شخص، ثم يجب عليه العود، ولو شرط قطع الاعتكاف لعارض فيصح، ولا يجب عليه العود عند زوال العارض.

وإن شرط التتابع في النذر فلا يجوز له الخروج من المسجد إلا لحاجة، كقضاء الحاجة، والوضوء والاغتسال والأكل والمرض الشديد، ويخرج لذلك ولا ينقطع التتابع، وإن خرج لغير حاجة، ولأمر غير ضروري، فيحرم عليه ذلك، وينقطع التتابع، ويجب عليه استئناف الاعتكاف.

وإن عين الناذر لاعتكافه مسجداً من المساجد لم يتعين، لأن المساجد سواء، ويجوز أن يعتكف في غيره، لأن المساجد سواء، ويجوز أن يعتكف في غيره، إلا إذا عين المسجد الحرام أو المسجد الأقصى، أو مسجد المدينة، فإنه يتعين لزيادة فضلها، ومضاعفة أجر العبادة فيها، لكن يقوم المسجد الحرام مقامهما ولا عكس، ويقوم مسجد المدينة مقام المسجد الأقصى، ولا عكس.

◈ لباس المعتكف وتطيبه وأكله:

يجوز للمعتكف أن يلبس ما شاء مما يلبسه في غير الاعتكاف، سواء كان رفيع الثياب وغيره، ولا كراهة في ذلك، لأن النبي ﷺ اعتكف، ولم ينقل عنه أنه غير شيئاً من ملابسه، ولو فعل ذلك لنقل.

ويجوز للمعتكف أن يتطيب، لأن لو حرم التطيب عليه لحرم ترجيل الشعر، وروت السيدة عائشة رضي الله عنها «أنها كانت ترجل شعر رسول

الله ﷺ في الاعتكاف»[1]، كما يجوز قص الشارب والتزين والاغتسال، لأنه باق على الإباحة، و لم ينقل أنه ﷺ تركه، ولا أمر بتركه.

ويجوز للمعتكف ولغيره أن يأكل في المسجد ويشرب ويغسل يده بما لا يتأذى به أحد، لأنه عمل قليل لا بد منه، ويجوز أن يضع المائدة، لأنه أنظف للمسجد، ويستحب للآكل أن يضع سفرة ونحوها، لأنه أصون للمسجد.

ويجوز للمعتكف أن يعقد عقد النكاح لنفسه ولغيره، ولأن الاعتكاف عبادة لا تحرم عقد النكاح كالصوم.

ويجوز للمعتكف أن ينام في المسجد، وأن يضطجع، ويستلقي، ويمد رجليه، ونحو ذلك، لأنه يجوز ذلك لغيره، فيجوز له بالأولى.

◈ آداب الاعتكاف:

١- يستحب للمعتكف الاشتغال بالطاعات من صلاة وذكر وتسبيح وقراءة القرآن، والاشتغال بالعلم تعلماً وتعليماً ومذاكرة ومطالعة وكتابة، لأن ذلك طاعات تتفق مع القصد من الاعتكاف بالتفرغ للعبادة، والانقطاع عن شؤون الدنيا.

٢- يستحب الصوم للمعتكف اتباعاً لرسول ﷺ، فيجمع بين عبادتين، ويستعين بالصوم على تهذيب النفس وصفاء الروح والتفرغ للطاعة.

٣- يستحب أن يكون الاعتكاف يوماً كاملاً على الأقل للخروج من خلاف من حدد أقله بيوم.

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٧١٤/٢، ومسلم ٢٠٨/٣، وأبو داود ٥٧٤/١، والنسائي ١٩٣/١، والبيهقي ٣١٥/٤-٣٢٠، وأحمد ٨١/٦.

٤- يستحب أن يكون الاعتكاف في المسجد الجامع الذي تقام فيه الجمعة، حتى لا يضطر إلى الخروج إليها، فإن اعتكف في غيره فمن الجمعة إلى الجمعة.

وغير ذلك من الآداب والسنن التي سبقت الإشارة إليها.

◈ مكروهات الاعتكاف:

١- السباب والجدال فهما مكروهان ولا يبطلان الاعتكاف، ويستحب للمعتكف إذا سبه إنسان أن لا يجيبه، كما لا يجيبه الصائم، فإن أجابه وسب غيره، أو جادل بغير حق، كره ذلك ولم يبطل اعتكافه، لكن يبطل ثوابه أو ينقص، وكذا إذا اغتاب إنساناً، أو أكل حراماً، لم يبطل اعتكافه، وبطل ثوابه.

٢- الحجامة والفصد: يكره للمعتكف في المسجد أن يحتجم أو يحجم غيره إذا أمن تلويث المسجد، فإن لم يأمن ذلك حرم عليه.

٣- الإكثار من المعاملات والأعمال العادية، فيجوز للمعتكف أن يبيع ويشتري فيما لابد له منه، وأن يخيط ثوبه الذي يحتاج إلى لبسه، وأن يمارس صنعته الخفيفة، وأن يؤجر ويستأجر، وأن يتحدث بالحديث المباح، ولا يكثر من ذلك، فإن كثر كره للمعتكف، ولا يبطل اعتكافه بذلك، وكذا إن قعد يحترف بالخياطة أو بحرفة أخرى فإنه يكره.

◈ مبطلات الاعتكاف:

يبطل الاعتكاف بأحد الأسباب التالية:

١- **الجماع عمداً**: يبطل الاعتكاف بالجماع إذا كان عالماً بتحريمه، وذاكراً له، سواء جامع في المسجد أم في خارجه عند خروجه لقضاء حاجة أو

غيرها، لأن الجماع ينافي الاعتكاف والعبادات البدنية، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والجماع في المسجد حرام مطلقاً، سواء للمعتكف ولغيره، فإن كان الاعتكاف منذوراً حرم الجماع ولو خارج المسجد، وإن كان نفلاً لم يحرم الجماع خارج المسجد، لكن يكون عمله خروجاً من العبادة، وهو جائز، ويبطل الاعتكاف به.

وإن جامع ناسياً لم يبطل اعتكافه، لقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1]، وكالأكل ناسياً للصائم الذي لا يبطل الصوم، وإن جامع وهو جاهل بالتحريم لم يبطل، لأن الجاهل كالناسي.

أما المباشرة فيما دون الفرج كاللمس والقبلة فتحرم، ولا يبطل الاعتكاف إلا إذا أنزل، وكان ذاكراً للاعتكاف عالماً بالتحريم، فيبطل، وتجوز المباشرة من غير شهوة، ولا يبطل الاعتكاف، لما روت عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان رسول الله ﷺ ليدخل عليَّ رأسه، وهو في المسجد فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان إذا كان معتكفاً»[2].

وإذا استمنى بيده، ولم ينزل، فلا يبطل اعتكافه، فإن أنزل بطل، وإذا نظر فأنزل لا يبطل اعتكافه كالصوم.

ومتى حصل للمعتكف ما يوجب غسل الجنابة، ولو باحتلام، أو بجماع

(١) هذا الحديث رواه ابن ماجة ٦٥٩/١ والبيهقي ٣٥٦/٧، والدارقطني ١٧٠/٤ وإسناد صحيح، ولفظه: إن الله تجاوز.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي وأحمد، وسبق بيانه قبل هذا.

ناسياً، أو باشر فيما دون الفرج وأنزل، أو جامع، فيجب عليه الخروج من المسجد، وإن لم يبطل اعتكافه في بعض الحالات ويعصي إن مكث في المسجد مع التمكن من الخروج، فيجب الخروج للاغتسال، ولا يحسب زمان الجنابة من الاعتكاف.

والمرأة المعتكفة كالرجل المعتكف في تحريم الجماع والمباشرة وقطع الاعتكاف ووجوب الغسل والعودة إلى المسجد.

٢- **الخروج من المسجد عمداً** لغير حاجة في الاعتكاف المنذور الذي شرط فيه التتابع، أما لو خرج لقضاء حاجة أو مرض شديد، أو شرط الخروج لنفسه، فلا يبطل الاعتكاف، ولو كان الاعتكاف تطوعاً أو منذوراً وغير متتابع فلا يبطل الاعتكاف بالخروج.

٣- **الردة، والسكر، والجنون**: إذا ارتد المعتكف بطل اعتكافه، لأن المرتد ليس أهلاً للعبادة، وكذا إذا سكر متعدياً فيبطل اعتكافه لعدم أهليته، أما غير المعتدي بسكره فهو كالمغمى عليه لا يبطل اعتكافه إلا إذا أخرج من المسجد، ويبطل الاعتكاف المتتابع من المرتد والسكران، ولا بد من استئنافه بعد زوال المانع.

ويبطل الاعتكاف إن طرأ جنون، ولا يبطل ما مضى من المتتابع إن لم يخرج من المسجد، ويحسب زمن الإغماء من الاعتكاف المتتابع كالصائم إذا أغمى عليه بعض النهار، وكمن نام في نهار الصيام، أما زمن الجنون فلا يحسب من الاعتكاف المتتابع، لأن العبادة البدنية لا تصح من المجنون.

٤- **الحيض والنفاس**: إذا حاضت المعتكفة أو نفست بطل اعتكافها، ووجب عليها الخروج من المسجد، وإن عادت لاعتكاف منذور ومتتابع فلا

تحسب مدة الحيض أو النفاس من الاعتكاف، وإن كان اعتكافها تطوعاً، وأرادت البناء عليه بنت، وإن كان نذراً غير متتابع بنت، أما إن كان النذر متتابعاً ففيه تفصيل، فإن كان الاعتكاف مدة لا يمكن حفظها وخلوها من الحيض غالباً كشهر، لم يبطل التتابع بالحيض وتبني عليه، وإن كان الاعتكاف مدة يمكن حفظها من الحيض كخمسة عشر يوماً فما دونها فينقطع التتابع.

أما المستحاضة فيجوز لها البقاء في المسجد إن كان اعتكافها نذراً، سواء كان متتابعاً أم غير متتابع، لأنها كالطاهر، لكن تحترز عن تلويث المسجد، لما روت عائشة رضي الله عنها قالت: «اعتكف مع النبي ﷺ امرأة من أزواجه وهي مستحاضة، فكانت ترى الدم والصفرة والطست تحتها وهي تصلي»[1].

وإذا وجبت العدة من وفاة أو فراق على المرأة، فخرجت لقضائها فلا يبطل اعتكافها، لأنها مضطرة لواجب شرعي، حتى لو نذرت متتابعاً أكملت الاعتكاف بعد العدة، وعادت إلى المسجد وبنت على ما مضى، وإذا لزمها الخروج فمكثت في الاعتكاف، ولم تخرج، عصت، وأجزأها الاعتكاف.

◈ أثر بطلان الاعتكاف:

إذا وقع من المعتكف ما يبطل الاعتكاف فيفرق بين اعتكاف التطوع والاعتكاف الواجب، فإن كان الاعتكاف تطوعاً لم يبطل ما مضى من اعتكافه، ويجوز له أن يقطع اعتكافه المستحب، وأن يخرج من المسجد إذا شاء، وإن كان الاعتكاف واجباً منذوراً فإن لم يشترط فيه التتابع، ووقع ما

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم «المجموع ٦/٥٤٩» صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف ١٠، صحيح مسلم كتاب الرضاع ٩٨.

يبطل الاعتكاف فلا يبطل فيما مضى من اعتكافه كالتطوع، لكن يلزمه أن يتمم ذلك لاحقاً، لأن الجميع قد وجب عليه، وقد فعل البعض فيجب الباقي، حتى لو خرج لعذر فيجب العود بعده، فلو آخر انقطع التتابع، وتعذر البناء، ويجب قضاء الأوقات المصروفة إلى غير قضاء الحاجة ونحوها، وإن كان قد شرط فيه التتابع، ووقع ما يبطل الاعتكاف، فقد بطل التتابع أيضاً، ووجب عليه أن يستأنف ليأتي به على الصفة التي أوجبها على نفسه ويكون بنية جديدة.

قال النووي: «لو مات وعليه صلاة أو اعتكاف لم يفعلهما عنه وليه، ولا يسقط عنه بالفدية صلاة ولا اعتكاف»[1].

ونسأل الله التوفيق للطاعة والعبادة والاعتكاف، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) المجموع للنووي ٦/٤٢٠، ٥٧٠ ط مكتبة الإرشاد، السعودية، وانظر: المهذب للشيرازي ط دار القلم دمشق ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، الفقه الحنبلي الميسر، دار القلم- دمشق ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، المنهاج للنووي ومغني المحتاج للشربيني طبع مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، الحاوي للماوردي- دار الفكر- دمشق ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

خامساً: المسجد محور النشاط

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن المساجد أبرز المعالم الإسلامية في القديم والحديث، داخل العالم الإسلامي وخارجه، ومن أهم شعائر الإسلام وتميّزه، ولذلك دعا القرآن الكريم إلى بنائها وإعمارها مادياً ومعنوياً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وحذر القرآن الكريم من كل مساس بأذى للمسجد، ومنع إقامتها، أو أداء وظيفتها، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

ونظراً لأهمية المسجد، ومكانته في الإسلام، ووظائفه العظيمة، فقد كان أول عمل سعى إليه رسول الله ﷺ بعد الهجرة هو بناء المسجد، ليقوم المجتمع والأمة والدولة في ظلاله، وانطلق منه نور الدعوة، وصار محوراً لجميع النشاطات، وأصبح مقراً للدولة، ومجلساً للعلم، ومركزاً للتربية والإعداد والتوجيه الجسمي والحربي والاجتماعي، ومكاناً لاستقبال الوفود التي قصدت المدينة المنورة: عاصمة الدولة الإسلامية، إما للدخول في الإسلام ومبايعة الرسول الكريم، وإما من أجل المناظرة والمناقشة والسؤال عن الدين الجديد، وإما من أجل المفاوضات وعقد المعاهدات، فضلاً عن أداء الصلاة والاعتكاف والذكر، حتى

أضحى المسجد مركزاً للإشعاع في العالم، وتعدّدت وظائفه، ومنها:

أولاً: **الوظيفة الروحية:** فالمسجد مكان العبادة الأول لأعظم فريضة من فرائض الإسلام، وهي الصلاة، فإنها عماد الدّين، وحث رسول الله ﷺ كثيراً على صلاة الجماعة وأدائها في المسجد، وطلب المحافظة عليها، وبيّن فضلها، وفضل الجلوس في المساجد انتظاراً للصلاة، وذلك في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا وراح»[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة»[2].

وهمّ رسول الله ﷺ أن يحرق على قوم بيوتهم لتخلفهم عن صلاة الجماعة[3]، وتظهر أهمية صلاة الجماعة والصلاة في المساجد لما يترتب على هذه الصلة من التقرّب لله تعالى، والاطمئنان النفسي، والراحة الداخلية، والخشوع القلبي، والانقطاع عن مشاغل الدنيا والملهيات، وغير ذلك من الآثار الاجتماعية والصحية، لتكون الروح منطلقة إلى بارئها.

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ١/٢٣٥ رقم ٦٣١، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح، ومسلم ٥/١٧٠ رقم ٦٦٩، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة، ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ١/٢٣١ رقم ٦١٩ كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الجماعة، ومسلم ٥/١٥١ رقم ٦٥٠، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، وغيرهما.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ١/٢٣١ رقم ٦١٨ كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، ومسلم ٥/١٥٣ رقم ٦٥١ كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، وانظر المزيد من هذه الأحاديث في الصحيحين والسنن، وكتاب الترغيب والترهيب ١/٢٠٦، ٢٦٠، ٢٦٨.

ثانياً: الوظيفة الاجتماعية: إن المسجد مؤسسة اجتماعية، يلتقي فيها المسلمون كل يوم خمس مرات على الأقل، فتقوى الروابط الاجتماعية فيما بينهم عن طريق العبادة والتعليم، ويتم التعارف والمحبة بينهم وتآلف القلوب، والتصافح بالأيدي، وتتحقق فيهم المبادىء الإسلامية والقيم الأخلاقية متجسدة بشكل عملي حقيقي، دون أن تبقى نظرية ومجردة عن التنفيذ والتطبيق، وهذه المبادىء تعيش في المجتمع بشكل حيّ وفعال، مثل الإخاء والمحبة والمساواة والتكافل والتعاطف، ويتفقد المصلّون أحوال بعضهم بعضاً، ويطمئنون على صحتهم وظروفهم، ومن يترل به من الضيوف والمسافرين، للقيام بواجباهم، والتواصل معهم، دون أن يبقى مكان للبغضاء والفرقة بينهم، ولذلك لم يتهاون رسول الله ﷺ في هدم مسجد الضرار الذي أقامه المنافقون لتفريق الجماعة، وتشتيت الشمل، وإثارة العداوة والبغضاء والعصبية منه، كما كانت الأفراح تُقام في المساجد، لإظهار البهجة والفرحة، والتماس بركات المسجد وروحانيته وفضل الجلوس فيه، ولكونه لعامة الناس، ويسهل الوصول إليه، لأنه يبنى عادة وسط البلد، وضمن الأحياء السكنية .

ثالثاً: الوظيفة العسكرية: كانت كتائب النصر والجهاد تنطلق باستمرار من المساجد، وكان المسجد ثكنة عسكرية يتدرب فيه الفرسان والجنود، ويتصارع فيه الشجعان، ويتبارز فيه الأبطال والفتيان، ويتولى فيه القادة الألوية، وتُقسم منه الجيوش إلى فرق، ثم تتوجه إلى غايتها في الدعوة والجهاد، بعد أن تتغذى من المسجد بالروح المعنوية العالية، والثقة الوثّابة بالله تعالى، ووعده بالنصر، والاستعداد الكامل للشهادة في سبيل الله، والثبات عند القتال في المعركة، والدعم العاطفي من المقيمين والمصلين، والطمع منهم بالدعاء والثبات والتوفيق، والتزود فيه من القرآن الكريم وهدي الرسول الكريم، وقد

انطلقت معظم حركات التحرير والثـــورات ضـــد المحـــتلين والمـــستعمرين والمستبدّين في البلاد الإسلامية من المساجد، وكان العلماء يقودون الجماهير من المساجد، واليوم تنطلق المقاومة في فلسطين المحتلة من المـــساجد، وكـــذا حركات التحرير في كثير من البلاد الإسلامية.

رابعاً: الوظيفة القضائية: كان المسجد مكاناً لفصل الخصومات في أول الدعوة، وكان دور القضاء غالباً في المساجد، ويُعقد فيها مجلس التقاضي، ثم بنى سيدنا عثمان رضي الله عنه بناء مستقلاً للقضاء، في المدن الكبرى، وبقي المسجد موئلاً للقضاء في سائر البلاد، وفي أيام العباسيين كان مجلس القضاء ينعقد غالباً في المسجد، ولمّا كثُرت القضايا واشتدت الخلافات كره الشافعية اتخاذ المسجد مجلساً للحكم، لأنه لا يخلو من اللغط وارتفاع الأصوات والمشاحنة والتشويش على العبّاد والقرّاء ومجالس العلم والتعليم، وذهب الجمهور إلى جواز اتخاذ المساجد مجلساً للقضاء، وعدم كراهيته، اقتداءً برسول الله ﷺ وبالخلفاء الراشدين، وفي جميع الأحوال كان القاضي يستقبل الشكاوى والدعاوى في المسجد أثناء وجوده فيه، وينظر فيها، ويقيم الحق والعدل، وينصف الأطراف، ويرد الحقوق إلى أصحابها، وكان يتم في المسجد عقد الزواج لإعلانه وإشهاره على الناس، لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف»(١).

---

(١) هذا الحديث رواه الترمذي ٤/٢١٠، (ص١٩٣ رقم ١٠٨٩)، وقال: هذا حديث غريب حسن، ورواه ابن ماجه في الجملة الأولى والأخيرة فقـــط ٦١١/١ رقـــم ١٨٩٥ (ص٢٠٦)، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، وله شاهد عند أحمـــد ٥/٤، وابن حبان والحاكم، ومعناه عند النسائي ١٠٤/٦.

وعلى الرغم من انتشار بناء المحاكم ودور القضاء، فقد بقي المسجد موئلاً للتحكيم، وحلّ الخلافات، وعقد مجالس الصلح بين المتنازعين، وخاصة إذا كان التراع بين القبائل والجماعات، لأن العدل في نظر الإسلام لا مكان له، ولا حدود تقيدّه.

خامساً: الوظيفة السياسية: كان المسجد مركز الدولة، وكان رسول الله ﷺ يستقبل فيه الوفود (وفد الحبشة، وفد نجران، وفود القبائل العربية، وفود الدول المجاورة) وكانت المفاوضات معهم تتم في المسجد، وهو مكان التشاور والتفاهم بين الحاكم وجماعة المسلمين فيما يترل بهم، وتتم في المسجد البيعة للخليفة الذي يقوم بعد البيعة بإلقاء خطابه الأول على الأمة في بيان منهجه وخطته في الحكم «البيان السياسي» كما كان الخليفة يتولى خطبة الجمعة في مسجد العاصمة، ليعلن من على منبره شؤون الدولة، ويعلن الجهاد، وإنهاء الحرب، وبيان السياسة وما يهم الأمة والمجتمع، وفي سائر المدن يقوم الوالي عليها بالإمامة والخطابة، وتبليغ قرارات الخليفة والدولة، ومناقشة ما يهم الناس والمواطنين في الأمن والغذاء والعمران وغيره.

سادساً: الوظيفة التعليمية: التي كانت أهم وظائف المسجد بعد الوظيفة الروحية، وعمّت الوظيفة التعليمية معظم المساجد، واستمرت أطول من غيرها، فالمسجد مكان للتعليم، منذ العهد النبوي والسلف الصالح، وصار المسجد جامعة عامة للدراسة والتثقيف والتهذيب، والتربية العلمية والعملية، وتُعقد فيه حلقات الدراسة، ويتم فيه النشاط العلمي، ويرتاده الناس من كل فجّ، وكانت طريقة التعليم في المساجد تمتاز عن غيرها بأمور كثيرة، فالمسجد جامعة شعبية يضمّ جميع الناس والفئات في رحابه، والدراسة فيه دائمة طوال النهار، وأطراف الليل، فتبدأ بعد صلاة الفجر، وقبل طلوع الشمس، وتمتد

إلى ما بعد صلاة المغرب، وقبيل صلاة العشاء، ولا تشترط رسوماً ولا تأميناً، فكان المسجد أول من طبّق مجانية التعليم للكافة في العالم، وكان الطلاب يفدون إلى حلقات العلم برغبة ذاتية، وشوق، واندفاع طوعي، ويتلهفون لتلقي العلم بآذان صاغية، وقلوب مفتوحة، وأعين معلقة بالمدرِّس، ويجمع بين التعلم من العلماء الكبار والتعليم للصغار والجدد، وكانت جميع العلوم تلقى في المسجد، من العقيدة والتوحيد، والتفسير وعلوم القرآن، والحديث ومصطلحه ورجاله، والسيرة النبوية والتاريخ، إلى اللغة والآداب والنحو، إلى الفلسفة والمنطق، إلى الرياضيات والعلوم والفلك والطب، وتطور التدريس في بعض المساجد ليجعل منها مكاناً للتعليم فلا تتسع لغيره، ووصل الأمر إلى تعذر إقامة صلاة الجماعة في الجامع الأزهر، فينتقل المسلمون إلى المساجد القريبة للصلاة، إلا في صلاة الجمعة، ويمتاز التعليم في المسجد، والتربية الإسلامية، بأنها تربية حرة، يدخلها الطالب برغبة كاملة وحرية مطلقة، ورضاء تام، ويختار من العلوم ما يشاء، ويغبّ منها ما يستطيع بنهم وشوق.

وكانت المناظرات العلمية، والمناقشات، والمسابقات، تُعقد في المسجد، وكان العلماء إذا ارتحلوا، وسافروا، يمّموا وجوههم إلى المساجد، أو المسجد الكبير في المدينة، فيلتقون بالعلماء ليأخذوا عنهم، أو يناظروهم، ثم يعقدون حلقات العلم الخاصة بهم، وكان المسجد المكان الرئيس للتعليم والعلم في مختلف الفنون والمعارف، وكان مقراً للعلماء، ومقصداً للقريب والبعيد، والمقيم والمسافر، والطالب والمستفيد من التعليم والتدريس، ومكث فيه الفقهاء والمحدّثون والوعاظ والخطباء والأدباء وغيرهم، وأصبح المسجد جامعة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، كالجامع الأزهر، وجامع الزيتونة، وجامع القيروان، والحرم المكي، والمسجد النبوي، ولا يزال معظمها حتى عصرنا

الحاضر أكبر دليل على ذلك، كما اشتهر في التاريخ عدد من المساجد، مثل جامع بني أمية في دمشق وحلب، وجامع المنصور ببغداد، وجامع عمرو بن العاص بمصر، وجامع غرناطة وقرطبة في الأندلس، وغيرها من المساجد التي كانت تمثل مؤسسات تربوية وتعليمية كاملة، وتجدد ذلك في العصر الحاضر في عدد من المساجد.

كما كانت المساجد تمثل وسائل الإعلام الرسمية والشعبية، ويتم فيها جميع البلاغات والإعلانات والتوجيهات الخاصة والعامة في كل ما يهم المجتمع والأمة، ولذلك نتمنى أن تعود هذه الوظائف كاملة إلى المساجد، وأن تزود بجميع أجهزة الإعلام المعاصرة.

وأخيراً فإن المساجد أصبحت تحفة معمارية وهندسية، واتجه كبار المهندسين إلى التفنن في بنائها وعمارتها، وزخرفتها، واجتهد الخطاطون في تزيين جدرانها بالآيات الكريمة، حتى صارت تحفة فنية، وبُذل فيها المال الكثير، والعناية الفائقة، والاتقان الكامل، وأصبحت أوابد في هيكلها، ووظائفها، واتجه الخلفاء والولاة والحكام والأثرياء إلى الإنفاق بسخاء لتشييدها لتتجه إليها الأنظار والقلوب والعقول، لتكون المساجد لؤلؤة مضيئة ومميزة في المدن، لما ورد في فضل بنائها من الأجر الكبير والثواب العميم.

ولكن في العصر الحاضر اقتصرت وظيفة المساجد غالباً على بعض النواحي في التربية والتوجيه والعبادة بعد انتشار المدارس، وافتتاح الجامعات والمراكز الخاصة للتعليم، وافتقار كثير من المساجد إلى حلقات الدراسة والعلم، وانحصرت وظيفة المسجد للصلاة فقط، مع بقاء الآثار العظيمة لأماكن الدراسة، ووجود الأجنحة المتعددة والملحقة بالمساجد.

ويجب أن تعود الحياة والحيوية إلى المساجد، وأن تعود إليها حلقات العلم والدراسة والعبادة للاستفادة منها، فيعود المسجد إلى وظيفته في خدمة المجتمع، وتتحقق أغراضه وأهدافه الروحية والاجتماعية والعلمية والسياسية.

ومما يلفت النظر في عصرنا الحاضر، وخاصة في البلاد غير الإسلامية، إقامة المساجد ضمن مجموعة أبنية باسم المركز الإسلامي، ليكون محوراً لنشاط المسلمين في مختلف الجوانب وليكون له الدور الأساسي في تجمع المسلمين، والحفاظ على عقيدتهم وجماعتهم وآدابهم وصلاتهم، ثم ليساهم في نشر الدِّين والدعوة في ربوعه، في جميع عواصم العالم ومدنه غالباً، وهذا من فضل الله تعالى وتوجيهه، وإسهاماً بنشر تعاليم الدين الإسلامي في كل بقاع العالم، لأن المسجد من شعائر الله، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، والحمد لله رب العالمين.

سادساً: مكة المكرمة

◈ الموقـــع:

تقع مكة المكرمة في الحجاز من الجزيرة العربية، وقياساتها في خط الطول ٣٩، وخط العرض ٢١، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٣٠٠ متر، وتحيط بها الجبال من الجهات الأربع، وجوها حار جاف وهي في واد غير ذي زرع، وتشرف عليها الجبال الجرداء، أهمها الأخشبان: جبل أبي قبيس (شرقاً)، والجبل الأحمر (قعيقان غرباً) ويندر فيها المطر إلا أحياناً فتنزل بغزارة حتى تجري فيها السيول، ويقع في وسطها ومركزها الكعبة المشرفة، ويقال إنها النقطة المحورية للكرة الأرضية، وتبعد عن جدة على البحر الأحمر شرقاً حوالي ٧٠كم، وفي شمال مكة مقبرة المعلاة التي تضم أجداث كثير من الصحابة وغيرهم، ومنها قبر خديجة الكبرى بنت خويلد أم المؤمنين، وفي غربها بئر ذي طوى الذي اغتسل منه رسول الله ﷺ وأصبح في داخلها الآن، وفي شرق المسجد الحرام بيت النبي ﷺ الذي أصبح الآن مكتبة، واشتهر في مكة دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كانت مقر الدعوة الإسلامية أول الأمر عندما كانت سرية، وفي شمالها الشرقي جبل النور أو جبل حراء الذي فيه غار حراء، ونزل فيه أول آية من القرآن الكريم، وفي شرقها غار ثور الذي دخله رسول الله ﷺ وأبو بكر أثناء الهجرة.

◈ الأسماء التي عرفت بها:

إن مكة المكرمة لها أسماء كثيرة تزيد عن ثلاثين اسماً، وذلك بحسب الصفات المقتضية للتسمية، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، فمن ذلك البلد الحرام، والناسة، والباسة، والمقدسة، وأم رحم، والحاطمة، والحرم،

ولكن الشائع لها والمشهور منها أربعة وردت صراحة في القرآن الكريم، وهي مكة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وبكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وأم القرى، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، والبلد، قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١-٢]، والبلد الأمين، قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، وتسمى بأسماء أخرى من إطلاق الجزء الأهم على الكل، وورد بعضها في القرآن الكريم مثل: ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ [الأنفال: ٣٥]، ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، و﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، و﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢، ٩٧]، ومكة معروفة للجميع في الدنيا، وأشهر من أن تعرف.

◈ أهمية مكة المكرمة الدينية:

تعتبر مكة المكرمة أفضل بقاع الأرض عند الله تعالى، وتنبع أهميتها الدينية من وجود الكعبة المشرفة فيها، فهي أول بيت وضع للعبادة في الأرض، ويتجه إليها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، وتحتل مكة مكان القداسة والاحترام عند المسلمين جميعاً.

وكان العرب يعظمونها في الجاهلية قبل الإسلام، وكان لها مكانة دينية طوال التاريخ بالحج إليها، ويجعلونها بلد الأمان والأمن، ويمنعون في القتال، وتصان فيها الدماء عن القتل، ولها مكانة سياسية يلتف حولها جميع القبائل

العربية، كما أن لها مكانة تجارية باعتبارها ملتقى القوافل والتجار، ومنطلقاً لرحلتي الشتاء والصيف، وفيها أسواق العرب المعروفة.

وفيها بئر زمزم الذي يفيض بماء فيه شفاء للناس، له خصائص كثيرة، وجذب القبائل إليه قديماً، ويقصده الحجاج في كل عصر.

وفيها ولد رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، وظهرت فيها بعثته، وبدأت منها الدعوة الإسلامية، وشع النور السماوي، ثم هاجر رسول الله منها إلى المدينة المنورة، ثم عاد وفتحها في رمضان سنة ثمان للهجرة، وخطب النبي ﷺ بالناس يوم دخول مكة، وصارت العاصمة المقدسة للمسلمين حتى تقوم الساعة.

ولما جاء الإسلام أكد أهمية مكة المكرمة، وشدّد على فضلها وتعظيمها بعد إزالة الأصنام منها، فأصبحت مهوى أفئدة المسلمين في العالم، ويتجه إليها المصلون في الصلاة من جميع أنحاء العالم طوال اليوم، وتؤدى فيها مناسك الحج، فيقصدها الحجاج من كل فج عميق سنوياً في ذي الحجة، لأداء الفريضة الدينية، كما يقصدونها لأداء العمرة طوال العام، ثم يعودون إلى أوطانهم.

وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تؤكد فضل مكة، وأنها أحب بقاع الله تعالى إليه، وأنها حرم الله تعالى، كما سيأتي في أحكامه وآداب الدخول إليها، والسكن فيها.

◈ تاريخها منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر:

يقال إن آدم عليه الصلاة والسلام أقام بمكة حتى توفاه الله تعالى، ثم بنى أولاده فيها بيوتاً وسكنوها، حتى خربها الطوفان، ويقال إن أحد أولاد نوح استوطنها فيما بعد.

ولما أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنقل زوجته هاجر

وولده إسماعيل إليها، وتم كشف بئر زمزم، ورفعا قواعد البيت الحرام التي كانت مندرسة، عرفت مكة من ذلك الزمن، واجتمعت القبائل العربية هناك، وأولهم قبيلة جرهم، وبنوا المساكن من جديد، وصارت أم القرى، ويلتف حولها الناس، ويحجون إليها، وظهرت مكانتها التي سبق ذكرها، وكانت مكة تتطور في التجارة والعمران والمكانة الدينية بتطور الزمن، واحتلت مكان الصدارة في الجزيرة العربية وما حولها.

وانتقلت مكة المكرمة على يد قصي بن كلاب من طور البداوة إلى طور الحضارة في بنائها لاستقبال الحجاج والوفود، ولنشاطها الاقتصادي، وزعامتها الدينية عند القبائل، ولاتصالها بالعالم الخارجي، ولتنظيم أمورها الداخلية والخارجية، وابتنى قصي لنفسه داراً، وجعل منها مجلس الشورى ودار الحكومة، وسماها دار الندوة للفصل في الأمور الهامة وعقد المعاهدات وغيرها، وتوارث أولاده الوظائف المتعددة التي تقاسموها في خدمة البيت والحجاج والتجار والوفود.

وعندما نزل القرآن الكريم امتن الله تعالى على أهل مكة بالأمان من الخوف والجوع، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٤].

وفي العصر الحاضر توسعت مكة توسعاً كبيراً، حتى علا البنيان الجبال المحيطة بها، وما وراء الجبال، وازدهرت بالنهضة العمرانية والتجارية والصحية والعلمية، وفتحت فيها المستشفيات، وشقت الأنفاق التي تخرق الجبال لتصل بين أطرافها بسهولة ويسر، واعتبرها الحكومة السعودية العاصمة المقدسة، وبنت فيها مقراً لكثير من الوزارات، ويُقيم فيها الملك عند حضوره لمنطقة الحجاز، وفي موسم الحج خاصة، وتم توسعة الشوارع والحدائق، مع توسعة

بناء المسجد الحرام أضعافاً مضاعفة لتأمين راحة الحجاج والمصلين والطائفين والركع والسجود، وأنشئت فيها جامعة أم القرى، والأسواق الحديثة المتطورة للتسوق، والفنادق الفخمة للحجاج والزوار.

ويؤم مكة اليوم أكثر من مليوني شخص سنوياً لأداء فريضة الحج، ومئات الآلاف من المعتمرين طوال العام، وخاصة في شهر رجب، وشهر رمضان المبارك، ويزدحم الحجاج والعمار والمصلون والمعتكفون، وخاصة ليلة السابع والعشرين من رمضان من كل عام بمناسبة ليلة القدر.

◈ أهم أحكام مكة المكرمة وآدابها:

١- مكة المكرمة لها حرم حولها، محدد بأعلام معروفة، وهي التنعيم ٧كم من جهة المدينة، والجعرانة حوالي ١٧كم من الشمال الشرقي، وثنية رجل ١٢كم من جهة العراق، وعرفة ١٨كم قبيل موقف عرفات، وإضاة لبن ١٢كم من جهة اليمن والحديبية ١٨كم من جهة جدة.

٢- لا يجوز لغير المسلم دخول مكة المكرمة وحرمها بنص القرآن والسنة، ولا الإقامة فيه، ولا المرور إلا للضرورة.

٣- يستحب، وفي قول يجب، الإحرام لدخول مكة وحرمها من أهل البلدان الأخرى، بأن يدخل الإنسان محرماً بحج أو عمرة، إلا لأصحاب الأعمال الذين يتكرر دخولهم كالسائق، أما أهل مكة فيحرمون بالحج من بيوتهم بمكة، وفي العمرة من حدود حرم مكة.

٤- الصلاة في مكة تعدل مائة ألف صلاة، وهذا ثابت بالسنة النبوية، وقال العلماء: كل عمل صالح فيها له مثل هذا الثواب، كما أن المعصية فيها تتضاعف.

٥- يحرم الصيد في حرم مكة، وكذلك يحرم قطع النبات إلا لحاجة ماسة، لكن يجوز قتل الحيوان الضار والمفترس، وقطع النبات الضار كالشوك.

٦- يحرم البدء بالقتال في مكة المكرمة، ويجوز للرد أو لقتال البغاة إذا تحصنوا بها.

٧- إن معظم أعمال الحج، وهو الركن الخامس في الإسلام، يتم في مكة المكرمة، ويجب ذبح جميع الهدي المتعلق بالحج والعمرة في مكة المكرمة حصراً [المائدة: ٩٥].

٨- قلما تمر من سماء مكة المشرفة طائرة، احتراماً لبيت الله الحرام والكعبة المعظمة، ولا يوجد مطار بقربها، بل تعتمد على مطار جدة الدولي.

٩- إكراماً لمكة وأهلها فإن الله تعالى كتب أن تجبى إليها الثمرات والخيرات من كل مكان، وهو المشاهد الآن لتأمين الحياة الرغيدة لأهل مكة المكرمة والوافدين إليها.

١٠- يستحب الغسل عند دخول مكة المكرمة.

١١- تباح صلاة النوافل في كل ساعة في مكة المكرمة، ويباح الطواف حول الكعبة في جميع الأوقات، والطواف صلاة، بينما تكره أو تحرم الصلاة في خمس أوقات خارج مكة.

١٢- من مات في مكة بعثه الله من الآمنين.

والحمد لله رب العالمين

◈ المصادر والمراجع:

١- سميرة الزايد، الجامع في السيرة النبوية، المطبعة العلمية- دمشق- ١٤١٥هـ/ ١٩٩١م.

٢- عمر بن فهد الهاشمي المكي، الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق عبد الملك دهيش- دار خضر- بيروت- ط١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٣- محمد بن أحمد الحسيني المكي الفاسي، (٨٣٢هـ)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧٨هـ/ ١٩٧٨.

٤- محمد بن إسحاق بن العباس، أبو عبد الله الفاكهي المكي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش- دار خضر، بيروت- ط٣- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٥- محمد طاهر الكردي المكي، التاريخ القديم لمكة وبيت الله الكريم، تحقيق الدكتور عبد الملك بن دهيش- دار خضر- بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

سابعاً: القدس والأقصى في عقيدة المسلم المعاصر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه كلمات عن بيت المقدس والمسجد الأقصى، سعيدة مفرحة في أصلها، حزينة مؤلمة في واقعها اليوم، ولكن الأمل والعقيدة والإيمان أقوى وأثبت وأدوم وأبقى، وفيه العاقبة الحسنى، والعبرة بالخواتيم.

أولاً: الارتباط بين مكة والمسجد الحرام، وبين القدس والمسجد الأقصى:

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فالله سبحانه وتعالى أسرى بحبيبه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة، إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ثم عرج به من عند الصخرة المباركة إلى السماء العلى، ليربط بين مكة المكرمة وبيت المقدس عقيدة، وسنة، وسيرة، ليكون هذا الارتباط هو العروة الوثقى، والحبل المتين، في وجدان وعقيدة كل مسلمٍ في الأرض حتى تقوم الساعة، وليكون هذا الارتباط هو الأمل الغالي، والحقيقة الأكيدة، والغاية الرشيدة للمسلم في قادمات الأيام، وأن هذه العقيدة لابدَّ أن تتحقق يقيناً، وهو ما بينه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، فيقولُ: «إن قضية فلسطين لن تموت، لأنها عقيدة في قلب كل مسلم، فهل سمعتم أو قرأتم عن عقيدة يحملها في قلبه ألف مليون يمكن أن تموت؟ إن الناس يموتون في سبيل العقيدة، وما ماتت عقيدة من أجل حياة إنسان».

وإن المسجد الحرام في مكة المكرمة هو القلب النابض للمسلمين في أنحاء الأرض قديماً وحديثاً ومستقبلاً، ولا حياة للمرء بدون قلب، بل إنَّ مكة المكرمة هي قلب الكرة الأرضيةِ، كما أثبت ذلك علماء الجيولوجيا.

وإن بيت المقدس والمسجد الأقصى هما الرئتان النقيتان اللتان يتنفس منهما المسلمون قديماً وحديثاً ومستقبلاً، ولا يمكن للمسلمين أن يعيشوا بدون الرئتين، ولا تتحقق لهم السعادة إلا بتمام الصحة والعافية للرئتين، ومتى أصابهما مرض أو ضعف، أو وباء واختلال، وهنَ المسلمون، وأعياهم الظلم والمرض. وحلّ بككهم الإعياء، وسرى في عروقهم الأسى، وانتابهم القلق والاضطراب، مهما تآمر عليهم المتآمرون، وتكالب عليهم الأعداء، وتضافرت عليهم الدول الظالمة، والسلطات الجائرة، ولا يطمئن للمسلمين اليوم بال، ولا تهدأ لهم سريرة، حتى يعودَ الحق إلى نصابه، ويشفى المريض من سقمه، ويرفع الظلم عن أهله، بتحرير فلسطين، وفك أسر بيت المقدس، وتطهير المسجد الأقصى من أرجاس حثالات البشر، وشذاذ الآفاق، وسفاكي الدماء، والمتنكبين للفضل في حمايتهم من بطش النازيين والأوربيين، فقطعوا اليد التي ساعدتهم، واغتالوا أبناء من منحهم الأمان وحماهم، ليكشروا عن أنيابهم، ويكشفوا عن حقدهم ولؤمهم وخيانتهم وتآمرهم طوال التاريخ.

ثانياً: الأقصى والإسراء اليوم: إن المسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ وكلما هلَّ هلال شهر رجب الحرام، وطلت ذكرى الإسراء والمعراج، تجدّد الإيمان والاعتقاد، لأن **الإسراء والمعراج يمثلان معلماً في عقيدة المسلم وحياته**، ويحملان معهما المشاعر الكثيرة، والروحانيات العديدة، والدروس البالغة، والعِبر العميقة، لربطهما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في

التقدير والعبادة، والعواطف والآمال، والتطلعات والأحلام، ويجددان ذكريات العهد المكي وتكريم الله تعالى لنبيه بالإسراء والمعراج، ولم يكن ذلك من المسجد الحرام للسماء الدنيا مباشرة، بل سبقته الرحلة المقدسة مع جبريل إلى المسجد الأقصى، ولقاء الأنبياء، والصلاة فيهم، ثم العروج من الصخرة المباركة إلى السماوات العليا، لزيارة الأنبياء، والوصول إلى السدرة المنتهى، ليريه الله من آياته الكبرى، ثم ليفرض عليه الصلوات الخمس التي هي عماد الدين، ومعراج المؤمنين، ولذلك تتجدد عقيدة المسلم المعاصر، ويتجه بقلبه، ومشاعره، وأحاسيسه إلى بيت المقدس والمسجد الأقصى بالفرح والحبور، ولكنه يصطدم بالألم والويل في احتلال الصهاينة، وعبثهم، وأرجاسهم، وتبقى العقيدة الراسخة ثابتة، والرؤية الثاقبة باقية نحو أرض الإسراء والمعراج الثابت في القرآن الكريم، ويتلوها كل مسلم صباح مساء، فلا يكمل إيمانه، ولا تهدأ روحه إلا بتطهير القدس والأقصى، وتحريرهما من الأسر والعدوان، ونزعهما من الاغتصاب والاذلال، ليعود الحق إلى نصابه، وترفرف راية التوحيد عليه إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: القدس عربية إسلامية:

إن بيت المقدس أحد المدن الرئيسة الأساسية المهمة في الإسلام في عقيدة المسلم، مهما كان بلده، وموقعه، والقدس هي القبلة الأولى للمسلمين، وفيها أحد المساجد الثلاثة المعظمة بالنص الشرعي الصحيح الثابت، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى» رواه البخاري ومسلم وأحمد، وفي رواية: «تشدُّ الرحال إلى ثلاثة مساجد» رواه مسلم، وفي رواية

ثالثة: «إنما يُسافر إلى ثلاثة مساجد: الكعبة، ومسجدي هذا، ومسجد إيلياء» رواه مسلم، وإيلياء هي اسم لمدينة القدس، وأن الصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة فيما عداه، لما روى أبو الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في البيت المقدس بخمسمائة صلاة» وهو حديث حسن رواه الطبراني، وروى الطبراني عن ميمونة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال عن بيت المقدس: «أرض المحشر، والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن الصلاة فيه، كألف صلاة» وروى أبو داود قطعة منه برجال ثقات.

والقدس **مدينة عربية** منذ أقدم التاريخ، وهي **مدينة إسلامية** منذ الفتح الإسلامي وقد فتح الله على المسلمين بيت المقدس في العهد الراشدي سنة ١٧هـ، وكتبت المعاهدة الخالدة في وثيقة العهدة العمرية المشهورة عندما حضر عمر بن الخطاب ﷺ بنفسه لاستلام مفاتيحها، وبنى مسجد الصخرة، ليبقى بيت المقدس تحت السيادة الإسلامية، وأصبحت القدس مفتوحة لأهل الديانات السماوية، وتمارس فيها العبادات وحرية الأديان، مع احترام أماكن العبادة كلها، وصارت القدس مقصد العرب والمسلمين من أرجاء الأرض، ويقصدها المسلمون من كل فج عميق للزيارة، والتبرك، والصلاة في مسجدها، واحتلت مكانة سامية في عقيدة كل مسلم، لأنها الجهاز الحيوي النشيط للعالم الإسلامي، وقامت فيها الدعوة الإسلامية، وقدم أهل القدس نخبة ممتازة من العلماء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين والمفسرين والشعراء والأدباء، والقادة، والعظماء طوال التاريخ الإسلامي، وبقيت الشعائر، والمقدسات محترمة، ومصونة، ويمارس أهلها، وسائر الزائرين لها، عباداتهم الدينية الخاصة بكل احترام وحرية.

وكانت القدس معلماً بارزاً في الحضارة العربية والإسلامية، وتوجه إليها العلماء من المشرق والمغرب، لينهلوا من معينها، ويرشفوا من علمائها، ويستفيدوا من تراثها، ويكسبوا من بركاتها وخيراتها، ويتفيؤوا بظلالها، وسعوا لنيل التشرف بها لكاتبة المؤلفات والمصنفات والكتب عنها، وعن فضلها، ومكانتها، وتاريخها، وأبوابها، وأحكامها، وعناية الخلفاء بها، ومحاسنها، وعروبتها، وتغنوا بها نثراً وشعراً، ثم كتبوا عن محنتها، ومآسيها، وما حلَّ بها في التاريخ، والمعارك التي قامت لتحريرها وتطهيرها من أيدي المحتلين من الصليبيين والتتر والإنكليز، إلى العصر الحاضر، وبمناسبة القدس عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٩م، أعد الأستاذ شهاب الله بهادر كتاباً في ٣١٨ صفحة بعنوان «معجم ما ألف في فضائل وتاريخ المسجد الأقصى، والقدس وفلسطين ومدنها، من القرن الثالث الهجري إلى نكبة فلسطين سنة ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م» ونشره مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي عام ٢٠٠٩م، بالإضافة إلى الكتب والدراسات التي كتبت بعد النكبة حتى اليوم.

رابعاً: الانتفاضة المباركة المعاصرة:

في الوقت الحاضر تبرزخ فلسطين الطاهرة، وبيت المقدس، والمسجد الأقصى تحت أيدي الاحتلال الصهيوني المعتدي الآثم، وسيطرت عليه العصابات اليهودية من شذاذ الآفاق، وهم ينكلون بالأهل والإخوة، ويكيدون للمسجد الأقصى بالمؤمرات، والحفريات، والاعتداءات، والعبث بسائر المقدسات، وانتهاك حرمة المسجد، ودخول رموز الكفر والشرك والقتل والإرهاب إلى ساحاته، مما أدى إلى **الانتفاضات المباركة ضد العدو الغاصب المحتل**، ومضى على ذلك سنوات، وتنظمت المقاومة المسلحة في الداخل والخارج، وقدموا

مئات الشهداء، وآلاف الجرحى، وآلاف المعتقلين والأسرى والمحبوسين، مع هدم البيوت، وتشريد السكان والنساء والأطفال، ولئن اقتصر ذلك اليوم على أبناء فلسطين، ولكن المسلمين في أرجاء العالم يلهجون لهم بالدعاء والنصر، والحماية، ويعتقدون أن ذلك **واجب عليهم عقيدة،** وينتظرون الساعة التي تتاح لهم للمشاركة في الجهاد والقتال والتحرير، ليجددوا تاريخ الأجداد، وينالوا شرف الشهادة في سبيل الله في فلسطين والقدس والأقصى.

وهذه الانتفاضة من الأعمال الجليلة الخالدة في هذا العصر، لأن حق الشعب والأمة بالقدس والتحرير لا يمكن التخلي عنه، أو السكوت عليه، بل تبذل في سبيله الدماء، كما قال الشاعر:

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجةٍ يُدق

وحققت المقاومة والانتفاضة إنجازات عظيمة، منها وحدة الشعب الفلسطيني، وتحريك مشاعر المسلمين في العالم، واستعدادهم للوقوف مع فلسطين والانتفاضة والمقاومة، وحماسهم للمشاركة والانضمام للجهاد لتحرير المقدسات، وأن دم الشهيد يطهر الأرض، وباب الشهادة مفتوح أمام المجاهدين، وأبواب الجنان تستعد لاستقبالهم، وخاصة العمليات الاستشهادية التي نصَّ الفقهاء عليها بعباراتهم الخالدة، فقالوا: إن المخاطرة بالنفس في القتال والجهاد أمر مشروع، وأما المشككون في ذلك، ووصف الشهداء بالانتحاريين، فإنهم يجانبون الصواب، وحجتهم واهية، إن لم تكن مشبوهة ومدسوسة، وموجهة من الأعداء في الداخل والخارج، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وهذه الآية حجة عليهم، لأنه لا يجوز الاحتجاج بنصف الآية، وقطعها عن السياق فيما سبقها أو لحقها، كمن

يقول: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، فإن الآيات السابقة لهذه الآية تأمر بالقتال والجهاد، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذا هو الجهاد بالنفس، ويتوقف على الجهاد بالمال والإنفاق والتبرع، فقال تعالى بعدها: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ثم قال تعالى بعد ذلك مباشرة، وفي الآية نفسها: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أي أن ترك القتال والجهاد، والبخل بالمال وعدم الإنفاق في سبيل الله، يؤدي إلى الهلاك.

والجهاد فرض، وهو ذروة سنام الإسلام، وأعظم الأعمال عند الله، وذكره رسول الله ﷺ بعد الإيمان بالله، عندما سئل عن أفضل الأعمال، فقال: «الإيمان بالله تعالى، ثم الجهاد في سبيله» رواه البخاري ومسلم، وقال أيضاً: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» رواه أبو داود، وإن الأمم الحية لا ترضخ لاستعمار ولا احتلال ولا استعباد، ولا لذلٍ واضطهاد.

وهنا يجدر التذكير **بدور المسلمين عقيدة** في العالم تجاه فسطين وبيت المقدس والانتفاضة، لنوكد أن الجهاد ثلاثة أنواع رئيسية، يبدأ بالعلم والكلمة والدعوة والنية والدعاء، وهذا واجب -**عقيدة**- على كل مسلم عامة، والعلماء خاصة، ثم يأتي المال والإعداد، وهذا واجب -ديانة- على الأغنياء والأثرياء أولاً، وعلى كل مستطيع، ولو بالقليل، ثانياً، ثم يأتي الاشتراك في القتال والتضحية بالنفس، ويجب على كل مسلم أن يشارك في أحد الأنواع، أو كلها، ولو بالنية والكلمة والتضامن وشد الأزر والدعاء لتحقيق النصر للمجاهدين، ثم لدعم الانتفاضة والمقاومة بالمال المتاح، وهو كثير وكثير اليوم

في أيدي المسلمين، ويبقى النوع الثالث الذي تكفل به -اليوم- الشعب الفلسطيني الشقيق في فلسطين الجريحة.

وأكد العلامة الجصاص الرازي في تفسيره «أحكام القرآن» أن الجهاد بالعلم والدعوة هو أول وأهم مراحل الجهاد.

وإننا من منطلق العقيدة والإيمان لازلنا مع العهد الإلهي في القرآن الكريم عن فلسطين واليهود فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧]، ومع الوعد النبوي الصادق القائل «لا تقوم الساعة، حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله» رواه البخاري ومسلم.

رابعاً: عقيدة المسلم المعاصر:

إن قضية فلسطين وبيت المقدس والأقصى قضية وطنية، وعربية، وقومية، ودينية، وعقدية، وإسلامية، وإنسانية، وقضية كل حر شريف، وعاقل متزن، وكل مسلم ومؤمن، يؤمن بالحق والعدل، ويجب أن يساهم في دعم المقاومة، وفلسطين، لتحريرها. وطرد العدو الغاصب منها، ويعيد الربط من جديد بين قدسية الإسراءِ ومعانيه، وشرف الانتفاضة والمقاومة واستمرارها، حتى يتحقق النصر بإذن الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وما ذلك على الله بعزيز، وهو ما حصل في التاريخ، ويؤيده الكفاح والمقاومة في العالم.

ولما احتل الفرنج الصليبيون القدس وفلسطين هبَّ العرب والمسلمون في أرجاءِ المعمورة لتحريرها، والحفاظ عليها، وعلى قداستها، وعروبتها، وإسلامها، وتأمين حرية العبادة فيها، والحفاظ على الأماكن المقدسة، حتى

تحقق لهم ذلك على يد القائد صلاح الدين، وتنفس الناس الصعداء، وشفي المسلمون بعد ضنك ومرض عضال، وتكرر ذلك في عهد التتار وعين جالوت، ثم جاء احتلال الإنكليز الذين مهدوا الطريق لعصابات صهيون، حتى دنسوا طهرها، وإن التاريخ ليعيد نفسه، ما دام في القلب نبض، وفي الصدر نفس، وفي العقل إيمان وعقيدة ودين، وهو ما ظهر حاضراً في انتفاضة فلسطين أولاً، وانتفاضة الأقصى ثانياً، وتهيؤ المقاومة ثالثاً، مع وقوف ملايين المسلمين في مختلف أنحاء العالم رابعاً، مع تحرك المشاعر، وإعادة الأمل، وزيادة الثقة بوعد الله بالنصر، إذا تحقق الشرط، وهو العودة إلى حظيرة الدين، والإيمان، والعقيدة مع الصبر. قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وإن هذا اليوم لآتٍ، وإن غداً لناظره لقريب، وأليس الصبح بقريب، وبعد ظلام الليل يبزغ الفجر، ويطل النور. وهذا أمل المسلم المعاصر بالله تعالى، وهذا واجبه، لتحيى الأمة حياة كريمة عزيزة بإذن الله.

خامساً: الشروط والنتائج:

إن معالجة الوضع القائم، ونتيجة للمقدمات السابقة، ولتجارب التاريخ، نبين النقاط المهمة الآتية:

١- إن فلسطين وبيت المقدس، والأقصى، **ليست قضية فلسطينية فحسب، بل هي عربية وإسلامية، ودينية، وإنسانية**، وإن من الخطأ الجسيم اعتبار منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، ولقضية

فلسطين، وترك الفلسطينيين وحدهم أمام أعتى الدول، وأمكر الشعوب، وأخبث الأمم، بل يجب على كل العرب والمسلمين أن يكونوا في صف واحد مع فلسطين والقدس والأقصى، بل وحتى المسيحيين وأنصار الحق والعدل في العالم.

٢- لا يجوز، ولا يصح، أن يتم التفاوض بين الوفد الفلسطيني والصهيوني فحسب، بل يجب أن يكون **التفاوض دولياً**، وأن تشترك جميع الوفود العربية والإسلامية في حل قضية فلسطين والقدس والأقصى، مع مشاركة الفاتيكان والمسيحيين في العالم.

٣- يجب على العرب والمسلمين في أنحاء العالم **التضامن مع فلسطين والشعب الفلسطيني**، إعلاناً لعقيدتهم وإيمانهم ودينهم، وأن يتم التظاهر في الوطن العربي والإسلامي والعالمي، لنصرة بيت المقدس، واستدعاء سفراء دول العالم لتوضيح الأمر لهم في كل آونةٍ، وعند كل اعتداء صهيوني على الأرض والشعب، والمقدسات، وخاصة أمام المؤامرات الخطيرة الماكرة على القدس بالذات، والمسجد الأقصى بالحفريات.

٤- نوصي العرب والمسلمين في العالم **بالقوة، ثم بالقوة، ثم بالقوة**، لأنها الوحيدة لحماية الحق أولاً، ولأنها الوسيلة الأساسية التي يفهمها العالم اليوم، وهي ما دعا إليها القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي ذلك يتم الإنسجام بين عقيدة المسلم وإيمانه وقلبه ومشاعره وأعماله وحياته، وعليه يتوقف النصر والفوز بإذن الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني والعشرون

مقالات في قضايا طبية[1]

أولاً: نقل دم الإنسان

الدم أحد عناصر جسم الإنسان المهمة، بل الأساسية للحياة، وقد خلقه الله تعالى لوظائف عدة، ولا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه، وشاءت حكمة الله تعالى أن يجعله متوازناً ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وأي خلل في مقداره، أو في تركيبه يؤدي إلى الاضطراب في وظائفه، ويؤثر على غيره، وغالباً ما يؤدي إلى الهلاك والموت، لأنه مادة الحياة للإنسان، وفيه السر الإلهي، وهو سائل يجري في الأوعية الدموية، ويتكون من الخلايا الدموية التي تنقسم إلى كريات حمراء تحمل الأكسجين من الرئتين إلى الأنسجة، ثم تعود بثاني أوكسيد الكربون لإخراجه في الزفير، وكريات عديمة اللون، وتسمى الكرات البيض، ولها وظائف مهمة في محاربة الجراثيم، ويحوي السائل الدموي على أقراص تساعد في عملية تخثر الدم لمنع الترف عن طريق الصفيحات الدموية، كما يقوم الدم بنقل المواد الغذائية من جهاز الهضم إلى سائر الجسم، ونقل الفضلات لطرحها خارج الجسم، ويحافظ على حرارة الجسم بدرجة ثابتة.

ومن أحكامه الفقهية أنه نجس العين، وخروجه ينقض الوضوء عند

---

(١) انظر المزيد من ذلك في كتابنا «فتاوى فقهية معاصرة» الباب ٢٥ فتاوى الطب والمعالجة والأدوية، ومن ذلك: العلاج بالخلايا الجذعية شرعاً، ص٧٦٠، وانظر مقالاً عن نقل الأعضاء = فصل ١٦ فتاوى.

الحنفية، ولا يجوز بيعه، وخروجه من الرحم يدل على بلوغ الفتاة، وانقطاعه يدل على الطهر، فهو مما كتبه الله تعالى على بنات حواء، وهو علامة على الدورة الشهرية، والحمل، والحيض، والنفاس، واليأس، ويقوم بوظائف خاصة ومهمة في حياة المرأة، والجنين، والإنجاب والإرضاع، وغير ذلك.

وبما أن الدم مقدر في الجسم، ومتوازن، فإن زادت كميته كان علاجه بالسحب، كالفصد والحجامة، ونقل الدم، وإن نقصت كميته وجب تغذية الجسم بكمية تماثل النقص، وهنا يأتي موضوع نقل الدم من إنسان لإنسان، مع أنه نجس، ولا يجوز بيعه، وتتوقف الحياة عليه، ويعجز البشر حتى الآن عن صناعته أو إيجاد البديل له، لأنه يحمل سر الحياة، ويدل على عظم الخالق البارئ، وقدرته، وحكمته، ولطفه بخلقه.

ويلحق بحكم نقل الدم التبرع به من جهة، وحفظه في بنوك الدم احتياطاً للحوادث والنكبات وإجراء العمليات الجراحية التي تستنزف كميات كبيرة من دم المريض، ويحتاج إلى تعويضها، وإلا فقد حياته، كما يحتاج الإنسان لنقل الدم من غيره عند حالة فقر الدم، أو مرض فقر الدم لفقدان بعض العناصر الأساسية فيه، وخاصة عنصر الحديد في خضاب الدم، أو فقر الدم لسوء التغذية، وفي حالات النزيف المزمن، أو لسوء الامتصاص للحديد في جهاز الهضم، أو الإسهال المزمن، أو بسبب تكسر الكريات الحمراء وتحطيمها أثناء الدوران في الجسم كحالة مرض الملاريا، أو بسبب العجز عن تكوين الدم في نخاع العظام، أو لابيضاض الدم للزيادة المفرطة في الكريات البيض، أو لنقص فيتامين ب١٢، أو لنقص عمر الكريات لأمراض تسبب سرعة انحلال الكريات الحمراء، ويضاف إلى ذلك حوادث الآلات المختلفة، والعمليات الجراحية، والحروب، وحوادث السير.

ونظراً لهذه الأهمية والوظائف للدم، وضرورة الاستفادة منه مع التقدم العلمي، وتوقف الحياة عليه، فقد اتفق علماء العصر على جواز نقل الدم من إنسان لإنسان، لأن ذلك يتفق مع روح الدين الإسلامي في الحفاظ على النفوس، لأنه من باب إحياء النفس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، ويلتقي ذلك مع اليسر في الدين، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويرفع الحرج والمشقة كما أراد الله تعالى بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وفيه معنى الإحسان والإيثار، والنجدة والإغاثة، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن فرّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ودخل ذلك في التعاون على الخير والبر والتقوى، وإنقاذ حياة الآخرين، وصحتهم، وإدخال السعادة والسرور والحبور لهم، وخاصة في باب التداوي.

ولكن لا بد من تحديد بعض الشروط لجواز نقل الدم، أهمها:

١- أن يكون النقل تبرعاً، فلا يجوز بيع الدم أصلاً، لأنه نجس، ولأن بيعه فيه إهدار لكرامة الإنسان، فلا يجوز بيع أعضاء الإنسان الحي، تكريماً له.

٢- أن توجد الحاجة أو الضرورة للنقل، حتى لا يكون ذلك عبثاً، سواء كانت الحاجة والضرورة قائمة في الحال، أو متوقعة، ومن هنا يجوز حفظ الدم في بنوك الدم للاحتياط، مع التقدم العلمي في إجراء الحفظ والتخزين.

٣- أن يغلب على الظن النفع بالدم المنقول، ومن هنا يشترط تحديد الزمرة

الدموية التي توصل إليها العلم الحديث المتطور، وإلا انقلب الأمر إلى تسمم وخطر.

٤- أن يتحقق عدم الضرر أو الخطر على المأخوذ منه الدم؛ لأنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، ولأن الضرر (على المريض) لا يدفع بضرر مثله (على المأخوذ منه).

٥- أن يتم النقل والتعويض بإشراف طبي، ليتم الأخذ بطريقة صحيحة، ولا تؤدي لنقل الأمراض عن طريق الإبر، وأن يتأكد من مطابقة زمرة الدم المأخوذ، وزمرة المعطى، ولتحديد المقدار المأخوذ من الأول، والمقدار الذي يحتاجه الثاني.

٦- أن يكون الدم خالياً من الأمراض المعدية، كالملاريا، والزهري، وفيروس التهاب الكبد من نوع «ب» خاصة، وفيروس الإيدز وغيره.

وأخيراً فإن نقل الدم يجوز بين المسلم وغير المسلم، لأنه من باب الرعاية والتغذية للمضطر، وقياساً على جواز التصدق من المسلم على غير المسلم، إذا كان محتاجاً لذلك، وإن نقل الدم لا تثبت به المحرمية بين الطرفين، خلافاً للإرضاع بالحليب.

ونسأل الله العفو والعافية، وتمام الصحة وحسن الختام، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: حكم الاستنساخ في الشرع

الحمد لله الذي خلق الإنسان من ذكر وأنثى، وشرع الزواج لحفظ النسل والإنجاب، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث هدى ورحمة للعالمين، ورضي الله عن الآل والأصحاب ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد.

فقد تقدم العلم في العصر الحاضر تقدماً مذهلاً، وتطور تطوراً سريعاً، ووصل إلى معرفة الجينات وخريطة الخلية البشرية وتكوين الكريات، إلى أن وصل أخيراً إلى تلقيح الخلايا البشرية ذاتياً، ودعمها لتكون مخلوقاً كاملاً بدون التلقيح الطبيعي بين الذكر والأنثى، أو التلقيح الصناعي بالأنابيب، وبدأ ذلك بالنبات، ثم انتقل إلى الحيوان، وتم إنتاج الشاة «دولي» بذلك، ثم أثير موضوع الاستنساخ البشري.

ونبادر إلى القول: إن الإسلام يدعو إلى العلم النافع بأوسع أبوابه، ولا يقف في وجه التقدم العلمي، ويبارك كل جهد بشري في مصلحة الإنسان والحياة، ويثمن كل اختراع يفيد الناس والبشرية، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وذلك بالثناء على الباحثين الذين يصلون بعلمهم الليل بالنهار لكشف عظمة الله في الكون، ويبينون أسراره في خلقه.

ولكن العلم سلاح ذو حدين، يستعمل للخير، وهو الأصل والغالب،

ويستخدم للشر والفساد والإفساد والضرر، كالسلاح النووي، وأسلحة الدمار الشامل، والسموم المخترعة، والسحر، والإدارة أو السياسة المدمرة، والأدوية القاتلة.

ومن هنا كان المبدأ الأول في الإسلام أن كل اختراع، أو اكتشاف، أو دواء، أو جهاز، أو آلة، أو علم، يخدم مصالح الناس وينفعهم، فإن الشرع يباركه، ويقدر فاعله، ويثني عليه، ويحرص على الاستفادة منه، مهما كانت جنسيته ودينه، فالحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها، والعلم لا يحتكره أحد، والحضارة ملك للإنسانية جميعاً، واطلبوا العلم ولو بالصين، والعلم أمانة في أعناق الناس.

وحتى العلم الواحد، أو الجهاز، قد يستعمل للأمرين، كالذرة، والكهرباء والتطور النووي، والتلفاز، والهاتف، فإن استعمل للخير كان مباركاً ومقبولاً، وإلا كان حراماً إذا صار للتدمير والإبادة، والإفساد والإضرار.

وإن الاستنساخ الذي تم على الحيوان والنبات هو في حقيقته تطور علمي، وهو أخذ خلية، أو نواة، من شيء موجود مخلوق، ثم تتم تهيئة الظروف المناسبة لها للإنبات والتكاثر، فهذا جائز شرعاً، ولا شيء فيه، ونباركه، بشرط واحد، وهو أن يكون فيه نفع، ولا يترتب عله مفسدة أو ضرر للإنسان والحيوان، والمجتمع والبيئة، بحسب ما يقرره العلماء المختصون، وأهل الخبرة والمعرفة، ويكفي أن يكون خيره ونفعه أكثر من ضرره، وهو ليس خلقاً وإيجاداً من العدم، بل هو تطوير، وتكاثر، وإنماء وتنمية، فهو أشبه بمن يأخذ فسيلة، أو غصناً، أو عضواً من نبات، ويؤمّن له الظروف للإنبات والتكاثر، ليكبر وينمو ويتعدد.

ولكن الإنسان، وهو المخلوق المكرم من الله تعالى، وهو الخليفة في الأرض، والذي سخر الله له ما في السموات والأرض، يختص بالروح، وجاء الإسلام لينفرد عن غيره بربط المنافع المادية والعلمية بالقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية، فلا يكفي أن يكون الاختراع نافعاً مادياً، وظاهراً، وللوهلة الأولى، ولكنه يهدم الأسس والمبادئ والقيم والأخلاق، فيصبح حراماً، كالتلقيح الصناعي بين غير الزوجين، واستئجار الرحم، والإجهاض بدون سبب، والأدوية التي تترك مضاعفات خطيرة.

ومن هذا النوع الثاني الاستنساخ البشري الذي منعته معظم دول العالم، وحرمته معظم البلاد المتقدمة، ومعظم المفكرين في العالم، لما فيه من مخالفة للفطرة، وما يترتب عليه من أضرار خطيرة، بسبب التلاعب بالجينات، والعبث في خلق الإنسان وخريطة النواة، ثم الوصول إلى المتاجرة بأعضاء الإنسان وبيعها كقطع غيار السيارات والآلات، وما يلحق ذلك من إهانة للإنسان، واعتباره سلعة للاستهلاك، مع ما يؤكده العلماء من خطر الاستنساخ البشري على الصحة، والجسم، واختلاط الأنساب، بل ضياع النسب أو العرض الذي اعتبره الشرع أحد الضروريات الخمس، مع حفظ النفس، والعقل، ثم الدّين والمال، وما يؤدي إليه الاستنساخ البشري من ضياع الهوية والشخصية، وما يوحي إليه من التمييز العنصري لاختيار جينات معينة، ثم التهرب من المسؤولية.

وإن دول العالم، والمفكرين فيه، لا يربطون المنع بالحرام، والفساد، والمعارضة للدين والأخلاق، فكيف إذا وضعنا ذلك بالمنظار الشرعي الإسلامي، الذي يمنع -أصلاً- ويحرم ما يمس الدّين والأخلاق والأسرة والقيم والعدالة، مع

ما يؤدي إلى الضرر والفساد والانحراف، وحط كرامة الإنسان، وتأكيد المخاطر عليه، وتدمير روابط النسب والقرابة وصلة الأرحام، وإلغاء العواطف البشرية، وتحطيم البنية الاجتماعية للإنسان، وهدم مؤسسة الزواج المقدسة التي احترمتها جميع الأديان، وأقامت عليها الأحكام الشرعية الثابتة، وصدرت بها الأنظمة والقوانين، مما يؤدي هدمها إلى المزيد من الإجرام والجرائم.

وهذه بعض الأسباب التي دعت المؤسسات العلمية في الشرق والغرب للوقوف في وجه الاستنساخ، ومنع العبث الجنوني في كينونة الإنسان، ثم حرمته المراجع الدينية المسيحية واليهودية، وأصدر علماء الإسلام المعاصرون الفتاوى بتحريمه.

لكن إذا كان الاستنساخ البشري جزئياً للأعضاء، أو وسيلة علاجية لطرف أو عضو، فلا مانع منه شرعاً، ويعتبر من باب التداوي وإجراء العمليات الطبية، بشرط وضع الضوابط الصارمة لتكنولوجيا استنساخ الأعضاء بما يتفق مع القيم الدينية والأخلاقية، والاجتماعية والقانونية والطبية، وفي المجال العلاجي والدوائي فقط.

والخلاصة أن الاستنساخ البشري لإنسان كامل يعتبر جريمة أخلاقية، وقانونية، وشرعية، ومعصية دينية، ويشمل ذلك القائمين عليه، والمشجعين له، والممولين لدعمه، والمسوقين له، ويجب التحذير منه، والوقوف في وجهه، والتعاون على كشف حكمه ومخاطره، وضم الصوت للمنادين بمنعه عالمياً، وأنه حرام شرعاً، والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: فقه المرضى والمعاقين

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم ابتلاه بأنواع الابتلاءات، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. والصلاة والسلام على رسول الله القائل: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»[١] ورضي الله عن الآل والأصحاب أجمعين الذين يمثلون مختلف شرائح المجتمع، وفئات الناس.

◈ تعريف المرضى والمعاقين:

إن المرضى جمع مريض، وهو من به علة أو نقص أو انحراف، **والمرض:** كل ماخرج بالكائن الحي عن حد الصحة والاعتدال من علة أو نفاق أو تقصير في الأمر، وقد يكون مادياً في الجسم، وقد يكون معنوياً في العقل والقلب، قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي نفاق وفتور عن تقبل الحق، **والمرض عامة:** انحراف الصحة عن حد الاعتدال لآفة[٢]، ويدخل في ذلك المجنون وكل معاق عقلياً

والمعاقون: جمع معاق، من عاقه عن الشيء، منعه منه وشغله[٣]، والمعاق هو إنسان أصيب في عضو من أعضائه، أو في حاسة من حواسه، أو انتابه ضعف في جسمه، فالمعاق هو من ابتلي في نفسه أو جسده، أو أصيب بعاهة، أو نقص، أو عارض يمنعه من من مزاولة شؤون الحياة بشكل اعتيادي، أو

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء ص ٣٩٣ رقم/ ٢٣٩٦، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء ص ٤٣٣، رقم/ ٤٠٣١، وأحمد ٤٢٧/٥-٤٢٩.

(٢) المعجم الوسيط ٨٦١/٢، الموسوعة الفقهية الميسرة ١٧٦٨/٢.

(٣) المعجم الوسيط ٦٣٧/٢.

بدون مساعدة من غيره، وقد يدخل فيه المريض والمشلول، والمقعد، وفاقد الإحساس، وغيرهم.

فالمريض أو المعاق **إنسان** في نظر الإسلام والواقع والحياة، ويتمتع بجميع حقوق الإنسان، ويدخل في خطاب الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ويجب على الأصحاء، ثم الجمعيات، ثم الأغنياء، ثم الدولة توفير حاجاتهم، وتأمين الحياة الكريمة اللائقة المناسبة لهم.

والإعاقة أو المرض أنواع كثيرة، ودرجات عدة، وأهمها ثلاثة: إعاقة أو مرض في أحد أعضاء الجسم وأطرافه كالعين، واليد، والرجل، وإعاقة أو مرض في أحد الحواس أو في عدة حواس معاً، كالبصر، والسمع، والنطق، والأعصاب، وإعاقة أو مرض يورث الضعف فقط في الجسم، دون نقص في الأعضاء أو الحواس.

وكل هذه الأنواع ابتلاء، وإن اختلفت الأسماء والعناوين والصفات، إما مرضى أو معاقون أو ذوو الاحتياجات الخاصة، وآخر عنوان تبنته الأمم المتحدة **هو** «**ذوو الإعاقة**» وقد صدقت ثمانون دولة على اتفاقية بشأنهم، مع المطالبة بحقوقهم، وهو ماسبقت إليه الشريعة والقرآن الكريم قبل خمسة عشر قرناً.

◈ التكليف الشرعي عامة:

إن **الإسلام عام للناس جميعاً**، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وإن الله تعالى أنزل **الأحكام الشرعية لجميع الناس**، لتحقيق مصالحهم، بجلب النفع لهم، ودفع الضرر والأذى والفساد عنهم، في مختلف الأحوال

والأطوار والأزمان والأماكن، علماً بأن التكاليف الشرعية بعضها يتعلق بالجسم، وهي محل البحث، وبعضها يتعلق بالمال، كالزكاة والنفقة والصدقات.

وإن **الله يعلم حقيقة البشر**، وما يعتريهم من قوة وضعف، وصحة ومرض وإعاقة، وغنى وفقر، وصغر وشباب وهرم وعجز، وقصر وطول، وما ينتابهم من أعراض ونكبات ومصائب وصعوبات، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ٤]، وهو الحكيم في شرعه، والخبير بخلقه، اللطيف بعباده، الرحيم بهم، **لذلك أنزل أحكامه لتغطي جميع أحوال البشر**، وجعلها قسمين، **الأول: العزائم**، وهي ماشرعه الله تعالى لعامة عباده من الأحكام ابتداء، لتكون لصالح المكلفين عامة في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والأحكام الدستورية والدولية والقضائية والجنائية، **والقسم الثاني: الرخص**، وهي الحكم الثابت على خلاف الدليل (الأصلي في العزيمة) لعذر، والأعذار التي تعتري الإنسان كثيرة كالمرض والإعاقة والسفر والنسيان والعسر والنقص وعموم البلوى والاضطرار[(١)].

ومن أحكام الرخص وأسبابه وضع الفقهاء القاعدة العامة: «**المشقة تجلب التيسير**»[(٢)]، استنباطاً من نصوص شرعية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله

---

(١) الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، الدكتور محمد الزحيلي ١/٤٣٠.

(٢) من فروعها: الأمر إذا ضاق اتسع، والضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها، والاضطرار لايبطل حق الغير، ويجوز في الضرورة مالا يجوز في غيرها انظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، الدكتور محمد الزحيلي ١/٢٥٧ وما بعدها.

تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ومنها قوله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وفي لفظ «رفع عن أمتي»[١]، وقوله ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين، و لم تبعثوا معسرين»[٢]، وقوله ﷺ: «إن دين الله يسر، ثلاثاً»[٣]، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

وإن **التكليف العام للمسلمين والناس أجمعين مرتبط بالعقل**، أي الإدراك والوعي، فمتى وجد العقل والإدراك وجب التكليف، لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ»[٤]، فإن فقد العقل والوعي والإدراك زال التكلف، ولذلك وضع العلماء قاعدة عامة في ذلك «**إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب**» أي إذا أخذ الله تعالى من الإنسان العقل والإدراك والوعي أسقط عنه ما أوجب من التكليف والأحكام أو بمقدار ما أخذ.

◈ التكليف الشرعي لذوي الإعاقة خاصة:

إن تكليف المرضى وذوي الإعاقة يدخل في التكليف العام أولاً، ثم بالتكليف الخاص، وهو **بمقدار الطاقة والاستطاعة، وحسب القدرة والإمكانية**

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه ٦٥٩/١، والحاكم ١٩٨/٢، والدارقطني ١٧٠/٤.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري ٨٩/١، وأبو داود ١٠٣/١ ط/ دار إحياء السنة، وأحمد ٢٣٩/٢، ٢٨٢.

(٣) هذا الحديث رواه الإمام أحمد ٦٩/٥، ورواه البخاري جزءاً من حديث ١٥/١ ط دار الكتب العلمية.

(٤) هذا الحديث أخرجه أبو داود ٤٥٢/٢، والحاكم ٢٥٨/١، ٥٩/٢، ٣٨٩/٤، والنسائي ١٢٧/٦، وابن ماجه ٦٥٨/١، وأحمد ١٠٠/٦، ١٤٤، والدارمي ٦١٣/٢، والبيهقي ٥٧/٦، وهو حديث صحيح.

بكل منهم خاصة، فالمرض على درجات، فإن كان عقلياً وكلياً سقط التكليف نهائياً عن المجانين، وإن كان المرض العقلي نسبياً كان الحكم على المعتوهين بحسب إدراكهم وقدرتهم، وإن كان المرض في الجسم فكل مريض بقدر طاقته ومقدرته، ويكلف من الأعمال مايستطيع، لقوله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولما اشتكى عمران بن حصين رضي الله عنه من المرض والعجز عن الصلاة قائماً قال له رسول الله ﷺ: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[1]، ومثل ذلك الصيام لقوله تعالى في آيات الصيام: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله تعالى: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، والمقصود المرض بأنواعه ودرجاته التي يؤثر عليه الصيام، كما يبينه الفقهاء والأطباء.

وهكذا بقية المعاقين، **فالتكليف يتنوع حسب نوع الإعاقة، ودرجتها،** ليطبق كل منهم مايقدر عليه، وينفذ مايستطيع تنفيذه حسب الآيات السابقة، ولما ورد من آيات أخرى تنص على رفع التكليف والحرج عنهم في الأعمال التي لايطبقون القيام بها، قال تعالى: ﴿**لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ [النور: ٦١، الفتح: ١٧]، ولما أوجب الله الجهاد، وبين درجات المجاهدين، وأنهم يفضلون القاعدين والمتخلفين عنه، استثنى الله تعالى من القاعدين ذوي الإعاقة ومن يصيبه حرج وضرر ومشقة

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري، وهذا لفظه ٣٧٦/١ باب إذا لم يطق قاعداً، والبيهقي ٣٠٤/٢.

وعجز عن الجهاد، فقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ﴾ [النساء: ٩٥]، فإن كان ذوو الضرر عاجزاً جسمياً فلا حرج عليه، ويكلف بما يقدر عليه كالجهاد باللسان والدعوة والعلم والمال.

وهكذا يتفاوت ذوو الإعاقة **بالتكليف بالأحكام حسب حالتهم**، كالكفيف فاقد البصر، والأصم «الأخرس» والأعرج، وفاقد اليد، وفاقد الرجل، ومقطوع اليدين، ومقطوع الرجلين، والقزم، والمتلعثم بالنطق، والأعور، وصاحب الارتعاش، وسلس البول، ومنطلق الدبر، وغيرهم.

التكليف بالأحكام الشرعية والفقهية تفصيلاً:

نعرض بعض الأحكام الشرعية والفقهية الخاصة بذوي الإعاقة والمرضى وذوي الاحتياجات الخاصة.

١- **النطق بالشهادة:** وهي أول أركان الإسلام، وهي التعبير عما في القلب من الإيمان والعقيدة، والنطق بالشهادة فرض على كل مسلم ناطق، أما الأخرس فإنه مفطور -كبقية الناس- على الإيمان لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة»[1] ويكفي منه الإشارة بيده إشارة مفهمة، كالنظر إلى السماء، أو الإشارة للسماء، ولذلك قال العلماء القاعدة الفقهية «**الإشارة المعهودة للأخرس كالبيان باللسان**»، فإن كان يعرف الكتابة، فالعبرة لكتابته، لأنها أفضل بياناً، وأدق تعبيراً

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري، ٤٥٦/١ رقم/١٢٩٢، ١٣١٩، ومسلم ١٠٧/١٦ رقم/ ٢٦٥٨، والترمذي ص٣٥٦ رقم/ ٢١٣٨، ومالك ص١٦٥.

عما في قلبه، ويشمل ذلك جميع تصرفات الأخرس، ومنها العقود عامة، والزواج خاصة، كما تنطبق هذه الأحكام على جميع المعاقين بالنطق، والتلجلج، والتلعثم، وغيرهم.

٢- **أداء الصلاة:** وهي ثاني أركان الإسلام، وتجب على كل بالغ عاقل، وتؤدى حسب الطاقة والاستطاعة، فالأخرس يؤدي جميع حركاتها إلا القراءة فإنها بقلبه، والمريض حسب قدرته، والعاجز والمقعد والمشلول يؤدي الأقوال كاملة، ويقوم بالأفعال حسب قوته وقدرته، للحديث السابق، ولو كان عاجزاً عجزاً كاملاً عن الحركة فيؤديها بحركة العين، ويسقط عنه القيام والركوع والسجود، بحسب العجز، ولا تسقط الصلاة عن المسلم نهائياً إلا بالأداء أو القضاء، ويستثنى من ذلك فاقد الإدراك والوعي فيسقط عنه التكليف عامة، ومنه الصلاة، كما تسقط صلاة الجماعة في المسجد عن العاجز فقط عن الحضور والمشي.

٣- **الطهارة:** وهي شرط للصلاة والطواف، وتجب على المسلم بحسب القدرة والطاقة، ولو كان ذلك بالاستعانة بغيره في وضوئه وغسله من الحدث الأكبر (الجنابة والحيض)، فإن فقد الماء أو عجز عن استعماله في بدنه لمرض أو ضرر من الماء، أو عجز عن تناوله فهنا أوجد الشرع الحنيف بديلاً وهو التيمم الثابت بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وهو ضربتان على الأرض أو ما يقوم مقامها، ومسح الوجه ثم اليدين، فإن عجز عن التيمم سقط عنه شرط الطها رة، وصلى العاجز بدون طهارة للضرورة التي تقدر بقدرها، حسب الحاجة والواقع، فإن قدر عليها في وقت آخر فعلها وصلى وطاف، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ

صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦]، وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر عندما أصابته جنابة وعجز عن استعمال الماء في البرد والسفر: «إنما كان يكفيك هكذا، وضرب يديه على الأرض، ومسح وجهه وكفيه»[(١)]، وهذا من باب الرخص التي أشرنا إليها سابقاً، كما أن الكفيف خاصة، وذوي الإعاقة عامة، يتطهرون بحسب القدرة والطاقة، ولو بقي شيء من النجاسة فيعتبر معفواً عنه، ويدخل في المعفوات التي بينها الشرع، وعرضها الفقهاء، ويمكنهم الاستعانة بالورق بدلاً من الماء في الاستنجاء بعد قضاء الحاجة.

٤- **الصيام**: وهو الركن الثالث من أركان الإسلام، وهو فرض في شهر رمضان على كل مسلم بالغ عاقل صحيح، فإن كان مريضاً مرضاً مؤقتاً، ويأمل الشفاء، مع رأي الطبيب عند الحاجة فيفطر، ويقضي بدل الأيام التي أفطرها بعد رمضان، وإن كان مرضه دائماً لاشفاء منه برأي الأطباء، فيفطر المريض وكل عاجز عن الصيام عجزاً دائماً، ويدفع عن كل يوم فدية، وهي طعام مسكين، وسبق بيان الآيتين في ذلك.

٥- **الزكاة**: وهي الركن الرابع من أركان الإسلام، وتجب على كل مسلم غني، ولايشترط لوجوبها وأدائها العقل والإدراك عند جمهور العلماء، فكل مسلم غني تجب عليه الزكاة، فإن كان عاجزاً ومريضاً ومعاقاً مهما كانت درجة الإعاقة فإن الولي أو الوصي أو القيم يخرج عنه الزكاة، ويكتب له الأجر، لأن الزكاة حق معلوم للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء، لتحقيق

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري ١٢٩/١ رقم/٣٣١، ومسلم ٦١/٤ رقم/ ٣٦٨، وأبو داود ٧٧/١.

التكافل الاجتماعي، وهي عبادة مالية أي تجب في المال.

وإن كان المسلم فقيراً، ومعاقاً، فيستحق الزكاة، ويعطى منها ما يسد فقره، وما يحتاجه لإعاقته وتطبيبه وعلاجه، أما المعاق الغني فلا تجوز عليه الزكاة، لأن نفقته وعلاجه من ماله.

٦- **الحج**: وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو عبادة جسدية ومالية، وفرض مرة واحدة في العمر، ويجب على كل مسلم مستطيع لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وتتمثل الاستطاعة بالقدرة المالية والنفقة الكاملة لنفسه ولمن تجب عليه نفقته، مع الاستطاعة الجسدية، فإن كان المسلم غنياً قادراً مالياً على الحج، ويعجز عن أداء الفريضة، فالعجز درجات، فإن كان عاجزاً عجزاً نهائياً عن السفر والذهاب إلى مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، فيسمى في الفقه «معضوباً» وينيب غيره بالحج عنه بدفع المال له، ويكتب له أجر الحج وثواب العمرة، وإن كان يستطيع السفر وركوب الطائرة والسيارة، فيؤدي من أعمال الحج **ما يستطيع**، من النية والإحرام، ثم الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، والمبيت، ورمي الجمار، ويستعين بغيره في الركوب والطواف، كما هو مشاهد عند الكعبة المشرفة، وفي المسعى، بركوب العجزة وذوي الاحتياجات الخاصة على الدراجات وغيرها، أو بالحمل، ويصح أن ينيب عنه غيره فيما يعجز عنه كالرمي والذبح عند الحاجة.

٧- **العقود** التي يحتاجها المريض والمعاقون وذوو الاحتياجات الخاصة، فإنها تصح منهم إن كانوا قادرين عليها كالمريض جسدياً، والكفيف، بشرط

توفر العقل، أو الإدراك والوعي، ويجوز لهم النيابة فيها جميعاً، حتى في الزواج الذي يعتبر أهم العقود، فإن كان الإنسان فاقداً للعقل فيقوم الولي أو الوصي أو القيم بمباشرة جميع العقود لهم عند المصلحة والحاجة، حتى يزوج الولي ولده المجنون، أو ابنته المجنونة، عند المصلحة والحاجة، كما يتولى الولي أو الوصي أو القيم التجارة لذوي الإعاقة، والقصر، وجميع ذوي الاحتياجات الخاصة، لأن الأمر متعلق بالمال والمصلحة فيه.

٨- **أحكام القضاء**: وذلك حسب الإعاقة والقدرة، والإدراك والوعي، فيكون المعاق مدعياً ليطالب بحقوقه، ومدعى عليه للمطالبة بواجباته، وشاهداً حتى الكفيف في حالات محدودة نص عليها الفقهاء، ويمكن أن يكون خبيراً فيما يتقنه ويختص به، بل يمكن أن يكون محامياً عند القدرة والاختصاص، ويمكن انتقال رجال الضبط القضائي والنيابة العامة وقاضي التحقيق لمتابعة ما يخصهم.

٩- **الميراث والوصية**: إن المرضى وذوي الإعاقة كالأصحاء تماماً في استحقاقهم الميراث حسب الشريعة الغراء، مع التحذير من حرمانهم من حق الميراث أو التلاعب والتحايل عليهم، وإن مات أحدهم فإن تركته توزع على ورثته حسب الشرع، وكالأصحاء تماماً، وتصح لهم الوصية، وقد تكون أشد استحباباً، وتصح منهم الوصية مع الشروط الشرعية وخاصة العقل.

١٠- **ما يسقط عن المرضى والمعاقين**: يسقط عنهم كل مايعجزون عنه، وإن الأحكام من حيث القابلية للسقوط ثلاثة أنواع، **الأول: لا يسقط مطلقاً** ولا بحال من الأحوال كالشهادة والصلاة وما يقدر عليه

الإنسان عامة، وذوو الإعاقة خاصة، إلا عند فقدان الوعي والإدراك كما أسلفنا، **والنوع الثاني: يسقط إلى بدل،** كالصيام في رمضان وبدله عدة أيام أخر أو الفدية كما أسلفنا، والوضوء والغسل إلى التيمم، والجمع الصوري لذوي الحاجة، والحج إلى النيابة والبدل، وسائر الأعمال والأحكام التي يقوم غيرها مقامها بالقلب أو اللسان أو الأعضاء، ومن هذا النوع أداء الصلاة في البيت، وعلى السرير عند العجز عن أدائها في المسجد، وسقوط الجمعة للعاجز إلى أداء الظهر، وقصر الصلاة بدل إتمامها للسفر وغيره، **والنوع الثالث: يسقط عن المريض وذوي الإعاقة نهائياً،** كالجهاد بالنفس، كما سبق بيانه، والكسب بحسب نسبة العجز، والحج في قول ضعيف، والزكاة عن الصغير عند الحنفية، وكل مالايطيقه للآية الكريمة.

١١- **الحجر على المعاق:** إذا كانت الإعاقة تتعلق بالعقل، أي بالإدراك والوعي، فقد قرر الشرع الحنيف الحجر على المعاق، وهو المنع من التصرف بأمواله وما يحتاجه في جسمه كالزواج والطلاق، وعين الشرع ولياً له، وهو الأب ثم الجد، ويحق لهما تعيين وصي بعد وفاتهما على من كانوا يتولون الولاية عليهم، ويختاران الوصي من القرابة أو من غيرهم بشرط صلاحه وخبرته وقدرته على القيام بالوصاية حسبما ورد في كتاب الأوصياء في الفقه الإسلامي، فإن لم يوجد ولي ولاوصي، أو وجد ولم يتوفر فيه الكفاءة والصفات المطلوبة عين القاضي قيماً على الصغار وذوي الإعاقة ليتولى رعايتهم والقيام على شؤونهم الجسدية والمالية حسب المصلحة.

فإن كان ذوو الإعاقة متمتعين بالعقل والإدراك والوعي فيتولون أمورهم بأنفسهم، ولهم أن يستعينوا بغيرهم، أو يوكلوا غيرهم بذلك، حسب باب الوكالة في الفقه الإسلامي.

١٢- الرخص الشرعية: إن الرخص الشرعية في العبادات والمعاملات وجميع الأحكام مقررة شرعاً لكل مسلم إذا وجد العذر، بل يطلب منه الاستفادة منها، لينعم بفضل الله ورحمته وشفقته وتخفيفه على خلقه، لقوله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[1]، وقد تكون الرخصة واجبة، أو مندوبة، أو مباحة، أو مكروهة[2].

ولامانع من جمع الرخص الشرعية للمرضى والمعاقين في كتاب ليستفيدوا منها، ويعملوا بها، ولو كان ذلك من المذاهب المتعددة، ولايعتبر ذلك من التلفيق الممنوع شرعاً، أو من تتبع الرخص الممنوع عندما يكون القصد منه التهرب من الأحكام بدون مسوغ مقبول شرعاً، بل لتعطيل الأحكام، وخاصة مايتعلق بها بحقوق العباد، وما يؤدي لترك العزائم.

وجمع ابن تاج الدين الحنفي (١٠٦٠هـ) كتاباً في أحكام المرضى، وطبعته وزارة الأوقاف بالكويت، كما صنفت عدة كتب في تراجم المكفوفين والأيتام، وفي أحكام الرخص الشرعية، وأعدت رسائل علمية في رفع الحرج في الشريعة، والتخفيف في الأحكام، وأحكام المسنين والعجزة.

---

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد ١٠٨/٢، والبيهقي وابن حبان وصححه، والبزار بإسناد حسن والطبراني (الترغيب والترهيب ١٣٥/٢) ولأحمد (٧١/٢، ١٥٨/٤) «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبل عرفة».

(٢) انظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، مرجع سابق ص ٢٧١، مع المصادر المشار إليها فيه.

◈ آداب شرعية عن المرضى والمعاقين:

إن المرضى والمعاقين جزء من المجتمع، وصنف من البشر، وفريق قائم في الحياة في جميع الأزمان والأماكن، وهم من خلق الله تعالى الذين ابتلاهم، وكل إنسان في الحياة مبتلى بنوع من أنواع البلاء كما أشرنا في المقدمة، ولذلك جاء الشرع بالأحكام والآداب للتعامل بين الجميع، لتحقيق التعاون الكامل، والتكافل الاجتماعي، والضمان المالي، ولتقديم جميع أنواع العون لهم، كرعاية الكفيف (الأعمى) ومساعدته، وتقديم العون له، وحتى بمبادرته بالسلام، مع أنه لا يرانا، وكذلك رعاية الأخرس الأصم، وزيارة المرضى ورعايتهم ومساعدتهم والتخفيف عنهم، ولو بالمجاملة والكلام والدعاء، كما أوجب الشرع الحجر على المعتوه، وتولى الرعاية الكاملة لذوي الإعاقة، كما لو كان السليم الصحيح مكانهم، تحقيقاً لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(١)] وقال عليه الصلاة والسلام: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[(٢)].

ومن الآداب الشرعية أن المسلم إذا رأى معاقاً ممن ابتلاهم الله تعالى بأي نوع من أنواع البلاء أن يدعو لنفسه أولاً كما جاء في الحديث الشريف، فيقول: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به»[(٣)]، ثم يدعو الله تعالى له بالشفاء فيكسب الأجر لنفسه، ولعل الله يستجيب دعاءه، أو يخفف عن المصاب المبتلى، أو يمنحه الرضى والصبر، فيكون ذلك مساعداً له على الشفاء.

---

(١) هذا الحديث أخرجه االبخاري ١٤/١ رقم/١٣، ومسلم ١٦/٢ رقم/٤٥.

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد ٢٧٤/٢.

(٣) هذا الحديث أخرجه الترمذي ص ٥٤٣ رقم/٣٤٣١ ، وابن ماجه ص ٤١٧ رقم/٣٨٩٢.

وأشرنا في المقدمة أن كل إنسان في الحياة مبتلى ومصاب في جانب من حياته، وفي آخر عمره، فمنهم من يرد إلى أرذل العمر من العجز والخرف وفقدان بعض الحواس، لذلك يجب أن يسابق الإنسان الزمن للاستفادة من نعم الله الكثيرة عليه، قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وشبابك قبل هرمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك»[(١)] فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايعرفها إلا المرضى وذوو الإعاقة ولذلك يبادر الإنسان للدعاء في امتاعه بالنعم والقوى الكاملة قبل أن يتعرض لبلاء أو ابتلاء قائلاً: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا»[(٢)].

◈ خاتمة: الواقع والأمل:

إن كثيراً من الدول في البلاد العربية والإسلامية تقدم رعاية ممتازة لذوي الإعاقة، وتفتح لهم المدارس الخاصة، وتؤمن الأجهزة المناسبة لكل فئة، وتسعى لتأمين العمل المناسب لبعضهم، كالطباعة للكفيف، وأجهزة الحاسوب، والأجهزة الطبية.

ولكن ذلك **على درجات متفاوتة** حسب الفئات، **وبنسب مختلفة** من بلد إلى آخر والأمل أن ينال المرضى وذوو الإعاقة رعاية كاملة وشاملة من الدولة والمؤسسات والأغنياء والأطباء والأهل، ومن جميع الناس، كل حسب

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً (الفتح الكبير ٢٠٣/١، فيض القدير ١٦/٢).

(٢) هذا الدعاء وارد في حديث طويل رواه الترمذي ص ٥٥١ رقم/٣٥٠٢، ورواه مالك بلفظ آخر، الموطأ ص ١٤٩٢ رقم/٢٨.

قدرته وطاقته واختصاصه وما وهبه الله تعالى من خير ونعم، لأن المرضى والمعاقين أمانة في أعناقنا، ووديعة من الله تعالى عندنا، وهم في حد ذاتهم نوع من الابتلاء للأصحاء أنفسهم، ليرى الله تعالى مدى كفالتهم وإعالتهم والرحمة بهم والشفقة عليهم حتى يكونوا شاكرين للنعم عليهم، ويستحقوا الرحمة من الله لهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، والراحمون يرحمهم الرحمن.

وأخص هذا العصر الذي **يشهد التقدم والتطور والتقنيات الحديثة والفنية المتطورة**، فيجب تأمين جهاز لكل معاق لمد يد العون له، وإخراجه من حالة البؤس الراهنة، ومساعدته في تطوير نفسه، لترتفع معنوياته التي تساعده على الشفاء، والتأقلم مع الواقع، والانخراط في الحياة الاجتماعية كالزواج وتكوين أسرة تنقذ حياته، وما يؤمن له الكسب ومورد الرزق، وللقضاء على الفراغ القاتل في حياته، ومراعاة مشاعره وأحاسيسه، وتأليف الكتب الفقهية الخاصة والعامة في أحكام المعوقين، ليتعرفوا عليها، ويعملوا بها، ويكسبوا الأجر عليها، مع فتح المجال لهم بالمزيد من الثقافة والعلم ومتابعة الدراسة، وكثيراً مايكون أحدهم من المتفوقين دراسياً، حسب التدرج في التربية والتعليم وكسب الخبرات والمهارات، كما يجب الزيادة في الترجمة والإشارة في أجهزة الإعلام عامة، وفي المساجد والمحاضرات العامة، وفي كل مكان، وأخص توجيه المرضى والمعاقين لتلاوة القرآن الكريم سماعاً وقراءة وإشارة، وكذلك قراءة السنة النبوية والسيرة الشريفة، فإن في ذلك سلوى لهم، وشفاء لما في صدورهم وعقولهم وأجسامهم، وارتقاءَ روحياً بهم، وتعلماً لأحكام دينهم.

ونسأل الله العفو والعافية، والمعافاة الدائمة، والإعانة على عمل الخير ومساعدة الآخرين، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: الصيام ومرض السكري

الحمد لله رب العالمين الذي شرع الصيام لمصلحة الإنسان، والصلاة والسلام على رسول الله القائل: «صوموا تصحوا»[1] ورضي الله عن الآل والأصحاب أجمعين، وبعد:

فإن الصيام ركن من أركان الإسلام، وفريضة في رمضان، وهو فرض على كل مسلم بالغ عاقل صحيح، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ثم قال تعالى: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

◈ الصيام بين العزيمة والرخصة:

فالصيام في رمضان فرض على الجميع، وحكمه عزيمة، ولكن الله تعالى أباح للمريض والمسافر، والعاجز الشيخ الكبير، الفطر، وهذه رخصة، فإن كان المرض مؤقتاً، وطارئاً، فيتم قضاء الأيام التي أفطرها الشخص خلال السنة، وإن كان المرض دائماً، والضعف مستمراً، والعجز قائماً، فشرع الله الفدية بدلاً من الصيام، وهي تقديم الطعام لمسكين، وهو وجبة عن كل يوم، أو إعطاء المسكين قيمة الطعام.

وإن تحديد المرض، وبيان حقيقته، هو من اختصاص الأطباء أولاً، وبما يقدره المريض نفسه ثانياً فيما يتحمله أو يعجز عنه، وإن الإفطار، ثم القضاء،

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (٣٨٠/٢) ورواه الطبراني، وأبو نعيم في الطب (كشف الخفا ٥٣٩/١ رقم ١٤٥٥، ٤٢/٢ رقم ١٦٣١) وأوله «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا».

أو الفدية كلها رخصة، وفيها أجر، لقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[1].

◈ ضوابط رخصة الإفطار في رمضان:

ورد النص القرآني بالمرض، والعجز، والسفر لإباحة الفطر في رمضان.

والعاجز: هو الذي لا يقدر على الصوم بحال كالشيخ الكبير الذي يجهده الصوم، وتلحقه المشقة الشديدة، وهذا يشمل المريض الذي لا يرجى شفاؤه، ويجهده الصوم، فلا يجب عليهما الصوم، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وتجب عليهما الفدية عن كل يوم مد من طعام، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الشيخ الكبير يطعم عن كل يوم مسكيناً»[2] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «من أدركه الكبر فلم يستطع صوم رمضان فعليه لكل يوم مد من قمح»[3] وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا ضعفت عن الصوم أطعم عن كل يوم مداً» وأن أنس ابن مالك رضي الله عنه «ضعف عن الصوم عاماً قبل وفاته فأفطر وأطعم»[4].

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد ٧١/٢، ١٠٨، ١٥٨/٤، والبزار بإسناد حسن، والطبراني، وابن حبان وصححه، والبيهقي (الترغيب والترهيب ١٣٥/٢، فيض القدير ٢٩٢/٢).

(٢) هذا الأثر رواه البخاري ١٦٣٨/٤ كتاب التفسير، باب قوله: «أياماً معدودات» والبيهقي ٢٧١/٤.

(٣) هذا الأثر أخرجه البيهقي ٢٧١/٤.

(٤) مرض السكري والصيام ص ٣، بحث للدكتور أحمد علي مشعل- رئيس الأطباء في المستشفى الإسلامي- عمان- الأردن.

والمريض يشمل صاحب العلة الذي يخاف زيادتها إن صام، أو يرجو البرء منها إن لم يصم فيجوز له الإفطار في رمضان، فإذا برىء بعد ذلك وجب عليه القضاء، لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وكذلك إذا أصبح المسلم صائماً، وهو صحيح، ثم مرض واضطر للإفطار، فيجوز له الإفطار للضرورة[(١)] **والضابط في ذلك كله** الأخذ برأي الطبيب المختص الثقة، وما يقدره المريض وما يحتمله من مشقة أو حرج.

◈ مرض السكري:

ينتج **مرض السكري** عن فقدان هرمون الأنسولين الذي تفرزه خلايا خاصة في البنكرياس، أو عن قلة كمية هذا الهرمون، أو قلة استجابة الجسم له في كثير من الحالات[(٢)].

ويؤثر **هرمون الأنسولين** تأثيراً كبيراً في الفاعلية الأساسية لعمليات الاستقلاب والتعامل مع الغذاء بشكل عام، ومع السكر بشكل خاص، لإنتاج الطاقة اللازمة للجسم، ولبناء الأنسجة المختلفة، ويؤدي فقدانه الكمي أو النوعي إلى **تراكم السكر في الدم** بدرجات لم تتعود عليها أنسجة الجسم، مما يتسبب في **إحداث اختلالات** عديدة قد تظهر على المدى القريب أو البعيد[(٣)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مرض السكري والصيام ص ٣، الصيام ومرض السكري، للدكتور عبد النبي العطار في مجلة الصحة والطب، العدد ٤٦٢ الأحد ٢٠٠٧/٩/٣٠م ص٥٠.

(٣) مرض السكري والصيام ص ٦.

◈ أنواع مرض السكري:

مرض السكري عدة أنواع تختلف عن بعضها البعض اختلافا كبيرا في الأسباب وطرق العلاج وأهمها أربعة: السكري من النوع الأول ويتعرض صاحبه لنوبات هبوط متكررة وعدم انتظام السكر مع التأثير على وظائف الكلى وشرايين القلب، ويعالج بحقن الأنسولين، وإن عدم أخذ المريض لهذه الإبر قد يشكل خطراً على حياته، وهذا لا يسمح له بالصيام خوفاً من صعود أو هبوط السكر فجأة، وهناك استثناءات لهذه الفئة المصابة بالسكري من النوع الأول كالأشخاص الذين يستخدمون مضخة للأنسولين، ثم السكري من النوع الثاني، وهم الذين يعتمد غذاؤهم على النظام الغذائي فقط، وهم أقل عرضة للمضاعفات، ثم سكري الحمل، ثم أنواع أخرى بسبب أمراض البنكرياس، أو الاختلالات الهرمونية في الغدد النخامية والكظرية، والسكري الناتج عن بعض الأدوية كارتفاع الضغط الشرياني[١]، ومن علامات مرض السكري العطش وكثرة التبول، والضعف والإعياء ونقص الوزن، وآلام في البطن والقيء في بعض الحالات واختلال الإبصار الناتج عن تأثير السكر على تحدب عدسة العين، وقد لا يشعر بذلك المريض في حالات ارتفاع السكر المحدود أو المتوسط، ولا ينتج عنه الأعراض السابقة حتى يكتشف صدفة[٢].

◈ أعراض مرض السكري ودواؤه:

أهم الأعراض التي يشعر بها المريض عند انخفاض السكر في الدم وقبل

---

(١) مرض السكري والصيام ص ٧.

(٢) المهذب للشيرازي ٥٨٩/٢، فتح القدير ٧٩/٢، بداية المجتهد ٥٧٥/٢، ٥٧٨، البيان ٤٦٦/٣، الروض المربع ص ٢٢٨ الفقه الإسلامي وأدلته ١٦٩٩/٢.

حدوث الغيبوبة هي: الصداع، القلق، الشحوب، العصبية والاضطراب الزائد، وزيادة إفراز العرق، وسرعة ضربات القلب والشعور بها، والجوع، والتقلصات في البطن، والرعدة أو الرجفة، والاضطراب في الرؤية، ولدى حدوث أي من هذه الأعراض فيجب على المريض تناول مقدار كاف من مادة حلوة (٥-١٥ غرام من السكر أو مايشابه مفعوله من الحلوى أو العصير أو غيره)[١] فإن كان صائماً اضطر للإفطار بسبب المرض.

ويتناول مريض السكري دواء لمعالجة المرض، ويكون هذا الدواء إما حبوباً (كبسولات) وإما حقناً لمادة الأنسولين، وتهدف إلى تحفيز خلايا الجسم المنتجة للأنسولين في البنكرياس، وقد يكون مريض السكري مصاباً بأمراض مصاحبة أخرى، ولها تأثير على حالته ومعالجته.

◈ مراجعة مريض السكري للطبيب:

يجب على مريض السكري أن يراجع الطبيب المختص قبل شهر رمضان لمعرفة تأثير الصيام على حالته الصحية، ولتقدير نمط العلاج، وإمكان الجمع بينه وبين الصيام طوال النهار، أو عدم إمكان ذلك، ولمعرفة مدى الحاجة إلى الدواء والطعام خلال النهار، وإمكان إعطاء الدواء على وجبتين عند الإفطار بعد غروب الشمس، وقبل السحور أي قبل طلوع الفجر والإمساك وأذان الصبح.

حكم صيام مريض السكري:

١- إذا كان مرض السكري خفيفاً، ويحتاج إلى مجرد الدواء بالحبوب أو بالأنسولين، ولا يحتاج المريض بعده للطعام، وأذن الطبيب له بالصيام، فيكون الحكم **وجوب الصيام** في رمضان لفضله وثوابه وأنه عزيمة،

(١) الصيام ومرض السكري، الدكتور عبد النبي العطار، مجلة الصحة والطب ص ٥١.

ولا حرج فيه، مع مشاركة المسلمين فضائل رمضان.

فإن **اضطر** في أحد الأيام للطعام لتناول الدواء بعد الأنسولين **فيجوز له الإفطار**، ثم يقضي هذا اليوم بعد رمضان.

وقال الحنفية والشافعية: إن المرض عامة يبيح الفطر، وقال الحنابلة: يسن الفطر حالة المرض ويكره الصوم، وفصل المالكية ذلك حسب حالات المرض، واتفق الجميع على وجوب الفطر عند الاضطرار، أو عند الضرر(١).

٢- إذا كان مريض السكري يحتاج إلى تناول الدواء، بأخذ الحبوب في الفم، ونصح الطبيب بإمكان توزيع الدواء على وجبتين بعد الإفطار وقبيل السحور، ولا يؤثر ذلك على مرضه وصحته **فيجب عليه الصيام، إلا إذا اضطر فيفطر** ويقضي، ولا يعرض نفسه للخطر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وإن الدين يسر، ولا حرج فيه وشرع الله الرخصة.

٣- إذا كان مرض السكري شديداً من النوع الأول، ويحتاج المريض لتناول الدواء حتماً في نهار رمضان، **فيجوز له الإفطار**، وهذا في العادة يكون مستمراً في رمضان وغيره، ولا يستطيع الصيام نهائياً، **فلا صيام له**، خوفاً من تعريض نفسه للهلاك، وإن الله تعالى رخص في ذلك، ومنع التعرض للحرج وشدة المشقة، وتجب عليه **الفدية بإطعام مسكين** عن كل يوم يفطره، ويجوز له دفع الفدية يومياً، ويجوز جمع عدة أيام لإعطائها لعدة مساكين، أو لمسكين مع عائلته، ويجوز له تأخير الفدية إلى نهاية رمضان،

(١) المرجع السابق.

ولكن كلما أسرع في إخراجها فهو أفضل لضمان براءة الذمة، مع التذكير بأن لا يشدد على نفسه، وأن الإفطار يصبح واجباً عند تأكد الضرر والمشقة، لأن حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان، فالدين يسر، والله غفور رحيم، وحكيم عليم.

٤- إن كان مرض السكري من النوع الثاني، وهو يشكل نحو ٩٠% من مرض السكري، ويعالج صاحبه بالأقراص أو بأبر الأنسولين مع الأقراص، أو بأبر الأنسولين فقط، فهذا الصنف يختلف إمكانية صومهم باختلاف العلاج الذي يتلقونه، وحسب إرشادات الطبيب، وقوة تحملهم، وقدرتهم على الصيام.

فإذا كانوا يتناولون الأقراص، فالصيام يفيدهم، ويمكنهم أن يتناولوا قرصاً قبل الإمساك، وقرصاً بعد الإفطار، بشرط ألا يكونوا مصابين بأمراض أخرى تعيق الصيام عندهم، وتؤدي إلى مضاعفات تضر بصحتهم إن صاموا، ولا بد لهم من استشارة الطبيب.

أما من يعالج بأبرة الأنسولين مرة واحدة في اليوم، فبإمكانه الصيام بعد استشارة الطبيب أيضاً.

أما من يتعاطى إبرتين أو ثلاثة من الأنسولين يومياً فلا يسمح لهم بالصيام خوفاً على صحتهم، وتعرضهم لارتفاع السكري وهبوطه المفاجىء، وحاجتهم لتناول الغذاء اللازم.

٥- في جميع الحالات يجوز لمريض السكري في حالة **حدوث أعراض معينة لهبوط السكري** أثناء الصيام كالرجفة أو التعرق أو الدوخة، أو عدم القدرة على التركيز، أو خفقان القلب أو الإحساس بالجوع **فيجب عليه**

الإفطار فوراً دون تأخير حتى لو كان موعد الإفطار قريباً، فقد يزداد هبوط السكر لديه إذا تأخر ويدخل في غيبوبة[1].

٦- إن مريض السكري إذا قرر الصيام فينصحه الأطباء بتأخير وجبة السحور إلى ما قبل الفجر والإكثار من شرب الماء أثناء الليل لتجنب الجفاف، والإقلال من النشاط الجسماني خلال فترة ما بعد الظهر لتجنب الانخفاض الحاد للسكر في الدم، وعدم الانتظار لموعد الإفطار عند الشعور بأعراض انخفاض السكر في الدم، والمبادرة إلى تناول شيء من السكر[2].

ونسأل الله تعالى العفو والعافية، ونعمة الصحة، والشفاء من الأمراض، وقبول الصيام والعبادة وحسن الخاتمة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الصيام ومرض السكري، الدكتور عبد النبي العطار، مجلة الصحة والطب ص ٥١.

(٢) المرجع السابق.

ملحق: المجلات الثقافية الشهرية لنشر المقالات

م	اسم المجلة	عنوان المجلة
١	الإبصار	الرباط، المغرب
٢	أحوال	دبي، الإمارات
٣	الاقتصاد الإسلامي	دبي، الإمارات
٤	الإخاء	جامعة الشارقة، الشارقة
٥	الأمة	الدوحة، قطر
٦	الأمة الوسط	الرباط، المغرب
٧	الأمن	وزارة الداخلية، الرياض، السعودية
٨	الجامعية	جامعة الشارقة، الشارقة
٩	الجهاد	الكويت
١٠	الرباط	الموصل، العراق
١١	رابطة العالم الإسلامي	مكة المكرمة، السعودية
١٢	رسائل من نور	عمان- الأردن
١٣	الرسالة الإسلامية	بغداد
١٤	الشقائق	الشارقة، الإمارات
١٥	صدى الإيمان	بيروت، لبنان
١٦	الضياء	دبي، الإمارات
١٧	الفتح	الشارقة، الإمارات

١٨	القانون	جامعة الشارقة، الشارقة (كلية القانون)
١٩	المسجد	رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة
٢٠	المستثمرون إسلاميا	الكويت
٢١	المسيرة	دبي، الإمارات
٢٢	من عبق الجامعة	كلية الشريعة، جامعة الشارقة، الشارقة
٢٣	منار الإسلام	أبو ظبي، الإمارات
٢٤	المنبر الجامعي	جامعة الشارقة، الشارقة (+جمعية الشريعة للطالبات)
٢٥	منبر الداعيات	بيروت، لبنان
٢٦	الميزان	وزارة العدل، أبو ظبي، الإمارات
٢٧	نهج الإسلام	دمشق، سورية
٢٨	النور	الكويت
٢٩	هدي الإسلام	عمان، الأردن
٣٠	الهوية	الكويت
٣١	الوعي الإسلامي	الكويت

الفهرس

الفصل السادس عشر: فتاوى شرعية

الفصل السابع عشر: الخُطب

الفصل الثامن عشر: المحاضرات

الفصل التاسع عشر: حوارات في المجلات

الفصل العشرون: مقالات في مناسبات

الفصل الحادي والعشرون: مقالات في المساجد والأماكن

الفصل الثاني والعشرون: مقالات في قضايا طبية